الجامعـــــة الأردنية
كلية الدراسات العليا

ظاهرة التحدّي
في الشعر الجاهلي

عميد كلية الدراسات العليا

إعداد

فدوى عزت سليمان الضبلي

إشراف

الأستاذ الدكتور نصرت عبدالرحمن

قدمت هذه الرسالة إستكمالا لمتطلبات نيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

كانون الأول ١٩٩٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٩٩٦/١٢/٢٣ وأجيزت

أعضاء لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور نصرت عبدالرحمن مشرفاً .....

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي عضواً .....

الأستاذ الدكتور فواز طوقان عضواً .....

الدكتور عبدالحميد المعيني عضواً .....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى والدي -رحمه الله- الذي وجهني منذ نعومة أظفاري إلى محبة العلم وطلبه

وإلى والدتي -رحمها الله- التي علمتني الدأب والمثابرة والتفاني.

علهما يقران عينا في مرقدهما، إذ أحقق لهما الآن أمنية عزيزة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وعرفان

أزجي أوفر الشكر وأبلغ التقدير والعرفان للأستاذ الدكتور نصرت عبدالرحمن الذي تفضل بالإشراف على هذه الدراسة، وتابعها بالقراءة والتدقيق والتصويب، مبديا من الإرشادات والتوجيهات ما كان له أبعد الأثر في إنجاز فصولها.

وأقدم الشكر الجزيل للأساتذة الكرام: الدكتور هاشم ياغي، والدكتور فواز طوقان، والدكتور عبدالحميد المعيني لتفضلهم بقبول مناقشتي، راجية أن تكون ملاحظاتهم وتعقيباتهم حافزاً لي لانتهاج طريق العلم القويم والالتزام به.

ولايفوتني أن أعبر عن شكري وامتناني لاساتذتي في قسم اللغة العربية، ولتلك الأيدي الكريمة التي امتدت الي بالعون والمساعدة والمؤازرة طوال رحلتي مع هذه الدراسة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
شكر وعرفان	د
فهرسة الموضوعات	هـ
مقدمة	
تمهيد: مفهوم التحدي في اللغة	
الفصل الأول : بواعث التحدي عند شعراء الجاهلية	٧-٢٩
١. الشاعر وبواعث التحدي في إطارها العام	٧
٢. الطبيعة والتحدي	٩
أ- الطبيعة الصامتة	٢٢
ب- الطبيعة المتحركة الحية	٢٢
الفصل الثاني: البواعث الإجتماعية والتحدي	٣١-٤٨
النظام الاجتماعي	٣١
١. المعمار الإجتماعي للقبيلة	٣٢
١. الصرحاء	٣٢
٢. الموالي	٣٥
٣. الرقيق	٣٩
٤. سيد القبيلة	٤١
٢. العلاقات القبلية	٤٣
الفصل الثالث: البواعث الاقتصادية للتحدي	٥٠-٨٠
١. الوضع الاقتصادي في القبلية	٥٠
٢. الثروة الحيوانية	٥١
٣. الثروة الزراعية	٥٧
٤. الثروة التجارية	٦٢
٥. الثروة الحربية	٧٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة
الفصل الرابع: تحدي الطبيعة في الشعر الجاهلي	٨٢-١٢٥
١. تحدي جدب الديار	٨٢
أ- الثواء مظهر للتحدي	٨٢
ب- الترحل أو الظعن والتحدي	٨٦
جـ- البذل والعطاء والتحدي	٩٤
٢. رحلة الشاعر	١٠٧
الفصل الخامس: التحدي الاجتماعي في الشعر الجاهلي	١٢٧-١٥٦
الشاعر والقبيلة	١٢٧
١. المتع ولذات العيش	١٢٩
٢. الرفض والتمرد	١٣٤
٣. الهجاء	١٣٨
٤. التهديد والوعيد	١٤١
٥. المنافرة	١٤٥
٦. طلب الثأر وإدراكه	١٤٩
الفصل السادس: التحدي الاقتصادي في الشعر الجاهلي	١٥٨-١٧٩
١. الصعلكة والتحدي	١٥٨
٢. الحروب والغزوات والغارات	١٧٠
الفصل السابع: التحدي السياسي في الشعر الجاهلي	١٨١-٢٠٣
١. الشاعر والسلطة القبلية	١٨١
٢. الشاعر والسلطة الخارجية	١٨٥
٣. الشاعر والسلطة الاجنبية	١٩٣
أ- الروم	١٩٣
ب- الفرس	١٩٤
جـ- الأحباش	١٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن: ثلاثة شعراء متحدين	٢٠٥
١. عمرو بن كلثوم	٢٠٥-٢٢٠
مظاهر التحدي لدى الشاعر	٢٠٧
أ. الغارة والحروب	٢٠٧
ب. الهجاء	٢٢
جـ. التهديد والوعيد	٢١٤
٢. طرفة بن العبد	٢٢١-٢٣٨
مظاهر التحدي عند الشاعر	٢٢٤
أ. هجاء الأقارب	٢٢٤
ب. هجاء الخصوم	٢٢٨
جـ. هجاء الملوك	٢٢٨
د. الإغراق في المتع	٢٣٢
هـ. الجرأة على الموت	٢٣٥
٣. عروة بن الورد	٢٣٩-٢٥٣
مظاهر التحدي لدى الشاعر	٢٤٠
أ. التصعلك	٢٤٠
ب. الغارة والغزو	٢٤٣
ج. الترحل	٢٤٥
د. الإباء والرفض	٢٤٧
هـ. الهجاء والتهديد والوعيد	٢٤٩
الخاتمة	٢٥٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص باللغة العربية

ظاهرة التحدي في الشعر الجاهلي

إعداد

فدوى عزت الحنبلي

إشراف

أ. د. نصرت عبدالرحمن

هذه دراسة تفسيرية وصفية تحليلية تتناول بالتفسير والوصف والتحليل ظاهرة التحدّي في الشعر الجاهلي، وتهدف إلى إضافة جديد لصورة الإنسان الجاهلي وإثراء هذه الصورة.

وتتكون الدراسة من تمهيد يبحث في المفهوم اللغوي للتحدّي تليه ثمانية فصول، سبعة منها تتناول بواعث التحدي ومظاهره، ويختص الفصل الثامن بالحديث عن ثلاثة من الشعراء المتحدّين، وتنتهي الدراسة بخاتمة تتضمن أهم ما توصل إليه البحث من نتائج. فأما الفصول الثلاثة الأولى فقد سلّطت الأضواء وبالترتيب على البواعث الطبيعية والاجتماعية ثم الاقتصادية. واهتمت الفصول الأربعة التالية بالشاعر وتحدّي الطبيعة، ثم الشاعر والتحدي الاجتماعي، وتلاه الشاعر والتحدي الاقتصادي واخيراً الشاعر والتحدي السياسي. وفي كل ذلك بينت أهم مظاهر هذا التحدي كما بينها الشعر الجاهلي. وفي الفصل الثامن تحدثت عن عمرو بن كلثوم ممثلاً للتحدي السياسي، وعن طرفة بن العبد ممثلاً للتحدي الاجتماعي وعن عروة بن الورد ممثلاً للتحدي الاقتصادي، وذلك في إطار مما ورد في أشعارهم.

وخلصت من ذلك كله إلى:قلّة دوران لفظة التحدي على الألسن في عصر ما قبل الإسلام، والدليل على ذلك عدم ورودها باستثناء لفظة (حديا) التي وردت في الشعر الجاهلي، وفي بيت واحد فقط وفي قصيدة عمرو بن كلثوم. وأن التحدي سمة الإنسان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجاهلي في الغالب، وان الاستفزاز والاثارة يجلبان هذه السمة. وأن محيط هذا الإنسان وبيئته وحياته بمختلف ابعادها تحفل بالتحديات التي كانت كثيراً ما تلقى استجابة سريعة ومؤثرة. وأخيراً أن الشعر الجاهلي قد رصد هذه الظاهرة وجلاها على انها فطرية. وتنبع من الذات، وقد تكون فردية في توجهها أو جماعية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يشكل التحدي في الشعر الجاهلي، ظاهرة لها عمومها وحضورها. وقد استرعت هذه الظاهرة انتباهي منذ أمد بعيد، كنت أعكف فيه على قراءة الشعر الجاهلي، ومحاورته، ثم استظهار ما يروق لي منه عامة، ومن المعلقات خاصة.

ومع الوقت، أخذت هذه الظاهرة تستهويني، ولربما بسبب من وقوعي فيها على تعبير يمت إلى واقع حياتي ذاتي. فكان أن استحوذت علي فكرة تناولها بالدراسة والتحليل، لكشف أبعادها، وتجلية دورها في الحياة العربية في عصر ما قبل الإسلام.

ولأسباب كثيرة، ظل هذا الأمر فكرة تستكن في الذهن، دون تطبيق، إلى أن أتاحت لي الظروف أن أتقدم ببحث لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي. فعاودني هاجس الظاهرة، وعولت على جعلها موضوع هذا البحث.

وقد رأى الاستاذ المشرف، حين توجهت إليه للاستئناس برأيه أن الموضوع على شيء من الجدة، وأنه جدير بالبحث والدراسة.

فكان أن تطورت الفكرة لتصبح دراسة لـ "ظاهرة التحدي في الشعر الجاهلي" وهي دراسة وصفية تحليلية، تتناول بالوصف والتحليل والتفسير تلك الظاهرة.

وقد تبدت لي هذه الظاهرة عامة وتستغرق جل الشعر الجاهلي، فآثرت أن اقف منها عند أهم الأبعاد وأبرز الجوانب، بحيث يمثل فيها التحدي مثولا مقنعا. ورأيت أن أجعل البحث في ثمانية فصول، مسبوقة بتمهيد قصير. وخصصت الفصول الثلاثة الأولى، للبحث في أسباب الظاهرة أو بواعثها. والأربعة التالية للحديث عن الشاعر وتحديه في المناحي الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وجعلت الفصل الثامن للتعريف بثلاثة من الشعراء المتحدين. وأنهيت البحث بخاتمة تلخص ما توصلت إليه من نتائج.

فأما التمهيد فيبحث في المفهوم اللغوي للتحدي، وقد اعتمدت فيه أمهات المعاجم العربية القديمة، وجملة من المعاجم الحديثة، وكذلك أبرز معاجم اللغة الانجليزية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلم الفصل الأول بالبواعث الطبيعية للتحدي، ومنها ما يمت إلى الطبيعة الصامتة بما هي عليه من توبوغرافيا متغيرة، وعناصر جوية متقلبة، وعوامل مناخية قاسية، وما يتصل بالطبيعة الحية من زواحف قاتلة، ومن ضوار مفترسة، وحيوان بري.

ويعالج الفصل الثاني، البواعث الاجتماعية، كما أفرزها المعار الاجتماعي بفوارقه الطبقية، والنظام القبلي بعصبيته، والدستور الجاهلي العرفي الرجراج، وما جره ذلك كله من إحساس بالظلم والضيم والهوان.

ويعرض الفصل الثالث للبواعث الاقتصادية، المنبعثة من اختلال التوازن الاقتصادي في المجتمع الجاهلي وسوء التوزيع في كل من الثروة الحيوانية، والثروة الزراعية والثروة التجارية، ثم الثروة الحربية؛ وما نتج عنهما من تكون طبقة الاقلية من الأغنياء الأثرياء، وطبقة الأكثرية من الفقراء والمعوزين الذين استفزهم وضعهم المادي السيء وحرمانهم مما ينعم به الأغنياء.

ويتناول الفصل الرابع الشاعر في مواجهته لتحديات الطبيعة وتصديه لها وتغلبه عليها، سواء أكان ذلك في مواجهته لتحدي الجدب بالاقامة أو الثواء أو البذل والعطاء، أم لتحديات مشاق الطريق، وقسوة المناخ، وعتو العناصر الجوية، وهو في رحلته إلى غايته.

ويتحدث الفصل الخامس عن الشاعر في تحديه الاجتماعي، فيقف عند أهم مظاهر هذا التحدي مثل الإغراق في المتع وملذات العيش، والرفض والتمرد، وكذلك الهجاء والمنافرة والتهديد والوعيد، والأخذ بالثأر.

ويعنى الفصل السادس بإظهار موقف الشاعر من التحدي الاقتصادي، فيجليه في توجهه الصعلكة والتصعلك من ناحية، وفي الحروب والغزوات والغارات من ناحية أخرى، مبينا الهدف المادي من هذين التوجهين، وهو كسب أسباب الرزق أو جني ثروة أو زيادتها.

ويكشف الفصل السابع عن أبعاد التحدي السياسي للشاعر، كما يبدو في موقفه من السلطة القبلية، والسلطة الخارجية، ثم السلطة الاجنبية، هذا الموقف الجانح للرفض والعصيان، والتمرد، والفتك، ثم الثورة من وجهيها: الفردي والجماعي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتوخى الفصل الثامن –والأخير– بالبحث، ثلاثة من الشعراء الجاهليين المتحدين، ويمثلون ومن خلال أخبارهم وأشعارهم، ثلاث فئات من مجتمعهم هي: فئة السادة الأغنياء، وفئة ميسوري الحال وليسوا بسادة، ثم فئة العوام والفقراء منهم بوجه مخصوص. كما يجلون المواقف المتحدية من المناحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الحياة العربية.

ولما كان الشعر محور البحث وهدفه الأول، فقد انصب اهتمامي على استقراء نصوصه الواردة في دواوين الشعراء الجاهليين، ومجموعاتهم الشعرية، والمختار منه في كتب الادب واللغة والأخبار، متحرية الموثق منها، وصولا إلى عرض صورة واضحة لظاهرة التحدي. ولادراك هذه الغاية عمدت إلى محاورة شريحة كبيرة من شعراء الجاهلية على اختلاف القبائل ومواقع الديار.

وإلى جانب ذلك، فقد اطلعت على عدد من المصادر والمراجع التاريخية، مما يمت إلى هذا البحث، وعلى العديد من الدراسات الحديثة حول الأدب الجاهلي، بما تشمله من رسائل وأبحاث جامعية.

ورجعت إلى بعض من الدراسات النفسية والاجتماعية ذات العلاقة، وقد أفدت مما اطلعت عليه، ورجعت إليه، فائدة لاتنكر. إذ فتحت لي من خلاله مغاليق بعض جوانب موضوع البحث، وتكشف ما عمي من أبعاده.

بيد أن المعين الرئيس الذي نهلت منه المعلومات لهذه الدراسة، هو النصوص الشعرية ذاتها، ولا أخفي أن استنطاق هذه النصوص بهدف تجلية مواطن التحدي فيها، كان على قدر كبير من الصعوبة، إذ أن الظاهرة لاتبدو فيها صريحة ظاهرة للعيان، وإنما تلمح من خلال الاستشفاف والاستبطان. ولا أدعي أني أحطت بجميع جوانب ما تناولته من الظاهرة، التي هي واسعة كما الحياة، متشعبة تشعب دروبها وطرائقها؛ فهذا أمر يتعذر إنجازه مع تحديد المساحة الزمنية، وتقييد عامل الوقت. ولكن، ومع الجهد المبذول يبقى الأمل في أن أكون قد حققت الغاية.

والله من وراء القصد، وهو ولي التوفيق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمهيد

مفهوم التحدي في اللغة

١ – في المعاجم العربية القديمة:

يشير ابن دريد إلى معنى لفظة (التحدّي) في معرض شرحه لما تعنيه كلمة (الحديّا) فيقول "الحدّيا من التحدّي،وهو التعرّض، يقال : تحدّى فلان لفلان إذا تعرّض له بالشرّ، وحُدَيّا الناس أي أتعرّض لهم وأتحدّاهم"(١) .

فالتحدّي عند ابن دريد يتضمن عنصراً سلبياً وهو التعرّض بالشرّ للبشر وهذا المعنى يسقطه الأزهري إذ يقول مفصّلا بعض الشيء "الحديّا من التحدّي، يقال فلان يتحدّى فلانا أي يباريه وينازعه الغلبة، تقول أنا حديّاك بهذا الأمر، أي ابرز لي وجارني.

حـُدَيّـا الناس كلّهمُ جميعاً لتغلب في الخطوب الأولينا

"الحادي المتعمّد للشيء، يقال حداه وتحدّاه وتحرّاه بمعنى واحد. ومنه قول مجاهد: كنت أتحدّى القراء، فأقرأ، أي أتعمّد... وهو حُدّيا الناس أي يتحدّاهم ويتعمدّهم"(٢) .

ويتابع ابن فارس الأزهري في النص على أن معنى المباراة وتنازع الغلبة من معاني التحدّي فيقول "وفلان يتحدّى فلانا إذا كان يباريه وينازعه الغلبة يقال: "حُديّا الناس كلهم جميعاً"(٣) .

ويذهب إلى أن معنى التحدّي متفرّع من معنى الحداء؛ "يقال حدوته على كذا أي سقته وبعثته عليه، ويقال للشمال حدواء لأنها تحدو السحاب أي تسوقه. وقولهم فلان يتحدّى فلانا إذا كان يباريه وينازعه الغلبة، وهو من هذا الأصل، لأنه إذا فعل ذلك فكأنّه يحدوه على الأمر. يقال أنا حُديّاك لهذا الأمر، أي ابرز لي فيه، قال عمرو بن كلثوم:

---

(١) جمهرة اللغة، مادة حد– وا– ي.

(٢) تهذيب اللغة، مادة حدا.

(٣) مجمل اللغة، مادة حدو.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"حُدَيّا الناس كلّهم جميعاً[٤] .

وأمّا الجوهري فإنه يتناول باختصار معنى التحدّي فيقول "وتحدّيت فلانا إذا باريته في فعل ونازعته الغلبة، يُقال أنا حُديّاك أي ابرز لي وحدك. قال عمرو بن كلثوم

حـــُدَيّـــا الناس كلّهمُ جميعاً مقارعة بنيهم عن بنينا[٥]

وفي أساس البلاغة يرد أيضا التحدّي بمعنى المباراة ومنازعة الغلبة، ولكن هذا المفهوم تتسع دائرته لتشمل الفعل والقول: "وتحدّى أقرانه إذا باراهم ونازعهم الغلبة، وتحدّى رسول -ﷺ- العرب بالقرآن، وتحدّى صاحبه القراءة والصراع لينظر أيهما أقرأ وأصرع، وأصله في الحداء، يتبارى فيه الحاديان، أي معارضك، قال:

أنا حُديّا كل من يمشي بظهر العَفْر[٦]

ويجمل صاحب لسان العرب المعاني السابقة مثبتاً أسماء المصادر التي اعتمدها لذلك على النحو الآتي "أبو عمرو: الحادي المتعمّد للشيء، يقال حداه وتحدّاه وتحرّاه بمعنى واحد، قال ومنه قول مجاهد: كنت أتحدّى القرّاء فأقرأ أي أتعمّدهم وهو حديا الناس: أي يتحدّاهم ويتعمدّهم.

"الجوهري: تحدّيت فلانا إذا باريته في فعل ونازعته الغلبة، ابن سيده: وتحدّى الرجل تعمّده، وتحدّاه: باراه ونازعه الغلبة وهي الحدّيا، وأنا حُدّياك في هذا الأمر، أي ابرز لي فيه، قال عمرو بن كلثوم

حـــُدَيّـــا الناس كلّهمُ جميعاً مقارعة بنيـــهم عن بنينا

"وفي التهذيب، تقول: أنا حُديّاك بهذا الأمر أي ابرز لي وحدك وجارني وأنشد:

حـــُدَيّـــا الناس كلّهمُ جميعاً لتغلب في الخطوب الأولينا[٧]

ويضيف الفيومي إلى ما سبق معنى، يحفل الشعر الجاهلي كثيراً بالتعبير عنه، ألا وهو الفخر أو التفاخر. يقول: "وتحدّيت الناس القرآن طلبت إظهار ما عندهم ليعرف أيّنا

---

(٤) معجم مقاييس اللغة، مادة حدا.

(٥) الصحاح، مادة حدا.ويلاحظ هنا أن الشاهد قد أثبت كما ورد في المعلقة. انظر شرح القصائد السبع: ص ٣٩٩.

(٦) أساس البلاغة، مادة حدو. والعَفْر أو العَفَرُ: التراب أو ظاهره. انظر لسان العرب مادة عفر.

(٧) لسان العرب، مادة حدا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقرأ، وهو في المعنى مثل قول الشخص -الذي يفاخر الناس بقومِهِ- هاتوا قوماً مثل قومي، أو مثل واحد منهم"(٨) .

وأمّا في القاموس المحيط فإن لفظة التحدّي تأتي تحت مادة (حَدَي) وضمن شرح معنى الحُديا. فـ "حَدي بالمكان - كرضي - حَدَىً: لزمه فلم يبرح، وحُدَيّ كسميّ اسم. وأحدى تعمّد شيئا كتحدّاه، والحُديّا بالضم وفتح الدال: المنازعة والمباراة وقد تحدّى، ومن الناس واحدهم، وأنا حُدَيّاك: ابرز لي وحدك"(٩) .

ويتابع الزبيدي من سبقه من اللغويين العرب في شرح معنى التحدي فيقول: "أحدى: إذا تعمّد شيئاً كتحدّاه، وقال ابو عمرو: الحادي، المتعمّد الشيء، يقال حداه وتحدّاه وتحرّاه بمعنى واحد. الحُديّا: المنازعة والمباراة، وقد تحدّى إذا باراه ونازعه الغلبة؛ ومنه تحدّي رسول الله -ﷺ- العرب بالقرآن. وتحدّى صاحبه القراءة والصراع، لينظر أيهما أقرأ وأصرع". ثم يستشهد بقول عمرو بن كلثوم الشهير(١٠) .

والآن وبعد هذا العرض، لعلّه من المناسب أن نورد بعضاً من الملاحظات التي تبدّت حول مفهوم التحدّي لدى اللغويين العرب.

فأولاً: هناك ارتباط واضح بين لفظتي التحدّي والحُديّا من حيث المعنى.

وثانياً: قلة دوران هاتين اللفظتين على الألسن، إذ إن الشواهد عليهما تكاد تقتصر على بيت شعر لعمرو بن كلثوم، وليس هناك أي شاهد عليهما من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة أو كتب الأمثال.

وثالثاً: تواتر معنى بعينه في غير معجم مثل:

(١) المباراة وتنازع الغلبة. (٢) التعمّد والقصد.

---

(٨) المصباح المنير، مادة حدو.

(٩) القاموس المحيط، مادة حدي.

(١٠) تاج العروس، مادة حدو.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(٣) الدعوة للمبارزة أو المواجهة الفرديّة. (٤) الصراع.

ثم تفرّد بعض المعاجم بمعنى كما في "جمهرة اللغة"، حين يورد ما يشير إلى التعرّض للناس بالشرّ. وفي "معجم مقاييس اللغة" إذ يجعل الحداء هو الأصل الذي تفرّع منه مفهوم التحدّي. وكذلك في "المصباح المنير" الذي يربط بين التحدّي والتفاخر أو التباهي.

وأخيراً: إنّ هذا التحدّي بمختلف معانيه يقتصر على المواجهة البشرية، سواء أكانت بالكلمة أو بالحركة، ولا يتعدّاها إلى ما في الكون من عناصر غير بشرية، مرئية أو غير مرئية، الأمر الذي لاينسجم وما يستخلص، من دراسة النصوص الشعريّة الجاهلية.

٢ – في المعاجم العربية الحديثة:

تكاد هذه المعاجم لاتخرج –في شرحها لمعنى التحدّي– عن الإطار الذي رسمته المعاجم القديمة(١١) . بمعنى أنها لاتضيف شيئاً أو تقدّم معنى ينسجم وواقع الحياة المعاصرة، مما يدعو إلى التساؤل: ألم يطرأ –حتى وقتنا هذا– أيّ تطوّر على الاستعمال اللغوي لكلمة التحدّي، أو مدلولاتها؟

٣ – في المعاجم الأجنبية:

هنا تتسع الدائرة لتحيط بمعانٍ أعمّ وأشمل مما جاء في المعاجم العربية، فمن هذه المعاني "الرفض Denial"(١٢) ، و"المطالبة بالاهتمام أو الإعجاب Claim Attention and admiration"(١٣) و"الدعوة إلى مباراة او مبارزة "Invitation to contest or duel (١٤)، و"المقاومة علنا أو بجرأة Resist boldly or openly"(١٥) ، و"التعرّض بالاحتقار أو السخرية Set at nought"(١٦)، و"الاتّهام أو الادعاء ضد خصم To accuse of" (١٧)، ،

---

(١١) انظر مثلاً: المعجم الوسيط ١/ ١٦٢، ولغة العرب ١: ٢٧٢، والمعجم الوجيز ص: ١٤٠ والصحاح في اللغة والعلوم ص : ٢٤٤، ورخيط المحيط: ص ١٥٥.

(١٢) The New Oxford Illustrated Dictionary, V.I. P. 271.

(١٣) Ibid.

(١٤) Ibid.

(١٥) Ibid, V.I. P. 440.

(١٦) Ibid.

(١٧) The Oxford English Dictionary V.2, P. 254.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"والمجاسرة To dare"[١٨] ، وتوجيه دعوة تتضمن –في معظم الأحيان– تهديداً أو إثارة أو تحريضاً "A summons often threatening, provacating, stimutaling or inciting"[١٩] ثم "شيء أو أمر يُسعى ويُكدح من أجل تحقيقه أو الحصول عليه Something that is striven for"[٢٠] .

على أن من معاني التحدّي (Challenge) ما يتكرر وروده في أكثر من معجم مثل "الدعوة للنزاع أو المحاكمة Calling to account"[٢١]، و"الدعوة للقتال أو المشاجرة أو المبارزة Summons to fight , or duel"[٢٢] .

وبمقارنة هذا بما ورد في المعاجم العربية، نلمس تقارباً في المفهوم فيما يتعلق بالنزاع والقتال والصراع، أو التعرّض بالشر، وكذلك فيما يوحي بالتعمّد والقصد، أي بماله علاقة بالسلوك أو التفاعل الإنساني في مواقف المواجهة.

ونخلص من ذلك كلّه إلى أن هذا المفهوم يتضمن شيئا من معاني القوّة والجرأة، ومن القدرة على التحرّك المؤثر، وعلى المواجهة الفاعلة، وأن التحدّي ظاهرة فطريّة نابعة من الذات، قد تكون فرديّة في توجهها، وقد تكون جماعية، ولكنها غير محدّدة أو مقيّدة بزمان أو مكان.

---

(١٨) Ibid.

(١٩) Webster`s Third New International Dictionary, V.2 P, 371

(٢٠) لعلّ هذا المعنى هو الأكثر ارتباطاً بالحياة المعاصرة، ولعلّه المقصود أيضا في وقتنا الراهن، أني وحيثما ترد لفظة التحدّي Ibid.

(٢١) The Oxford English Dictionary, V.2 P.254. The New Oxford Illustrated, V.I, P. 271.

(٢٢) The Oxford English Dictionary, V.2, P. 254. The New Oxford Illustrated Dictionary,V.I, P. 271, Websters New International Dictionary, V.2, P. 371.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

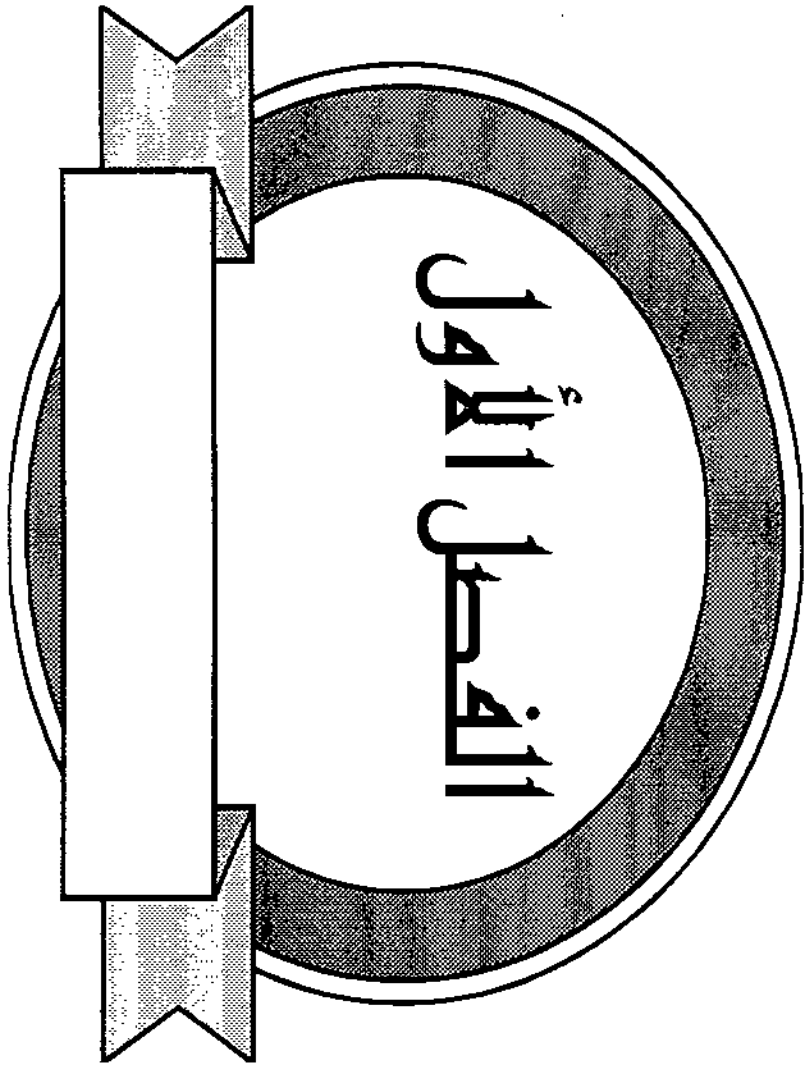

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

بواعث التحدّي عند شعراء الجاهلية

يبدو أن الشاعر العربي كان على وعي بمعظم ما أوردته المعاجم القديمة والحديثة من معانٍ للتحدي، إذ انّ كمّا من القصائد والمقطعات الشعريّة في العصر الجاهلي تعبر عن ذلك إمّا من خلال وصف لموقف أو عرض لمناسبة، أو سرد لحادثة. بيد أنّ هذا التعبير ينحو منحى الايحاء والتلميح، ولا يلجأ ألى اللفظ المباشر الصريح، ولا غرو فإن الإيحاء والتلميح والغموض من سمات التعبير الظاهرة في الشعر الجاهلي.

فكثيراً ما يعمد هذا الشعر إلى عدم الإفصاح بجلاء عن تجربة صاحبه، وإنما يضمن ذلك في موضوع خارجي ينطوي على دلالة داخلية يجسد فيها معاناة الشاعر وتأرجحه بين اليأس والأمل، القوة والضعف، الإباء والخضوع، الرفض والاستكانة، إلى غيرها من جدليات تملأ نفس الشاعر وتدفع به إمّا إلى الرضوخ والاستسلام أو التحدّي والتمرّد، وما الإباء أو الرفض أو التحدّي إلاّ من مظاهر الشجاعة والجرأة. وقد عرف العربي قاطن البادية بالشجاعة وشدّة البأس وعدم الرضوخ أو الاستكانة[٢٣] . ولعلّ أبين تعبير عن التحدّي ما ورد في قول عمرو بن كلثوم:

حــُدَيّــا الناس كلّهمُ جميعاً مقارعةً بنيهم عن بنينا[٢٤]

ولكن لمَ هذا التحدّي، وما مثيراته؟ وما مبررات الاستجابة له؟

لاريب في أن التحدّي في صيحة عمرو بن كلثوم موجه للإنسان فقط، مستهدفاً إياه في مجال المنازعة والمقارعة والغلبة، وصحيح أن شاعرنا يكاد ينفرد بهذا التعبير الصريح الجليّ، إلاّ أن ذلك -فيما أرى- لايعني التفرّد في المواقف أو الدوافع أو التوجهات، فما عمرو إلاّ فرد في المجتمع العربي القديم الذي فرض عليه محيطه وبيئته

---

(٢٣) انظر مقدمة إبن خلدون: ص ١٢٥.

(٢٤) الديوان: ص ٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نمط حياة معيناً؛ وزوّده بصفات عقلية، ومظاهر سلوكية، تتشابه أحياناً[٢٥] ، وقد تختلف أحياناً بتأثير عوامل دخيلة.

والمحيط والبيئة –هنا– هما الجزيرة العربية عامّة، وباديتها أو صحراؤها الشاسعة خاصة، لقد كان قدر العربي ان يوجد في "هذا الصقع المجدب حيث ينمو الإنسان شديداً عنيفاً، وحيث لايكاد ينمو نبات"[٢٦] حيث الشح في موارد الحياة، والقسوة في الطبيعة والغموض في المعالم، وحيث يهدد عبور المفازات والمجاهل حياة الإنسان والحيوان على حدّ سواء.

أرضٌ توارثها شَعوبُ فكلٌ من حلّها محروبُ[٢٧]

وهي جميعها أمور تشكّل تحديّات مصيرية جمّة. وقد وجد العربي نفسه في مواجهة هذه التحدّيات، واستوعب جسامتها وانعكاساتها الخطيرة على مسيرته الحياتية، وعلى مصيره، فنهض لمجابهتها تحدوه غريزة حب الحياة؛ وميل جريء فطري للدفاع عن النفس، والصراع من أجل البقاء. وهو في ذلك كله مدرك أن في تغلبه على تلك التحدّيات تحقيقا لما ينشده ويتوق إليه من توفر عناصر الأمن الفردي، والأمن الإجتماعي، والأمن الاقتصادي، وقد كان يفتقر في أحوال كثيرة لهذا الأمن لأسباب تتعلق بالبيئة الطبيعية، وبالنظم الاجتماعية، وبالظروف الاقتصادية.

وسنحاول الوقوف عند تلك الأسباب في الصفحات القادمة.

---

(٢٥) أسس السلوك الإنساني: ص ٤٦.

(٢٦) قصة الحضارة، م ١٢، ٢: ٣٠٩.

(٢٧) ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٢٠. والشَعوب: المنية. ومحروب: مسلوب أو ذهب ماله.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٢-

الطبيعة والتحدي

أ. الطبيعة الصامتة:

الجزيرة العربية هي شبه جزيرة عظيمة الاتساع تزيد مساحتها على ثلاثة ملايين كيلومتر مربع[٢٨] ، وبالمقارنة مع غيرها من أشباه الجزر يتضح أنها أكبر مساحة من شبه جزيرة الهند، أو ما يعادل ثمانية أضعاف الجزر البريطانية، أو ربع أوروبا، أو ثلث الولايات المتحدة[٢٩] .

وقد أطلق مُؤرخو العرب وجغرافيوهم اسم "الجزيرة" على بلادهم "لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها. وذلك أن الفرات القافل من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين، ثم انحطّ على الجزيرة وسواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتدّ الى عبدان"[٣٠] وعلى هذا فإنهم عدّوا بادية الشام وسواد العراق جزءا من جزيرتهم التي وصفت بأنها "صقع مجدب" كما مرّ معنا.

ولكن هل حقاً أن بلاد العرب جميعها "صقع مجدب"؟ الواقع أن القسم الأكبر منها كذلك، إلا أن هناك مناطق خصب متنوعة تتوزع على أجزاء معينة من الجزيرة، في غربها، وشرقها؛ وفي جنوبها حيث أرض اليمن الخصبة. ومناطق النماء والخصب هذه تكون حيث توجد الحرار[٣١] أو بعضها على الأقل، وفي الوديان، وعلى سطح الدارات[٣٢] .

٤٧٩٢٧٧

وفي بلاد العرب حرّات كثيرة تتناثر في ما بين شرقي حوران والحجاز. ويشتمل الحجاز على عدد كبير منها، وقسم منها خصب التربة لوفرة المياه في تلك البقاع.

---

(٢٨) حضارة العرب، ص: ٧٢.

(٢٩) تاريخ العرب مطوّل ١: ١٦.

(٣٠) صفة جزيرة العرب: ص ١.

(٣١) الحرار أو الحرّات جمع الحرّة، وهي أرض ذات حجارة سود نخرات كأنها احترقت بالنار والحرّة من الأرض الصُلبة الغليظة التي ألبستها حجارة سود نخرة. انظر لسان العرب، مادة حرر.

(٣٢) الدّارة: كل أرض واسعة بين جبال وجمعها دور ودارات، وهي تعدّ من بطون الأرض المنبتة، أو هي الجوبة الواسعة تحفّها الجبال. انظر لسان العرب، مادة دور.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالمدينة المنوّرة مثلا تكاد تحيط بها الحرار الخصبة من كل جانب؛ إضافة إلى تميزها بغزارة المياه وعذوبتها، هذه المياه التي وفرّت الريّ والأجواء المناسبة لنمو أشجار النخيل في بساتينها وأطمها، حتى في الأزمان التي يشحّ فيها ماء المطر.

وترد في الشعر الجاهلي إشارات إلى حرّات الحجاز يقول أحيحة بن الجلاح:

هُمُّ نكّبوكَ عن الطريـ ـقِ فبتَّ تركَبُ كُلَّ لابَهْ[٣٣]

ويقول في إشارة إلى غزارة المياه التي تغني عن ماء المطر في ريّ الزرع والنخيل:

إذا جُمادَى مَنَعتْ قَطرَها زان جناني عِطنٌ مُغضِفُ[٣٤]

يَزخَرُ في أقطارِه مُغْدِقٌ بِحافَتَيه الشُوعُ والغَريفُ[٣٥]

أما القسم الآخر من الحرّات فهو قاحل مجدب، جوه جاف، وتربته سوداء كئيبة المنظر، وأرضه وعرة تتزاحم فيها الحجارة البازلتية ذات الحواف الحادة والمسننة وهذه الحجارة كثيراً ما تكون غير راسخة، فإذا تقلقت -لأمر ما- في موضعها، انزلقت وحطّت في المعابر والممرات لتجعل من اجتياز الحرّات أمراً فيه الكثير من العناء والمشقة والمتاعب النفسية والجسدية، وخاصة في أيام الصيف حين يصبح الحجر جمراً يتقد بفعل اشعة الشمس المتوهجة[٣٦] .

تدلّتْ عليه الشَمْسُ حتى كأنّها مِنَ الحَرِّ ترمي بالسكينةِ قُورُها[٣٧]

---

(٣٣) الديوان: ص ٦٣/٦٤، واللابة: الحرة، ونكّبوك: نحوّك.

(٣٤) الديوان: ص ٦٨/٦٩، أغضف: كثر نعم والعطن: نخيله الراسخة في الماء الكثيرة "الحمل"، والمعنى إذا لم يكن المطر الذي به العشب يزين مواضع الناس فجناني تزين بالنخيل.

(٣٥) الشوع: شجر البان، والغريف: ضرب من الشجر أو نبات الجبل.

(٣٦) Arabia Deserta, Vol, P. 423 .

(٣٧) ديوان الأعشى: ص ٤٢٣، والقور: جمع قارة وهي الصخرة السوداء أو الأرض ذات الحجارة السود.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليست المعاناة مقصورة على فصل الصيف، بل إنها لتمتد حتى تشمل فصل الشتاء حين يحلّ ببرده القارس، ورياحه الصردة، وربما صقيعه الذي يسفع الوجوه ويجمد الأطراف، ويستوطن البيوت والمنازل. يقول طرفة:

وجاءَتْ بِصِرّادٍ كأنّ صقيعهُ خلالَ البيوتِ والمنازلِ كُرْسُفُ[٣٨]

إن مثل هذه الطبيعة الصارمة لتحيل الحياة في الحرّات إلى كم من الصعوبات والمشاق والتحديات التي لامفر للمرء من مواجهتها والتغلب عليها إذا أراد التشبث بالحياة أو تأمين عناصر البقاء.

على أن فئة من الشعراء الجاهليين حين يذكرون الحرّات لايصفون طبيعتها أو مناخها. إنهم يأتون على ذكرها في مواضع تتعلق بالصراع والقتال والتحدّي، فهذا عامر بن الطَفيل يقول مهدداً بشنّ حرب أو غارة تجتاح الجبل والحرّة:

فلأ بغينَكُمْ الملا وعُوارضاً ولأُوردنَ الخيلَ لابةَ ضرغَدِ[٣٩]

ويذكر بشر بن ابي خازم (الحرّة) في معرض حديثه عن نصرة القوم له في مواكب متتابعة :

وينصُرنا قومٌ غضابٌ عليكمُ متى ندعُهمْ إلى النصر يوماً يركبوا

بكل فَضاءٍ بين حَرّةِ ضارجٍ وخلٍ الى ماء القصيبة مَوْكِبُ[٤٠]

وأما في الحديث عن ضخامة الجيش الزاحف لمواجهة العدو فيقول النابغة:

يَؤُمُّ بربعيٍّ كأن زُهاءَهُ إذا هبطَ الصحراءَ حَرَّةُ راجلِ[٤١]

---

(٣٨) شرح الديوان: ص ١٨٨. والكرسف: القطن. لسان العرب، مادة كرسف.

(٣٩) انظر الديوان: ص ٥٥. والملا وعوراض:جبلان.

(٤٠) الديوان: ص ١٠.

(٤١) الديوان: ص ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن مناطق الخصب أيضاً، الدارات، إذ أن الدارة "لاتكون إلاّ من بطون الرمل المنبته"[٤٢] وهي من البقاع التي يستقر الماء تحت سطحها الرملي. والدارات كثيرة في الجزيرة العربية، ويرد ذكرها في الشعر الجاهلي إما مرتبطة بذكريات الشاعر العاطفية، كما في قول امرئ القيس:

الا رُبَّ يومٍ لك منهنّ صالحٍ ولا سيما يومٌ بدارةِ جُلجلِ[٤٣]

أو بوقوفه على الديار المقفرة من أهلها الذين هجروها إلى موضع آخر تطيب لهم الحياة فيه. يقول زهير بن أبي سلمى:

تربّص فإن تُقوِ المروراةُ منهمُ ودارتُها لاتُقوِ منهمْ إذا نَخَلْ[٤٤]

وقد تذكر بعض الدارات في قصائد تتحدث عن أيام أو معارك، أو غزوات وقعت احداثها في تلك الدارات. يقول الأفوه الأوديّ:

تركْنا الأزد يبرُقُ عارضاها على ثَجْرٍ فدارات النِّصابِ[٤٥]

ويقول متحدثا عمّا خلفته الحرب من أرامل وأيتام لكثرة القتلى:

تبكّيها الأرامِلُ بالمآلي بداراتِ الصفائِح والفَصيلِ[٤٦]

وأما الوديان، فهي في الغالب شعابٌ بين الجبال ترويها مياه السيول المنحدرة من الجبل أو ما اختزنته الأرض تحت سطحها من مياه، وبعض الوديان هو في الأصل مجاري مياه قد جفت في سنوات الجدب، ولكنها جميعاً ذات تربة خصبة، قادرة على انبات العشب والكلأ[٤٧] ، وحين تستقر بعض القبائل في هذه البقاع، تعمرها وتتخذها سكناً ومربعاً تحميه وتذود عنه الطامعين، والغزاة المتعطشين للماء، والمتلهفين على الزروع

---

(٤٢) المفصل١: ١٠٥.

(٤٣) الديوان: ص ١٠.

(٤٤) شرح الديوان: ص ١٠٠.

(٤٥) الديوان (ضمن الطرائف الأدبية): ص ٧٠.

(٤٦) نفسه: ص ٢٣. وانظر ايضاً قول الحصين بن الحمام المرّي في يوم (دارة موضوع)، المفضليات: ص ٦٤.

(٤٧) انظر: Arabia before Muhammad, pp. 5/7.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنماء. ومن هنا كانت هذه المرابع مسرحاً للنزاع والصراع والاقتتال[٤٨] . وفي اخبار العرب وأيامهم يرد -وعلى ألسنة شعرائهم- أسماء لتلك الوديان. ففي وادي الأحص - الذي جرت فيه بعض الوقائع مع بني بكر- يقول المهلهل بن ربيعة:

وادي الأحصّ لقد سقاكَ من العِدَى فيضُ الدُموع بأَهْلِهِ الدَعْسُ[٤٩]

وقد يذكر الشعراء أودية جرت فيها أحداث او مواجهات وتحديات خرجوا منها غالبين منتصرين، كما حدث في يوم الظعينة الذي انتصر فيه (ربيعة بن مكدّم) على مهاجميه في وادي الأخرم، فقال متباهياً بشجاعته وصموده وتحدّيه لمهاجميه:

إن كان يَنفَعُكِ اليقينُ فسائلي عني الظعينةَ يوم وادي الأخرمِ[٥٠]

ولكن مواطن الخصب لاتشكل إلا جزءاً يسيراً من جسم الجزيرة العربية، فسائر بلاد العرب صحارى وبعض من الهضاب والجبال[٥١] . ولعلّ أكبر الهضاب هي هضبة نجد، وهي أكثر أقاليم الجزيرة اتساعاً، وفيها عدّة جبال أهمها جبلا أجأ وسلمى أو ما يعرف بجبل شمّر.

وتتخلل الهضبة وديان ذات مياه موسمية مثل (وادي الرمّة) و(وادي حنيفة)[٥٢]، ولكن ما بين جبلي أجأ وسلمى قاحل لانبات فيه بوجه عام لكون تربته من الصوّان أو الصخر الرملي الذي لايساعد على نمو النبات البريّ[٥٣] .

---

(٤٨) المفصل ١: ١٥٣.

(٤٩) معجم ما استعجم: ١: ١١٨.

(٥٠) كتاب أيّام العرب ٢: ٢٩٨.

وانظر الأغاني، ١٦: ٣٢٠، وانظر أمالي القالي: ٢: ٢٧٢/٢٧٣.

(٥١) لايوجد في قلب الجزيرة أنهار، وربما كان ذلك أحد عوامل تكوّن تلك المساحات الداخلية الشاسعة من الصحراء، على أنه قد ورد ما يشير إلى نهر في اقليم البحرين في قول طرفة بن العبد:

"بُسُحقٌ يمتعها الصفا وسريهُ - عُمٌّ نواعمُ بينهن كروم.

(٥٢) الموسوعة البريطانية ١٣: ٨٦٩.

(٥٣) Arabia Deserta, Vol, P. 635 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجبلا أجأ وسلمى كانا قديماً موطن قبيلة طيء، ويرد ذكرهما كثيراً في الشعر الجاهلي ومنه قول لبيد بن ربيعة يصف كتيبة ضخمة للنعمان مشبهاً إياها بالجبلين وهضابهما:

كأركانِ سلمى إذ بَدَتْ أو كأنها هِضابُ أجأ إذ لاح فيه مُواسِلُ[٥٤]

وقول زيد بن مهلهل الطائي متحدثاً عن استعداد قومه للحرب بتجهيز الخيل القويّة السريعة وإحضارها من الجبلين:

جلبنا الخيلَ من أجأ وسَلمى تُخُبُّ عوابساً خَبَبَ الذّئابِ[٥٥]

وتحجز الجبال –وهي في معظمها جرداء– قلب الجزيرة عن البحر من جهات ثلاث، وأهمها سلسلة الجبال المتصلة الممتدة من العقبة شمالاً إلى اليمن جنوباً، بمحاذاة البحر الأحمر، وهي متفاوتة في العلو والارتفاع. فجبل السراة في الحجاز جبل شاهق يزيد ارتفاعه عن ثلاثة آلاف متر. وفي اليمن يتجاوز ارتفاع جبل حضور النبي أربعة آلاف متر، وفي فصل الشتاء قد تغطي الثلوج بعض القمم[٥٦]، والقمم نفسها حادة يصعب الوصول إليها، وسفوحها وعرة شديدة الانحدار، يصطرع فوقها البرد الشديد والرياح العاتية[٥٧] ، مما يجعل قطعها أو عبورها معاناة قاسية تتطلب جرأة وجلداً وثباتاً فمثل هذه الجبال والقمم:

تُهالُ العِقابُ أن تَمرّ بِرَيْده وترمي دُروعٌ دونَهُ بالأجادلِ[٥٨]

وعلى الرغم من وجود معابر في هذه الجبال أو ممرات متناثرة، إلا أنّ اجتيازها لايقل صعوبة ومشقة عن تخطي السفوح والقمم.

---

(٥٤) شرح الديوان: ص ٢٦٣.

(٥٥) ديوانه : ص ٣٥.

(٥٦) انظر تاريخ العرب مطوّل: ١: ١٦.

(٥٧) انظر قول ابي ذؤيب الهذلي في وصف جبل شاهق، ديوان الهذليين ١: ١٤٨.

(٥٨) ديوان الهذليين ١: ١٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحفل الشعر الجاهلي بأسماء الجبال، ويرد ذكر بعضها في الحديث عن عبور المفاوز وقدرة الشاعر على اختراق الجبال، وتحدّيه لصعوبة اجتياز الهضاب، ومن ذلك قول امرئ القيس:

فَجُزيتِ خيرَ جزاءِ ناقةَ واحدٍ ورَجعتِ سالمةَ القَرا بسلامِ

وكأنما بَدرٌ وصيلُ كتيفةٍ وكأنَما مِنْ عاقِلٍ أرْمامِ(٥٩)

ويرد ذكر الجبال أيضاً في حديث الحرب والغارة أو التحدّي والتفاخر بالمنعة والقوة.

فالحارث بن حلّزة مثلا يتحدّى أعداءه ويتوعدّهم بقوله:

فما يُنجيكُمْ منا شِبامٌ ولا قَطَنٌ ولا أهلُ الحَجُونِ(٦٠)

ويقول زيد بن مهلهل الخيل متباهياً بهزيمة الأعداء إثر انتصار قومه عليهم:

ونحنُ هَزمنَا جمعَكُمْ بِمُتالعٍ ففاءَ ولمْ يسلمْ على شَرِّ طائر

قتلنا غَنيًا يومَ سَفْحِ مُحَجَّرٍ مُجاهَرةً نفسي فِداءَ المُجاهرِ(٦١)

هذه الجبال المشمخرة الجرداء في معظمها "جَلَسٌ يزلُّ بها الخُطّاف والحَجَل"(٦٢)

ربّاءُ شَمّاءُ لايأوي لُقلَّتِها إلاّ السَحابُ وإلاّ الأَوْبُ والسَبَلُ(٦٣)

وقد شكلّت تحدياً كبيراً للصعاليك والشعراء من هذيل، فتباروا في المباهاة بقهر القمم، واتخاذها مراقب، يرقبون منها أعداءهم، ويترقبون صيدهم – يقول أبو كبير الهذلي:

ولقد رَبأتُ إذا الرجال تَواكَلُوا حَمَّ الظهيرةِ في اليَفاعِ الأَطولِ

---

(٥٩) الديوان: ص ١١٦.

(٦٠) الديوان: ص ٦٠.

(٦١) الديوان: ص ٦٩. وانظر في الموضوع نفسه ديوان أوس بن حجر: ص ٥٨، وديوان عبيد: ص ١٠٠.

(٦٢) انظر ديوان الهذليين ٢: ٣٦.

(٦٣) المصدر نفسه ٢: ٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في رأس مُشرِفَهِ القَذال كأنّما أطْرُ السحاب بها بياضُ المِجدَلِ

وعلوتُ مُرْتَبِئًا على مَرْهوبَةٍ حَصّاءَ ليس رقيبُها في مَثْمَلِ[٦٤]

ويقول تـأبّط شـراً متباهيـا بقوّتـه وصـبره وسـرعته فـي بلـوغ قمـة الجبـل الرقيقـة الحادّة:

وقُلّـةٍ كسنـانِ الـرمح بارزةٍ ضَحياتهٍ في شُهورِ الصيف مِحراقِ

بادرت قُنَتَها صحبي وماكسلوا حـتى نَميتُ إلـيها بعد إشراقِ[٦٥]

الصحراء:

تغطي الصحراء القسم الأكبر من سطح الجزيرة العربية، وهي مفازتـان: أولاهمـا ما يسمى "بصحراء الدهناء" وهي أراضٍ رملية شاسعة مترامية الأطـراف حمـراء اللـون تمتد من النفود شمالا إلـى حضرمـوت فـي الجنـوب[٦٦] وتتنـاثر فيهـا سلاسـل مـن التـلال الرملية ذات ارتفاعات متفاوتة، وهي من النوع المتحرك الذي تـذروه الريـاح وتنقلـه مـن مكان إلى مكان مغيرة معالم الأرض ومسالكها، فتغدو البقاع عمياء مقفرة لايتبيـن السـالك طريقه فيها[٦٧] ، فضلاً عن كونها جـرداء قاحلـة لانبـات فيهـا ولا مـاء، وقـد عرّيـت مـن معظم مظاهر الحياة لجفاف جوها وشح الماء فيها، ولخلوها من المراعي، ولكـثرة هبـوب العواصف الرملية عليها، هذه العواصف الهوجاء التـي تقـوي المعـالم وتغيّر الرسـم[٦٨] ، فهذه البقاع كما يصف عبيد بن الأبرص[٦٩] :

ومهمهٍ مُقْفِرِ الأعلامِ مُنَجرِدْ نائي المناهلِ جَدبِ القاعِ مُنزاحِ

---

(٦٤) المصدر نفسه ٢: ٩٦ حصاء: لانبات فيها. مثمل: حِفْظ أو ملجأ.(أطر السحاب: ما تعطّف من السحاب على الهضبة).

(٦٥) المفضليات: ص ٢٩/ ٣٠..

(٦٦) المفصل ١: ١٥٠.

(٦٧) ديوان الأعشى: ص ١٣٩.

(٦٨) ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٣٦.وانظر فيه ايضاً: ص ١٠٢، و١١٣.

(٦٩) الديوان: ص ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعرف المفـازة الثانيـة "بصحـراء النفـود" وتمتد علـى مسـاحات واسـعة مترامية الأطراف من الرمل الأبيـض أو الأحمـر "ميـل يفضـي إلـى أميـال[٧٠] " وتتخللها سلاسـل رملية متماوجة، وكثبان رملية ناعمة لينة متفاوتة في العلو، ولنعومـة هذه الرمـال ولينها يشق على المرء السير فيها، فيعاني من إمكانية اندثاره تحت الرمال[٧١] ، فلا يبعد والحال هذه أن "يخرس السفر[٧٢] " و"تحسر الركبان"[٧٣] .

والنفود جافة على وجه العموم، فمطرها قليل، وإن وجد الماء فهو شحيح كمـا فـي الدهناء، إلا أنه إذا أصاب المطر بعض نواحيها نبـت العشـب ونمـا، ولكـن لفـترة قصـيرة فحين تهب رياح السموم تقضي على كل نبت، وعلى مظـاهر الحيـاة، ولكنهـا تقصـر عن القضاء على إرادة الإنسان وقدرته على التحمل، وقدرته على التغلب على ما يواجهه من صعوبات وتحديات ولعلّ في قول أبي كبير الهذلي، مثلا واضحاً على ذلك[٧٤] :

ولقد صَبرتُ على السموم يَـكُنُني قَــرِدٌ علــى اللَيتَيْن غيرُ مُرَجَّلِ

صَدَيانَ أخذَى الطَرَفِ في مَلمُومَةٍ وكأنما السحاب بِها كَلَوْنِ الأَعْبَلِ

فالصحراء –إذن– امتداد شاسع من القفـر، مطمـوس المعـالم أحيانـاً، ولا علامـات تميز منافذه، ودروبـه ملتويـة ومحفوفـة بالأخطـار والمهـالك، فهـي "خـرق تهلـك الأرواح فيه"[٧٥] وهو أرض ديمومة "يحـار بهـا الهـادون[٧٦] " وهـو مضلّـة "يحـار بهـا قطاهـا"[٧٧] وتعمى مسالكها على السالكين، بل إنها غول لايجـرؤ علـى اقتحامهـا إلا القـوي الجـريء، لاالجبان الهيّابة.

---

(٧٠) ديوان الأعشى: ص ٥٣. وانظر تاريخ الإسلام السياسي ١: ٧.

(٧١) حضارة العرب: ص ٤٠/٤١.

(٧٢) ديوان الأعشى: ص ٥٣.

(٧٣) ديوان الهذليين ٢: ٢٨.

(٧٤) ديوان الهذليين ٢: ٩٨ . وانظر ديوان علقمة : ص ٤٣.

(٧٥) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٣٤٩ . وانظر ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٣٥.

(٧٦) ديوان الأسود بن يعفر: ص ٤١٩. وديوان عبيد بن الأبرص: ص ١١١.

(٧٧) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٢١. وانظر المفضليات: ص ٢٥٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصحراء مفازة واسعة الأرجاء، وقد يستوطن بعض بقاعها الحيوان والوحش فيجري بها كما يشاء، ولكنها بالنسبة لعابرها قفر موحش يبعث الرهبة والرعب في النفس، وخاصة في الليل حين يحول الظلام دون تبين موطئ لقدم، وحين تخلد المخلوقات إلى النوم فلا يسمع سوى صوت "الهام فيه مع الصدى"[٧٨] . وقد تعتسف الرياح حزن هذه "الفيفاة[٧٩] " أو "المومـاة[٨٠] " وسهلها، ويتردد في الأجواء أصداء عويلها، فيخيل للساري أنها أصوات مخلوقات غريبة غير مرئية أو أنها صخب الجن وعزيفهم[٨١] ".

وهي فلاة مقفرة تعز فيها موارد الحياة من مأكل ومشرب، وكثيراً ما لايجد فيها المسافر ما يقيم أوده، بل إن الإبل قد لاتتبلغ فيها إلا الاجترار واسترجاع ما في بطونها من طعام كما يقول الأعشى[٨٢] :

وفلاةٍ كأنها ظَهر تُرسٍ ... ليس إلاّ الرجيعُ فيها عَلاقُ

وعلى الرغم من هذا كلّه، فإننا لانجد الإنسان الجاهلي عاجزاً عن التحرك أو التصدّي لمواجهة قسوة الطبيعة، بل إنه ليشحذ همته ويستثير إرادته ليتغلب على الصعوبات والتحديات، التي لاتقتصر على الجدب وإنما تمتد إلى العوامل المؤثرة في هذا الجدب مثل المناخ والظواهر الجوية.

فمن المعروف أن مناخ الصحراء متطرّف في حرّه وفي برده. ففي الصيف يشتد الحرّ ولاسيما حين يمتع النهار، فتلتهب الصحراء وكأنما[٨٣] :

رَكَدتْ عليها يَومَها ... شمسٌ بِحَرٍّ شِهابها

حتى إذا ما أُوقِدَتْ ... فالجمرُ مثلُ تُرابها

---

(٧٨) انظر ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٢٨، وديوان الأعشى: ص ١٥٣. وشرح وديوان لبيد: ص ٦٦.

(٧٩) انظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٢١.

(٨٠) ديوان الأعشى : ص ٨٧ و ١٠٩ . وانظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٠٣.

(٨١) انظر ديوان المثقب العبدي: ص ٣١. وديوان معديكرب: ص ١٤٣، وديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٠٣.

(٨٢) ديوانه: ص ٢٦١.

(٨٣) ديوان الأعشى: ص ٣٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذ ذاك يصبح تحمّل لفح الحرّ من أشق الأمور وأوجعها. الشمس المتوهجة تحرق الأرض وتصلي الوجوه والأجساد وتنضج اللحم[٨٤] "ويأخذ السائر فيها كالصقع"[٨٥].

ومهما حاول السائر اتقاء لهيب الجو والرمل أو التخفيف من وطأته، فإنه لايستطيع لأن الجوّ[٨٦] :

حامٍ كأنّ أُوارَ النارِ شاملُهُ دونَ الثياب ورأسُ المرءِ مَعمومُ

وفي الهاجرة، ومع توقد الرمل، يخبّ السراب[٨٧] ويجري[٨٨] ويهيج[٨٩] ويتقد[٩٠] عبر الرمال كأنه ملاءة بيضاء [٩١] وتتلفع به الأكام ايضاً[٩٢] ، ويلهث عابر الصحراء خلفه ولكن عبثاً، إذ لاماء هناك يطفئ ظمأه. ولو عثر بعد طول عناء على شيء من الماء فلربما يكون "مياهاً ملحة بميت سوء"[٩٣] .

هذا إلى جانب جفاف الجو وافتقاره إلى الهواء الرطب. ولعل هذا الجفاف يرجع إلى خلو قلب الجزيرة العربيّة من الأنهار أو البحيرات، وإلى قلة سقوط المطر صيفاً أو شتاء، بل ندرته. وفي السنين التي ينحبس فيها المطر، يحلّ الجدب والمحل ويعز -كما ذكرنا آنفاً- المأكل والمشرب- فتحلّ المجاعة ويواجه أهل البوادي خطر الموت جوعاً[٩٤] إذا استسلموا لقدرهم ولم يواجهوا هذا التحدّي القاسي بعزم وإرادة وجرأة. من هنا كان الصراع على مواطن الخصب، وعلى موارد العيش، ويستوي في هذا الصراع الجائع والمتخم.

---

(٨٤) المفضليات: ص ١٩٣.

(٨٥) نفسه. وانظر في شدة الحرّ، ديوان الحارث بن حلّزة: ص ٥٦.

(٨٦) ديوان علقمة الفحل: ص ٤٣. وانظر ديوان الحارث بن حلزة: ص ٥٦.

(٨٧) ديوان الأعشى: ص ٥٥ و ٦٧و ١٢١و ٢٦٩.

(٨٨) ديوان المتلمس: ص ١٤١.

(٨٩) شرح ديوان علقمة الفحل: ص ٧٤ (الكتاب العربي).

(٩٠) شرح ديوان لبيد: ص ١٨.

(٩١) ديوان الهذليين ٢: ٢٨.

(٩٢) ديوان الأعشى: ص ٨٧ و ٣٠٥.

(٩٣) المفضليات: ص ٣١٦.

(٩٤) المفصل ١: ١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولايقلّ الحيوان والوحش -في هذه الأحوال- عن البشر توجهًا للصراع وإقبالا على الاقتتال، فهو صراع من أجل البقاء وإن كان ميدانه القفار المضلة كما يقول عَميرَةُ ابن جُعَل:

قِفارٌ مَروراةٌ يَحارُ بها القَطا يظلّ بها السبعانِ يُعتَرِكانِ[٩٥]

وحين ينحبس المطر انحباساً تاماً عاماً وشاملاً، تكون وطأته أقسى وأبلغ إذ تصبح الأرض كلها -سهلها ونجدها- قواء جدوباً ممحلة، مسنتة[٩٦] .

ويطلق العرب على سنوات الجدب أسماء متعددّة منها: تحوط[٩٧] ، والشهباء[٩٨] ، وكحل[٩٩] ،وسنة الجمود وحَجَرة[١٠٠] .

وإذا كان انحباس المطر يؤدي إلى الجدب، جالباً المعاناة للكائنات، وملحقاً الضرر بالأرض، فإن تدفقه لايقل فاعلية، فقد يهطل المطر بغزارة ومصحوباً بالرعد والبرق والريح العاصف، ويستمر هذا الجو المسبل الهاطل اياماً[١٠١] ، فيغمر العالية والسافلة، في سيل صاخب مدمّر، يجرف أمامه كل شيء، ولا يبقى على شيء:

فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بِمَحفَلِهِ والمُستَكِنُ كَمَنْ يمشي بِقِرواحِ[١٠٢]

وليس انحباس المطر أو تدفّقه بعنف وعتوَ، إلاّ لوناً من ألوان قسوة الطبيعة الصحراوية في فصل الشتاء. فكما في الحرّات، هناك البرد الشديد والقرّ وخاصّة في

---

(٩٥) المفضليات: ص ٢٥٩. والمروراة: التي لاتنبت شيئاً ولا ماء فيها.

(٩٦) صفة جزيرة العرب: ص ٢٧.

(٩٧) انظر ديوان أوس بن حجر: ص ٥٤.

(٩٨) انظر شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ١١٠. وانظر لسان العرب، مادة شهب.

(٩٩) انظر شرح ديوان عمرو بن قميئه: ص ٨٠ وما بعدها . وانظر كامل المبرّد ٢: ٦٣.

(١٠٠) انظر شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ١١٠.

(١٠١) انظر ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٩٧، وانظر فيه ايضا: ص ٢١ و ٣٥/٣٤ و ١٢٩. وديوان أوس بن حجر: ص ١٥/ ١٦. وديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٢. وديوان امرئ القيس: ص ٢٦/٢٤ و ١٤٥.

(١٠٢) ديوان عبيد بن الأبرص : ص ٥٧. والقِرواح: الأرض المستوية الظاهرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الليل، وهنالك الصقيع والصّراد، وكذلك الرياح التي تهيج ثلجاً "ينيخُ النيبَ بالجَعجاعِ"(١٠٣).

ومنها ريح الشمال التي تهب على بلاد العرب من شمال الأناضول عبر سوريا(١٠٤) ، وهي ريح "بليل حرجف"(١٠٥) تدّمر العشب، وتنشر الجدب، إنها "تسعٌ لها بعضاة الأرض تهزيز"(١٠٦) ولها لسع شديد قد يخفف من حدته التلفع والتدثر كما يقول أوس بن حجر:

وعزّت الشمألُ الرياحُ وقد أمسى كميغُ الفتاةِ مُلتَفِعا(١٠٧)

ولها هبوب يلُفّ الحيوان في مرتعه(١٠٨) ، فيسلبه طمأنينته وهدوءه ويفسد متعته، ولكنه لايذهب بمقاومة الراتع وتحدّيه وصموده.

وهناك "النكباء" وهي أنواع منها: نكباء الشمال والدبور الجافة التي تهلك المال وتحبس القطر(١٠٩) . وغالباً ما تأتي على شكل عاصفة هوجاء تتقاذف الإنسان وترعب الحيوان وتعتسف الشجر فـ "ترمي بيوت الحيّ بالورق السقاط"(١١٠) وتتسم بشدة البرد والقرّ، فهي "تكباء ليل من جمادى صرصر"(١١١) .

وقد تهبّ في الشتاء الجديب الريح الشرقية "الصبا" والريح الغربيّة "الدبور" وفي ذلك يقول أبو ذؤيب الهذلي(١١٢) :

---

(١٠٣) انظر المفضليات: ص ٦٢. والنيب: ساقي إناث الإبل، واحدها ناب. والجعجاع: موضع البروك.

(١٠٤) انظر كتاب الأنواء: ص ١٥٨. وبعض الشعراء الجاهلين يسمون ريح الشمال "بالشاميّة".

(١٠٥) انظر الأصمعيات: ص ١٤٢. وديوان عمرو بن قميئة: ص ٤٤. وديوان سلامة بن جندل: ص ٢٠. وديوان لبيد بن ربيعة: ص ١٦٦ و ٢٣٩. ديوان عنترة: ص ٧٧. وحرجف: الريح الباردة أو شديدة البرودة والهبوب.

(١٠٦) ديوان الهذليين.٢: ١٦، ونسع من أسماء الشمال. وانظر كامل المبرد: ٢: ٦٣.

(١٠٧) الديوان: ص ٥٤. وانظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٧٤.

(١٠٨) ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٥٤.

(١٠٩) لسان العرب، مادة نكب.

(١١٠) ديوان الهذليين ٢: ٢٢.

(١١١) شرح حماسة ابي تمام: ص ١٦٤٥. وانظر بلوغ الأرب ١: ٥٩.

(١١٢) ديوان الهذليين ١: ١٣٩ . وانظر كتاب الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب: ص ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا كان عامّ مانعُ القطر ريحُهُ صبا وشمالٌ قُرّةٌ ودَبورُ

غير أنّ الدبور وإن كانت تهب في الشتاءأحياناً إلاّ أنها في الغالب ريح من رياح القيظ[١١٣] ، لذا فإن نكباء الجنوب والدبور حارّة مهياف[١١٤] .

ولعلّ رياح السموم هي من أشدّ رياح الصيف قسوة وعنفاً وخطراً، فلدى هبوبها تكفهّر السماء وتتكدّر و"الشمس تضعف أشعتها فتصبح حمراء، والرمال الناعمة تملأ الجو والهواء، والرياح تثيرها فتغدو كالبحر المزبد الذي تحركّه العاصفة الهوجاء[١١٥] " وتلقى به في كل اتجاه، لافرق في ذلك بين المنبسط والمرتفع من الأرض، ولاشيء يحول دون لفحها وصليها، إنّ سطوتها لتصل إلى كل مكان حتى المرقبة الشماء.

لا يَستَظِلُّ أخوها وَهُوَ مُعتَجِرٌ لرَيْدِها من سَمومِ الصيفِ مُلتاحُ[١١٦]

وإذا كانت السّموم لاتهبُ إلا نهاراً، فإن لليل الصحراء رياحه الحارة وهي الحَرور التي هي في الليل كالسموم في النهار من حيث استيقاد الحرّ ولفحه، وقد تهب في النهار أحياناً[١١٧] .

ب. الطبيعة المتحرّكة الحيّة:

إذا كانت الطبيعة الصامتة قد شكّلت تحدّيا كبيراً للجاهلي، فإن الطبيعة المتحرّكة الحيّة قد وسّعت من دائرة التحدّي، لما انطوت عليه من خطر على الإنسان الجاهلي، كخطر الأفاعي والضواري من أسود وذئاب وضباع.

أما الأفاعي فكانت تنتشر بأعداد كبيرة في شتى مناطق الجزيرة، وكان انتشارها بكثرة في بقعة مأهولة، يهدّد حياة أهليها، ويلجئهم إلى الجلاء عنها حفاظاً على أرواحهم[١١٨] . ولم تكن حال المرتحل أو السابل بأفضل، إذ إنه -في أحيان كثيرة- كان

---

(١١٣) الأنواء: ص ١٦٢.

(١١٤) لسان العرب، مادة نكب.

(١١٥) حضارة العرب: ص ٤٢/٤١.

(١١٦) ديوان الهذليين ١: ٥٠ . وانظر شرح ديوان لبيد بن ربيعة: ص ١٠٢ و ١٢٦.

(١١٧) لسان العرب، مادة حرر.

(١١٨) كانت حرّة الأفاعي قرب مكة، منزلاً للناس فأجلتهم الأفاعي. معجم ما استعجم ٢: ٤٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عرضة لمهاجمة الصلال النضناضة[١١٩] ، التي إذا لسعته، أدّى ذلك إلى موته من الفور[١٢٠] ، أو إلى تشويه جسمه، مثلما حدث للشاعر ذي الإصبع العدواني حين نهشته حيّة في إبهام قدمه، فقطعها[١٢١] .

فالثعابين –ولاسيما السّامّ منها– من الزواحف المرعبة التي تتطلب مواجهتها جناناً ثابتاً، وجرأة، وسعة حيلة، وكذلك قوة جسديّة ومعنويّة. لذا فقد ارتبطت –شكلا ومظهراً وحركة– عند الجاهليين بالقوّة. يقول ثعلبة بن عمرو[١٢٢]

ولو كُنتُ في غُمدانَ يحرُسُ بابَهُ أراجيلٌ أحبوشٍ وأسودُ آلفُ[١٢٣]

إذا لاتتني حيث كُنتُ مَنيّتي يَخُبُّ بها هادٍ لإثري قائِفُ[١٢٤]

وبالقدرة على الفتك الذريع، حتى ليتمنى القوم التمكّن من تسخيرها لقتل أعدائهم:

فلو يَستطيعونَ دبّتْ لنا مَذاكي الأفاعي وأُطفالُها[١٢٥]

ومن هنا يورد الشاعر الجاهلي ذكرها في مجال التباهي بالقوّة والشجاعة الفائقة

يَرى الناسُ مَنّا جِلْدَ أسْوَدَ سالخٍ وفرْوَةَ ضِرغامٍ من الأُسْدِ ضيغَمِ[١٢٦]

---

(١١٩) النضناضة: التي تقتل إذا نهشت من ساعتها. لسان العرب، مادة نضض.

(١٢٠) ديوان النابغة: ص ٢١٢. والأغاني، ٢: ٥٢٢.

وانظر خبر القاسطي الذي نهشته حيّة فمات، في كامل المبرّد ١: ٩٨ . وخبر موت سامة بن لؤي، في السيرة النبوية ١: ٦٢.

(١٢١) الشعر والشعراء: ٥٩٧. والبرصان والعرجان والعميان: ص ٣١٦ (الحاشية).والأغاني ٣: ٨٥ (ثقافة). والمؤتلف والمختلف: ص ١٤٩. وذو الإصبع: هو حُرثان بن الحارث بن محرّث بن سيّار... من عَدوان.... من قيس عيلان.

(١٢٢) المفضليات: ص ٢٨٣.

(١٢٣) غُمدان: حصن منيع في اليمن. الأحبوش: الحبش. الأسود: العظيم من الحيات وفيه سواد، والجمع أساود. والأسود أخبث الحيات وأعظمها وانكاها وليس شيء من الحيات أجرأ منه وربما عارض الرفقة، ولاينجو سليمه. لسان العرب، مادة سود.

(١٢٤) قائف: الذي يتبع الآثار. لسان العرب، مادة قوف.

(١٢٥) ديوان النابغة الذبياني: ص ٢١ه والمذاكي: المسنّ. لسان العرب، مادة زكا.

(١٢٦) ديوان أوس بن حجر: ص ١٢٤. وسالخ: الأسود يسلخ جلده كل عام. ضيغم: الذي يعض. لسان العرب، مادة ضغم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو الاستفزاز والتحدّي:

متى تلقَوْا رِجالَ الأوس تَلْقَوْا لِبـاسَ أسـاودٍ وَجـلودَ نُمْرِ[١٢٧]

وأما الضواري فإن الإشارات إلى الأسد في الشعر الجاهلي كثيرة، وجلّها يرد في موضوع الفخر والمباهاة بالقوّة والشجاعة، وفي الرمز للجرأة والإقدام مما ينسب إلى قوم الشاعر أو إلى ممدوحه. فقوم أبي دؤاد الإيادي "شباب كأنهم أسد غيل"[١٢٨] وقوم موسى ابن جابر "ليوث لا تُرام"[١٢٩] وفتيان هرم بن سنان، والحارث بن عوف المرّي –ممدوحي زهير بن أبي سلمى– "أسودٌ ضاريات"[١٣٠] وهرم نفسه "كليث أبي شبلين يحمي عرينه"[١٣١].

وكما هو معروف فإن الأسد من الضواري التي قد تأتي على المرء سواء في المواجهة بينهما أم في غير المواجهة، فهذا عنترة بن شداد يقول مصوّرا جيوش أعدائه بعد انتهاء المعركة:

فيكون للأُسْدِ الضواري لحمُها ولِمَنْ صَحِبْنا خَيْلُها ودُروعُها[١٣٢]

كما يتحدث الأعشى عن أسد ضار اعتاد افتراس البشر، فغدا يهاجم الجمع الغفير بضراوة، ودون الواحد من الناس، وذاك استهانة واستخفافاً وتحدّياً، لايثنيه عن غايته نار أو سلاح، فيرعب الجمع ويشتتهم، ولكنّه يحقق هدفه بالفوز بغنيمة

يَدَعُ الوحِادَ من الرجا لِ ويعتمي جمعَ المحَافِلْ[١٣٣]

---

(١٢٧) ديوان قيس بن الخطيم: ص ١٨٣.

(١٢٨) الديوان: ص ٣٣٩. وانظر ديوان دريد بن الصمة: ص ١١١، والمفضليات: ص ١٤.

(١٢٩) شرح ديوان الحماسة ص: ٣٦٤، وانظر ديوان الأعشى: ص ٢٦٥، والمفضليات: ص ٣٥.

(١٣٠) شرح ديوان زهير: ص ١٠٣، وانظر فيه ايضا: ص ٥٤. والمفضليات: ص ٢٢.
وديوان بشر بن أبي خازم: ص ٣٨. وديوان طرفة: ص ١٣٧. وديوان أوس بن حجر: ص ٦. وديوان قيس بن الخطيم: ص ١٤٠.

(١٣١) شرح ديوان زهير: ص ٢٣٢.

(١٣٢) ديوان عنترة بن شداد: ص ٢١٣.

(١٣٣) ديوان الأعشى: ص ٣٩١، ويعتمي: يختار ويقصد. لسان العرب، مادة عمى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلم يسبقوه أن يلاقي رهينةً قليلُ المَسَاك عنده غيرَ مُفتدي[١٣٤]

والذئاب في بلاد العرب كثيرة الانتشار، ألف الشعراء رؤيتها وتتبعوا حركاتها "حتى سمّوا الذئاب باسم حركتها العُسل، وصوروها في حلكة الليل وهي تعسل على أطراف الماء تبحث عن فرائسها"[١٣٥] ووصفوها وهي تبحث عن الجثث أو وهي تنهش لحوم القتلى، قال عبدالمسيح بن عسلة[١٣٦] :

ومُستَلَبٍ مِنْ دِرْعهِ وسِلاحِهِ تركنا عليهِ الذئبَ يَنْهَسُ قائِما[١٣٧]

ومنه يمكن القول أنها لم تكن تشكّل تحدّيا كبيراً للعربي، بل ربما كان التحدّي متبادلا بينها وبين الكلاب التي كان يستخدمها في حراسة حيه أو بيته او غنمه، إذ أن الشعر يكشف لنا أنه كان ينشأ –أحياناً– نوع من المهادنة بين الإنسان والذئب تنطوي على شيء من التعاطف أو ما يمكن أن يوصف –تجاوزا– بالمشاركة الوجدانية[١٣٨] . وقد تمتد خيوط التعاطف وتتداخل لتنسج للذئب لوحة يبدو فيها كالضيف الواجب اكرامه ومسايرته، كما يعبّر عنه المرقش الأكبر بقوله[١٣٩] :

ولما أضأنا النارَ عند شِوائنا عَرانا عليها أَطْلَسُ اللونِ بائسُ[١٤٠]

نَبذْتُ إليه حُزَّةً من شوائِنا حياءً، وما فحشي على من أُجالِسُ[١٤١]

فآض بها جَذلانَ ينفُضُ رَأْسَهُ كما آبَ بالنَهبِ الكميُّ المُحالِسُ[١٤٢]

---

(١٣٤) المصدر نفسه: ص ٢٤١. والمساك: الاحتباس والثبات والاعتصام. لسان العرب، مادة مسك.

(١٣٥) الصورة الفنية: ص ٨٨.

(١٣٦) المفضليات: ص ٣٠٤.

(١٣٧) ينهس: يأخذ اللحم بمقدّم الأسنان، وينهش (بالشين) لغة فيها. لسان العرب، مادة نهس.

(١٣٨) انظر لامية العرب في ديوان الشنفرى: ص ٥٩. وانظر ديوان امرئ القيس: ص ٣٦٣/٣٦٤.

(١٣٩) المفضليات: ص ٢٢٦.

(١٤٠) عرانا: أتانا طالباً معروفنا، لسان العرب، مادة عرف أطلس اللون: الذئب.

(١٤١) حُزَة: قطعه. لسان العرب، مادة حزز.

(١٤٢) المحالس: الفارس الذي لايبرح مكانه في الحرب. لسان العرب، مادة حلس.
والكميّ: الشجاع الذي يكمي شجاعته، أي يسترها لوقت الحاجة. لسان العرب، مادة كمي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والضبع هاجس الجاهلي لمعرفته أن هدفها جسده في حياته وبعد مماتـه، فهـي مـن هواة نهش الجثث والأشلاء[١٤٣] ولديها ميل شديد لنبش القبـور[١٤٤] ، ولهـذا كـان الشـاعر العربي يفزع من الموت في العراء، بعيداً عن حيه، أو في ساحة القتال حيث يصبح لقمـة سائغة للضباع ولسباع الجوّ والأرض. يقول حبيب الأعلم[١٤٥] :

وخـشـيتُ وَقْـعَ ضَرِيبَةٍ قـد جُرِّبَتْ كُلَّ التجاربْ

فـأكـونُ صـَيـدَهُمُ بِهـا وأَصيرُ للضُبَعِ السواغِبْ[١٤٦]

جَـزَرا وللـطيرِ المُـرِ بَّةِ والـذئابِ وللثعالبْ[١٤٧]

ويتخيّل المرقّش الأكبر المصير المفزع لجسمه اذا مات وحيداً وبعيداً عن قومه فيقول[١٤٨] :

ذهب السباعُ بأنفِهِ فتركْنَهُ أعشى عليه بـالجبـالِ وَجَيْلا[١٤٩]

وكأنّما تَرِدُ السَباعُ بِشِلْوِهِ اذ غاب جَمْعُ بني ضُبَيْعَةَ، مُنهلا

على أنّ من الشعراء من استغل الصورة الرهيبة لممارسات الضبع، في شنّ حملـة نفسية يراد بها إضعاف روح الثبـات والمقاومـة لـدى الأعـداء، والحيلولـة دون الاستجابة الجريئة لدواعي الدفاع عن الشرف ولتلبية نداء الحمية والعصبية، دونمـا خـوف أو وجـل مما ستسفر عنه الحرب.

---

(١٤٣) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٢، وانظر الأصمعيات: ص ١١٩.

(١٤٤) الصورة الفنية: ص ٨٨.

(١٤٥) ديوان الهذليين ٢: ٧٩، وشرح الديوان ١: ٣١٤.

(١٤٦) السواغب: جمع ساغب أو ساغبة أي جائعة. لسان العرب، مادة سغب.

(١٤٧) جَزرا: قطعا من اللحم. لسان العرب، مادة جزر.

والمُربّة: المقيمة اللازمة به. لسان العرب، مادة ربب.

(١٤٨) المفضليات: ص ٢٢٢، والأعشى: الكثير الشعر.

(١٤٩) والجيل: الضبع. لسان العرب، مادة جأل.

والأعشى: الضبعان (مذكر الضبع) وقيل هو الضبع الكبير. لسان العرب، مادة عثا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن هذا القبيل قول بشر بن أبي خازم[١٥٠] :

فســـائِلْ عامراً وبني تميمٍ إذا العِقبانُ طارَتْ للوُقائـــعِ

فكم غادَرْنَ من كابٍ صريعٍ تُطيفُ بِشِلْوِهِ عُرْجُ الضبـــاعِ[١٥١]

وقول عمرو بن كلثوم[١٥٢]

تركناهُمُ صَرعَى لدى كُلِّ مَزْحَفٍ تَجرُّهُمُ عُرْجُ الضِباعِ بِمحفَلِ[١٥٣]

وفي قول عنترة بن شدّاد تصوير بالغ الهول مثير للفزع الممزوج بالتقزز[١٥٤]

وعَمراً وحَبّانا تَـركْنا بقفرَةٍ تعودُهما فيها الضَّباعُ الكوالِحُ[١٥٥]

يُجَرِّرْنَ هاما فَلقَتها رِماحُنا تُزَيِّلُ مِنْهُـــنَّ اللِّحَى والمسائِحُ[١٥٦]

وعند دريد بن الصمّة تتقاسم الضباع والذئاب (غنائم الحرب) اذ يقول[١٥٧] :

ردَّ سناهُمُ بالخيلِ حتى تَمَلأَّتْ عوافي الضباعِ والذئابِ السواغبُ[١٥٨]

وبالرغم من ذلك، فإن أيّام العرب وكتب وقائعها لتدلّل على قلة –ان لم يكن عدم– جدوى مثل هذه الحملة النفسية، فالجاهلي ابن الصحراء، الشديد العنيف الأبيّ، لم يكن ليرضخ تحت أي ظرف أو أمر يرى فيه انتقاصاً من كرامته أو عزة نفسه أو شجاعته.

---

(١٥٠) الديوان: ص ١١٠/١١١، وص ٢٢. وانظر ديوان عامر بن الطفيل: ص ١١٠، وشعر أبي دؤاد: ص ٣٢٣.

(١٥١) كابٍ: من كبا إذا سقط وانكبّ على وجهه. لسان العرب، مادة كبا.

(١٥٢) الديوان: ص ٥٦ (الكتاب العربي).

(١٥٣) محفَل: تجمع أو جمع. لسان العرب، مادة حفل.

(١٥٤) الديوان: ص ٥٣ (الشرق العربي).

(١٥٥) الكوالح: العابسة المكشرة عن أنيابها ضراوة وجوعا. لسان العرب، مادة كلح.

(١٥٦) المسائح: واحدتها مسيحة، وهي ما بين الصدغين. لسان العرب، مادة مسح.

(١٥٧) الديوان: ص ٢٩.

(١٥٨) العوافي أوالعافية: طلاّب الرزق من الإنس والدواب والطيّر. لسان العرب مادة عفا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الحيوان البرّي الذي يتكرر ذكره في الشعر الجاهلي، ثور الوحش، وبدرجة أقل، البقرة الوحشية[١٥٩]، وحمار الوحش[١٦٠] ، وهي لاتعدّ من الضواري، وبالتالي فإنها لاتكون خطراً يتهدد حياة الإنسان، ولربما كانت أقرب إلى أن تكون رافداً لموارد معيشته من وجوه عدّة.

إلاّ أنها كانت تمثل تحدّيا لشريحة من عرب الجزيرة، وهذه الشريحة تضم فئة الصيادين المترفين -بأفراسهم وغلمانهم- الذين اتخذوا من صيد هذه الوحوش لهواً وتسلية يتداخل فيهما التفضل والكرم[١٦١] .

كما تضم الصيادين الفقراء وكلابهم، وهؤلاء كانت الوحوش في عرفهم مورد رزق يؤمن لهم قوتهم وقت عيالهم[١٦٢] .

وفي الوقت نفسه كانت هي نفسها تواجه تحديات مصيرية من جانب الطبيعة الصامتة أو الطبيعة الحية، وربّما من الإثنتين معا وفي مجال مكاني واحد[١٦٣] .

ولعلّ من أوضح الأمثلة على ذلك ما نجده في قصة ثور الوحش التي تناولها كثير من شعراء الجاهلية.

ففي هذه القصة تشكل الطبيعة الصامتة تحديّا كبيراً للثور، يتمثل، خاصة، في عواملها الجويّة من برد قارس، ومطر غزير، وريح عاصفة، تجعله في شدّة ومعاناة قد تستمران طوال الليل:

---

(١٥٩) انظر مثلا شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ص: ٢٢٥ و ٢٧٣. وشرح ديوان لبيد بن ربيعة : ص ٦٦-٦٩ و ٣٠٧-٣١٢.

(١٦٠) انظر ديوان امرئ القيس: ص ١٨٠. وشرح ديوان لبيد بن ربيعة: ص ٢٨، ٨١. وديوان أوس بن حجر: ص ٦٧.

(١٦١) انظر ديوان امرئ القيس: ص ٢٢ و ٣٨/٣٧ و ١٦٠: ١٦٢ و ١٧٢-١٧٥. وانظر الروائع من الأدب الجاهلي ١: ١٨٧.

(١٦٢) انظر ديوان عمرو بن قميئة: ص ١٤٨-١٥٤.وديوان بشر بن أبي خازم: ص ٥٣/٥٢ و ٥٧/٥٦ و ٨٤ و ١٢٢/١٢١. وديوان أوس بن حجر ص ٤/٣ و ٤٣ و ٧٠-٧٢.

(١٦٣) انظر مذاهب وشخصيات: ص ٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَرَتْ عليه منَ الجوزاءِ سارِيةٌ تُزْجي الشَمالُ عليه جامِدَ البَـرَدِ(١٦٤)

فبات مُعتصما من قُرِّها لَثِـقاً رشَّ السحابُ عليه الماءَ فاطَّرَقا(١٦٥)

ومع الشروق تكمل الطبيعة الحيّة دائرة التحدّي فتجمع للثور عوامل الاستفزاز والإثارة المضنية بمواجهته بكلاب صيّاد ضارية، ثم بالمطاردة العنيفة التي تتمثل فيها جدلية الحياة والموت.

فصَّبحتْهُ كِلابٌ شَدَّها خَطِفٌ وقانِصٌ لاترى في فعله، خُرُقا(١٦٦)

وتلتْهُ غُضْفٌ طوارِدُ كالنَّحـ ـلِ مـغـاريثُ هـمَهُنَ اللِّحاقُ(١٦٧)

وكان على الثور أمام هذه الاستفزازات والمتاعب والمخاطر، أن يصمد ويقاوم، بل ويهاجم ويصارع من أجل البقاء....(١٦٨) .

---

(١٦٤) ديوان النابغة الذبياني: ص ٧٩ وانظر فيه أيضا: ص ١٥١و ٢٢١.

(١٦٥) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٤٦. وانظر ديوان لبيد بن ربيعة: ص ١٤٣-١٤٥.

(١٦٦) شرح ديوان زهير: ص ٤٦.

(١٦٧) ديوان الأعشى : ص ٢٦٣، وانظر فيه: ص ٣٤٥ و ٤١٣. وانظر ديوان الأسود بن يعفر ص ٣٩-٤١.

(١٦٨) سيأتي الحديث عن ثور الوحش وتحدّيه في فصل لاحق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

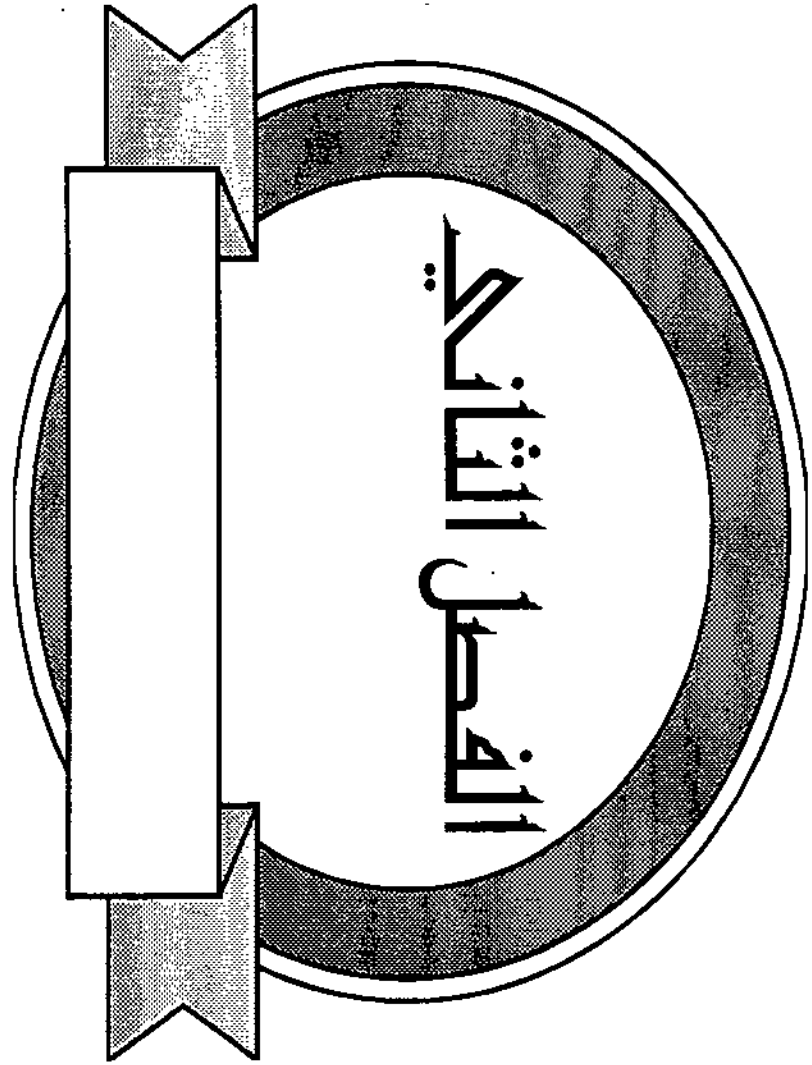

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

البواعث الاجتماعية والتحدي

١. النظام الاجتماعي:

فرضت طبيعة الجزيرة العربية نمطاً من النظام الاجتماعي، قوامه القبيلة التي كان أفرادها يؤمنون بوجود رابطة تجمعهم على أساسين من وحدة الدم المتمثلة في انتمائهم لأب واحد، ومن وحدة الجماعة. ومن ثم كانت القبيلة -في العصر الجاهلي- وحدة سياسية قائمة بذاتها إلى جانب كونها وحدة اجتماعية ذات نظم وأعراف وتقاليد[١٦٩] او ما يمكن أن يسمّى بـ "الدستور" غير المدوّن، ولكنه متعارف عليه بين القبائل في الوبر وفي المدر على حدّ سواء، وبمقتضى هذا "الدستور" يجري التعامل وتنظيم العلاقات داخل القبيلة الواحدة بمجالها الحيوي، ثم خارج هذا المجال بحيث يطال القبائل الأخرى متخطياً حدود المكان والزمان.

وحين تكاثر أفراد القبيلة حتى ضاقت بهم أرضهم انقسموا إلى بطون وأفخاذ وعشائر؛ وكوّن كل منهم وحدة اجتماعية قائمة بذاتها ومستقلة عن غيرها استقلالاً تامًا، مع ارتباطها بالقبيلة الأم ارتباطاً معنوياً. وفي الشعر الجاهلي يتردد ذكر العشيرة كما القبيلة. ومن ذلك قول معاوية بن مالك (معوّد الحكماء)[١٧٠] :

نُعطي العشيرةَ حقَّها وحقيقَها ... فيها ونغْفِرُ ذَنْبها ونَسودُ

وإذا تُحَمّلُنا العشيرةُ ثِقلَهـــا ... قُمنا بهِ وإذا تَعودُ نعـودُ

---

(١٦٩) انظر الشعر وأيام العرب: ص ١٨.

(١٧٠) انظر المفضليات: ص ٣٥٥. وانظر مثلاً النقائض ٢: ٧١٤(اوروبا). وشرح القصائد السبع الطوال: ص ١٩١.

والأصمعيات: ص ١٦٢. وحماسة البحتري: ص ٩. وشرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعمار الاجتماعي للقبيلة أو العشيرة:

كان من نتائج التعامل وفقاً "للدستور" القبلي تغيّر في المعمار الاجتماعي للوحدات الاجتماعية الجاهلية. فلم تعد القبيلة شريحة واحدة متناغمة ترتبط بأواصر الدم الواحد فقط، بل شرائح عدة تندغم فيها عناصر بشريّة مختلفة، وردت إليها عبر طرق شتى منها الإجارة والحلف والسبي والاسترقاق. ويمكن إجمال هذه الفئات في طبقات ثلاث: طبقة الصرحاء، وطبقة الموالي. وثالثتها طبقة الإماء والعبيد.

الصرحاء:

وهم أبناء القبيلة أو العشيرة من الأجيال المتعاقبة التي "تنتهي جميعها إلى أب واحد ويجري في عروقها دم مشترك توارثته عن هذا الأب الذي يرجع إليه أصل القبيلة[١٧١] " وقد كانوا يعتزون بانتمائهم إلى "هذا الأب" أيّما اعتزاز، ويفخرون بهذه الوشيجة ولايرضون عنها بديلاً فهم لاينتسبون مطلقاً لغير أبيهم وهو ايضاً لايتبنى إلا إياهم. يقول بشامة بن حزن النهشلي[١٧٢]

انا بني نَهْشَلٍ لاندّعي لأبٍ عنه ولا هُوَ بالأبناءِ يَشرينا

وكانت القبيلة ترى فيهم عدتها وعتادها ودرعها الواقي من أي خطر يتهددها أو عدوّ يتربّصُ بها، وتتباهى بهم عدداً وشجاعة وجرأة وفروسيّة، ولا غرو في ذلك فهم قوام عصبيّة القبيلة و"العصبيّة بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكلّ أمر يجتمع عليه"[١٧٣]. وقد كان الصرحاء يهبّون لتلبية نداء قبيلتهم ويهرعون لمؤازرتها، ويأتمرون بأمرها ولايخرجون على حكمها أو إجماع رأيها -إلا فيما ندر- وكأنما اتخذوا من قول دريد شعاراً لهم[١٧٤] :

وهل أنا إلا من غَزِيّةٍ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرْشُدِ

---

[١٧١] الروائع من الأدب العربي ١: ٢١.

[١٧٢] انظر الشعر والشعراء: ص ٥٣٣. وشرح ديوان الحماسة: ص ١٠٢.

[١٧٣] مقدمة ابن خلدون: ص ١٣٩.

[١٧٤] ديوان دريد بن الصمّة : ص ٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالمقابل كان على القبيلة أن تحدب عليهم وأن تسبغ عليهم الحماية وأن تنصرهم سواء أكانوا ظالمين أم مظلومين. وإذا ما قتل أحدهم وجب عليها الأخذ بثأره أو المطالبة بديته. هذا إلى جانب منحهم امتيازات، منها حق التصرّف في الأمور الشخصيّة، وعقد المعاهدات والمواثيق في الحرب والسلم، والقيام بالإجارة والحلف والولاء[١٧٥] ؛

على أن منعة القبيلة وحمايتها للصريح قد تكون ضمن إطار العلاقات الخارجيّة فحسب، بمعنى أنها ربما تحول دون إلحاق الأذى اوالظلم من غيرها به، ولكنها لاتمنع عنه ظلم ذوي قرباه ولا تنصفه حين يقع عليه غبن ما، ممّا يستفز المغبون ويدفعه إلى اتخاذ موقف ثائر يتسم بالتحدّي والمجابهة قولاً أو فعلاً. فطرفة بن العبد -مثلاً- ظلمه إخوته لأبيه حين رفضوا إعطاء أمه وإخوته الصغار شيئاً من ميراث أبيهم فخاطبهم بمرارة وتحدٍّ[١٧٦]:

ما تنظرونَ بحـــــقِ وَرْدَة فيكمُ صَغُرَ البنونَ وَرهطٌ وَرْدَة غُيَّبُ

والظُلْمُ فَرَّقَ بيـــــن حَيَيْ وائلٍ بَكْـــرٌ تُســـاقِها المنايـــا تَغْلِبُ

أدُّوا الحقوق تَفِرْ لكمْ أعراضُكُمْ إنّ الكريمَ إذا يُحَرَّبُ يُغْضَبُ[١٧٧]

إنه يتحدّى رهطه، ويضرب المثل لعواقب الظلم والبغي، ثم يهدّد ويتوعدّ، وبالرغم من شدة معاناته بسبب ظلم أقاربه له والذي هو "أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام[١٧٨] المهند"، إلاّ أنه لايميل إلى قطع الصلة، ولا يستهويه هجرهم، ولايتمنى أن يكون غيرهم قوما له. ولكنّ قريط بن أنيف العنبري[١٧٩] يهفو إلى استبدال العشيرة والأهل الذين توانوا في دفع الظلم عنه، وذاك حين أغار بعض بني شيبان على إبله وأخذوا ثلاثين بعيراً. ولمّا استنجد بقومه لم ينجدوه. فما كان أمامه سوى التوجّه إلى بني مازن مستنجداً بهم. وقد لبّوا نداءه وهبّوا لنصرته، فأغاروا على بني شيبان ونهبوا مئة بعير منهم، ثم دفعوها إليه. هنالك تكشّف له التباين بين المواجهة المؤثرة والتفادي

---

[١٧٥] انظر الفقر في الشعر الجاهلي: ص ٥٢.

[١٧٦] الديوان: ص ١٠٧.

[١٧٧] نفسه: ص ١٠٨ ووفرا لشيء: كثر وتم. ويحرب: يهاج.

[١٧٨] انظر معلقة طرفة: البيت ٧٨. شرح القصائد السبع الطوال: ص ٢٠٩.

[١٧٩] هو قريط بن أنيف العنبري، التميمي، شاعر جاهلي. انظر عيون الأخبار ١: ٢٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتخاذل، والبون الشاسع بين القوّة والضعف، فكان الصراع الداخلي وكـان التجـاذب بين الانتماء واللاانتماء، ثم الثورة والسخط والغضب. يقول(١٨٠) :

لو كنتُ مِن مازنٍ لم تَستَبِحْ إبِلي بنو اللقيطة من ذُهلِ بن شيبـــانا

إذن لقامَ بنَصْري مَعْشَرٌ خُشُنٌ عِندَ الكريهةِ إن ذو لُوثَةٍ لانـا(١٨١)

قومٌ إذا الشرَّ أبدَى ناجذَيهِ لهم طاروا إليه زُرافاتٍ ووُحـدانا(١٨٢)

لكنَّ قومي وإنْ كانوا ذَوِي عَدَدٍ ليسوا مِنَ الشرِّ في شَيْء وإنْ هانا

وينتهي به الأمر إلى رفض للقوم وتحدّ للعصبيـة التـي انكرتـه –فيمـا يـرى– أخذ أبرز شعاراتها "انصر أخاك ظالما أو مظلوماً". وليس ذلك فقط، بـل أنـه ليتـوق للانسـلاخ عن عشيرته والاندغام في أخرى ذات سطوة وحول وبأس، وقدرة على النجدة الفاعلة

فليت لي بهمُ قوماً إذا رَكِبوا شـنّوا الإغـــارةَ فـرُساناً ورُكباناً

لايسألونَ أخاهُمْ حين يَنْدُبُهم في النائباتِ على ما قالَ برهانا(١٨٣)

وإذا كانت القبيلة أو العشيرة تتخاذل وتتقاعس –أحياناً– عن دفع الظلم عن أبنائهـا فإنها لاتتهاون في إيقاع العقوبة على من يخـرج علـى "دستورها"، أو يسـلك سلوكاً شـائناً يتنافى وقيم مجتمعه وأعرافـه. والعقوبـة الشـائعة كـانت الخلـع، وبموجبـه ترفـع "حصانـة" القبيلة عن المخلوع، فيغدو بحكم المنفيّ المشرّد الـذي لاوطـن لـه ولا مـلاذ، سـوى القفـر وشعب الجبال وريْدها، أو المبعد الذي لايجد مفرّاً من اللجوء إلى قبيلة أخرى يستجير بهـا على أمل أن تحتضنه وتمنحه حق "المواطنة" في مجالها الحيويّ، فإذا تـمّ لـه ذلك أصبـح فرداً في طبقة موالي القبيلة، كما سيتبيّن لنا فيما يلي.

---

(١٨٠) عيون الأخبار ١: ٢٨٥. وشرح ديوان الحماسة: ص ٢٣.

(١٨١) ذو لوثة: الضعيف المسترخي لسان العرب، مادة لوث.

(١٨٢) ابدى الشرّ ناجذيه: مثل لشدّته وصولته لأن السبع إذا صال كشّر عـن أنيابـه وكـذا الإنسـان إذا حمـل علـى عدوّه. وهو مثنى ناجذ، والجمع نواجذ: الأضراس أو أقصاها. عيون الأخبار ١: ٢٥٨.

(١٨٣) انظر: عيون الأخبار، ١: ٢٨٥.

وشرح ديوان الحماسة: ٢٤ و ٢٩. والعقد الفريد ٣: ١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموالي أو الحلفاء:

وجلّهم من الأحرار المجارين، وعلى قلة، العبيد أو الرقيق الذين أعتقت رقابهم وظلوا في القبيلة مرتبطين بها برابطة الولاء. والأحرار المجارون ضربان: من تخلى بمحض إرادته عن قبيلته، ومن تخلت القبيلة عنه وخلعته.

فقد يهجر العربي أهله وعشيرته ويفارقهم إذا وجد منهم ظلماً كبيراً، أو منعوا عنه حقّه في الحياة الكريمة التي يوفرها له نسبه وميراثه. ومثلنا على ذلك ما كان من أمر طرفة الجديميّ، الذي طالب عمّه بميراثه من أبيه فقال له عمّه "ما أعرفك ولا لك عندي ميراث"(١٨٤) فتولّى عنه طرفة وفارقه وهو يندّد بأهله وقومه بقول مفعم بالعواطف المتضاربة(١٨٥)

فواللهِ ما فارقْتُكُم عَنْ كَشاحَةٍ ... ولا طِيبِ نفسٍ عنكمُ آخِرَ الدَهرِ

ولكنني كُنتُ امْرأً من قبيلـــةٍ ... بَغَتْ وَأَتَتْني بالمظالمِ والفَـخـرِ

وقد يتخلى المرء عن قومه حين تتخذ منه موقفاً قاسياً أو تحملّه اوزار سلوك وتصرفات فرضت عليه لسبب أو لآخر. وهو ما حدث مع الشنفرى –مثلاً: فقد فارق أهله وهو يقول مكابراً ومتحدّياً(١٨٦) :

أَقِيموا بني أمّـــي صُـــدُورَ مَطِيّكُمْ ... فإني إلـــى قَوْمٍ سِواكُمْ لأَمْيَلُ

وفي الأرضِ مَنأىً للكريمِ عنِ الاذى ... وَفيها لَمَنْ خافَ القِلَى مُتَعزَّلُ

ولكنّ الشنفرى لم يستقرّ به المقام مولىً في قبيلة، بل اتخذ من الأرض بجبالها وأوديتها وطناً بديلاً، ومن وحوشها أهلاً وأقرباء، ومن المشرّدين الصعاليك أصدقاء وخلاّناً.

---

(١٨٤) انظر الخبر في شرح ديوان الحماسة: ص ٤١١.

(١٨٥) المصدر نفسه ٤١٢، ولربما كان في مفارقة عمرو بن قميئة لعشيرته وجه شبه يتمثل في الظلم الذي عاناه من زوجة عمّه ثم موقف عمّه منه. انظر خبره في الأغاني، ٢٠ :٦٩٢٠.

(١٨٦) انظر خبره في مقدمة ديوانه. وانظر قوله: ص ٥٨ من الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا من تتخلى عنه القبيلة فهو الخليع، وهو كما ذكرنا آنفاً من تخلعه القبيلة عقاباً له على تمردّه وخروجه على الأعراف والتقاليد المعمول بها في المجتمع الجاهلي، أو على تصرّفه تصرفاً يخل بالشرف أو السمعة، مما يفقده عصبية قومه ويسقط عنهم حقه عليهم في الحماية او الأخذ بثأره إذا قتل، وأيضاً المطالبة بديته، أو فدائه من الأسر(١٨٧) .

ويتم الإعلان عن الخلع في المواسم الدينية مثل موسم الحج، وفي مواسم الأسواق مثل سوق عكاظ. وقد خلعت خزاعة الشاعر قيس بن الحدادية في" سوق عكاظ واشهدت على أنفسها بخلعها إياه، فلا تحمل جريرة له، ولا تطالب بجريرة يجرّها أحد عليه"(١٨٨) فتحوّل عن قومه، ونزل عند بطن من خزاعة يقال لهم: بنو عدي بن عمرو بن خالد، فآووه وأحسنوا إليه، وقال يمدحهم(١٨٩) :

جزى الله خيراً عن خليعٍ مُطَرَّدٍ رجالاً حَمَوْهُ آلَ عمرِو بنِ خالدِ

أولئك إخواني وجُلُّ عشيرتي وثروتُهم والنصرُ غيرُ المُحارِدِ(١٩٠)

وحين يفقد الخليع "حصانة" قومه، يدرك أنه قد فقد أمنه الحياتي، فلا يكون أمامه من سبيل سوى اللجوء إلى أقوام آخرين يتوسم فيهم من يجيره ويسبغ عليه حمايته، وقد يجار، ويغدو أحد أفراد المجتمع الجديد:

فيأمنُ فيهم ويكونُ مِنْهم بمنزِلةِ الشِعارِ من الدِثارِ(١٩١)

ويصبح له ما للصريح من حقوق الرعاية والحماية والحفاظ على النفس والأهل والمال. يقول الأسود بن يعفر(١٩٢)

---

(١٨٧) انظر في ذلك الأغاني ١٤: ٥٠٢٩.

(١٨٨) المصدر نفسه ١٤: ٥٠١٧. وانظر كتاب الاختيارين: ص ٢١٦.

(١٨٩) الأغاني ١٤: ٥٠٢٣ . وانظر ايضا خلع شيبان بن دثار النمري وإجارته في النقائض ٢: ٧١٤(اوروبا).

(١٩٠) المحارد: المتحوّل. لسان العرب، مادة حرد.

(١٩١) انظر شعر قيس بن زهير: ص ٤٢. والشعار: ظاهر اللباس. والدثار: بطانته، يريد أن جارهم يصبح منهم ويخلطونه بعيالهم.

(١٩٢) ديوانه: ص ٥٤.وفي الموضوع نفسه انظر شرح ديوان امرئ القيس وأخبار المراقسة (السندوبي) : ص٢٤٩. والأغاني ١١: ٣٨٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجارٍ غريبٍ حلَّ فينا فلمْ نَكُنْ له غيرَ غَيْثٍ يُنبتُ البقلَ وادقِ

نكونُ له من حَوْلِهِ ووراِئـــهِ ونُومِنُهُ من طارقِاتِ البوايقِ[١٩٣]

ولكن يبدو –ومما ذكره بعض الشعراء– أن علاقة الجوار هذه لم تكن –أحياناً– على النحو المتعارف عليه بين القبائل، وذاك حين يتعرّض الجار إلى ما يسيء إلى اعتباره أو يلحق الضيم به ومن هذا القبيل ما حدث لزهير بن عروة المازني[١٩٤] ، الذي غاضب قومه في شيء ذمّه منهم ففارقهم إلى غيرهم من بني تميم، وهناك لحقه ضيم دفعه إلى التفكير في العودة إلى أهله. ولكن نفسه أبت ذلك عليه، فبقى –وعلى مضض– في بني تميم، والشوق والحنين ينزعان به إلى رهطه وخاصة أناس من بين عمّه يدعون بني حنبل، فقال يمدحهم ويشكر فيهم مواساتهم للجار وللفقير الجائع [١٩٥]

فَنِعمَ بنو العَمّ والأقربـــونَ لَدَى حُطمةِ الزّمنِ المُمْحلِ

ونَعِمَ المُواسون في النائبا ت للجارِ والمُعتَفي المُرْمِلِ[١٩٦]

وقريب من ذلك ماحدث مع البرج بن مسهر الطائي[١٩٧] . فقد فارق قومه مرغما ولجأ إلى كلب وجاورهم زمناً، ويبدو أنهم لم يحسنوا جواره، فضلاً عن أنه لمس فيهم أموراً منكرة من بينها الغدر؛ مما جعله يألم ويأسف على مجاورتهم. ثم تملكته الحسرة والندم على فراق رهطه حيث الاستقرار والعزة والمنعة، وغدا أسير معاناة التوق إلى المحلّة والرغبة في معاودة الوطن؛ إلى أن انتهى به الأمر إلى ترك بني كلب. وفي ذلك يقول[١٩٨] :

---

[١٩٣] البوايق: الغوائل والشر أو الظلم والغشم. لسان العرب مادة بوق.

[١٩٤] هو زهير بن عروة بن جلهمة المازني المعروف بزهير الكسب، كان من أشراف بني مازن وفرسانهم وشعرائهم. انظر الأغاني ٢٦: ٩٠٠٠.

[١٩٥] المصدر نفسه.

[١٩٦] المعتفي: بمعنى العافي: الضيف او الطالب الرزق. لسان العرب، مادة عفا.والمرمل الذي نفذ زاده. لسان العرب، مادة رمل.

[١٩٧] هو البرج بن مسهر جلاس أحد بني جديلة ثم أحد بني طريف، من معمري الجاهلية. انظر شرح ديوان الحماسة:ص٣٥٩.

[١٩٨] شرح ديوان الحماسة:ص٣٥٩ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فنعم الحيُّ كلبٌ غيـر أنـــا رأيـــنا فـي جِوارِهمِ هَنَاتِ[١٩٩]

فإنَ الغَدرَ قد أمسى وأضحى مُقيماً بين خَبْتَ إلى المَساتِ[٢٠٠]

تركْنا قَومنا من حرب عـامٍ ألا يـــاقـــوم لـــلأمـر الشَتَاتِ

فإن نرجِعْ إلى الجَبَلَيْن يوماً نُصالحْ قَوْمَنا حتـى المماتِ[٢٠١]

من ناحية أخرى كان تمتع المجار بالحقوق التي يمنحها له "عقد" الجوار، مشروطاً بالتزامه بالقوانين والأعراف القبلية. فإذا أخلّ بهذا الالتزام، أو عاود ارتكاب الجنايات يخلع مرة أخرى، ويغدو طريداً لايطول به مقام ولا يستقرّ في مكان. ولعلّ خير مثل في هذا الوجه، البَرّاض بن قيس[٢٠٢] فقد خلعه قومه وتبرءوا منه لأنه كان سكيراً فاسقاً [٢٠٣] فاستجار بقوم آخرين وأجاروه. ولكن حين استمر سادراً في غيّه، خلعوه، فيمّم شطر مكّة وحالف بني سهم من قريش. ولم يلبث أن اعتدى على رجل من هذيل وقتله، فخلعه بنو سهم "كما يخلع الكلب"[٢٠٤] . فاستجار بحرب بن أميّة الذي حالفه وأحسن جواره. وعندما أعاد البَرّاض سيرته الأولى من شرب وقتل، همّ حرب بخلعه، فقال له: "إنه لم يبق أحدٌ ممن يعرفني إلا خلعني سواك، وإنّك إن خلعتني لم ينظر إليّ أحد بعدك فدعني على حلفك وأنا خارج عنك. فتركه، وخرج، فلحق بالنعمان بن المنذر بالحيرة"[٢٠٥] .

وتستوقفنا أمور في هذه الحادثة وفيما سبقها منها: أن المجـار يفقد عنصر الاستقرار الحياتي الذي كان يمتع به تحت جناح عشيرته، ومنها أن موقعه في المحلّة الجديدة يغدو هشّاً رجراجاً مرتبطا بأوهى الأسباب ثم إنّ القائمين على الأمور، لإدراكهم أنه فقد "عصبية" قبيلته، يجنحون في تعاملهم معه إلى شيء من الاستهانة والاستخفاف بل والاحتقار.

---

[١٩٩] هنات، جمع هَنة: الأمور المنكرة الشرح: ص٣٦٠.

[٢٠٠] خبت والمسات: ماءان لكلب الشرح: ص ٣٦١.

[٢٠١] الجبلان: أجأ وسلمى. الشرح: ص٣٦٢.

[٢٠٢] هو البَرّاض بن قيس بن رافع أحد بني ضمرة ....بني كنانة. انظر الأغاني ٢٥: ٨٧٥٩.

[٢٠٣] المصدر نفسه ٢٥: ٨٧٦٠.

[٢٠٤] انظر المحبّر: ص ١٩٥.

[٢٠٥] انظر الأغاني ٢٥: ٨٧٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولاريب في أن ذلك كلّه لم يكن ليتفق وما فطر عليه العربيّ من إباء وأنفة واعتزاز بالكرامة والحريّة الشخصيّة، لذا ليس بغريب أن نراه يثور لكرامته وينتصر لكبريائه وعزة نفسه، فيقدم على أمر ينطوي على تحدّ أو مجابهة جريئة، أو تجاوز للتقاليد والقيم المتعارف عليها[٢٠٦] .

الرقيق:

وأفرادها من الإماء والعبيد الذين كانوا يلحقون بالقبيلة إما بطريق الشراء من أسواق النخاسة[٢٠٧]. أو بالاستجلاب من الحبشة وما يجاورها، أو من جهة الأسر والسبي في الحروب والغارات. وتشمل ايضا أبناء الإماء، ولافرق في ذلك بين من كان أبوه عبداً أو حرّاً، ثم أبناء السبايا[٢٠٨] ، وقد كان يطلق على ابن السبية "النزيع"[٢٠٩] .

وهؤلاء جميعاً كانوا بمثابة الخدم لأبناء القبيلة، وتوكل إليهم المهام التي غالبا ما كان يأنف الصرحاء من القيام بها، مثل الرعي والحلب والصرّ[٢١٠] . كما كانوا موضع إذلال واستهانة، مع استغلال قاسٍ لبشريتهم وتجاهل -مقصود أو غير مقصود- لإنسانيتهم.

ولكن العبد من هؤلاء إنسان له أحاسيسه ومشاعره، وله آماله وتطلعاته، وقد يكون على قدر من الشجاعة والأنفة وحبّ الحريّة، كما العربي الصريح، وقد يكون على وعي بالفوارق الطبقية وتأثيرها على مسيرة حياته، في الوقت الذي لايملك فيه من زمام أمره شيئاً فيغدو بين حالين: إما الاستكانة العاجزة، وإمّا الرفض والتمردّ والسعي للخلاص بوسائل شتى: منها الاستعلاء في السلوك والتصرفات، وإظهار من ضروب الشجاعة والبطولة ما يسوّغ للقبيلة عتقه واستلحاقه بنسبها. كما كان الحال بالنسبة لعنترة بن

---

(٢٠٦) انظر مثلا خبر البراض حين تحدى المنذر بن النعمان وقتل من كلفه بحراسة قافلة تجارته، في المحبر: ص ١٩٦.

(٢٠٧) انظر فتوح البلدان: ص ٦٧.

(٢٠٨) انظر مثلا ديوان عامر بن الطفيل: ص ١٠٩ و ١١١، وديوان زيد الخيل الطائي: ص ٩٦ و ٩٨. وذكر السبي والسبايا كثير في الشعر الجاهلي.

(٢٠٩) انظر لسان العرب، مادة نزع. وايضا نزّاع القبائل : غرباؤهم الذين يجاورون قبائل ليسوا منهم.

(٢١٠) انظر الأغاني ٨: ٢٩٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شداد[٢١١] . وقد كان عنترة يعلم أنه على جانب كبير من الشجاعة والبسالة والإقدام، وأن ذلك من شأنه –فيما يرى– أن يجعله خيراً من بعض صرحاء قومه. يقول[٢١٢] :

إني امرؤٌ من خير عبسٍ منصباً شطري، وأحمي سائري بالمُنصُلِ

وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتلاحظَتْ أُلفِيتُ خيراً من مُعَمٍّ مُخوَلِ

ولكنه حين وجد أنه –وبالرغم من أعماله البطولية– لايزال في نظر قومه "ابن السوداء"[٢١٣] ، ثار وتمرّد على ذلك الظلم، وذاك الإذلال، وقال متحدّياً وموعداً ومهدداً[٢١٤] :

أظلماً ورُمحي ناصري وحُسامي وذُلاً وعِزّي قائدٌ بزمامي

وإني عَزيزُ الجار في كُلّ مَوطِنٍ وأكرِمُ نفسي أن يهونَ مُقامي

سأرحَلُ عنكم لا أزورُ دياركُمْ وأَقصِدُها في كُلّ جُنحِ ظَلامِ

إنه مزمع على ترك ديار عشيرته الظالمة، ولكنه عازم أيضاً على الإنتقام منها، وإن عزمه على مفارقتها، ليتفق مع ما كان البعض يقدم عليه للخلاص من المكانة المزرية التي فرضها عليهم مجتمعهم. وقد كان منهم من يترك القبيلة، ويضرب في الأرض بعيداً عن مجالها الحيوي، ويجابه التشرد والفاقة والعوز، ويتحدّى قسوة الحياة في ظل طبيعة لاترحم، معتمداً على نفسه في الدفاع عن حياته[٢١٥] ومعاشه. وقد يصبح أحد أفراد جماعة من "أغربة العرب" أو الصعاليك المشردين الذين يفرغون نقمتهم على مجتمعهم في الغارات التي يشنونها على قبيلتهم وعلى غيرها من القبائل، ومن اجل الفوز بالمال واستلاب النعم[٢١٦] .

---

[٢١١] نفسه ٨: ٢٩٨٦.

[٢١٢] انظر الديوان: ص ٤٩.

[٢١٣] انظر الأغاني ٨: ٢٩٨٧.

[٢١٤] انظر الديوان: ص ٦.

[٢١٥] انظر مثلاً رفض السليك بن السلكة للعبودية اعتماداً على قوته وجرأته، وذلك في الأغاني ٢٣: ٨٠٨٧.

[٢١٦] سيأتي الحديث عن ذلك ضمن البواعث الاقتصادية للتحدّي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا أبناء السبايا، فلم تكن حياتهم ومكانتهم في القبيلة بأفضل أو أحسن مما كان عليه العبيد. لقد درجت عادة العرب على الزواج من السبايا، وفي معظم الأحوال كان هذا الزواج قسرياً يفرض على السبيّة فرضاً دون رضاها أو رضا أهلها. كما يشير حاتم الطائي بقوله[٢١٧] :

وما أنكحونا طائعين بناتَهُم ولكن خطبناها بأسيافنا قَسراً

فإذا ولدت السبيّة "نزيعا" لم يُعترف به غالباً ولا ببنوّته ولا يُورّث وإنما يُعامل معاملة العبيد[٢١٨] .

وكما مرّ معنا، فإن هذه الطبقة وطبقتي الموالي والصرحاء، كلها كانت تعيش في ظلّ القبيلة وتحت سيادة "دستورها" العرفي، وقوّتها التنفيذية والتشريعية المتمثلة في سيّد القبيلة والمجلس المختار من الأبناء الصرحاء.

وسيّد القبيلة:

كان يختار من بين أفراد القبيلة ومن عشيرة قويّة العصبيّة "لأنّ الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض، فلا بدّ أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبيّة"[٢١٩] .

ويفترض أن يتحلّى السيّد بصفات القائد الكفء القادر على قيادة القبيلة في الحرب والسلم، وعلى توجيهها كما ينبغي في الجدب والخصب، وتأتي في الطليعة من هذه الصفات: الشجاعة، والمقدرة الحربية، وما تتطلبه من بعد نظر، ثم رجاحة العقل والحكمة والحلم وكرم الأخلاق، والتفاني في رعاية شؤون القبيلة والسهر على مصلحتها العامّة، دون انانية أو أثرة. وهي صفات يتردد صداها في كثير من القصائد الجاهلية ولعلّ خير مثال على ذلك ما ورد في قصيدة لقيط بن يعمر الإيادي[٢٢٠] التي خاطب بها قومه:

---

[٢١٧] العقد الفريد: ٦: ١٣٠.

[٢١٨] لسان العرب، مادة نزع.

[٢١٩] مقدّمة ابن خلدون: ص ١٣٩.

[٢٢٠] ديوانه: ص ٣٩-٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقـــلدوا أمَركُمْ – للـــه دَرَّكُمُ رَحْبَ الذراعِ بأمر الحرب مضطلعا

لامُتْرَفاً إنْ رخاءُ العيشِ ساعدَهُ ولا إذا عــضَّ مــكروهٌ بـه خَشَعا

مُسَهّـدُ النـوم تَعنيـه أُموركُمُ يـرومُ منـها إلـى الأعـداء مطّلَعا

ولـيـس يـشغَلُه مـالٌ يُثـمِّرُهُ عَنْكُمُ ولا وَلَدٌ يبغي لـه الـرِّفَعا

وإضافة إلى ذلك، يحبّذ أن يكون الشيخ عظيم الثروة كي يستطيع تحمّل غرم القبيلة بدفع ديات القتلى لأصحاب الشأن، وليكون قادراً على إقامة الضيافات، وإغاثة المعوز. وعليه نجدة المستغيث وحماية الجار والحليف. وقد عبّر عن ذلك كله معاوية بن مالك إذ قال[٢٢١] :

نُعطي العشيرةَ حَقّها وحقيقها فيها ونَغفرُ ذَنْبها وَنسودُ

وإذا تُحمّلنا العشيرة ثِقْلَهـا قُمنا به، وإذا تَعودُ نَعودُ

وإذا نُوافقُ جُرأةً أو نَجـدةً كُنّا سُمَيَّ بها العدُوَّ نكيدْ

بل لاقـولُ إذا تَبوّأ جيرَةً إنّ المَحلَّةَ شِعبُها مَكدودُ[٢٢٢]

غير أن هذا الشيخ ليس دائماً صاحب الأمر المطلق في الشؤون الشرعيّة والحربيّة وسواها، بل يفرض عليه مشاورة مجلس القبيلة الذي يتألف من زعماء البطون والأفخاذ[٢٢٣] ، وعليه الأخذ برأي المجلس وإلاّ وجد من يتصدّى له ويقف بوجهه متحدياً ومناهضاً[٢٢٤] ، سيّما وأن العربي ديمقراطي النزعة، ويعتز بحريته الشخصيّة والقوليّة اعتزازاً كبيراً[٢٢٥] ، كما أنه أنِف أبـي –في معظم أحواله– ويرفض الهيمنة المستبدّة، والسيطرة الطاغية، فإذا حدث وكان سيّد القبيلة ظالماً متجبراً، فإن أحرارها يتمردون على

---

(٢٢١) المفضليات: ص ٣٣٥/٣٥٦ . وديوان عامر بن الطفيل: ص ١٣.

(٢٢٢) تبوّأ: حلّ ونزل بالمكان. مكدود: بمعنى أن أرضها غليظة شديدة أو ضيقة. انظر لسان العرب، مادة كدد.

(٢٢٣) انظر تاريخ العرب مطوّل ١: ٣٦٠. وانظر السيرة النبوية ١: ٧٩.

(٢٢٤) مثلا: خلع بنو سليم من قيس سيدهم لمخالفته إياهم في بعض الأمور وأخرجوه من ديارهم . انظر الحيوان ٥: ٣٠.

(٢٢٥) انظر Arabia before Muhammad, P. ٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البغي والجبروت، وقد يجابهونه بقول عنيف، أو يتربصون به ويقتلونه تخلصا من ظلمه واستبداده، كما فعل نفر من هوازن التي كانت لاترى في زهير بن جذيمة العبسي إلا ربّاً وملكاً، ولكنها قتلته لِطغيانه وتعسّفه فيها[٢٢٦] . وينسحب ما تقدّم ذكره على موقف العربي من الملوك الظلمة العُتاة الذين لم يكن شيء ليردعهم عن الاستمرار في ممارساتهم المستفزّة والمثيرة لمشاعر السخط والغضب. ومن ذلك ما قام به بنو أسد تجاه حجر بن الحارث والد الشاعر امرئ القيس، فقد ولّيَ حجر عليهم وتعسّف في ظلمه لهم بحيث أنه قتل سراتهم بالعصا وأباح أموالهم ونفاهم إلى تهامة، فلم يلبث الأسديون أمدا طويلا حتّى أجمعوا أمرهم وثاروا بملكهم وقتلوه[٢٢٧] . وحين هدّد امرؤ القيس بني أسد وأوعدهم أجابه عبيد بن الأبرص متحدّياً[٢٢٨] :

أتوعدُ أُسرَتي وَتَرَكْتَ حُجْراً ... يُريغُ سَوادَ عينيهِ الغُرابُ[٢٢٩]

أبَوْا دِينَ المُلوكِ فهمْ لَقاحٌ ... إذا نُدِبوا إلى حَرْبٍ أجابوا[٢٣٠]

٢. العلاقات القبلية:

يستشف مما ورد في الشعر الجاهلي ومن كتب الأخبار أن العلاقات العربيّة القبلية كانت تأخذ مسارين: أحدهما العداء والحروب، والآخر المحالفة والنصرة. وما يعنينا هنا المسار الأوّل لعلاقته بموضوع هذا البحث.

العداء والحرب:

ربما كانت البواعث الاقتصادية هي الأهم والأبعد أثراً فيما يتعلق باشتعال فتيل الحرب بين القبائل في الجاهلية.

---

(٢٢٦) انظر الأغاني ١١: ٣٨٦٨ وما بعدها.

(٢٢٧) انظر الأغاني ٩: ٣٢٠٤.

(٢٢٨) انظر الديوان: ص ٢٦ و ١١٧ .

(٢٢٩) يريغ: يطلب.

(٢٣٠) دين الملوك: طاعتهم. لَقاح: لم يدينوا للملوك ولم يُملكوا انظر لسان العرب، مادة لقح.
ندبوا: دُعوا وحُثّوا على. انظر لسان العرب، مادة ندب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير أن بعض الحروب كانت تنجم عن علاقات شخصية لسادات القبائل والمتنفذين فيها، أو عن تصرفات وسلوكيات تؤدي إلى أحداث ووقائع تحمل طابع التحدّي للعرف أو الشرف او الرئاسة، أوعن تلاسُنٍ مستفز وملاحاة وتعريض قولي.

وفي الشعر العربي القديم وكذلك في الكتب التي تتحدث عن أيّام العرب وحروبهم شواهد متعددة على ذلك، ولعلّ أبرزها ما ورد في حرب بكر وتغلب أو حرب البسوس، ثم في حرب عبس وذبيان التي أطلق عليها اسم حرب داحس والغبراء[٢٣١] .

وإن القارئ لمسببات حرب بكر وتغلب (من شيبان) ليدرك أنها ما نشبت إلاّ نتيجة لتراكمات وتفاعلات في أعماق النفس الإنسانية. لقد كان كليب بن ربيعة سيداً لتغلب، يتباهى بقوّته وسطوته، ويعتز أيما اعتزاز بقدره ومكانته وشرفه،وليس ذلك فقط بل إنه ليتحدّى الناس بمنعته وجبروته، وتفرّده من حيث الجرأة والقدرة على حماية عشيرته ومجالها الحيوي. لذا فإنه حين رأى ناقة غريبة تشرب من ماء معتدية بذلك -فيما قدّر- على حماه، اعتبر الأمر تحدّيا له ولسلطته، فتملكه الغضب ورمى الناقة بسهم أصاب ضرعها فصار يشخب دما ولبناً[٢٣٢] . وتضطرب الروايات في تحديد هويّة صاحب الناقة. فمن قائل انها البسوس، ومن ذاهب إلى أنه جار للبسوس التي هي خالة جسّاس بن مُرّة الشيباني. وخلاصة الأمر أن البسوس استغاثت بجسّاس. ويبدو أنه رأى فيما أقدم عليه كليب استخفافاً به، وانتقاصاً من قدرته على حماية الأهل أو الجار، فاستولى عليه الغضب وثار لكرامته فانطلق إلى كليب وقتله متحدّيا حتى صلة القرابة التي تربط بينهما، فهاجت الفتنة ونشبت الحرب بويلاتها وثاراتها[٢٣٣] . وغدت نبعاً ثراً يغترف منه الشعراء موضوعات قصائدهم، وفي مقدمتهم المهلهل الذي أفجعه قتل أخيه كليب، فجاء شعره معبّراً عن شتى الأحاسيس الغاضبة المتألمة الحزينة في إطار من ألفاظ التهديد والوعيد. إنه يقول -مثلاً- منددا ببني بكر لقتلهم كليباً، ومتحديّا ومتوعدّا[٢٣٤] :

---

(٢٣١) من أيّام العرب التي نشبت بسبب استفزاز قولي وفعلي أدى إلى قتل أحد المستفزين يوم رحرحان. انظر المحبر: ص ١٩٣. والعقد الفريد ٥: ١٣٩.

(٢٣٢) انظر مجمع الأمثال للميداني ١: ٣٧٤ وما بعدها.

(٢٣٣) انظر في الواقعة، كتاب أيام العرب ٢: ١٦٥ وما بعدها.

(٢٣٤) انظر الروائع من الأدب الجاهلي، ١: ٧٨. وانظر جمهرة اشعار العرب: ص ٢٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جارَتْ بنو بكرٍ ولم يَعدِلُوا ... والمرءُ قد يعرِفُ قصدَ الطريقْ

حَلّتْ ركابُ البغي في وائلٍ ... في رهطِ جسّاسٍ ثِقالَ الوُسوقْ[٢٣٥]

يا أيها الجاني على قومِهِ ... جنايةً ليس لها بالمُطيقْ

جانٍ لم يَدْرِ ما كُنْهُهَا ... جانٍ ولم يُصبح لها بالخليقْ

ليس أخوكم تاركاً وِتْرَهُ ... وليس عن تَطلا بِكم بالمُفيقْ

وأمّا حرب داحس والغبراء التي وقعت بين عبس وذبيان، فقد أدّى إلى إشعالها رهان، طرفاه قيس بن زهير العبسي، وحذيفة بن بدر الذبياني.

أمّا سبب الرهان فهناك روايات مختلفة عنه، ولكنها -بمجملها- توحي بأنه جاء نتيجة لتحدٍّ -على شيء من الغطرسة والتعالي- بين الطرفين المتنافسين. فمما ذكرته إحدى الروايات أن قيساً دخل على ملك، وعنده قينة لحذيفة بن بدر، وكانت تغني[٢٣٦] :

دارٌ لهندٍ والرَّبابِ وَفَرْتَنى ... ولميسَ قبلَ حوادثِ الأيّامِ

وتذهب الأخبار إلى أنهن نسوة من بني عبس، وأن قيس بن زهير غضب لسماعه أسماء عبسيّات في الأغنية، فاتجه إلى المغنيّة وشقّ رداءها وشتمها مما أغضب حذيفة وأحنقه. ثم إن قيساً علم بذلك، فذهب إلى حذيفة يسترضيه. ولكن حذيفة كان يشيح بوجهه عنه من شدّة غيظه وغضبه، وكان عنده أفراس له. ويبدو أن قيساً استاء من موقف حذيفة منه، فأراد أن يستفزه ويثيره، فأخذ يعيب الأفراس. وهنا اشتد غيظ حذيفة فخاطب قيساً باستهزاء وتحدٍّ : أتعيبها؟ وكان تحدّي قيس له أشدّ إذ أجابه بكلمة واحدة مختصرة قاطعة: نعم. وإثر ذلك نشب التقاول بينهما والمجاراة إلى أن تراهنا[٢٣٧] .

---

[٢٣٥] الوسوق: الاحمال التي توضع على ظهر البعير. انظر لسان العرب، مادة وسق.

[٢٣٦] البيت لامرئ القيس، انظر الديوان: ص ١١٤.

[٢٣٧] انظر في هذه الرواية وغيرها من الروايات، الأغاني ١٨: ٦٤٨٦ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الرهان على من يفوز في سباق يجري بين داحس، فرس قيس بن زهير، والغبراء، فرس حذيفة بن بدر، ولخشية هذا الأخير من فوز داحس،أمر أتباعه أن ينفّروه بلطمه ليخرج عن مسار السباق، وذلك إذا رأوه متقدّما على الغبراء في السباق.

وتمّ الأمر كما أراد حذيفة. وجاء فارس داحس وأعلم قيساً ماحدث، فاستفزت الخديعة أخا قيس، ورأى فيها تحدّيا للشرف وللعهد، واستخفافا بقدر أخيه وبعشيرته، فما كان منه إلاّ التعرّض والمجابهة بالمثل،فلطم الغبراء ومن ثم اشتعلت الفتنة وشبّت الحرب[٢٣٨] .

وقد تحدّث الشعر الجاهلي عن هذه الحرب، وفي الدواوين والمجموعات الشعرية الكم الكثير الذي يصوّرها ويصف أحداثها ووقائعها. ولكن قلّة هي التي تعرّض لبواعثها، ولعلّ خير من يذكر ذلك في شعره هو قيس بن زهير. فهو يصف الحادثة وما واكبها من خديعة ومكر سددت سهامها إليه ولفرسه، بإسلوب يبدئ تقريريا وينتهي بالتعبير عن الاستنكار،ثم المباهاة بقوة الشكيمة،والقدرة على مواجهة الظلم ودرئه[٢٣٩] :

كما لاقيتُ من حَمَلِ بن بدرٍ ... وإخوتِه على ذاتِ الأصادِ[٢٤٠]

هموا فَخروا عليّ بغيرِ فَخْرٍ ... وذادُوا دُونَ غايَته جوادي

وقالوا قَد قَمَرناهُ خِداعا ... وأين الخَدْعُ من مائةِ الجِيادِ

وقد دَلَفُوا إليّ بفعل سُوءٍ ... فالفوني لهم صَعْبَ القِيادِ

وكنتُ إذا مُنيتُ بِخَصْمِ سوءٍ ... دَلَفْتُ له بِداهِيَةٍ نآدِ[٢٤١]

كَرِهنا ان يُقَرَّ الخسفُ فينا ... دفَغْنا بِالمُهَنَّدةِ الحِدادِ

وإذا كانت هذه الحرب قد جاءت ثمرةً لتحدّ قَوْلي أفضى إلى رهان مشؤوم، فإن السعي لإنهاء المعارك والاقتتال وإصلاح ذات البين بين الأطراف المتصارعة، لينطوي

---

(٢٣٨) انظر السيرة النبوية، ١: ١٧١.

(٢٣٩) شعر قيس بن زهير: ص ٢٩. والشعر في حرب داحس والغبراء: ص ٣٥٣.

(٢٤٠) ذات الأصاد: موضع كان يجري داحس والغبراء منه. لسان العرب، مادة أصد.

(٢٤١) نآد: الداهية. لسان العرب، مادة نأد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على قدر من التحدّي لمفاهيم رسخت في الأذهان، ولنمط حياة هيمن حقبة من الزمن. وقد نهض لهذا الأمر نفر من ذوي الحزم والحكمة والثبات في المواقف، فواجهوا معركة إنهاء الحرب بتصميم وبذل وإخلاص إلى أن ارتأب الصدع وحلّ السلام والوئام في الأحياء المتحاربة[٢٤٢] .

ولم يكن الشعراء بمنأى عن هذا التوجّه، بل كان لهم قولهم الهادف في تصوير بشاعة الحرب وشرورها وويلاتها[٢٤٣] ، وكان لهم ثناؤهم ومدحهم وإكبارهم لمن سعى في وعمل على إنهائها، وإعادة الصفاء والودّ إلى النفوس المتنافرة. فهذا زهير بن أبي سلمى يصف الحرب، ويبين بشاعتها وتأثيرها المدمّر وعواقبها الوخيمة المشؤومة[٢٤٤]

وما الحربُ إلا ما علمتم وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديثِ المَرجَّمِ[٢٤٥]

مـــتى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتموها فَتَضْرَمِ[٢٤٦]

فَتَعرُ كُـكُمُ عَـرَكَ الرَّحا بِثِفالِها ... وتَـلقَـــحْ كِشافاً ثُم تُنتَجْ فَتُتئِمِ[٢٤٧]

فَتُنْتَجْ لكـــم غِلْـمان أشْأم كُلُّهم ... كأحمـــرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فَتفطِمِ[٢٤٨]

هذا، ومن المعروف أن له أكثر من قصيدة ومقطوعة شعرية في مدح من احتمل غرم إنهاء القتال. ومن ذلك قوله[٢٤٩] :

---

[٢٤٢] انظر في ذلك -مثلا- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٣/٤ .

[٢٤٣] من ذلك ما قاله الحارث بن وعلة. مجالس ثعلب ٢: ٣٦٤/٣٦٥. وشرح ديوان الحماسة: ص ٢٠٤.

[٢٤٤] شرح الديوان: ص ١٨ وما بعدها.

[٢٤٥] المرجّم: المظنون. شرح الديوان: ص ١٨.

[٢٤٦] تمضر: تُعَوَّد. تَعْتاد. الشرح: ص ١٩.

[٢٤٧] تعرككم: تطحنكم. الثفال: جلدة تكون تحت الرحا يقع الدقيق عليها.
وتلقح كشافا: أي تداركم الحرب. تتئم: تأتيكم باثنين. الشرح : ص ١٩.

[٢٤٨] غلمان أشأم: كُلّهم في الشؤم كاحمر عاد. وأحمر عاد هو أحمر ثمود عاقر الناقة. والمعنى العام للبيت أن غلمانهم تكون ولادتهم ونشأتهم في الحرب فيصبحون مشائيم على آبائهم. الشرح: ص ٢٠. وانظر المثل "أشأم من أحمر عاد"، في مجمع الأمثال للميداني ١: ٣٧٩.

[٢٤٩] انظر شرح الديوان: ص ١٤. وما بعدها. وانظر في مدحاته (الشرح) بصفحات عدّة متفرقة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَعَى ساعِيا غَيْظِ بنِ مُرَّةَ بعدما تَبَزّلَ ما بينَ العَشيرَةِ بالـدَّمِ[٢٥٠]

يميناً لِنعمَ السَيّدانِ وُجِـدتُمـا على كُلِّ حالٍ من سَحيلٍ وَمُبْرَمِ[٢٥١]

تَـدارَكْتما عَبْساً وذُبيانَ بَعْدَما تَفانَوا وَدَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشَمِ[٢٥٢]

وبذلك يتبين لنا أن البواعث الاجتماعية للتحدّي كانت تنجم في المقام الأول عن نظام المجتمع الجاهلي "بدستوره" العرفي وبمعماره الاجتماعي القبلي. لقد ميّز هذا "الدستور" في التعامل بين من يلتزم به وبين من يخرج عليه مهما كانت دواعي هذا الخروج ومسبباته. فالملتزمون كان لهم حق التمتع بما تمنحه "العصبية" من رعاية وحماية وحفاظ على النفس والأهل والمال. وهو ما كان يحرم منه الخارجون عليه، وكنتيجة لايقاع عقوبة "الخلع" عليهم. الأمر الذي كان يحزّ في نفوسهم ويستفزهم ويدفع بهم إلى اتخاذ المواقف المتحدية او العدائية.

وكذلك فإن المعمار الاجتماعي للقبيلة بما تضمنه من تمييز بين أفراد طبقاته الثلاث سواء من حيث النظر، والاعتبار أو التعامل، كان مدعاة -في أحوال عدة- إلى معاناة البعض من الغبن والظلم والإذلال، وهو ما لاتطيقه طبيعة العربي الأنفة الأبية. فكان من البديهي أن يؤدي ذلك إلى اللجوء للتصدي والتحدّي اللذين ربما اتسعت دائرتهما لتشمل السيد أو الملك.

وتبين لنا ايضا ان العلاقات الاجتماعية بين القبائل كانت تتأثر -سلباً- وفي ظروف معينة بالعلاقة الشخصية للأسياد والرؤساء، وبمواقفهم الناجمة عن تعرضهم - فيما يلوح لهم- للاستفزاز والتحدي، أو ما يظنون أنه انتقاص من قدرهم وشرفهم وعزتهم مما ينتهي بهم إلى المواجهة والمجابهة، فالاقتتال والحرب.

---

(٢٥٠) ساعيا غيظ بن مُرة هما الحارث بن عوف، وهرم بن سنان. وتبزّل بالدم: تشقق. الشرح: ص ١٤.

(٢٥١) السحيل والمبرم: بمعنى غير المحكم من الأمر. على كل حال: من شدة الأمر وسهولته.

(٢٥٢) منشم: من معانيها انها إسم وضع للحرب لشدتها. انظر قصة عطر (منشم) في الشرح ص: ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

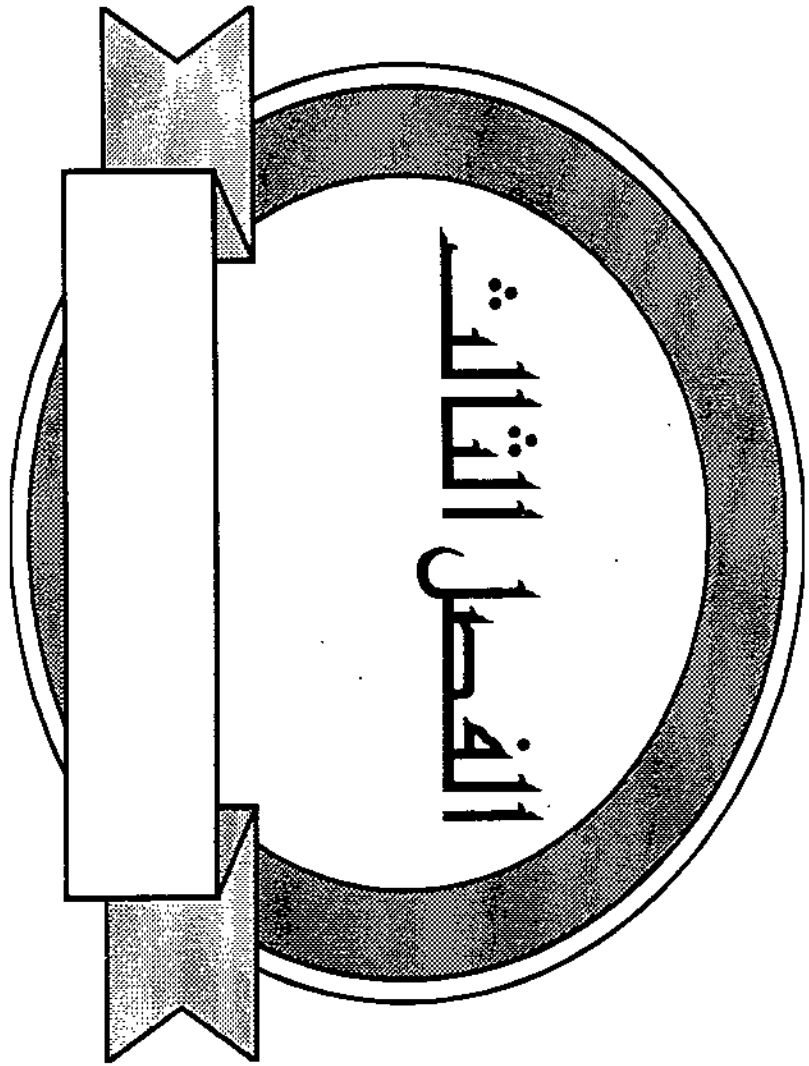

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

البواعث الاقتصادية والتحدي

١. الوضع الاقتصادي في المجتمع القبلي:

إن للبيئة الطبيعية أثرها في خلق المجتمعات وتكوينها وفي تباينها موطناً ونظاماً ونمط حياة كما أن لها فعلها في الحياة الاقتصادية لهذه المجتمعات.

ومنذ أن وجد الإنسان وظهر على وجه الأرض وهو يحاول جاهداً استغلال موارد هذه البيئة بوسيلة أو بأخرى ليتسنى له إشباع حاجاته الأساسيّة أوّلا ثم الكمالية. غير أن البيئات الطبيعية على اختلاف من حيث قدراتها على العطاء، والاستجابة للمؤثرات البشريّة فهناك البيئة الصعبة، وهناك البيئة السهلة أو الميسّرة.

والبيئة الصعبة هي بيئة متحدّية وعنيدة في تحدّيها، وتحتاج إلى جهد إنساني كبير وتفوّق معرفيّ مستمدّ من خبرات خاصة ليصبح في الإمكان إستغلال مواردها على الوجه الأكمل وتتمثل في البيئات الجافة والجبليّة الوعرة وأشباهها[٢٥٣] .

وبلاد العرب هي إحدى تلك البيئات الجافة الصعبة، ولكن ما هي مواردها التي تتحدّى الإنسان في القدرة على استغلالها وعلى الإفادة من عطائها؟

من المعروف أن موطن العرب فقير جداً في الموارد الطبيعية، إلاّ أن هناك مورداً هامّاً -رغم ضآلته- تمحور حوله اقتصاد المجتمع العربي ولاسيّما البدوي في عصر ما قبل الإسلام.

إنه الكلأ الذي يتحدّى الجفاف والجدب في البادية. على أنّ في البادية أنواعا مختلفة من الأرضين منها تلك البقاع الرملية القفرة عديمة الماء في الصيف[٢٥٤] وهي

---

[٢٥٣] انظر البيئة والإنسان: ص ١٢/ ١٣.

[٢٥٤] انظر Muhammad at Mecca, I.I, Pi .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي يتحدّاها الكلأ في فصل الشتاء عقب تلقي الأرض العطشى لحبات المطر، فينبت وينمو ويغدو موطنه المغطى آنذاك بالأعشاب والحشائش الخضراء مرتعاً ومربعاً للماشية، وبخاصة الإبل التي هي عماد حياة العربي من وجوه عدّة.

ولكن ومع هجوم حرّ الصيف، يشتد الجفاف ويتصدّى للكلأ، فيضعفه، ويجف العشب ويذوي المرعى ثم ينعدم. وعندها يبدأ تحدّي الإنسان للطبيعة فيثور على جبروتها ويرفض الثواء منتظرا الموت جوعاً وعطشاً، ومن ثم ينتقل بسوامّه الى بقاع أخرى من البادية، وهي المناطق التي تتميز بشيء من الخصب لوجود بعض الآبار او العيون فيها. وهذه بدورها تساعد على نموّ الأشجار المعمّرة والشجيرات العطرية التي يجد البدوي فيها حاجته وحاجة مواشيه من المأكل والمشرب[٢٥٥]، فيركن إليها ويلقى عصا الترحال إلى حين.

وإذا كانت الإبل –ربيبة الكلأ– ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة البدوي، فإن لها تأثيرها الاقتصادي في حياة الحضر ايضا، كونها ترفد، النشاطين الزراعي والتجاري اللذين كانا يمارسان في المواطن التي تتيح ذلك.

غير أن هذا المورد هش أمام التقلبات الجوّية والتغيرات المناخيّة التي تتسم بها الطبيعة في الجزيرة العربيّة، لذلك كان العربي بحاجة إلى موارد أخرى رافدة للرزق. والناظر المدقق في أحوال العرب –مدرهم وحضرهم– آنذاك، يجد أنهم اعتمدوا ثلاثة موارد أخرى متفاوتة في الأهمية والأثر، وتتمثل في الزراعة والتجارة والغنائم والأسلاب من الغزو والحروب، وجميعها تدور في فلك المورد السابق من خلال الاستعانة بالإبل، ربيبة الكلأ ولقد كانت الإبل –وما تزال– الثروة الأساسية في المجتمع البدوي. فلا بأس من الوقوف عندها قليلاً.

٢. الثروة الحيوانية:

لقد "تألف العرب الإبل منذ أقدم الأزمنة وذللوها لحمل الأثقال وانسلوها واستكثروا من اولادها"[٢٥٦]، واعتمدوا عليها في شتى شؤون حياتهم، سواء في السلم أو في الحرب.

---

[٢٥٥] انظر Muhammad at Mecca, I.I. RI .

[٢٥٦] انظر الإبل في الشعر الجاهلي: ص ١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ثمّ كان العربي يجهد في رعايتها، ويتحدّى الطبيعة بمختلف عناصرها –وفي مقدّمتها الإنسان– في سبيل الحفاظ عليها والإبقاء على حياتها، والحيلولة دون استلابها، يقول الأعشى[٢٥٧]

ألسنا المانعين إذا فَزِعنا ... وزافَتْ فَيلَقٌ قبلَ الصباحِ[٢٥٨]

سَوامَ الحيّ حتى نَكْتَفيهِ ... وُجودُ الخيل تَعثرُ في الرِّماحِ

كما كان البدوي يفخر بحيازته الكمّ الكثير منها لأنها كانت في نظره ونظر المجتمع الجاهلي مقياساً لثروة الفرد ومعياراً لثراء القبيلة وقوّتها وعزّتها. يقول أبو دؤاد الإيادي في معرض فخره بكثرة عدد إبله وبضخامتها[٢٥٩]:

إبلِي الإبلُ لا يُحوِّزُها الرا ... عونَ مَجُّ النَدى عليها المُدامُ

فـإذا أقْبَلَتْ تقولُ إكامٌ ... مُشرِفاتٌ فوقَ الإكام إكامُ[٢٦٠]

وإذا أَعْرَضتْ تقولُ قُصورٌ ... من سماهِيجَ فوقها آطامُ[٢٦١]

ولأنها الغالبة على أموال العرب فقد كثر عندهم إطلاق لفظ المال عليها[٢٦٢]. يقول الأعشى[٢٦٣]

جَعلَ الإلهُ طعامَنا في مالِنا ... رِزقاً تَضمّنَه لنا لن يَنْفَدَا

فكانت بمثابة النقد الذي يجري التعامل به في مختلف الأمور الحياتية، كشراء القوت، وابتياع الخيل والعتاد الحربي، ودفع ديّات القتلى. وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم[٢٦٤]

---

[٢٥٧] انظر ديوانه: ص ٣٩٥. وانظر التحدّي القولي لمرة بن همام في المفضليات: ص ٣٠٣.

[٢٥٨] زافت فيلق: مشت الكتيبة العظيمة مسترخية الأعضاء. انظر لسان العرب، مادة زوف.

[٢٥٩] انظر ديوانه: ص ٣٣٩.

[٢٦٠] إكام: جمع أكم ومفردها أكمة. وهي هنا القفة أي ما ارتفع من الأرض من حجارة واحدة انظر لسان العرب، مادة أكم.

[٢٦١] سماهيج: جزيرة في البحر بين عمان والبحرين. لسان العرب، مادة سمهج.

[٢٦٢] انظر لسان العرب، مادة مول. وانظر في الإبل مالاً، شرح ديوان الحماسة: ص ٦٠٨/٦٠٩ و ١٥٨٢.

[٢٦٣] انظر ديوانه: ص ٢٨١، وانظر فيه أيضا: ص ١١٩.

[٢٦٤] انظر ديوانه: ص ٥٤/٥٥ . وشرح ديوان الحماسة (التبريزي) ٢: ٥٣/٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فما أبقتِ الأيّام مِلمالِ عِنْدنا سوى جِذَمِ أذوادٍ مُحَذَّفَةِ النَسلِ[٢٦٥]

ثلاثةُ أثلاثٍ فأثمانُ خيلِنـــا وأقواتُنا وما نسوقُ إلى القَتَـــلِ

وقد كانت ديّات القتلـى، من الإبـل، تتفـاوت عـدداً ونوعـاً تبعـاً لمكانـة القتيـل فـي قومه[٢٦٦] ، فكانت دية الملوك ألف بعير، وقد دفع مثلها للأسود بن المنذر دية ابنـه الـذي قتله الحارث بن ظالم وفي ذلك قال أحدهم[٢٦٧]

ونحن رهَنّا القوسَ ثُمَّتَ فُودَيتْ بألفٍ على ظهرِ الفَزاريَ أقْرَعا[٢٦٨]

بعشرِ مئينَ للملوكِ ســعى بها ليوفي سَيّارُ بنُ عمروٍ فأسرعـــا

وقال أيضاً[٢٦٩] :

وهل وَجَدتم حامِلاً كحـــاملي إذ رهـــنَ القـــوسَ بألفٍ كاملِ

بـــديةِ ابـــن المـــلكِ الحُلاحِلِ فافتكّها مِـــنْ قبل عامٍ قابلِ[٢٧٠]

سَيّارُ الموفي بها ذو السائِلِ

هذا وفي كتب الأدب والتاريخ أخبار شتى عن الديات التي كانت تُدفع للقتلـى مـن أشراف القبائل أو أسيادها. وقد كانت مماثلة في القيمة لديات الملوك، وكانت ترفض فـي بعض الأحيان كما في حادثة كليب بن وائل. فحين قتل جسّاس بن مرة كليباً، عَـرض أبـو جسّاس –مُرّة بن ذهل– دية لكليب ألف ناقة سوداء المُقل، فرفضها القوم ووقعت الحـرب بينهم[٢٧١] .

وفي الوقت نفسه كان هؤلاء الأسياد يتحملـون ديـات قتلـى الحـروب، وقد بلـغ مـا تحمّله الحارث بن عوف وهرم بن سنان من ديات قتلـى حـرب (عبـس وذبيـان) مـا يزيـد على ثلاثة آلاف بعير[٢٧٢] ، وذاك في سعيهما لإنهاء تلك الحرب.

---

[٢٦٥] جذم: أصل، أذواد: جمع ذود، مادون العشرة من الإبل. ومحذّفة: مقطوعة.

[٢٦٦] انظر الإمتاع والمؤانسة ٢: ٢٧.

[٢٦٧] كتاب إيام العرب ٢: ١٤٨. والأغاني ١١: ٣٨٩٧. والعقد الفريدة ٥: ١٤٩.

[٢٦٨] خبر القوس في المصادر السابقة.

[٢٦٩] العقد الفريد ٥: ١٤٩.

[٢٧٠] الحلاحل: السيّد الشجاع. ترتيب القاموس المحيط، مادة حلل.

[٢٧١] العقد الفريد ٥: ٢١٦ . وانظر الأغاني ٥: ١٦٨٤/١٦٨٥. وانظر الإبل في الشعر الجاهلي: ص ١٥٦.

[٢٧٢] شعراء النصرانية ١: ١٦٥. وانظر شرح المعلقات السبع: ص ١٠٨/١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفضلاً عن دية القتلى أو (العقل) كان أسرى الحرب يُفْدون بالإبل، وكانت فدية السيد أو الشريف أكثر من فدية الآخرين، وكان يبالغ فيها أحياناً بحيث تتراوح من مائتي بعير إلى أربعمائة بعير، وقد فدى بسطام بن قيس نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرساً[٢٧٣] وفي حالات خاصة فريدة كانت الفدية بالالاف من الإبل، ويذكر (الميداني) أن الأشعث بن قيس أسرته قبيلة مذحج "ففدى نفسه بما لم يُفْد به عربي قط لاملك ولا سوقة، بثلاثة آلاف بعير، وإنما كان فداء الملك ألف بعير"[٢٧٤] وفي أسر الأشعث وفديته يقول عمرو بن معد يكرب، مشيراً إلى قتل قومه لقيس أبي الاشعث[٢٧٥] :

وَهُمْ قتلوا بذاتِ الجار قيساً ... وأشعثَ سلسلوا في غير عَقْدِ

أتانا ثائراً بأبيهِ قيسٍ ... فأُهلِكَ جيشُ ذلكمُ السَّمَغْدِ[٢٧٦]

فكان فِداؤه ألفي بعيرٍ ... وألفاً من طريفاتٍ وتُلْدِ

بالمقابل كانت الفدية المطلوبة لاتعدو بعيراً أو ناقة، وخاصة إذا كانت هذه الفدية على جانب كبير من الأهمية والقيمة بالنسبة لصاحبها، لخصال وصفات معيّنة فيها. من ذلك ما وقع لقيس بن العيزارة –الشاعر الهذلي– حين أسرته (فهم) وعرض على تأبّط شرا أن يفدي نفسه منه بالإبل والشاه. فلم يرضهم إلا ناقته (البلهاء) الأثيرة لديه العزيزة على قلبه، فقال[٢٧٧] :

فقلتُ لهم شاةٌ رغيبٌ وجامِل ... وكلكُمُ من ذلك المالِ شابِعُ[٢٧٨]

وقالوا لنا البلهاءُ أوّلَ سُؤْلةٍ ... وأعراسُها، واللهُ عني يُدافِعُ[٢٧٩]

---

(٢٧٣) كتاب أيام العرب ٢: ٣٦٨. والعقد الفريد ٥: ١٩٦، وانظر في فدية الأسير، المفضليات: ص ٣٢٧. وبسطام بن قيس بن مسعود الشيباني، كان من فرسان العرب في الجاهلية واشرافها. العقد الفريد ١: ١١٧.

(٢٧٤) مجمع الأمثال ٢: ٣٨٠.

(٢٧٥) ديوانه : ص ٧٩.

(٢٧٦) السمغد: المتكبر، والمتورم من الغضب. الديوان.

(٢٧٧) انظر ديوان الهذليين ٣: ٧٧.

(٢٧٨) الجامل: جماعة أو قطيع الإبل مع أو بدون رعيانها. لسان العرب، مادة جمل.

(٢٧٩) أعراسها. أولادها. وقد كانت البلهاء ناقة كريمة نجيبة فارهة. المصدر نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأمّا في الحياة الإجتماعية السلميّة، فقد كانت الإبل أصل الصداق عند العرب، وكانوا يسمّونه أحياناً السوق، لأنهم إذا تزوّجوا ساقوا الإبل والغنم مهراً[٢٨٠] .وهو -كما الحال في الدية أو الفدية- على تفاوت من حيث القيمة، بما يتناسب ومكانة الممهورة الاجتماعية، ومقام رهطها وعشيرتها. وإلى هذه القيمة يشير خالد بن جعفر بن كلاب إذ يقول[٢٨١] :

بل كيف تَكْفُرُني (هَوازِنُ) بَعدَما أعْتَقْتُهُمْ فتوالَدَوا أحـراراً[٢٨٢]

وَجَعَلْتُ مَهرَ نِسائِهم ودِمائِهم عُقَلَ المُلوكِ هَجائِنا وبِكارا[٢٨٣]

هذا ولعلّه من المناسب أن نشير هنا إشارة سريعة إلى أهمية الإبل في التنقل والترحل، كونها -كما الخيل- وسيلة الانتقال والمواصلات في الصحراء الشاسعة ذات الطرق المجهولة والدروب الغامضة المعالم، وايضا عبر الصحراء إلى الأطراف وأمارات التخوم والممالك المجاورة وسيكون لنا حديث آخر وعلى شيء من التفصيل حول هذه الأهمية، في مواضع لاحقة من هذا البحث.

ولكن هل كانت هذه الثروة الحيوانية في متناول يد الجميع؟ وهل كان ينعم بها كل فرد من أفراد المجتمع الجاهلي؟ بديهي أن الأمر لايمكن أن يكون كذلك، وخاصة في البيئة التي نحن بصددها، والتي تطرقنا إلى توضيح ماهيتها أكثر من مرّة.

بلى، لقد وجد في بادية العرب أغنياء، وعلى درجة من الثراء تتيح لهم امتلاك عدد من الإبل يتراوح ما بين المائتين إلى الألف، وكانوا يسمّون بالفدّادين[٢٨٤] ، وإذا تجاوزت ثروة الواحد منهم الألف بعير كان يطلق عليه لقب فاقئ عين البعير، لأنه يفقأ

---

(٢٨٠) انظر لسان العرب، مادة سوق. وانظر العقد الفريد ٦: ٨٤.

(٢٨١) انظر الأغاني ١١: ٣٨٧٦. والإمتاع والمؤانسة ٢: ٢٢.

(٢٨٢) يشير الشاعر هنا إلى قتله سيد هوازن - زهير بن جذيمة- وانعتاق هوازن من ظلمه. وضيمه. انظر الخبر في الأغاني ١١: ٣٨٦٨ وما بعدها.

(٢٨٣) العقل: جمع عقال، وهي الناقة الفتيّة الحسنة. والهجائن: البيض الكرائم من الإبل.

(٢٨٤) لسان العرب، مادة فدد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آنذاك عين واحد من إبله ويسرّحه[٢٨٥] . وممن فقأ عين بعيره الشاعر الجاهلي بشامة بن الغدير الذي كان معروفاً بكثرة ماله[٢٨٦] ومنهم أيضاً مالك بن المنتفق الضبّي[٢٨٧] .

وبالمقابل وجد في هذه البادية فقر، وفقر شديد. فقد كان هناك فقراء كثر مدقعون معدمون، لايملكون شيئا من السوام أو غيره مما تعتمد عليه الحياة والمعاش. "وبعضهم كان يملق حتى لايبقى له شيء"[٢٨٨] حتى الخيمة، المأوى الذي يدفع عنه سفع الحرّ ولسع البرد.

وإذا ما أرادوا الإنطلاق إلى حيث يجدون شيئاً يقيم أودهم، كانت ركابهم الأرجل والأقدام. وقد كان البعض إذا أرمل وعضه الجوع بنابه، وأشرف على الهلاك تحدّى الفناء وسعى للبقاء بأن يأكل أي شيء تقدّمه له الطبيعة الصحراوية الضنينة مثل نبات الجبال وحشرات الأرض من يرابيع وضباب وجرذان وحيات، و"ما حمَض ومَرّ، وخبث وضر"[٢٨٩] ويشرب أي ماء يقع عليه ولو كان آسنا ممجوجاً، ويلبس الخشن والأسمال من الثياب تفادياً للعري، في الوقت الذي تكون فيه ثروات الأغنياء ونعمهم تحت السمع والبصر، وفي متناول اليد إذا تهيأت الأسباب ووانت الظروف.

ونمط حياة على مثل هذا القدر من التناقض ألا يثير المشاعر؟ بل ألا يستثير نوازع التحدّي لدى المحروم والمعدم؟ فيندفع للقيام بأي عمل –مهما كان– إذا كان لتوفير اسباب العيش، ان لم يكن الثروة والغنى.

من هنا كان الغزو، وكانت الغارات والنهب والسلب، ولم يكن قاصراً على الأفراد من الفقراء، وإنما كان للجماعات والقبائل دور كبير فيه، وهو ما سنتبينه في موضع آخر يكون الحديث فيه عن الغزو والغارة مورداً للرزق والثروة.

---

(٢٨٥) المصدر نفسه، مادة فقأ.

(٢٨٦) طبقات الشعراء: ص ١٤٦.

(٢٨٧) العقد الفريد ٥: ٢٠٣.

(٢٨٨) الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي: ص ١٤٧.

(٢٨٩) انظر الإمتاع والمؤانسة: ص ٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣. الثروة الزراعية:

مرّ معنا أنه كان في بلاد العرب مناطق خصبة، ولعل أهمها تلك التي في اليمن وفي الواحات. وقد كانت اليمن تتميز بتربتها الخصبة الغنية الموائمة لزراعة العديد من أشجار الفاكهة والكروم والبقول والحبوب التي كانت تروى من مياه الأمطار والينابيع والآبار من جهة، ومن جهة أخرى. من المياه التي تزودها بها أساليب الري ووسائلها، إذ كان اليمنيون على دراية وخبرة بها[٢٩٠] ، وخاصة إقامة السدود[٢٩١] ، وقد بني سدّ مأرب مثلا من الرخام وكان "يروي الزروع وأعنابها"[٢٩٢] وهذه البيئة الزراعية الغنية، كان لها دور كبير في الإستقرار الحياتي والمعيشي للسكان وفي إثراء شريحة منهم، فأصبح البعض أصحاب قصور، وملاّك عقار ومزارع، ومن ثم "عاشوا في غبطة"[٢٩٣] وفي ترف ورفاهية.

وفي الواحات، وغيرها من المناطق الجبلية الخصبة -كالطائف مثلاً- نمت أشجار الفاكهة مثل التفاح[٢٩٤] والرمان[٢٩٥] والتين[٢٩٦] والأترج[٢٩٧] وكروم العنب[٢٩٨] وغيرها.

غير أن هذه المزروعات والنباتات تقصر عن أن تصنف من روافد الثروة النباتية الرئيسية، فالمورد الأساسي لهذه الثروة هو شجر النخيل[٢٩٩] . وقد اهتم العرب -كما الآن- بزراعة النخيل وتعهده لغايات الاستثمار الغذائي والاقتصادي "لذا فقد وجد النخل في كل مكان من جزيرة العرب فيه ماء ولو كان قليلاً[٣٠٠] ".وقد ورد ذكر النخيل في

---

(٢٩٠) Muhammad at Mecca, 1.1 P2.

(٢٩١) History of the Islamic People, P3 .

(٢٩٢) ديوان الأعشى : ص ٩٣.

(٢٩٣) المصدر نفسه. مروج الذهب ٢: ١٨٠. وصبح الأعشى ٥: ١٦.

(٢٩٤) ديوان الأعشى: ص ٣٢٧، و ٤١١ (وفيها جاءت كلمة سيّاب وهي التفاح). وانظر ديوان عبيد: ص ٤٣ (الكتاب العربي). وديوان أوس بن حجر: ص ١٤.

(٢٩٥) ديوان لبيد بن ربيعة: ص ٢٤٤. وديوان أوس بن حجر: ص ١٤ (أو من أنابيب رُمّان وتفّاح).

(٢٩٦) ديوان أبي دؤاد الإيادي: ص ٣١١.

(٢٩٧) شرح ديوان علقمة الفحل: ص ٣٤٠. وديوان عبيد بن الأبرص: ص ٤٣.

(٢٩٨) انظر ديوان امرئ القيس: ص ١١٥. وانظر السيرة النبوية ١: ٢٦٦. وفتوح البلدان: ص ٦٨/٦٩.

(٢٩٩) History of the Islamic People, P.7 .

(٣٠٠) أرباب المهن: ص ١٣٧. وانظر بلوغ الأرب ١: ٢٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشعر الجاهلي، وبكثرة[٣٠١] ، ومنه ما جاء منسوباً إلى موطنه وفي معْرض التشبيه. يقول بشامة بن الغدير[٣٠٢] :

كأنّ ظعْنَهم والآل يرفَعُهم نَخلُ المشقّر او ما زيّنت هَجرُ

ويقول امرؤ القيس[٣٠٣] :

أوَ ما ترى أظعانَهُنّ بَواكِراً كالنَّخْلِ منْ شَوْكانَ حينَ صِرامِ[٣٠٤]

ويقول الأعشى[٣٠٥] :

ألَمْ ترَ أنّ العِرْضَ أصبَحَ بَطْنُها نَخيلا وزَرْعاً نابتاً وقَصافِصا[٣٠٦]

وفي هذا إشارة إلى أن هجر وشوكان والعرض هي مناطق خصبة ذات ماء وزروع وتقوم شهرتها. على غراس النخيل التي كانت تنمو فيها بكثافة.

وأمّا الواحات فقد كان لها دور كبير في الثروة النباتية، وهي أراضٍ واسعة ذات خصب ونماء تضم مزارع وبساتين فاكهة وحوائط ترتوي جميعها من ماءٍ ثرّ دائم التدفق. ومن ثمّ كانت الزراعة مورداً رئيسياً في حياتها، وبخاصة غرس أشجار النخيل.

ولعلّ أهمّ الواحات تلك التي غدت موطناً مستقراً للقبائل العربيّة مثل يثرب والطائف. فالمدينة أو يثرب واحة كبيرة تحيط بها الحرار الخصبة من جميع جهاتها وتشتهر بغزارة مياهها وعذوبتها[٣٠٧] . واشتهرت بكثرة بساتين النخيل الخضراء المزدهرة، التي كانت في منظور الشعراء جنة وارفة الظلال، وأصبحت مضرب مثل لهم. يقول امرؤ القيس في وصف رحلة الظعن[٣٠٨]

---

(٣٠١) ديوان عبيد بن الأبرص: ص ١١٠ . وديوان زيد الخيل الطائي: ص ٧١.

(٣٠٢) انظر شعر بشامة بن الغدير: ص ٢١٩ (مجلة المورد). وانظر في ذكر هجر، ديوان لبيد: ص ٥٨.

(٣٠٣) ديوانه: ص ١١٥ وانظر فيه أيضا: ص ١٦٨.

(٣٠٤) شوكان: موضع كثير النخل ناعمه، الديوان.

(٣٠٥) انظر ديوانه: ص ٢٠١. وانظر أيضاً ديوان امرئ القيس: ص ١٦٨.

(٣٠٦) العرض: وادٍ باليمامة. وقصافص: القصفصة: الرطب من علف الدابّة. انظر لسان العرب، مادة قصص.

(٣٠٧) انظر ديوان أحيحة بن الجلاح: ص ٤٣.

(٣٠٨) ديوانه : ص ٤٣. والعقمة: ضرب من الوشي. انظر لسان العرب، مادة عقم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَلَوْنَ بأنطاكِيَّة فوقَ عِقْمَةٍ كجِرْمَةَ نَخلٍ أو كَجَنَّةِ يثرب[٣٠٩]

ويقول بشر بن أبي خازم مشبّهاً الإبل "بجنّة يثرب"[٣١٠]

والمانح المِئَةَ الهجانِ بأسرِها تُزَجَى مَطافِلُها كجنَّةِ يثربِ[٣١١]

فلا غرو أن كان اقتصاد اليثربيين مبنياً على النخيل. وقد كانوا يعتمدون على انتاجه في شتى الأمور الحياتية، فبه يتعاملون، ومنه تدفع الأجور، ومن غلّته تسدّد الديون. وكان منهم من يملك الأراضي الواسعة التي إمّا أن يزرعها لحسابه أو يؤجّرها، ومنهم من كانت له أرض متواضعة يزرعها بنفسه، وهناك من لايملك ارضا، وهذا الأخير كان يعتمد في رزقه على زراعة أرض غيره مقابل نصيب مما تنتجه الأرض، وما أشبه[٣١٢] .

وإذا كنا نقتصر في حديثنا هذا على المدينة دون غيرها من المناطق الزراعية، فلأنه ربما تتضح في وضعها الاقتصادي -اكثر مما يتضح في غيرها- الأسباب أو بواعث التحدّي.

لقد كانت أخصب أراضي يثرب وأكثرها ناتجاً ملكاً للأغنياء، واليهود منهم خاصة[٣١٣] وهؤلاء كانوا يستغلون حاجة الفقراء من أصحاب الأراضي، الذين قد يضطرهم ضعف المحصول أو قلته إلى الإستدانة نظير رهن يقدّمونه. وكان يحدث أن يعجز المدين عن فكّ الرهن فتنتقل ملكية أرضه إلى دائنه. وبذلك كان الأغنياء يزيدون غنى، والفقراء فقراً.

---

(٣٠٩) جرمة نخل: ما يصرم من البُسر. انظر لسان العرب، مادة جرم.

(٣١٠) ديوانه: ص ٣٩. وانظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٠٠ (جنة ملهم) ايضا.

(٣١١) الهجان من الإبل: البيض الكرام العتاق. والمطافل: جمع مطفل وهي الناقة معها ولدها الطفل. انظر لسان العرب، مادتي هجن وطفل.

(٣١٢) مكة والمدينة: ص ٣٥٨.

(٣١٣) فتوح البلدان: ص ٣١ و ٣٥ و ٤٠ و ٤٣و ٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا إلى جانب شيوع الربا، فقد كان معظم هؤلاء الأغنياء يتعاملون بالربا حين يبيعون أو يقرضون. وكان الربا، أحياناً يصل إلى أضعاف القرض نفسه[٣١٤] مما كان يثقل كاهل الفقير وقد ينتهي به الأمر إلى الخراب والإفلاس.

ثم إن بعضا من ذوي الغنى كان لديه إلى جانب ممتلكاته وأراضيه الواسعة والمتعددة ثروة حيوانية، معظمها من الإبل، التي كان يستخدمها في نقل محصوله وفي نضح مياه الآبار لسقي النخيل والزرع[٣١٥] .

وقد كانت الآبار من الكثرة ووفرة الماء على درجة تجعل أصحابها في غنى عن ماء المطر "إذا جمادى منعت قطرها"[٣١٦] .

ولعلّ خير مثل على أصحاب الثروة العريضة في المدينة المنورة أحيحة بن الجلاح[٣١٧] الذي اجتمعت فيه مزايا الشاعرية والسيادة والثراء. فمن ثرائه أنه "كان له بالجُرْف صَوْرٌ من نخل قل يومٌ يمرُّ إلاّ يطّلع فيه، وكان له تسع وتسعون بعير كُلها ينضح عليها"[٣١٨] كما كانت له أرض اسمها الزوراء ينضح ماء أبيارها ثلاثمائة ناضح[٣١٩] . وفي هذه الأرض وأثرها في تعزيز مكانته الاقتصادية والاجتماعية لدى الرهط يقول[٣٢٠] :

إني أقيمُ على الزَوراءِ أعمُرُها ... إنّ الكريمَ على الإخوان ذو المالِ

لها ثلاث بِنارٍ في جَوانِبها ... في كُلّها عُقَبٌ تُسقى بإقبالِ[٣٢١]

---

(٣١٤) مكة والمدينة: ص ٢١٣. وانظر الأغاني ١٥: ٥٣٢٧. وفتوح البلدان: ص ٦٧.

(٣١٥) انظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٤. وشرح ديوان الحماسة: ص ١٦٢٦.

(٣١٦) انظر ديوان احيحة بن الجلاح: ص ٦٨.

(٣١٧) هو أحيحة بن الجلاح بن الحريش بن جحجبي بن عوف بن مالك، سيد قومه من الأوس. انظر الأغاني١٥: ٥٣١٣.

(٣١٨) انظر الأغاني١٥: ٥٣٢٧. والصور : جماعة النخل لاواحد له.

(٣١٩) انظر العقد الفريد ٣: ٣٠.

(٣٢٠) ديوانه: ص ٧٩.

(٣٢١) عقب: نوب الواردة، ترد قطعة فتشرب فإذا وردت قطعة بعدها فشربت فذلك عقبتها. لسان العرب، مادة عقب. وبإقبال : شرب الإبل والماء يصبّ على رؤوسها. لسان العرب مادة قبل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كُلُّ النداءِ إذا ناديتُ يخذُلُنـــي إلاّ نِدائـــي إذا نـــاديتُ يـــامالي

وهنا أيضاً إشارة صريحة إلى كبر هذه الأرض حتّى أن بها ثلاث أبيار يتدفق ماؤها خلالها وإلى اعتماد الشاعر في ري المزروعات عليها دون المطر لانتظام تدفق هذا الماء.

ومع أنّ البيئة الزراعية والحاجة إلى عدد من الإبل لاستخدامها في مهامّ الأمور هي التي شجعت أهل يثرب على العناية بالإبل والحفاظ عليها، إلاّ انهم لم يتحوّلوا رعاة بحال من الأحوال. وأحيحة واحد منهم ومن ثمّ كان حرصه على تنميّة ثروته النباتية دون الحيوانية والحفاظ عليها. بيد أن توجّهه هذا جلب عليه لوم البعض، وهو لوم يعبر عن مخالفة نمط الحياة الاقتصادية لأهل يثرب بصورة عامّة. ولأن النخيل مورد رزق ليس لصاحبه فقط وإنما للغارس والقاطف والبائع والمشتري، ولأن أحيحة كان على وعي بذلك فقد جاء رفضه للوم قاطعاً، وتحدّيه للائمين أنفسهم من خلال مفاضلته بين ما يرى من ايجابيات النخيل ومن سلبيات الإبل، من حيث الجهد الذي يبذل في رعايتها والعناية بها، والفائدة المجنيّة، ومن حيث الجمال وحسن المنظر، وتوفير الاطمئنان والاستقرار النفسي يقول[٣٢٢]

يلومونني في اشتراء النخيـ لِ قَـومـي فكُـلّـهم يَعـــذِلُ
وأهـلُ الـذي بـــاع يَلحـونَهُ كـمـــا عُـــذِلَ البائـــعُ الأوّلُ
هي الظلُّ في الحرّ حقّ الظليـ لِ والمنظـــر الأحســـن الأجْمَلُ
تـعشّى أسـافِلُـهـا بـالجَبوب وتأتي حلوبَتُها مِـــن عـلُ[٣٢٣]
وتُصبِـحُ حيـــث يبيت الرَّعاءُ وإن ضَيّعوها وإنْ أهمـــلوا[٣٢٤]
ولا يَصيـــحـــون يُبغَـــونَها خلالَ المَـــلا كُـــلُّهم يَسَـــألُ

---

[٣٢٢] انظر ديوانه: ص ٧١/٧٢.

[٣٢٣] الجبوب: الأرض والتراب. انظر لسان العرب، مادة جبب. والحلوبة: عنى به حمل النخل. والمعنى ان النخل تتعشّى من اسفل أي تشرب الماء ويأتي حملها من فوق. انظر لسان العرب، مادة عشا.

[٣٢٤] الرعاء: هنا حفظة النخل. والمعنى تصبح النخل في مكانها لاتنتشر كما تنتشر الابل المهملة. المصدر نفسه، مادة رعى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على أن حماية هذه الثروة من عبث العابثين، ومن طمع الطامعين، ومن سطو اللصوص، ومن هجمات العدو، كانت من التحديات التي تتطلب تصدياً ومواجهة. من هنا جاء توجّه الأغنياء إلى فرض الحراسة على حوائطهم، فأحاطوها بالأسوار وبنوا الحصون والآطام[٣٢٥] التي كانت "عزهم ومنعتهم وحصونهم التي يتحرزون فيها من عدوّهم"[٣٢٦] وربما شيّد الواحد منهم أكثر من أطم وفقاً لما تقتضيه طبيعة الحراسة وطبيعة المتحرّز منه، فهي قد أعدت "للحدثان حصناً"[٣٢٧] و"للستر مما يتبع القواضيا"[٣٢٨].

ولكن، وإن كان مثل هؤلاء الأغنياء قد عرفهم المجتمع الزراعي، إلاّ أنهم يعدّون قلة بالنسبة للعدد الكثير من الفقراء، الذين كانوا على تفاوت في مبلغ هذا الفقر: كان منهم من يعمل في أرض غيره أجيراً، ومن تدفعه الحاجة إلى بيع محصوله الزراعي الزهيد بثمن بخس، ومن يتحكم فيه الربا بسبب قرض حيويّ. بل منهم الفقراء المعدمون المدقعون الذين لايجدون ما يسدّون به جوعهم ولو بشق تمرة.

ولاريب في أن مثل هذا الوضع الاقتصادي المختل، لحقيق بأن يهيج في نفوس البائسين والمحرومين مشاعر الحقد والسخط، التي قد تتبلور عنها مواقف متمردة ثائرة متحدّية.

٤. الثروة التجارية:

كانت بلاد العرب في عصر ما قبل الإسلام حلبة صراع على النفوذ تتبارى فيها القوتان العظميان آنذاك؛ الروم البيزنطيون والفرس. وقد حاولت كلّ منهما التغلغل في الجزيرة العربية لبسط سيطرتها عليها، ولكنهما لم تنجحا سوى في إقامة إمارات التخوم، إذ أقام البيزنطيون مملكة الغساسنة في الطرف الشمالي الغربي للجزيرة، وأنشأ الفرس في شرقها مملكة اللخميين في الحيرة[٣٢٩] .

---

[٣٢٥] انظر فتوح البلدان: ص ٣٨/ ٣٩ و ٦٧. وانظر ديوان زيد الخيل الطائي: ص ٥٧.

[٣٢٦] انظر الأغاني ١٥: ٥٣٢٨ و ٤: ١٣٦٩. وانظر ديوان قيس بن الخطيم: ص ٨٦ و ١٣٨و ١٨٢.

[٣٢٧] انظر ديوان احيحة: ص ٧٦.

[٣٢٨] المصدر نفسه: ص ٨٣. والقواضي: المنايا. انظر لسان العرب، مادة قضى.

[٣٢٩] انظر Arabia before Muhammad, P. 177 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحاولت الحبشة بقيادة أبرهة وبمساندة البيزنطيين السيطرة على الحجاز ليتم لها الهيمنة على طريق التجارة الغربي (عدن- مكة- الشام- فآسيا الصغرى) ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل لعوامل عدّة منها مقاومة قبائل عربيّة كبيرة لأبرهة وهو في طريقه إلى مكة المكرّمة ، وإغارة أعراب البادية على جيشه، يأسرون منه الجند فيسترقونهم، وينهبون منه المؤن والمعدات الحربيّة(٣٣٠) .

غير أنه كان للعرب علاقة بهذه الأمم، وهي علاقة تجاريّة في جوهرها. فالعرب زاولوا نشاطاً تجارياً منذ أقدم عصورهم مما جعلهم وكما يقول بعض الباحثين "الواسطة بين قدماء الأوروبيين والشرق الأقصى"(٣٣١) فالبيزنطيون مثلاًكانوا يعتمدون في شؤونهم التجارية على قوافل البدو التي كانت تحمل لهم الأحجار الكريمة والتوابل من بلاد الهند الغامضة، والجلود والمعادن الغريبة والحرير من الصين"(٣٣٢) وقد بلغ عرب الجزيرة قلب فارس ووفد تجار مكة على كسرى وأقاموا معه صلات تجاريّة، واتصلوا تجارياً بالحبشة وان لم تقو هذه الصلات إلاّ حين بدأت مكة في القبض على زمام التجارة التي كانت اليمن تتزعمها.

كانت اليمن في عهد سبأ وحمير هي السوق الكبرى للمتاجر، وكانت قوافلها تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين والعراق وذاك لنقل السلع التجارية، كما كانت لها سفن تنقل بضائعها إلى الهند وافريقيا(٣٣٣) .

وقد أثرى اليمنيون كثيراً من مركزهم التجاري، فعاشوا في سعة وبحبوحة إلى حدّ ما ولاسيما الأسياد والأكابر منهم الذين كان لهم "حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل. يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان، ويعمل فيها السكر والقلوب، وتطيّب أوانيها بالعطر والبخور، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية(٣٣٤) ، وفي بيته العدد الصالح

---

(٣٣٠) انظر العرب والتحدي: ص ٢٤.

(٣٣١) انظر حضارة العرب: ص ١٠٦. وانظر The life of Mohammad, Ch. 11, P.XC .

(٣٣٢) انظر الإيجابية والسلبية في الشعر العربي: ص ١٢٥.

(٣٣٣) انظر تاريخ الإسلام السياسي ١: ٢٤ وما بعدها.

(٣٣٤) الغاشية: الزوار والأصدقاء. انظر لسان العرب، مادة غشي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الإماء وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش، ولهم الديارات الجليلة والمباني الأنيقة"[٣٣٥] .

وكانت بعض قوافلهم تمرّ بالحجاز، وتدفع إتاوة لعربه الذين كانوا ينفسون على اليمنيين تجارتهم وما تدرّه من رزق وافر وثراء عريض.

وقد كانت مكة في منتصف طريق الحجاز التجاري[٣٣٦] ، ومن ثم كان لابد للقوافل التجارية السالكة هذا الطريق أن تتوقف في مكة طلباً للراحة من مشقة الدرب الطويل ومن عثاء السفر، وكذلك للتزوّد بما تحتاجه لاكمال الرحلة إلى بلاد الشام، وربما جرى في هذه المحطة شيء من المقايضة أو البيع والشراء مع تجار مكة أوالوافدين إليها يقصد التجارة من القبائل المجاورة.

ولكن حين انحطت قوة اليمن سياسياً، ضعف نشاطها التجاري، فكان أن تحول هذا النشاط إلى عرب الحجاز، وبات زمام التجارة في أيديهم. ولأهميّة مكة، موقعاً وعقيدة ونفوذاً، أصبحت المقرّ الرئيسي لإدارة شؤون الحجازيين التجارية، ومركزاً للصيرفة تدفع فيه أثمان السلع التي ترسل إلى بلاد الشام، ورسوم التجارة الدولية أيضا[٣٣٧] .

وباتت مكة في أوج نشاطها التجاري قبيل الهجرة النبوية حينما اشتد الصراع بين الروم والفرس، وحين فرضت فارس حظراً على البضائع الهنديّة التي كانت تفرّغ حمولتها في شواطئ الخليج العربي، وبموجب هذا الحظر لم يعد في استطاعة الروم البيزنطيين الحصول على ما يرغبون فيه من باذخ السلع، فكان الإعتماد على مكة في توفير ذلك. ومن ثم صار العديد من هذه الشحنات التجارية يُجلب لمكة من طريق شرقي يبدأ من ظفار ويتجه شرقاً فغرباً متجنبا قلب الصحراء[٣٣٨] ومن مكة كانت البضائع تنقل إلى العالم اليوناني والروماني.

---

(٣٣٥) انظر صبح الأعشى ٥: ٧.

(٣٣٦) انظر The Life of Mohammad, Ch 11 P. X C .

(٣٣٧) انظر Arabia before Muhammad, P. 182 .

(٣٣٨) انظر Ibid P 105 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الوضع الإقتصادي في مكة:

كان سادة مكة وأعيانها في نهاية العصر الجاهلي رجال مال وأقتصاد؛ ماهرين في التلاعب بالأسعار، حاذقين في المضاربات، ولديهم اهتمام واسع في أي استثمار بتوقعون منه ربحاً وكسباً مجزيين. ولم يكن أهل مكة لوحدهم في هذا الميدان، فقد كان هناك عدد من أثرياء القبائل المجاورة يساهمون معهم في ذلك كله(٣٣٩) .

وفي مكة كانت قبيلة قريش في الطليعة. ولقريش تاريخ مميز في تنشيط الحركة التجارية وإثرائها، فضلا عن حفاظها على رؤوس الأموال، وحماية القوافل التجارية.

ويعود الفضل في ذلك إلى "المجبّرين"(٣٤٠) أبناء عبد مناف بن قصي. وذلك – ووفقا لما أوردته بعض كتب الأخبار– بتمكنهم من أخذ "الإيلاف"(٣٤١) لتجارة قريش. ففيما يروى، كان هاشم بن عبد مناف موسراً جواداً، واسمه الحقيقي عمرو، وإنما لقّب هاشماً لأنه هشم الخبز لقومه، وكان أول من أطعم الثريد بمكّة. وقام على تنظيم مواعيد الرحلات التجاريّة ومقاصدها، وذاك حين سنّ لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى بلاد الشام وفي الشعر الجاهلي ما يدل على هذا، إذ جاء فيه(٣٤٢) :

عمرو الذي هَشَم الثريدَ لقومه قومٍ بمكةَ مسنتين عِجافِ(٣٤٣)

سَنَّتْ إليه الرِّحلَتَانِ كِلاهُما سَفرُ الشتاءِ ورِحلَةُ الأصيافِ

فهاشم هذا هو الذي –فيما يروى– جعل تجارة مكة في سعة وأمان، وذاك حين ركب إلى الشام ونزل بقيصر الروم، واظهر من الجود ماحدا القيصر للإعجاب به وتقريبه منه، واذ ذاك ذكر له هاشم أن قومه هم تجار العرب وأنه يسأل القيصر لهم "كتابا يؤمنهم ويؤمن تجاراتهم حتى يأتوا بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه. ففعل قيصر ذلك،

---

(٣٣٩) انظر Muhammad at Mecca, P. 3 .

(٣٤٠) انظر مجمع الأمثال للميداني ٢: ١٢٧ وفيه أنه دعوا بهذا الإسم لأن بهم جبرت تجارة مكة وقريش.

(٣٤١) للإيلاف عدة معان تدور في مجملها حول التأليف والإجارة والأمان والعهد والزمام. انظر لسان العرب، مادة ألف.

(٣٤٢) انظر السيرة النبوية ١: ٨٥. وانظر نهاية الأرب ٢: ٣٥٨. وانظر The life of Mohammad, P.CXi .

(٣٤٣) مسنتين: أصابتهم سنة الجدب. انظر لسان العرب، مادة (سنا)
وعجاف: أصابهم الهزال. المصدر نفسه، مادة (عجف).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانصرف هاشم فجعل كلّما مرّ بحيّ من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم، فأخذوا الإيلاف من مكة والشام"[٣٤٤] .

وصار هاشم يخرج بتجارات عظيمة إلى الشام وحين يمرّ باشراف العرب كان يحمل لهم "التجارات ولايلزمهم لها مؤونة"[٣٤٥] .

وكان متجر أخيه عبد شمس إلى الحبشة، فخرج إليها واتصل بالنجاشي ملكها، وجدد العهد بينه وبينه حين أخذ منه إيلافا لتجار قومه[٣٤٦]

وحصل الأخ الثالث –المطلب بن عبد مناف الذي كان متجره إلى اليمن– على ترخيص مماثل من حكامها لتجار قريش وإيلافا من رؤساء القبائل[٣٤٧] .

والشيء نفسه فعله الأخر الرابع نوفل بن عبد مناف اذ انطلق الى العراق، "وأخذ عهداً من كسرى والايلاف من أشراف القبائل وسادتها[٣٤٨] .

ونتيجة لهذا "الإيلاف" باتت القوافل التجاريّة تتعم بالأمن والطمأنينة، في غياب النهب والسلب مما جنّبها الخسارة وحفظ لها أموالها وأرباحها، وكان لذلك كلّه أثره في تطوير تجارة قريش، وفي زيادة ثروتها وثرائها. وقد عرض الشعر الجاهلي لما قام به آل عبدمناف ولجودهم ومروءتهم ولاهتمامهم بتوفير المأوى والطعام للفقراء. يقول مطرود الخزاعي[٣٤٩] :

يا أيها الرجلُ المحوّلُ رَحلَهُ ... هلاّ نَزَلْتَ بآلِ عبدِ مَنافِ

هَبَلَتْك أمُّك لو حَلَلْتَ بدارهم ... ضَمِنوكَ من جُوعٍ ومِن أقرافِ

---

[٣٤٤] انظر تاريخ اليعقوبي ١: ٢١٣/٢١٤.

[٣٤٥] انظر المصدر نفسه ١: ٢١٥ . وانظر The Life of Mohammad. P. Cxi .

[٣٤٦] انظر تاريخ اليعقوبي ١: ٢١٠. وانظر المحبّر: ص ١٦٣، وانظر الحيرة ومكة: ص ٤٤.

[٣٤٧] انظر المحبّر: ص ١٦٣. والنوادر: ص ٢٠١. وانظر الحيرة ومكه: ص ٤٤.

[٣٤٨] انظر المحبر: ص ١٦٤. وتاريخ اليعقوبي: ص ٢١٥. والنوادر : ص ١٩٩. وانظر Muhammad at Mecca, P.13 .

[٣٤٩] انظر تاريخ اليعقوبي: ص ٢١٤/٢١٥. والأمالي ٢: ٢٦٨. والمحبّر: ص ١٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآخذون العهدَ في آفـــاقِها والـــراحِلون لِـــرِحْلَةِ الإيلاف

وقد أتاح هذا "الايلاف" لتجار مكة أن يشـاركوا العرب فـي التجـارة، بـأن يحملـوا بضائعهم ويتاجروا بها ثم يعطونهم أرباحاً مع رؤوس أموالهـم، فـزادت الـثروات وأصبـح في مكـة عـدد مـن الأغنيـاء ذوي الأمـوال الطائلـة، بحيـث أن بعضـهم بـات قـادراً علـى المسـاهمة بثلاثيـن ألـف دينـار فـي رأس مـال إحـدى القوافل[٣٥٠] . واشـتهر بنـو مخـزوم بالثروة والمال ومنهم عبدالله بن أبي ربيعة الذي كان تـاجراً موسـراً ومـن أكثرهم مـالاً، وكان له عبيد من الحبشة كثيرون، يتصرفون في جميع المهن. وقد لقّبته قريـش (بـالعدل) لأنها كانت –مجتمعة– تكسو الكعبة في الجاهلية من أموالها سنة، ويكسوها هـو مـن مالـه لوحده سنة[٣٥١] .

كما لقبت قريش عبدالله بن جدعان (بحاسي الذهب) لأنه كـان لفـرط غنـاه يشـرب في إناء من الذهب[٣٥٢] . وقد كان ابن جدعان سيداً مـن قريش ذا ثـروة طائلـة، ولكرمـه وجـوده غدا مقصـد طـلاب الغـوث والهبـات[٣٥٣] . وقد وفـد علـى كسـرى وتنـاول عنـده (الفالوذ) ولأنه –كما أهل مكة– لم تكن عنده سابق معرفة بهذا الصنف مـن الحلـوى، فقد ابتاع غلاما فارسياً واصطحبه إلى مكة وأمره ان يصنع الفالوذ. ثم وضع الموائد بـالابطح إلى باب الكعبة. ونادى مناديه في الناس ليأتوا ويأكلوا، فجاء النـاس، وفيهـم الشـاعر أميّـة ابن أبي الصلت الذي يقول في ذلك[٣٥٤] :

لكـــلِّ قبـيلـــةٍ هـادٍ ورأسٌ وأنت الرأس تقدم كُلَّ هادي

لـــه داعٍ بـمكّـــة مُشْمَعِـلٌ وآخرُ فوقَ دارَتِهِ يُنادي[٣٥٥]

---

(٣٥٠) انظر المفصل ٤: ١١٤.

(٣٥١) انظر الأغاني ١: ٦٤/٦٥. وانظر مكة والمدينة : ص ٢١٣.

(٣٥٢) انظر مجمع الأمثال للميداني ٢: ١٢٧. وانظر مكة والمدينة: ص ٢١٣. وانظر في مبلغ غناه العقد الفريد ٥: ٢٥٦/٢٥٧.

(٣٥٣) انظر المحبّر: ص ١٣٧/١٣٨. ونهاية الأرب ٤: ٨٨. وديوان أمية بن ابـي الصلـت: ص ٤١٢ و ٤١٤و ٤٨٣.

(٣٥٤) انظر الأغاني ٨: ٣٠٧٥، ومجمع الأمثال ٢: ١٢٧. والديوان: ص ٣٨٠/٣٨١.

(٣٥٥) المشمعل: النشيط السريع. والدارة: كالدار بما فيها البناء والفناء. انظر الديوان : ص ٣٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى رُدُحٍ من الشيزىَ مِلاءٍ لُبابُ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِّهـادِ[٣٥٦]

بالمقابل كان من المكيين من هو جشع وجمّاع للمال من أي وجه، بحيث أنه كان يعوّل على الربا في تنمية ثروته، وقد "كان الربا مظهرا من مظاهر الحركة الإقتصادية والتجارية وكان الربا أحياناً يبلغ أضعاف القرض نفسه، فتؤكل بذلك أموال المدين وتذهب حقوق الأفراد"[٣٥٧] .

وإلى جانب الربا كان منهم من يبيع بضائع لاوجود لها، أو قبل وصولها إلى مكّة، غير عابئ بما قد يسببه ذلك من إفقار أو إفلاس للبعض[٣٥٨] ، أو حتى موت: فقد كان بعض تجار مكة إذا ساءت حالتهم المالية أوأفلسوا، انسلوا من مكّة بالسرّ وخرجوا إلى البادية، ومكثوا هناك دون طعام أو شراب إلى أن يموتوا جوعاً، إذ كان الموت على هذه الصورة أهون عليهم من إستجداء المساعدة من الإغنياء[٣٥٩] .

لعلّ وضع مكة الإقتصادي المزدهر بما وفرّه من مال كثير وثراء عريض لفئة معيّنة من أهلها، هو الذي مكّن الأغنياء منهم من انفاق المبالغ الضخمة في تجهيز قوافلهم التجارية ولاسيما الكبيرة منها. اذ كان منها ما يتكوّن من خمسمائة وألفي بعير محمّلة بمختلف البضائع والسلع، وبعضها كان يحمل الفاخر والنفيس والباذخ من أقمشة وأفاويه –ومثل هذه القوافل كانت تدعى باللطائم–[٣٦٠] وكان لذلك أثره في قيمة الحمولة التجارية، اذ قد تبلغ قيمة ما تحمله قافلة مكونة من خمسمائة وألف بعير خمسين ألف دينار[٣٦١] ومثل هذه القوافل كانت تستدعى عناية فائقة في التجهيز؛ وكان حجمها الكبير يتطلب حماية فاعلة ضد أي هجوم او غارة.

---

(٣٥٦) الردح: مفردها رداح: وهي الجفنة العظيمة. والشيزى: خشب أسود تتخذ منه الجفان.
واللباب هنا ما يعرف بالنشا. ويلبك: يخلط. والشهاد: العسل. انظر الديوان: ص ٣٨١.

(٣٥٧) انظر مكة والمدينة : ص ٢١٣.

(٣٥٨) المصدر نفسه: ص ٢١٤.

(٣٥٩) انظر المفصل ٥: ٨٠.

(٣٦٠) انظر السيرة النبوية ٢: ٤٠٣. وانظر الأغاني ٢٥: ٨٧٦٠.

(٣٦١) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان بعد الشقة، وتباين معالم طريق القوافل، أوجدت الحاجة إلى أدلاء متمرسين بالطرق المسلوكة والدروب الآمنة ومواقع المياه ومنازل الرعي فغدا مثل هؤلاء الأدلاء ضرورة لاغنى عنها في كل الرحلات عبر الجزيرة العربية[٣٦٢] ومن ثم كان يتم استئجارهم على أن يُجهزوا الدواب وجميع المستلزمات الحيويّة للرحلة التجاريّة.

وإلى جانب الأدلاء كان أصحاب القوافل يستخدمون جماعات كبيرة من الناس لحراسة بضائعهم وتتكون هذه الجماعات من الخفير الذي جرت العادة على أن يكون من أصحاب المقام الرفيع في القبيلة ثم من أفراد يختارهم بنفسه، وكان الخفراء يأخذون جعلاً كبيراً –نقدا أو هدايا– يتناسب وجسامة العمل الذي يقومون به والخطر الذي قد يتعرضون له أثناء مسير القافلة أو في محطات التوقف[٣٦٣] . بالمقابل كان عليهم تعويض الخسائر التي قد تلحق بالقافلة جراء سطو من قطاع طرق او صعاليك، او نتيجة لغارات بعض القبائل المعادية والفقيرة منها على وجه الخصوص مثل قبيلة هذيل، وقبيل فهم التي اشتهرت بلصوصها. ومنهم من كان يعيد الجعل إذا طرأ امر يحول دون نجاح مهمتهم. وفي الغالب كان هؤلاء الخفراء من القبائل التي تمرّ القوافل التجاريّة في مجالها الحيوي أو حماها، لأن في ذلك حماية وتأميناً ضد تعرض قبائل أرض المرور أي (Transit) لهم أو قطع الطريق عليهم[٣٦٤] .

لذلك كان كل تاجر يخرج من اليمن والحجاز قاصداً سوق دومة الجندل في بلاد الشام، "يتخفر بقريش مادام في بلاد مضر، لأن مضر لم تكن تعرض لتجار مضر، ولايهيجهم حليف لمضري، فإذا أخذوا طريق العراق تخفروا ببني عمرو بن مرثد، من بني قيس بن ثعلبة فتجيز ذلك لهم ربيعة كُلّها"[٣٦٥] .

فإذا توجّه التجار إلى حضرموت حيث سوق الرابية التي لم "يكن يصل إليها أحد إلا بخفارة لأنها لم تكن أرض مملكة، وكان من عزّ فيها بزّ صاحبه" فإن تجار قريش

---

(٣٦٢) انظر المغازي للواقدي: ص ١٩٦. وانظر المحبّر: ص ١٨٩ وما بعدها.وانظر ديوان الأعشى: ص ١٢١.

(٣٦٣) انظر Arabia before Muhammad. P. 179 .

(٣٦٤) Ibid PP 179. 186 . وانظر المحبر: ص ١٩٨. والشعراء الصعاليك: ص ١٤٠ .

(٣٦٥) انظر المحبّر: ص ٢٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانوا يتخفرون فيها ببني آكل المرار، وسائر التجار يتخفرون بآل مسروق بن وائل من كندة[٣٦٦] .

وليس هذا فقط بل إن من أصحاب القوافل من كان يلجأ إلى رؤساء القبائل أو أحد أسيادها فيجارون، وكان هذا الجوار عملاً مربحاً يسعى وراءه سادة البادية[٣٦٧] ، وأحياناً ملوك إمارات التخوم[٣٦٨] ، اذ كان يعود عليهم بالربح الوفير اما بالمشاركة في التجارة أو اقتسام ارباح القوافل او فرض ضريبة "فإن ملوك العرب كانت تأخذ من التجار في البرّ والبحر، وفي أسواقهم المكس، وهو ضريبة كانت تؤخذ منهم"[٣٦٩] ، ويصف جابر بن حُني التغلبي مدى شيوع فرض هذه الضريبة فيقول[٣٧٠] :

وفي كُلِّ أسواقِ العِراق إتاوةٌ وفي كُلِّ ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

أثر الأسواق في الإقتصاد الجاهلي:

ويبدو أن هذه الإتاوة لم تكن قاصرة على أسواق العراق، اذ يذكر صاحب المحبّر انها كانت تفرض في أسواق البحرين وعمان واليمن، فيقول إن ملوك البحرين كانوا يعشرون في سوق المشقّر بهجر من يؤمها من التجار، وملوك عمان كانوا يعشرون التجار في سوق صُحار، والأمر نفسه كان في سوق دبا (دبى)، وأمّا في اليمن فقد أبناء الفرس الذين فتحوا اليمن وقضوا على الحبشة هؤلاء (الأبناء) كما يسميهم أخباريو العرب، كانوا يعشرون التجار في سوقي صنعاء وعدن[٣٧١] . وأمّا في سوق (دومة الجندل) الواقعة تحت النفوذ البيزنطي في بلاد الشام، فقد كان الروم يفرضون ضريبة ايضا على التجار الذين كانت بضائعهم يشتريها أناس معينون من الجهات الرسمية في

---

[٣٦٦] انظر المحبّر: ص ٢٦٧.

[٣٦٧] انظر Arabia before Muhammad, P. 185 .

[٣٦٨] انظر في ذلك قول الأخنس بن شهاب في المفضليات: ص ٢٠٦:

ولخم ملوك الناس يجبى إليهم إذا قال منهم قائل فهو واجب.

[٣٦٩] انظر الحيوان ٦: ١٤٨.

[٣٧٠] انظر المفضليات: ص ٢١١. والحيوان ٦: ١٤٩.

[٣٧١] انظر المحبّر: ص ٢٦٧. وانظر في ذكر دومة الجندل والمشقر ديوان لبيد بن ربيعة : ص ٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيزنطة[٣٧٢] . ولعل سوق عكاظ كانت من أهم أسواق العرب ومن أعظمها، ولموقعها بين مكة والطائف فقد كانت قريش تنزلها وهوازن وطوائف من أفناء العرب: غطفان، وأسلم، والأحابيش وهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وعضل، والديش، والحيا والمصطلق... ولم تكن فيها عشور ولاخفارة"[٣٧٣] وعكاظ أيضا موسم من مواسم الجاهلية، وكان العرب يجتمعون بها كل سنة فيقيمون شهرا يتبايعون ويتفاخرون ويتناشدون ما أحدث من الشعر[٣٧٤] ، وفي عكاظ يقول أبو ذؤيب الهذلي[٣٧٥] :

تُؤَمِّلُ أن تلاقي أمَّ وَهْبٍ ... بِمَخْلَفَةٍ اذا اجتمعت ثَقيفُ[٣٧٦]

إذا بُنِي القِبابُ على عُكاظٍ ... وقام البَيْعُ واجتمع الأُلوفُ

ويقول دريد بن الصمة[٣٧٧] :

تَغَيَّبتُ عن يَوْمَي عُكاظَ كِلاهما ... وإن يَكُ يومٌ ثالِثٌ اتَغَيَّبُ

ولم يكن البيع والشراء في هذه الأسواق قاصراً على السلع والبضائع التجارية. فقد كان يروج فيها تجارة أخرى – وان كانت لاترقى في الأهمية إلى تجارة القوافل– وهي المتاجرة بالرقيق الأسود الذي كان يجلب من الحبشة وما يجاورها من أقطار إفريقيا السوداء، ومن هذه التجارة نشأت طبقة الاغربه في المجتمع الجاهلي، فأغنياء هذا المجتمع ولاسيما أثرياء مكة كانوا يشترون الأعداد الكبيرة من الأحباش لتسخيرهم في خدمتهم، وللقيام لهم بمختلف الأعمال[٣٧٨] ، وقد كان هذا الرقيق مصدراً من مصادر الثروة إذ كان يحلّ محلّ الآلة في خدمة التاجر وصاحب العمل، وذلك مقابل قوتها ومأواها فقط.

---

[٣٧٢] المصدر نفسه: ص ٢٦٤. وانظر Arabia before Muhammad, P. 186 .

[٣٧٣] انظر المحبّر: ص ٢٦٧. وانظر في أسواق العرب تاريخ اليعقوبي ١: ٢١٣/٢١٤.

[٣٧٤] انظر لسان العرب، مادة عكظ. وجاء في معنى عكظ: تعكظ القوم إذا تحبّسوا لينظروا في أمورهم ومنه سُمّيت (عكاظ).

[٣٧٥] انظر ديوان الهذليين ١: ٩٨، وانظر الإشارة إلى البيع في الأسواق ديوان سلامة بن جندل ص ٢٧.

[٣٧٦] المخلفة: طريق وراء جبل، وكل طريق مخلفة. المصدر نفسه.

[٣٧٧] انظر الديوان: ص ١١٥.

[٣٧٨] انظر المفصل ٤: ١١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإلى جانب الرقيق الأسود، كان هناك " الرقيق الأبيض المستورد من أسواق أوروبه لبيعه في أسواق الشرق"[٣٧٩] وكان هناك الأسرى البيض من الممالك المجاورة وإمارات التخوم الذين كانوا يباعون في أسواق النخاسة، ثم يتم نقلهم إلى مختلف أنحاء بلاد العرب[٣٨٠] .

إذن، يمكن القول إن أسواق العرب كانت عنصراً رئيسيا في النشاط التجاري الذي يمثل واحداً من أهم روافد الحياة الإقتصادية في الجاهلية. فقد عملت هذه الأسواق على تنمية الثروة وزيادة الغنى لشريحة هامّة في المجتمع العربي، وذلك من خلال المكاسب والأرباح المجزية التي كانت توفرها العمليات التجارية بأنواعها المختلفة، وكذلك التعامل بالربا بيعاً وإقراضاً، في عهد (ايلاف) وجوار يضمنان الأمن والسلامة لأصحاب الخمر. وأخيراً هناك تحدّيات المساومات وعمليات البيع والشراء، وكيفية مواجهتها بالإصرار على عدم البيع إلاّ إذا حصل التجار على ما يطلبونه من أرباح.

ولاريب في أن مثل هذا التحدّي كان يواجهه أصحاب القوافل التجاريّة، وبخاصة تحدّيات الطريق، إذ أن الأموال الطائلة والثروات العريضة التي افرزها هذا النشاط التجاري المزدهر كانت قاصرة على فئة معينة من سكان الحواضر، ولاسيما أهل مكة. ولربما كانت هناك شريحة تجارية متوسطة الحال، ولكن من المؤكد أن عدد الفقراء كان كبيراً، ومنهم من لايملك من المال ما يمكنّه من المشاركة في النشاط التجاري، بل منهم الفقير المعدم الذي لايملك من حطام الدنيا شيئا، والذي قد لايجد ما يقوته أو يستر جسمه[٣٨١] . وقد كان بعض هؤلاء الفقراء يؤمنون بأنهم وإن حرمتهم الحياة الإقتصادية والاجتماعية حتى أقل مقوّمات المعيشة، فإن لهم من جرأتهم وشجاعتهم ما يحقق لهم شيئا من الرزق، من هنا كان التحدي والانطلاق الى الصحراء، وإلى طرق القوافل التجارية، والاغارة عليها وصولاً إلى الفوز ببعض من أموالها وخيراتها، وسوق الإبل والنعم،

---

(٣٧٩) المصدر نفسه ٤: ١١٩.

(٣٨٠) المصدر نفسه.

(٣٨١) انظر المفصل ٥: ٨٠/٨١. وانظر الإنسان في الشعر الجاهلي: ص ١٥٦/١٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت مثل هذه الغارات سببا في نشوب الحروب، سواء أكان من يقوم بها فرداً[٣٨٢] ام جماعات ام أفرادا من قبائل فقيرة مثل هذيل[٣٨٣] ومن قيس وأسد.

ولكن مما يلفت النظر أن الشعر الجاهلي، أو على الأقل ما تسنى لي الإطلاع عليه منه، لايولي كبير عناية للنشاط التجاري أو عناصر هذا النشاط ومنه القوافل التجاريّة، إذ لم أوفق في العثور على صورة شعرية لقافلة ما، أو على وصف لحجمها أو هيئتها أو خط سيرها كما هو الحال بالنسبة للمطيّ ورحلات الظعن التي تشيع في المطالع الغزلية للقصائد الجاهلية.

فما وقعت عليه في هذا المجال لايتعدى الإشارات المتناثرة هنا وهناك في القصائد والمقطعات، ومنها ما يتناول التاجر نفسه وفي معرض التشبيه، فمثلا يقول امرؤ القيس مشبّها نزول المطر بصحراء الغبيط بنزول التاجر اليماني الكثير المتاع والخول[٣٨٤] :

وألقَى بِصحراءِ الغبيطِ بَعاعَهُ نُزولَ اليمانيِّ ذي العِيابِ المُخَوَّلِ[٣٨٥]

ويشبّه قيس بن الخطيم أعداءه أثناء انسحابهم الدليل بالتاجر الذي يجلب إبله للبيع[٣٨٦] :

تسوق أخراهُم أوائلَهم كما يسوقُ المُعارِضُ الجَلَبا

ومنها ما يعرض لتاجر الخمر ضمن وصف الخمر نفسها. يقول الأعشى[٣٨٧] :

لها أرَجٌ في البيتِ عالٍ كأنّما ألمّ به من تَجْرِدارِينَ أركُبُ[٣٨٨]

---

(٣٨٢) مثلا حرب الفجار الثاني التي نشبت إثر استيلاء البرّاض بن قيس على لطيمة النعمان. انظر السيرة النبوية ١: ١١٣، والأغاني ٢٥ : ٨٧٦٠ وما بعدها.

(٣٨٣) انظر الشعراء الصعاليك: ص ٢١٣١ وانظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ص ٢٣٠.

(٣٨٤) انظر ديوانه: ص ٢٥.

(٣٨٥) بعاعه: حمله، العياب: المتاع. المخول: كثير العبيد والإماء، انظر المصدر نفسه.

(٣٨٦) انظر ديوانه: ص ١٧٨. والمعارض التاجر، والجلبا: الإبل.

(٣٨٧) انظر ديوانه: ص ٢٥٣. وانظر فيه ايضا وفي المعنى نفسه: ص ٢٩١. وانظر ديوان الهذليين (أبو ذؤيب الهذلي) ١: ١٤٨.

(٣٨٨) دارين: موضع بالبحرين مشهور بالمسك. أركب: جمع ركب وهم جماعة المسافرين. ديوان الأعشى: ص ٢٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها ما يكتفي بالإشارة إلى مراحل نقل السلع التجارية منذ شرائها في بلدها وحتى بيعها في بلد آخر، كما في وصف أبي ذؤيب الهذلي لاحدى المتاجرات بالخمر. يقول[٣٨٩] :

فما الراحُ راحُ الشام جاءتْ سبيّةً ... لها غايةٌ تَهدي الكِرامَ عُقابُها[٣٩٠]

تَوَصَّلُ بالرُكبانِ حينا وتُؤلِفُ الـ ... ـجِوارَ ويغشيها الأمانَ رِبابها[٣٩١]

فما بَرِحَتْ في الناسِ حتى تَبَيَّنَتْ ... ثقيفا بزيزاءِ الأشاءة قِبابُها[٣٩٢]

فطافَ بها أبناءُ آلِ مُعَتِّبٍ ... وعَزّ عَليهم بَيْعُها واغتصابها[٣٩٣]

فلما رأوا أن أحكمتهُمْ ولَمْ يكُنْ ... يَحَلُّ لهم إكراهُها وَغِلابُها[٣٩٤]

أتَوْها بربحٍ حاوَلَتْهُ فأصبحت ... تُكفَّتُ قد حَلَّتْ وساغَ شَرابُها[٣٩٥]

من هذا الوصف يمكن أن نستشف أموراً عدة، منها: شهرة خمر الشام في الجزيرة العربية إلى حدّ الإهتمام بالإعلان عن وصولها إلى الحانات. ثم التحدّي الذي تفرضه في انتهابها أثناء نقلها عبر البادية، والاستجابة لهذا التحدّي والتغلب عليه بانضمام تجار الخمر الى القوافل السائرة في الإتجاه نفسه، وليس ذلك فقط، وإنما الدخول مع أصحاب القوافل أيضا.

---

(٣٨٩) انظر ديوان الهذليين ١: ٧٢-٧٥.

(٣٩٠) جاءت سبيّة: مشتراة. غاية وعقاب: راية.

(٣٩١) الرّباب: عقد وجوار. وتؤلف الجوار: يعقد أهلها الجوار مع قدم، فإذا جاوزوهم عقدوا الجوار مع آخرين.

(٣٩٢) زيزاء: ظهر منقاد غليظ من الأرض، والإشاءة : موضع ، والمعنى حملت إلى عكاظ لتباع، وثم ثقيف ودارها.

(٣٩٣) آل معتّب: حيّ من ثقيف. وعز عليهم بيعها: صَعُب شراء الخمر لارتفاع ثمنها.

(٣٩٤) رأوا: أي مشتروا الخمر. أحكمتهم: أي منعهم تجارها من شرائها لغلاء ثمنها.

(٣٩٥) تُكَفّت: تُقبض. انظر في هذه المعاني: المصدر نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥. الثروة الحربية:

يذهب البعض إلى أن الغزو كان في عرف العرب "رياضة قومية" وتمارس على نطاق واسع في الجزيرة العربية[٣٩٦] . وفي ظني أن هذا الرأي فيه الشيء الكثير من التجنّي على الطبيعة الإنسانية والتناقض مع واقع الحياة الاقتصادية في بلاد العرب.

فلعلّ أكبر تحدّ للإنسان العربي كان توفير أسباب البقاء في محيط تتنازعه جدلية الحياة والموت في كل موقف وفي كل بقعة، بل وفي كل لحظة نظرا للظروف الصعبة التي أوجدتها في الجزيرة طبيعة قاسية متقلّبة المزاج متغيّرة الأحوال لاتدع مجالاً لاستقرار في نمط حياة أو ثبات في موارد رزق[٣٩٧] .

وقد رأينا أن الثروة الحيوانية كانت من أهم موارد الرزق والكسب والثراء في المجتمع العربي، ولاسيما البدوي منه، وأن الحفاظ على هذا المورد وحمايته، والاستكثار منه هي في مجملها من التحديات الكبيرة المفروضة على ابن الجزيرة، الذي كان عليه أن يواجهها إذا ما أراد الاستمرار في الحياة، او العيش برفاهية ورخاء. ورأينا أن هذا المورد لم يكن متاحاً لجميع أفراد المجتمع أو فئاته القبليّة. فقد كانت هناك أحياء غنيّة حبتها الطبيعة بالماء والغيث ووفرة من العشب والكلأ، ويرتع في مراتعها الواسعة جملة من الماشية والسوام. وبالمقابل كانت القبائل الفقيرة التي حرمت من ذلك كلّه أو جلّه، ولاريب في أن الفقر الناتج عن هذا الحرمان كان سببا في المعاناة الجسمية والنفسية التي كان ترزح تحت وطأتها شريحة كبيرة من أبناء الصحراء وهؤلاء لم يكن أمامهم في صراعهم من اجل البقاء، سوى محاولة تحسين أحوالهم الاقتصادية وبأية طريقة كانت، مهما كانت التحديات التي تفرضها محاولاتهم، فكان القيام بغزوه أو شن غارة على المجال الحيوي ذي النماء والخصب، سبيلا رئيسيا للحصول على مورد للرزق، أو لكسب مال. وآية ذلك قول الأعشى[٣٩٨] :

وشَرِيكَيْنِ في كثيرٍ من المـــا ـــلِ وكـــانـــا مُحـــالِفَيْ إقلالِ

---

(٣٩٦) انظر Muhammad at Mecca, P. 17 .

(٣٩٧) انظر تاريخ الأدب العربي: ص ٤٦٢.

(٣٩٨) انظر ديوانه: ص ٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قسما الطارِفَ والتليدَ من الغُنْـ مِ فآبا كِلاهُمـــا ذو مالِ[٣٩٩]

وقوله مشيراً إلى ما يأمله المغيرون من غارتهم[٤٠٠] :

قد صادفوا عُصبَةً منا وسَيّدَنا كلٌّ يُؤمِّل قُنيانا ويَطرَفُ[٤٠١]

والواقع أن البعض يعتبر الغزو أهم مورد للرزق عند العرب فقد "قضت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للبادية برفع الغزو إلى مرتبة يقرّها النظام القومي، فأصبح الغزو من أركان البناء الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية البدوية"[٤٠٢] .

وربما كانت هذه الأهمية تبدو واضحة جليّة في السنين الشديدة، حين ينقطع الغيث وتجف المياه، ويحلّ الجدب، ويكون تأثير القحط والجدب شديداً، بحيث يؤدى إلى هلاك الماشية ومعاناة الجوع. في مثل هذه السنوات العجاف،كان المتضررون يتسابقون إلى مواطن الخصب والنماء، ويحاولون الاستيلاء على ما يستطيعونه منها، مما يضطرهم إلى مواجهة تحدّي الاشتباك المسلّح مع الذين سبقوهم إلى هذه البقاع[٤٠٣] ، وقد يبدو لهم أن الأخذ على حين غِرّة أقلّ تحدياً وأهون خطراً من المواجهة، فيعمدون إلى الإغارة والغزو، وغالباً ما يكون ذلك في وقت مبكّر جداً من الصباح حين يكون المغار عليهم لايزالون في سبات عميق.

وقد رصد الشعر الجاهلي هذا التوجه، وأكثر من ذكره، ومنه قول عامر بن الطفيل في الترحل سعيا وراء الخصب والكلأ[٤٠٤] :

فإذا تَعَذّرتِ البلادُ فأمْحَلَتْ فمُجازُها تَيماءُ أو بالأثْمُدِ[٤٠٥]

---

(٣٩٩) الطارف: الجديد،والتليد: القديم، والمعنى قسما ما اجتمع لهما من الغنائم. القديم الموروث عند أصحابه، والجديد المستحدث عندهما.

(٤٠٠) انظر ديوانه: ص ٣٥٩.

(٤٠١) القُنيان: المال يقتنى. يطرف: يصيب مغنما فيصبح المغنم حديثا عنده.

(٤٠٢) انظر تاريخ العرب مطول ١: ٣١.

(٤٠٣) انظر في ذلك كتاب أيام العرب ٢: ٤٣٨. والعقد الفريد ٥: ٢٠٤. ونهاية الأرب ١٥: ٣٩١.

(٤٠٤) انظر ديوانه: ص ٥٦. والمفضليات: ص ٣٦٤. وديوان بشر بن أبي خازم: ص ٧٣.

(٤٠٥) مجازها: مشربها. تيماء والأثمد: موضعان. الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول معاوية بن مالك في التسابق إلى منابت الكلأ ومساقط الغيث[٤٠٦] :

إذا سقطَ السحابُ بأرضِ قومٍ رَعيناهُ وإن كانوا غِضابا[٤٠٧]

ومنه قول أوس بن حجر مبينا هدف الخصوم من الغارة،ثم تحدّي قومه لإفشال هذا الهدف[٤٠٨] :

تكنّفَنا الأعداءُ من كلّ جانبٍ لينتزعوا عَرقاتِنا ثم يَرْتَعوا[٤٠٩]

فما جُبُنوا أنّا نسدُّ عَليهِمُ ولكنّ لَقَوْا ناراً تَحُسُّ وتَسفعُ

على أن الفقر وحده لم يكن الباعث على الغارات. ففي كثير من الأحيان كانت القبائل القويّة والغنيّة تقوم بمثل هذه الهجمات. اذ كانت الرغبة في سلب الأموال ونهبها، وسبي النساء، وأسر الرجال طمعا في الفدية، تحقيقا لزيادة ثروة ماديّة او بشرية، كل ذلك كان يمثل تحدّياً كبيراً، يحدو الأغنياء والأقْوياء لشن الغارات والغزوات. يقول الطفيل الغنوي[٤١٠] :

فَرُحْنا بأسراهم مَع النهبِ بعدما صَبَحناهُم ملمومَةً لاتُكَذَّبُ[٤١١]

وبالمُردَفاتِ بَعدَ أنعَمِ عِيشةٍ على عُدْواءَ والعُيونُ تَصَبَّبُ[٤١٢]

ويقول عامر بن الطفيل[٤١٣] :

---

(٤٠٦) انظر المفضليات: ص ٣٥٩. والحماسة البصرية ١: ٢٥٨.

(٤٠٧) السحاب: أراد به الغيث الذي يكون عنه النبات. المفضليات.

(٤٠٨) انظر ديوانه: ص ٥٧.

(٤٠٩) العرقاة، بفتح العين وكسرها: أصل كل شيء. وترد عرقاتنا باللام في قول لعامر بن الطفيل، ديوان الفروسية: ص ٧.

(٤١٠) انظر ديوانه: ص ٥٥. وانظر ديوان الحارث بن حلزة: ص ٤٠. وانظر ديوان عامر بن الطفيل: ص ١١٣.

(٤١١) ملمومة: أي كتيبة مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض. انظر لسان العرب، مادة لمم.

(٤١٢) عدواء: المركب الغير المطمئن، والأرض اليابسة الصلبة. انظر ترتيب القاموس المحيط، مادة عدو.

(٤١٣) انظرديوان الفروسية: ص ٦٥، وايضا ص ٧٢. وانظر ديوان دريد بن الصمة: ص ٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأبْنا غانمين بما استفأنا نسوقُ البيض دعواها الأَلِيلُ[٤١٤]

وفي سبي النساء أيضا يقول عُروة بن الورد[٤١٥] :

رَحَلْنا من الأجبال، أجبال طيِّء نسوقُ النساءَ عُوذَها وَعِشارُها[٤١٦]

ولما كانت الإبل هي مال القوم وعماد حياتهم ومناط فخرهم واعتزازهم، كان الطمع في غنمها للاستكثار من الغنى والثروة -لما يواكبها من عزة وقوة ومنعة- من الأسباب الهامّة للغزو والغارة. ولعلّ التحدّي الكبير لدى المغيرين كان في التمكن من انتهابها ولاسيما الأنفس منها والأكثر نتاجاً. يقول زهير بن أبي سلمى[٤١٧] :

إذا نهبوا نهبا يكون عطاءَهُ صفايا المَخاضِ والعِشارُ المطافِلُ[٤١٨]

ويقول الطفيل الغنوي[٣١٩] :

أخذنا بالمُخَطَّمِ من عَلمِتُمْ من الدُهم المزنَّمَةِ الرِغابِ[٤٢٠]

هذا وقد كان من الجاهليين من يغزو كل عام متحديّاً المشاق والصعاب والخطر وربما الموت لأن الغزوات -في عرفه- تورث المال الكثير. وفي هذا يقول الأعشى[٤٢١]:

وفي كل عامٍ له غَزوةٌ تَحتُّ الدوابرَ حَتُّ السَفَنْ[٤٢٢]

---

(٤١٤) استفأنا: أخذنا من الفيء، الأليل: الأنيني والصراخ. البيض: النساء: المصدر نفسه.

(٤١٥) انظر ديوانه: ص ٨٦. وانظر الطرائف الأدبية. ص ٢٢. وانظر ديوان عنترة: ص ٥٣.

(٤١٦) العوذ: الحديثة النتاج من النوق، والعشار: التي مر على نتاجها عشرة أشهر، أو الحديثة النتاج. والمراد هنا ، المنتجات من النساء. لسان العرب، مادة عوذ وعشر.

(٤١٧) انظر شرح الديوان: ص ٢٩٨، وانظر فيه ايضا: ص ٣٣٧.

(٤١٨) الصفايا: الغزار الكثيرة اللبن، الواحدة صفى. والمطافل: التي معها أولادها؛ الواحدة. مطفل. انظر الشرح.

(٣١٩) انظر ديوانه: ص ٧٥، وانظر ديوان دريد بن الصمّة: ص ٧٥.

(٤٢٠) المخطم: الموسوم. بالكي من الإبل ليعرف. والمزنم: المقطوع طرف الأذن، وإنما يفعل ذلك بالكرام من الإبل. والرغاب: الكثيرة. لسان العرب، مادة خطم ومادة زنم ومادة رغب.

(٤٢١) انظر ديوان الأغتشى: ص ٧٣، وانظر فيه ايضا: ص ٦١، ١٤١.

(٤٢٢) تحت الدوابر: تقشر وتبرد آخر الحوافر، والسفن: المبرد. الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيا عَجَب الرَهنِ للقائـــلا تِ من آخرِ الليلِ ماذا احتَجَنْ[٤٢٣]

وما قد أخَذْنَ وما قد تَركْ نَ في الحيِّ من نِعَمةٍ ودِمَـنْ[٤٢٤]

ومن جهة أخرى كان الغزو أو الغارة مبعث تحدّ للمغار عليهم. فما من بشر يرضى بالتخلي إلا قسراً عما يمتلك وبخاصة إذا كانت حياته عمادها ما يمتلكه، وفي فقدانه له ضياع حياته وربما حياة من يعيلهم. من هنا كان التصدي لصد المعتدين ودفعهم بالقوة وبالسلاح. يقول دريد بن الصمّة مهدداً ومتحدّياً[٤٢٥] :

أَوْعَدتُمُ إبلي كَلاًّ سَيمنَعُها بنو غزِيَّةَ لا مِيلٌ ولا عُورُ[٤٢٦]

وفي كتب الأيام أخبار كثيرة عن الغارة والغارة المضادة، ولعل هذه الأخبار أوضح مثال على نظرية (توينبي) في "التحدي والاستجابة"[٤٢٧] ، من حيث ان بعض الغارات جاءت رداً –وأحياناً ردّاً سريعاً ومباشراً– على غارة استهدفت المال والنساء.

ومن ذلك خبر يوم اللوى: فقد غزا عبدالله بن الصمّة –أخو دريد– غطفان فأصاب منهم إبلاً عظيمة، فاطّردها، ولما نصحه أخوه دريد بالانطلاق بها حثيثا إلى حيّة، عصاه وتلكأ حتى تمكنت فزارة من اللحاق به في موضع يسمى اللوى، فقاتلوه وقتلوه، واستردوا ما سلب منهم[٤٢٨] .

وإلى عصيان عبدالله وتحدّيه لنصيحة أخيه يشير دريد في مرثاته الدالية إذ يقول[٤٢٩] :

نصحتُ لعارضٍ وأصحاب عارضٍ وَرَهْطِ بني السوداء والقومُ شُهَدي

---

[٤٢٣] احتجن المال ضمّه إلى نفسه واحتواه. الديوان.

[٤٢٤] دِمن: جمع دمنة وهي العداوة، الديوان.

[٤٢٥] انظر ديوانه: ص ٧٦.

[٤٢٦] كَلاًّ: تعباً وهزالاً. ميل : جمع أميل: الجبان. الديوان.

[٤٢٧] A Study of History, Vol 12, PP. 256-263 .

[٤٢٨] انظر كتاب أيام العرب ٢: ٢٩١. والعقد الفريد ٥: ١٦٨. ونهاية الأرب ١٥: ٣٦٩.

[٤٢٩] انظر الديوان: ص ٤٧/٤٦. وعارض أخو دريد عبدالله، ورهط بني السوداء: أصحاب عبدالله.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عــلانيـــــة، ظُنُّوا بألفَي مُدَجَّجٍ سَراتُهُمُ في الفارسيِّ المُسَرَّدِ[٤٣٠]

أمرتهمُ أمري بمُنعَــرَجِ اللّــوَى فلم يَستبينوا النُصحَ إلا ضُحى الغَدِ[٤٣١]

ومثل آخر على السرعة بالاستجابة لبواعث التحدّي،يمكن استشفافه من هذا الخبر: "غزت سريّة من بني عامر بن صعصعة بلاد غطفان، فأغارت على إبل لبني محارب بن خَصَفة وذهبوا بها، فأدركهم الطلب، وقتلوا من بني كلاب سبعة وارتدّوا إبلهم[٤٣٢] ".

وإزاء ذلك كله يمكن القول أن حب الحياة، والصـراع من أجل البقاء من جهة، والطمع في الفوز بما من شأنه كسب مال أو تنمية ثروة من جهة أخرى، كانت من أهم أسباب وقوع الغزو والغارات، مع ما يشوب هذا التوجه من تحديات وصعاب وأخطار جعل منها عناصر موضوعات في شعر الغزو "تحتوي على تحديات وجهها المقاتلون قبل المعركة أو أثناءها[٤٣٣] "،وربما بعد النصر أو نجاح الغزوة.

---

(٤٣٠) ظنّوا: أيقنوا. المدجج: التأم السلاح. والفارسي المسرّد: عني بها الدروع.

(٤٣١) المنعرج: المنعطف. واللوى: أصله ما التوى من الرمل. الديوان: ص ٤٧.

(٤٣٢) انظر كتاب أيام العرب: ص ٣٤٢. والعقد الفريد ٥: ١٦٢.وفي أخبار هذا النوع من الغزو، انظر مثلا كتاب أيام العرب ٢: ٣٤٥ و ٤٠٠ و ٤٨٦. والعقد الفريد ٥: ١٧٨و ٢٠٢/ ٢٠٣و ٢٤٩. وانظر نهاية الأرب ١٥: ٤٢٢.

(٤٣٣) انظر تاريخ الأدب العربي: ص ٤٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

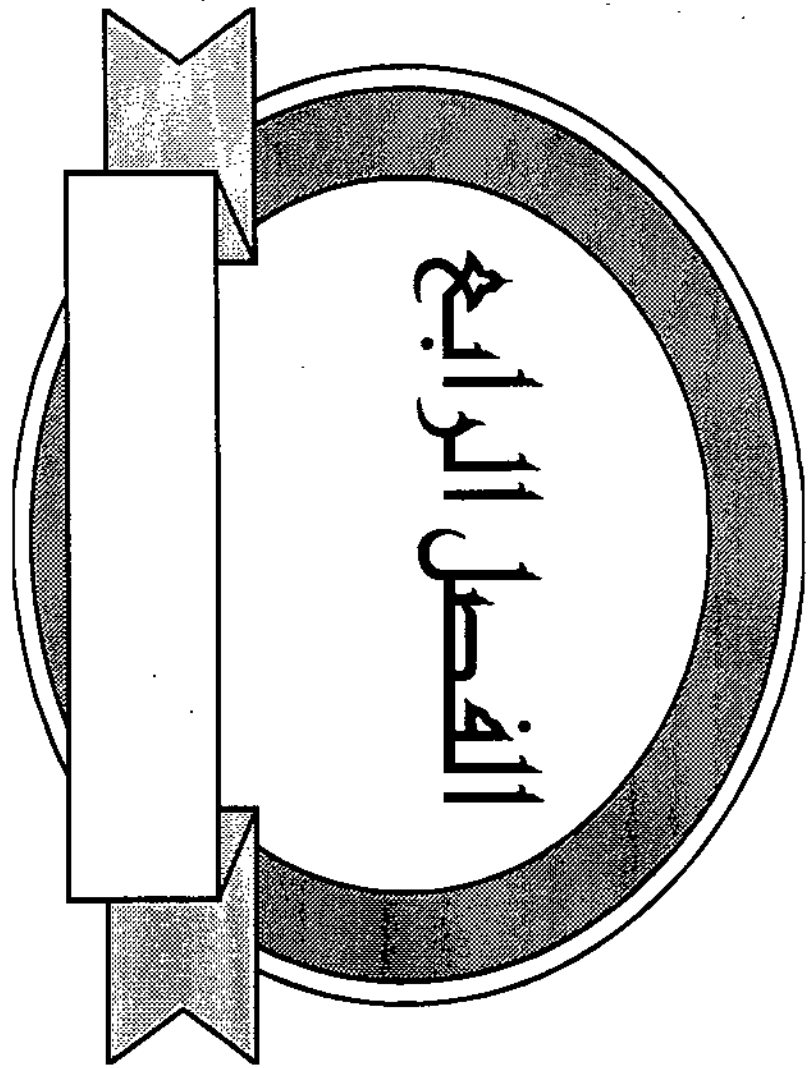

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

تحدي الطبيعة في الشعر الجاهلي

١ تحدي جدْب الدّيار

مرّ علينا أن الجدب والقحط هما من أجلى الظواهر الطبيعية في الجزيرة العربيّة. وللجدب والقحط في هذه البلاد بعدان: أحدهما زماني، والآخر مكاني.

فقد تجدب الأرض سنة واحدة، وقد يستمر الجدب سنوات عدة. وقد يحلّ الجدب ببقعة صغيرة، وقد يحلّ ببقاع كثيرة واسعة، تبعا لعطاء المطر وانحباسه. وحين تمحل البلاد وتقحط،يذوي الزرع،ويجف الضرع،وينفد الزاد، ويشح الماء،فتشيع المجاعة وتطال الإنسان والحيوان على حدّ سواء، وتعمّ المعاناة والمكابدة.ولاريب أن ذلك كله يمثّل تحدّيات مؤثرة وفاعلة في المسيرة الحياتية والمعيشيّة،وقد استجاب الجاهلي لهذه التحديات، واتخذت استجابته مظهرين متناقضين يتمثلان في الثواء بالمحلّة من ناحية، وفي الظعن للانتجاع من ناحية أخرى.

أ. الثواء مظهر للتحدّي:

يمكن القول –ومما ورد في كتب الأخبار وفي الشعر– أنه كان لكل قبيلة من القبائل العربيّة ديار تعرف بها، ومن هذه القبائل من كانت تنزل على ماء عدّ[٤٣٤] ولايتحوّل عنه شتاء ولا صيفا،يبنون الأخبية على المياه،ويقرّون بها،ويرعون ما حولها من كلأ،وهؤلاء الأقوام يطلق عليهم ابن منظور اسم الحاضرين أو الحضّار[٤٣٥] .

وقد ذكر الأخنس بن شهاب التغلبي في قصيدة له[٤٣٦]، أن لكيزا لها البحران والسيف كلّه، وبكرا لها ظهر العراق، وكلباً لها ديارٌ تمتد من خَبْت،فرملة عالج إلى

---

[٤٣٤] العدّ:هو الماء الدائم الذي لاينقطع. لسان العرب، مادة عدد.

[٤٣٥] لسان العرب، مادة حضر.

[٤٣٦] المفضليات: ص ٢٠٤-٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحَرّة[٤٣٧] ولمازن بن الأزد ماء غسّان، وتتوزع منازل تميم بين قف[٤٣٨] ورملة، وقال كذلك:

وبهراءُ حيٌّ قد علمنا مكانَهم لهم شَرَكٌ حَوْلَ الرُّصافَةِ لاحبُ[٤٣٩]

وغارت إيادٌ في السّواد ودُونَها برازيق عُجْمٍ تبتغي من تضارِبُ[٤٤٠]

وعلى ذلك فإن:

لِكُلِّ أُناسٍ مِنْ مَعَدٍّ عِمارَةٌ عَروضٌ إليها يلجأون وجانبُ[٤٤١]

فهذه القبائل لها محلّة أو ناحية تلجأ إليها،ومن معاني اللجوء: الاعتصام أو التحصن في معقل[٤٤٢]، فديارهم هذه معاقلهم التي يتحصنون بها من أي خطر يتهددهم، وهي لبعضهم "دار الحفاظ التي لايقيم فيها إلاّ من حافظ على نسبه"[٤٤٣] .

وذوو الحسب والنسب عرب أحرار، والعربي الحرّ له من شجاعته وإبائه، ومن أنفته واعتزازه بنفسه ما يحفزه إلى تحدّي أي شيء وكل شيء، ومن هنا جاء تحدّي البعض للجدب، والفخر بالثراء في الديار، مع ما يجلبه الجدب والقحط من ضيق في العيش ومجاعة. وخاصة في فصل الشتاء، والعرب تسمّي "القحط شتاء لأن المجاعات أكثر ما تصيبهم في الشتاء البارد"[٤٤٤]، يقول الحادرة[٤٤٥]:

ونقيمُ في دارِ الحفاظِ بُيوتَنا زمناً ويظعَنُ غيرُنا للأمرع[٤٤٦]

---

(٤٣٧) خبت: منازل بني كلب، عالج: رملة بالبادية. الرجلاء: الغليظة. المصدر السابق.

(٤٣٨) القف:ما ارتفع من الأرض وغلظ ولم يبلغ أن يكون جبلاً. لسان العرب، مادة قفف.

(٤٣٩) شرك: جمع شَرَكة: وهي معظم الطريق ووسطه. لسان العرب، مادة شرك.
ولاحب: الطريق الواضح أو الواسع المنقاد الذي لاينقطع. لسان العرب، مادة لحب.

(٤٤٠) المفضليات: ص ٢٠٦. وغارت: دخلت، والسواد: سواد العراق، وبرازيق مواكب وكتائب.

(٤٤١) المفضليات: ص ٢٠٤. وعمارة: الحيّ العظيم. والعروض: الناحية.

(٤٤٢) لسان العرب، مادة لجأ.

(٤٤٣) الصورة الفنية: ص ٢٠٦.

(٤٤٤) لسان العرب، مادة شتا.

(٤٤٥) الديوان: ص ٥٣-٥٥. وانظر ديوان الأعشى: ص ١٣٧.

(٤٤٦) الحفاظ: الذبّ عن المحارم والمنع لها عند الحروب، لسان العرب، مادة حفظ.
الأمرع: الأرض الخصبة. لسان العرب، مادة مرع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسبيل ثغرٍ لايُسَرّحُ أهلُـــهُ سَسقَمّ، يُشار لِقاؤُهُ بالإصبَعِ[٤٤٧]

فرهط الشاعر يتحدّون الجدب وعدم المرع إذ يقيمون ببيوتهم في "دار الحفاظ" ولا يرتحلون عنها في السنة الشديدة كما الآخرين الذين يهجرون ديارهم وينتجعون أرضاً ممرعة معروفة بالخصب وكثرة العشب، حيث يمكن للسوام أن تربع وترتع، دون حاجة للتسريح خارج الحيّ.

وليس هذا فقط، بل إنهم ليشدون على أنفسهم وعلى إبلهم، فلا ينتقلون إلى حيث تسام هذه الإبل، وإنما يحبسونها معهم في محلّتهم الجافة الماحلة، ويتنامى الجوع فـ "تَسُفُّ الجِلَّةُ الخور الدرينا"[٤٤٨] – الذي لايسمن ولا يغني من جوع، فتغدو الإبل العظيمة ذات اللبن الغزير، هزيلة عجفاء بكيئة[٤٤٩].

وهم يتباهون بصمودهم وصبرهم على الإقامة في ديارهم مع جدبها، لأنهم يرون في ذلك انتصارا على التحدّي الموجه لارداتهم وعزيمتهم وثباتهم، وأيضا لحكمتهم وبعد نظرهم[٤٥٠]:

وأطولُ في دارِ الحفاظِ إقامةً وأربطُ أحلاماً إذا البَقْلُ أجهلا

إنهم يعتزون ويفخرون بمحلّ إقامتهم، لأنها دار عريقة، عزيزة الجانب منيعة بفرسانها وأبطالها الذين ورثوها عن الأجداد منذ "الأقدم القدموس"[٤٥١]. ومن ثمّ فإنها "منطقة حرام" ويحظر على الغرباء دخولها أو حتى الإقتراب من مجالها الحيوي، وبخاصة إذا كان الهدف النيل من "سيادتها" أو الاستيلاء عليها[٤٥٢]:

---

(٤٤٧) بسبيل: بطريق، وفي رواية أخرى أنها (سليل) بمعنى مجرى الماء في الوادي . والسقم: المخوف ولكن هناك رأي انها (السغم) وتعني المكان الكثير العشب. انظر الصورة الفنيّة : ص ٢٠٦.

(٤٤٨) انظر ديوان عمرو بن كلثوم: ص ٨٢ (الكتاب العربي). والجلّة: العظام من الإبل. والخور: الغزار الكثيرة اللبن. والدرين: الحشيش اليابس. الديوان.

(٤٤٩) انظرديوان سلامة بن جندل: ص ٢٣. والبكيئة: قليلة اللبن. الديوان.

(٤٥٠) المفضليات: ص ٤٠٥.

(٤٥١) انظر ديوان عبيد بن الأبرص: ص ١٠١ (الكتاب العربي).

(٤٥٢) انظر ديوان قيس بن الخطيم: ص ٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الفضاء لنا فلا تمشوا به أبداً بعاليةٍ ولا بذنوب[٤٥٣]

وإذا كان أقاربهم المرتحلون يشككون في مدى تحمّلهم لتبعات الإقامة وحدهم في أرضهم على جدبها، فإنهم –في تحديهم للجدب ولإقاربهم– يؤكدون أنهم مقيمون في بلدهم الذي عنه تصدر دعواتهم بأن تلحق بالمرتحلين عقوبة إثم ما اقترفوه[٤٥٤]:

وقالوا: لن تقيموا إن ظَعنّا فكان لنا وقد ظَعَنوا مُقامُ

وإنّ مُقامَنا ندعُو عليكُـمْ بأبطَحِ ذي المجاز له أثام[٤٥٥]

وإذا كان للمقام الجديب تحدياته، فإن للبلاد التي "بها تربوالخواصر والسنام"[٤٥٦] تحدياتها أيضا، كونها مطلباً للتوسعة في الكلأ، وهدفا لذوي الأطماع من الأحياء الغنية ومقصداً لطالبي الرزق من الجماعات الفقيرة، وهي تحديات –تحتاج إذا ما أريد التغلب عليها– إلى قوّة بشرية، وعدة حربيّة، وعزيمة لاتتزعزع. ويبدو أن قوم بشر بن أبي خازم يتمتعون بهذا كلّه إذ نراه يقول بيقين متحد[٤٥٧]:

سَنَمْنَعُها وإن كانَتْ بلادًا بها تَربوُ الخواصرُ والسَّنامُ

إنهم سيحمون بلادهم وسيحيطونها بسياج من المنعة الفاعلة، ولو أن في غنى أرضها وخصبها، إغراء شديد للأخرين بمحاولة غزوها للاستئثار بنعمها وخيراتها.

فالتحدي قائم ومستمّر، وبكل وجه، سواء أكرمت الطبيعة وحنّت على الأرض أو ضنت وغلظ قلبها؛ وهو ماثل للجاهلي في الحلّ والترحّل.

---

(٤٥٣) العالية وذنوب: أماكن في المدينة المنورة. لسان العرب مادة علا وذنب. والفضاء: موضع بالمدينة أيضا: الديوان.

(٤٥٤) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٠٦.

(٤٥٥) الأبطح: بطن الوادي تخلطه حصى. وذو المجاز: موضع قريب من عرفة كانت تقام فيه سوق في الجاهلية. الديوان.

(٤٥٦) تربو الخواصر: تعظم وتنتفخ خواصر الإبل. ديوان بشر: ص ٢٠٨.

(٤٥٧) ديوانه: ص ٢٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب. الترحل أو الظعن والتحدّي:

الترحل في حقيقته ضرب من الحركة الدائبة لهدف أو لغير هدف محدّد، والحركة ضد السكون، وفي اللغة "كل ما سكن فقد مات"[٤٥٨] ومن هذا المنطلق يكون الموت والسكون لفظان لمعنى واحد.

لذا يمكن القول إن ارتحال القبيلة سعياً وراء الكلأ والماء ماهو إلا مظهر من مظاهر تحدّي الموت الذي قد يشيعه الجدب وخاصة في السنوات العجاف، وقد كان لأهل البادية أكثر من رحلة انتجاع في السنة، عملاً بالمثل القائل "من اجدب انتجع" والانتجاع أو النجعة هو "طلب الكلأ ومساقط الغيث"[٤٥٩].

ففي السنين الشهب المتميزة بالرياح الباردة والقرّة، والعواصف الجافة، يسود القحط ولمغالبته ينتقل المشتون إلى حيث يوجد البقل والعشب والماء.

وأما في سنوات الشتاء العاديّة، فإنه يقرّون في ديارهم وترعى سوامهم ما ينمو حولها من كلأ وعشب.

ونجعة الربيع رحلة سنوية دائمة هدفها ارتياد المراعي. وليس ثمة قاعدة لاختيار هذه المراعي، فالحكم في ذلك هو كميّة نزول المطر وتوزعه في الجزيرة العربية، ومن هنا كان التسابق على المراعي وكان الاعتماد على القوّة في الفوز بالمرعى أو "المربع" وبالتالي ضمان استمرار الحياة، إذ أن الضعفاء الذين يحال بينهم وبين مثل هذه المرابع، يكون مصيرهم الموت جوعاً وعطشاً، في كثير من الأحيان.

وتستمر الحركة حين يقبل الصيف فييبس مع قدومه العشب وتنشّ الغدران والعيون الضحلة، فيعود المتربعّون إلى ديارهم ويمكثون فيها مدةّ القيظ، وقد يتوخى بعضهم الأماكن المرتفعة للحبوب وبرد الهواء، لذا فقد قيل "من قاظ الشرَفَ وتربّع الحزَن وتشتّى الصمّان[٤٦٠]، فقد أصاب المرعى"[٤٦١].

---

[٤٥٨] لسان العرب، مادة موت.

[٤٥٩] لسان العرب، مادة نجع.

[٤٦٠] الصمّان: هي أرض غليظة دون الجبل، أو كما يقول الأزهري: أرض فيها غلظ وارتفاع وفيها قيعان واسعة وخبارى (بمعنى قيعان) تنبت السدر بالاعتماد على المطر ورياض معشبة. لسان العرب، مادة صمم.

[٤٦١] لسان العرب، مادة شتا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فدورة الانتجاع هذه -فيما أرى- ما هي إلا استجابة ملائمة للتحديات التي تفرضها الطبيعة على الإنسان، وهي أيضا مظهر لانتصار إرادة الحياة في صراع البقاء الذي هو من أبرز سمات العيش في صحراء الجزيرة العربية وبقاعها الأخرى.

ومن ثم فإن الظعن ليس رحلة ترفيهية يقوم بها ذوو الغنى واليسار، وليست هي رحلة تجوال استطلاعية يمارسها المنعمون من هواة الاستكشاف، إنما هي رحلة حياة وللحياة، يواكبها التحدي من البدء حتى النهاية. فهناك مشاق الطريق الذي يتباين حزناً وسهلاً، رملاً ووعراً، وضوحا وإبهاما، وهناك خطر مباغتة الأعداء، أو إغارة اللصوص وقطّاع الطرق، فضلا عن مهاجمة الضواري والحيوانات المفترسة، وذلك كلّه وسط أجواء مناخية متضاربة، من حمّارة قيظ، وصبّارة برد، ومن عواصف رملية وراسات، إلى غير ذلك من العوامل التي لابد وأن تصيب المرتحلين بالتعب والكلال وربما بالجوع والعطش.

فإذا كان هذا هو واقع الترحل، ولاريب في أنّ المرتحل كان بخبرته على معرفة تامّة بذلك، فلم نرى الشاعر الجاهلي يصف الركب عامّة والظعن ومراكبهن خاصة وكأن الأمر لايتعدّى التوجّه في موكب إلى نزهة أو إلى عرس[٤٦٢]؟ أتراه يريد التعبير -وعلى سبيل الاستعلاء- عن تحدّ أقوى من تحديات الترحل؟ أم أنه يقصد التباهي بأنه لاشيء يمكن أن يفتّ في عضده، أو أن ينتقص من شجاعته أو ينال من قوة إرادته ومن شدّة تحمله وصموده؟ سيما وأن من عادته أن يجعل "الشعر أداة تعبير عما يمتّ إلى عاطفته وعما يريد ان يكونه في نظر الآخرين؟"[٤٦٣]

وحين يتحدث الشاعر عن مراكب الظعن فإنه يتوخى فيها صفات منها: الارتفاع والعلو وكثرة العدد، وفخامة المظهر، وجمال المنظر، وبهجة الألوان وتعدّدها، وهي صفات يستمدّها من السفن تارة، ومن النخيل تارة أخرى، وليس هو النخيل العاديّ، وإنّما المتميز بالجودة والغزارة والنفاسة والشهرة.

---

(٤٦٢) انظر الصورة الفنيّة: ص ١٣٢.

(٤٦٣) انظر اثر الصحراء في الشعر الجاهلي: ص ٢١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلنستمع إلى الشاعر يصف لنا هذه المراكب أو الهوادج، هي ظعائن "كالنخل من شَوْكان حين صرام"[٤٦٤] وكأنها "نخل المشقّر او ما زينت هجر"[٤٦٥] أو نخل بن يامن[٤٦٦] أو "النخل من ملهم"[٤٦٧] وأي نخل هذا؟ إنه نخل مثقل بالثمار التي تغطي أطرافه أو غصونه حتى لاتكاد تبين، ولكثرة ارتواء الأطراف بالماء غدت شديدة الخضرة ضاربة إلى السواد كما يقول عبيد بن الأبرص[٤٦٨]:

كأن أظعانهن نخلُ مُوسَقَةٌ سُودٌ ذوائبها بالحَمل مكمومَةٌ[٤٦٩]

ويضيف لبيد إلى ما ذكره عبيد، صفة الطول والنعومة، وأن الحمل نفسه مغطىً خشية سرقته لجودته وغزارته. يقول[٤٧٠]:

فكأن ظُعْنَ الحيِّ لما أشْرَفَتْ بالآل، وارتفعتْ بِهنّ حُزومُ[٤٧١]

نخلٌ كَوارعُ في خليجٍ مُحَلِّمٍ حَمَلَتْ، فمنها مُوقِرٌ مَكمومُ[٤٧٢]

سُحُقٌ يمتّعها الصَّفا وسَرِيُّهُ عُمٌّ نواعِمٌ بينهنّ كُرومُ[٤٧٣]

فلإعجاب الشاعر بمنظر الهوادج المرتفعة بثيابها الملوّنة المزركشة ، نراه يقرنها بالنخيل الغزير ويتفنن في التعبير عن نواحي الجمال المشتركة بين النخيل والهوادج، ومن هنا جاء أيضاً قول امرئ القيس[٤٧٤] :

---

(٤٦٤) ديوان امرئ القيس: ص ١١٥.

(٤٦٥) شعر بشامة بن الغدير: ص ٢١٩.

(٤٦٦) ديوان الأعشى: ص ٢٥١.

(٤٦٧) المفضليات (المرقش الأكبر): ص ٢٣٨. وانظر ديوان الهذليين ١: ٥٠ (نخل بالعراق).

(٤٦٨) ديوانه: ص١١٠ .

(٤٦٩) الموسقة: المثقلة بثمارها. والذوائب: الأطراف. ومكمومة: مغطاة. الديوان.

(٤٧٠) ديوان الفروسية: ص ٢٢٦. وانظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢.

(٤٧١) الحزوم: واحدها الحزم، وهو ما غلظ من الأرض وارتفعت حجارته واشرف. لسان العرب، مادة حزم.

(٤٧٢) كوارع: جمع كارع، وهو النخل على الماء. ومحلّم: نهر في البحرين. وموقر: محمّل.
ومكموم: مغطّى لئلا يسرقه أحد، أو هو مغطى في اكمامه. ديوان الفروسية: ص ٢٢٦.

(٤٧٣) سُحق: طوال. ويمتعه: يربّيه. والصفا : نهر بالبحرين. المصدر السابق. وعُمّ، ومفردها عميمة: طوال. لسان العرب، مادة عمم.

(٤٧٤) ديوان امرئ القيس: ص ٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أوِ المكرَعاتِ من نخيل ابنِ يامنٍ دُوَينَ الصفا اللاتي يلين المشقَّرا[٤٧٥]

ســوامِقُ جَبّارٍ أثيــث فُروعُهُ وعالَيْن قِنواناً من البُسْرِ أحْمَرَا[٤٧٦]

فهو يشبّه ما على الهوادج من الصوف الأحمر والأصفر مع ارتفاعها بالنخل الطوال وما فيها من اختلاف الألوان.

ولكن عديّ بن زيد يشبه الهوادج المزدهية بأجمل الألوان، بالحوائط غزيرة الأشجار يانعة الثمار، فيقول[٤٧٧]:

لمن الظُعنُ كالبساتينِ في الصُبـ ـح تَرى نبتَها أثيثا نضيرا

ويشير أبو ذؤيب الهذلي إلى تنوّع ألوان "الحمول"[٤٧٨] حين يشبهها بالنخيل المزدان بالثمر الناضج، ذي اللون الأحمر واللون الأصفر. يقول[٤٧٩]:

يا هلَ أُرِيكَ حمولَ الحيّ غاديةً كالنخلِ زَيَّنَهُ ينعٌ وإفضاحُ[٤٨٠]

ويكرر الشاعر التشبيه بالنخيل حين يصف "الأحداج"[٤٨١] أو "الحدوج"[٤٨٢] فحدوج بشر بن أبي خازم "نخيل مُحَلّم فيها ينوع"[٤٨٣]

وحدوج أُبي ذؤيب "نخل بالعراق مُكَمّم"[٤٨٤].

---

(٤٧٥) آل يامن: قوم من هجر لهم نخيل وسفن،وهجر أكثر البلاد نخلاً. المصدر نفسه.

(٤٧٦) الجبّار: الذي قد فات اليد لطوله. والأثيث: الغزير. وعالين قنوانا: أي قد أدرك هذا النخل وأينع فتمايلت عروقه، وعالتها فروعه. المصدر نفسه.

(٤٧٧) ديوانه: ص ١٣١.

(٤٧٨) ترد كلمة الحمول بمعنى الظعن عند سلامة بن جندل، انظر ديوانه: ص ٤٥ (الكتاب العربي). وانظر في تشبيه الحمول بالنخل. ديوان امرئ القيس: ص ١٦٨. وديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢.

(٤٧٩) ديوان الهذليين ١: ٤٥.

(٤٨٠) ينع: إدراك. والإفضاح، يقال: قد أفضح البسر إذا ما اختلط في خضرته بصفرة أو حمرة. الديوان.

(٤٨١) انظر المفضليات: ص ٤٣٣. وديوان المثقب العبدي: ص ١٤٨.

(٤٨٢) انظر ديوان الطفيل الغنوي: ص ٧٢. وديوان عبيد بن الأبرص: ص ٧٩ .

(٤٨٣) ديوانه: ص ١٣٠.

(٤٨٤) ديوان الهذليين ١: ٥٠. وانظر ايضاً ديوان الطفيل الغنوي: ص ٧٢ (الفسيل المكمم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن حدوج طرفة بن العبد لاتشبه النخل، وإنما هي كالسفن العظام ولربما كان يشير بذلك إلى الضخامة ونوع الحركة، فهو يقول[٤٨٥]

كأنّ حُدوجَ المالكيّةِ غُدوَةً خلايا سَفينٍ بالنواصِفِ من ددِ[٤٨٦]

عَذَوليّةٌ أو من سفين ابن يامنٍ يجور بها الملاّح طوراً ويهتدي[٤٨٧]

وللمرقش الأكبر رؤية مشابهة، إلاّ أنّ عُلو الظعائن وارتفاعها عن الرمل يلفت نظره فيرد على خاطره أنها تشبه شجر الدوم ايضا، فيتساءل[٤٨٨]:

لمن الظعنُ بالضحى طافياتٍ شِبهُها الدَومُ أو خلايا سفينِ[٤٨٩]

ولايلبث أن تتبين له الثياب التي تشدّ بها الرحال وتجعل على الهودج، فيهوله جمال وشيها وروعة منظرها. يقول:

رافعاتٍ رقماً تُهالُ له العيـ نُ على كُلِّ بازلٍ مستكينِ[٤٩٠]

ويردد الشاعر الجاهلي ذكر "الرقم" وهو من ثياب اليمن الموشاة تلبسه الهوادج، وكذلك العقل وهما أحمران[٤٩١] ، ومن هنا كثر تشبيههما بالدم. يقول طرفة بن العبد[٤٩٢]:

---

[٤٨٥] شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ص ١٣٥. وديوانه: ص ٧.

[٤٨٦] الحدوج، جمع حدج: وهو مركب من مراكب النساء نحو الهودج والمحفّة. لسان العرب، مادة حدج. الخلايا: السفن العظام واحدها خليّة. الشرح.

[٤٨٧] عدوليه: إما منسوبة إلى خريرة يقال لها عَذَوّلى، وإمّا إلى قوم كانوا ينزلون بمهجر. يجور لها الملاح: يعدل بها ويميل. ويهتدي: يمضي للقصد. شرح القصائد السبع الطوال: ص ١٣٧. وفي تشبيه الظعن بالسفن انظر مثلاً: ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ١١٨ و ١٤٨ و ١٦٧. ديوان المثقب العبدي: ص ٣١. وديوان أبي دؤاد: ص ٣٣٧. وديوان بشر بن أبي خازم: ص ٣٥. وديوان عبيد بن الأبرص: ص ١٢٢ و ٣٩ وديوان عمرو بن قميئة: ص ٦٠. وديوان النابغة: ص ٧٥و ٢٦٣.

[٤٨٨] المفضليات: ص ٢٢٧. وانظر ايضاً ديوان امرئ القيس: ص ٥٧. والمثقب العبدي: ص ١٤٨ و الاسود ابن يعفر ص ٦٣.

[٤٨٩] طافيات: عاليات، كأنها تطفو على الماء. والدوم: شجر الدوم. المفضليات: ص ٢٢٧.

[٤٩٠] تهال له العين: تفزع من حسنه. والبازل من الإبل: الداخل في التاسعة من عمره. المصدر نفسه.

[٤٩١] انظر لسان العرب، مادة عقل. وانظر قول الأنباري في حاشية ديوان شعر المثقب العدوي: ص ١٥٦.

[٤٩٢] ديوانه: ص ١٤٥. وانظر جمهرة أشعار العرب: ص ٥٤٨. (دار القلم) وديوان الطفيل الغنوي: ص ٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عالينَ رقماً فاخراً لوتُهُ من عبقريٍّ كنجيعِ الذبيخ

ويقول علقمة بن عبدة الفحل[٤٩٣]

عقلاً ورقما تظلُّ الطيرُ تتبعُهُ كأنّهُ من دمِ الأجوافِ مدمومُ

ومن الثياب التي تلبس بها الهوادج (الكلّة) وهي ستر رقيق يحاط كالبيت للتوقي والجمع كلل، يقول المثقب العبدي[٤٩٤]

ظهرن بِكِلّةٍ وسَدَلْنَ رَقْماً وثَقّبْنَ الوصاوِصَ للعُيونِ[٤٩٥]

ويقول عمرو بن قميئة[٤٩٦]:

قنأ العُهُونُ على حوامِلِها وعلى الرُهاوِيّاتِ والكِلَلُ[٤٩٧]

وهذه الكلل من صنف فاخر وقد ازدانت حواشيها بالخمل[٤٩٨] ذي اللون الأحمر المشاكه للدم[٤٩٩].

وفوق الكلل تطرح أنماط كريمة وعقمة "جوانبها لونان ورد ومشرب"[٥٠٠]. ومنه يتبين لنا أن الهوادج كانت تغطىّ بالصوف ذي اللون الأحمر، ويبدو أن لهذا اللون دلالة

---

[٤٩٣] شرح ديوانه: ص ٣٤ (الكتاب العربي) ، وفي لسان العرب يرد هذا البيت مع إبدال كلمة (عقل) (بعقم) وبالمعنى نفسه. انظر لسان العرب، مادة عقم، وانظر ديوان شعر المثقب العبدي: ص ٦٥. وانظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٩٦ (من الربط والرقم).

[٤٩٤] ديوانه: ص ١٥٦. وانظر المفضليات: ص ٢٨٩. وانظر ديوان الاسود بن يعفر: ص ٦٤.

[٤٩٥] الوصاوص: جمع الوصواص، وهو البرقع الصغير، او خرق في الستر ونحوه على قدر العين ينظر منه. لسان العرب، مادة وصص.

[٤٩٦] ديوانه: ص ٨٩. وانظر في الكلّة، ديوان عبيد بن الأبرص. ص : ١١٠. ومعلقة لبيد بن ربيعة: (ب)١٣.

[٤٩٧] قنأ: اشتدت حمرتها. العهون جمع العهن وهو الصوف الملوّن، أو أيّ صوف مصبوغ. والرهاويّات: ثياب منسوبة إلى الرّها (أورفه). المصدر نفسه.

[٤٩٨] انظر جمهرة اشعار العرب: ص ٥٤٨ (دار القلم).

[٤٩٩] شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٩.

[٥٠٠] انظر ديوان الأعشى: ص ٣٧٣. وديوان عبيد بن الأبرص: ص ١١٠. وديوان شعر المثقب العبدي: ص ٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاصة عند الجاهلين،وربما أنها تتعلق بالثراء والسيادة، إذ نجد عبيد بن الأبرص يسمىّ السادة من العرب "أهل القباب الحمر"[٥٠١] .

والشاعر إذ يضفي على الهوادج مظهراً فخماً من خلال الحديث عن أصناف وألوان ثيابها الغالية بحواشيها الزاهية والموشاه، لايفوته أن يخلع على الظعن أنفسهن أوصافا تتجلّى فيها مظاهر الجمال ورغد العيش والثراء والترف والرفاهية، وأن يحيطهن بأجواء مفعمة بالبهجة والأطمئنان، لاأثر فيها لكرب او ضيق أو حزن.

فهن لجمالهن "دمى صنعاء خطّ لها مثال"[٥٠٢] وهن "أوانسُ بيضٌ مثلهنّ قليل"[٥٠٣] الوجوه حسان[٥٠٤] ووضاءة مشرقة[٥٠٥] ويرتدين أفخر الحرير المبطن بالشفوف[٥٠٦]:

خاشعاتٍ يُظهرْنَ أكسيَةَ الخَزِّ وَيُبطِنَّ دونـــها بشُـفـــوفِ

وقد تضمّخْنَ من مِسكٍ ذكيٍّ وَزَنْبَقِ[٥٠٧]

وريحَ سنا في حُقَّةٍ حميريَّةٍ تُخَصُّ بمفروكٍ من المسك أذفـرا[٥٠٨]

وباناً وألْويًا من الهند ذاكياً ورَنْداً ولُبنى والكباءُ المقَتَّـــرا[٥٠٩]

إنهن يتطيّبن بأنفس العطور وأذكاها أرجاً، ومنها السنا بحقّته الثمينة الملوكية التي هي من الأوعية الخاصة بالمسك المفروك القوي الرائحة فضلا عن الأطياب الهندية.

---

(٥٠١) انظر ديوانه: ص ١٠٨.

(٥٠٢) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٦٧. وانظر ديوان امرئ القيس: ص ٥٨.

(٥٠٣) ديوان سلامة بن جندل: ص ٤٥ (الكتاب العربي).

(٥٠٤) المفضليات (المرقش الأكبر): ص ٢٣١.

(٥٠٥) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢.

(٥٠٦) ديوان الأعشى: ص ٣٦٣.

(٥٠٧) ديوان امرئ القيس: ص ١٦٨.

(٥٠٨) المصدر نفسه: ص ٥٩/٦٠. والسنا: ضرب من الطيب. وأذفر: قويّ الرائحة. الديوان.

(٥٠٩) الألوي: أجود العود وأطيبه. والرّند: شجر طيب الرائحة. واللُبنى: ضرب من الطيب. والكباء: كلّ ما يتبخر به. والمقتر: المدخن عند مباشرة النار له. الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبدو آثار النعمة والثروة عليهن، مما يتحلّين به من مختلف أنواع الحليّ وأثمنها، فهن "يُحلّين ياقوتاً وشذراً مفقّراً"[٥١٠] بل لقد

تَحلّينَ ياقوتاً وشذراً وصيغةً وَجَزْعاً ظَفاريًا ودرّاً توائِما[٥١١]

وتزيّن ترائبهن البيض النواعم الشابّة بالذهب[٥١٢] الذي نظم في سلك وله "توقُدٌ كالشهاب المُوقدِ"[٥١٣] أو "كجمر النارِ بُذّرَ بالظلام"[٥١٤].

كما يُزيّنها "تَوقُدُ ياقوتٍ وفصلُ زَبَرْجَدِ"[٥١٥].

والقلائد هذه سموط من الذهب المطعّم بالجمان والمرجان، ومنها المزدوج ومنها الفرد كما يقول لبيد بن ربيعة[٥١٦]:

وعالين مضعوفاً وفرداً سُموطُهُ جُمانٌ ومَرجانٌ يَشُدُّ المفاصلا[٥١٧]

ويدقق الشاعر في أنواع الحليّ ومواضعها من أجساد الحسان فيجد أنه بالإضافة إلى ما تضعه هاته الحسان حول نحورهن، فإنهن "يُهدّلنَ في الآذان من كُلِّ مُذْهَبِ"[٥١٨] والأقراط هذه منها ما هو مصنوع من الذهب فقط، ومنها ما يدخل اللؤلؤ وغيره من الجواهر في صياغته، وهو أمر لايفوت هذا الشاعر المتمعّن المدقق، فيقول مشيراً إلى تحلّي الظعن بالأقراط المرصّعة بما عظم من اللؤلؤ[٥١٩]:

يَرُضْنَ صِعابَ الدُّرِّ في كُلِّ حِجَّةٍ ولو لم تكن أعناقُهنَّ عواطِلا[٥٢٠]

---

(٥١٠) ديوان امرئ القيس: ص ٥٩.

(٥١١) مرقش الأصغر/ مجلة كلية الآداب، ١٩٧٠، ع ١٣، ص: ٥٣٥. والمفضليات: ص ٢٤٥ز والجزع: الخرزاليماني وهو من أنفس الجواهر. المفضليات.

(٥١٢) ديوان شعر المثقب العبدي: ص ١٥٩.

(٥١٣) ديوان النابغة: ص ٩٥.

(٥١٤) المصدر نفسه: ص ٢٣٥. وانظر ديوان قيس بن الخطيم: ص ١٢٥. (توقد).

(٥١٥) ديوان قيس بن الخطيم: ص ١٢٥.

(٥١٦) ديوان الفروسية: ص ١٩٠.

(٥١٧) عالين: وضعن عليهن. والمفاصل: الخرزات التي تفصل بين كل اثنتين في السلك. الديوان.

(٥١٨) المفضليات (المرقش الأكبر) : ص ٢٣١. وانظر ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٧٩ .

(٥١٩) ديوان الفروسية: ص ١٩٠.

(٥٢٠) يرضن: يذللن. حِجّه: شحمة الأذن. الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذن مراكب الظعن -كما يراها الشاعر- هي هوادج مزخرفة ذات ألوان مزركشة بهيجة، ويغلب عليها اللون الأحمر، وتتكلل بأصنافٍ من الثياب الثمينة، المتفاوتة سماكة ورقة، وتتدلى حواشيها الموشاة والمزدانة بالقطيفة. والهوادج عظيمة كما السفن، وعالية مرتفعة فوق الرمل كما النخل المرتوي بالماء وقد فرشت بالطنافس الوثيرة التي تقتعدها حسان مشرقات الوجوه، منعمات ومترفات: يتحلّين بمختلف أنواع الحليّ المصاغة من الذهب والمرصعة بالدر والأحجار الكريمة وكأنّ الركب في طريقه للاحتفال بمناسبة سعيدة.

فهل تتوافق هذه الرؤية والواقع الذي حدا بالركب إلى الارتحال؟ لاريب في أن الشاعر يقصد من هذا كلّه الايحاء بأن المنتجعين أو الظاعنين أقوى إرادة وأشد شكيمة من أن ينال منهم الجدب والقحط ، وانهم في ارتحالهم إنما يتحدّون جبروت الطبيعة، مستجيبين لنداء الحياة في صراع البقاء.

ج. البذل والعطاء:

ويمثل في الكرم والقرى والميسر، وهو مظهر للتحدّي فرضته بيئة الجزيرة العربيّة الصحراوية، هذه البيئة المجدبة القاسية التي يتنافس الناس فيها ويتصارعون على موارد الرزق القليلة. فالبذل والعطاء -من هذا المنطلق- ضرورة من ضرورات الحياة للحفاظ على استمرارها وبقاء النوع، وهو أيضاً تحدٍّ لما يعرض هذه الحياة للفناء أو العدم.

وقد كان العربي يعلم أن السائر في الصحراء عرضة للهلاك جوعاً أو عطشاً إذا لم يجد مسعفا، فكان الحرص على مدّ يد العون لمن هم في أمسّ الحاجة إليها، ومن ثم فإن الحرص على استنقاذ الحياة بتحدّي الجدب وذيوله من فقر وجوع وربما هلاك، هو هدف الكرم الذي نحن بصدده.

من هنا نجد أن الشعراء في حديثهم عن الكرم والقرى يوحون بانتصارهم لمبدأ الحياة ويتباهون بتصديهم لما من شأنه أن يتعارض أو يتناقض وهذا المبدأ، ويكثرون من التغني بما يستطيعون تقديمه – من ملاذ وطعام وشراب- للساري الذي انقطعت به السبل وللعاني الذي ضاقت به أسباب الحياة في السنوات الشديدة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالكرمُ "سجيّة من أهمّ السجايا العربيّة، ومن هنا ارتبطت بخير ما تفخر العرب وتقدّس من الصفات"[٥٢١] وهو سجيّة تتناغم والأعراف العربيّة الجاهلية وتقاليدها الاجتماعية.

وينصّ لبيد بن ربيعة على أن الكرم خلق وطبيعة في قومه، وأكثر ما يتجلّى في الزمن الشديد، زمن النوائب والجدب. يقول[٥٢٢]:

قَومي أُولئِكَ إنْ سألت بِخِيمِهِمْ ... وَلِكُلِّ قَوْمٍ في النوائبِ خِيمُ[٥٢٣]

وإذا شَتَوْا عادَتْ على جِيرانِهم ... رُجُحٌ تُوَقِّيها مَرابِعُ كُومُ[٥٢٤]

لايَجتَويها صَنيفُهمْ وفَقيرُهُمْ ... وَمُدَفَّعٌ، طَرَقَ النبوحَ، يَتيمُ[٥٢٥]

والكرم خلقا وطبيعة، له من الشمولية والديمومة، مالايجعله قاصراً على ظروف معيّنة، أو شرائح محدّدة من المجتمع، كما أنه لايصطفى حالة بعينها ولايختار عيّنة دون غيرها، بل إنه في عطائه لايفرّق بين غنّي وفقير، أو متخم وجائع.

فإذا كانت هذه هي حقيقة الكرم، فلم نرى عدداً من الشعراء –وفي حديثهم عن البذل والعطاء– يقفون عند حالات انسانية بائسة، شعثاء، غبراء، مهزولة، تتضوّر جوعاً وتعاني من جبروت الطبيعة وقسوة عواملها الجويّة، في إطار زماني معيّن؟؟؟

أتراهم يلمحون إلى أن القصد ليس مجرّد اكتساب الذكر الحسن، أو الإشادة بكرم الإنسان الجاهلي، وإنما هو أبعد وأخطر من ذلك؟ أليس القصد هو إبراز دور الكرم الفاعل في تحدّي أهم مشكلة كانت تواجه العربي في الجاهلية، وهي مشكلة الصراع من أجل الحياة وسط أسباب الإفناء المنتشرة حوله ولاسيما في أوقات الجدب؟

---

(٥٢١) شعر الكرم العربي: ص ٥٩. وانظر جزيرة العرب في القرن العشرين: ص ١٢٤.

(٥٢٢) الديوان ص ١٣٦. وانظر ديوان الفروسية (لبيد بن ربيعة) ص ٢٥٥. (وعامر بن الطفيل): ص ٥١ و ٦١.

(٥٢٣) الخِيمُ: الخلق والطبيعة.

(٥٢٤) مرابع كوم: إبل عظيمة سمينة. رُجُح: جفان ثقيلة. توفّيها: تملؤها.

(٥٢٥) يجتويها: يكرهها. مُدَفَّع: فقير ذليل، أو يدفعه الناس المتدافعون. لسان العرب، مادة دفع. النبوح: الحيّ. الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الشاعر –من هؤلاء– وهو يتحدّث عن البذل والعطاء لايعير كبير إهتمام للمال أو الهدايا او ما يمت إلى الكماليات، إنه يتحدّث عن الضروريات والأساسيات في الحياة: عن المأوى والملاذ، وعن الطعام والشراب، لأن في الجدب يمنح المال[٥٢٦] لتتقذ به الحياة، ولاسيما في الأيّام العصيبة من فصل الشتاء، حين يكون الجو جافاً مُسرفا في البرودة تصحبه الرياح الصرّة الشديدة التي تقسر الأحياء على اللواذ بمواضع الدفء، كما يقول طرفة بن العبد[٥٢٧]:

إنا إذا مـــا الغيمُ أمسى كأنّه ... سماحيقُ ثُرّب، وهي حَمراءُ حَرجَفُ[٥٢٨]

وجاءتْ بِصُـــرّادٍ كأنَّ صَقيعَهُ ... خِـــلالَ البُيوتِ والمَبارِكِ كُرْسُفُ[٥٢٩]

وجاء قَرِيعُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبلَها ... إلـــى الدفْءِ، والراعي لها مُتَحَرِّفُ[٥٣٠]

تبيتُ إماءُ الحيِّ تطهي قُدورَنا ... ويَـــأوي إلينا الأَشْعَثُ المُتَجَرِّفُ[٥٣١]

فالشاعر يتباهى أنه وقومه يتحدّون جو الكرب هذا وينتصرون لمبدأ الحياة من خلال إيواء المفلسين والمحتاجين وإطعامهم.

وفي ايام القحط والبرد القارس تتأزم الأمور، ويعمّ البلاء، حتى إن المرضعات يهددهن الجوع بجفاف حليبهن، والأرامل يطلبن الغوث، حينئذ يحتّم التحدّي على الشاعر المقتدر أن يمدّ يد العون لهن، يقول دريد بن الصمّة[٥٣٢] :

لقد علم المَراضعِ في جُمادَى ... إذا اسْتَعجَلْنَ عن حَزٍّ بِنَهْسِ[٥٣٣]

---

(٥٢٦) انظرديوان النابغة: ص ٢٢٦. وانظر ديوان أوس بن حجر: ص ٥٤، وايضا: ص ٥٢.

(٥٢٧) انظر ديوانه : ص ١٣٠. وانظر المفضليات (المسيّب بن علس): ص ٦٢/٦٣.

(٥٢٨) سماحيق ثُرّب: غلالات رقيقة من الشحم، شبّه بها الغيوم الجافّة، لامطر فيها، ويصحبها برد شديد وريح حمراء: إمّا بيضاء أو شديدة. وحرجف: الريح الباردة.

(٥٢٩) الصُرّاد: الغيم البارد، لاماء فيه، أو هو الريح الباردة مع ندى. والكرسف: القطن.

(٥٣٠) قريع الشول: فحل الإبل. يرقص: ضرب من السرعة. متحرّف: ليس معها راعٍ من شدة البرد.

(٥٣١) الأشعث: الذي قد تشعّث للجدب والهزال. والمتجرّف: الذي جرفت السنون ماله. الديوان.

(٥٣٢) ديوانه: ص ٨٣. وانظر المفضليات (عوف بن عطية): ص ٤١٣. وديوان الأعشى: ص ٣٩٣.

(٥٣٣) جمادي: شدة البرد. والحز: القطع. والنهس: تعرّق ما على العظم وانتزاعه بمقدّم الأسنان من الجوع، ويكون هذا في أيام القحط. الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأنـــي لا أَبـــيتُ بِغَـيرِ لحمٍ وأَبْـــدأُ بـــالارامِلِ حين أُمسي

بل إنه ليهلك ماله في مثل هذه الظروف، عوناً وغوثاً وإقامة أودٍ:

هَضومُ الشتاءِ إذا المُرضِعـــا تْ جـــالَتْ جبائرُ أَعضادِها[٥٣٤]

وفي الظروف الطبيعية الصعبة والأحوال الجويّة السيئة، يتصدّى المقتدرون للتخفيف من المعاناة، بدفعهم غائلة الجوع:

وَهُمُ يُطعمونَ إذا قَحَطَ القَطْـ رُ وَهَـبَّتْ بِشَمْأَلٍ وَضَريبِ[٥٣٥]

إن الحاجة إلى المعونة والغوث والبذل، أشدّ ما تكون في الأيّام الصردة حين يلفح البرد القيان ويلسع وجوههن فتغبّر حتى ليظن أنهن حبشيّات، وحين يشح المرعى فيجف اللبن في ضروع النوق[٥٣٦]، إذ ذاك ينهض متحدّو أسباب الضنك والعوز والكرب فتراهم وقد:

حَجَرُوا على أَضْيافِهِم وَشَوَوْا لهم مِنْ شَطِّ مُنْقِيَةٍ وَمِـــنْ أَكبادِ[٥٣٧]

ويلمّح زهير بن أبي سلمى إلى الموقف المتحدّي لممدوحه، وذلك حين تعصف رياح الشتاء الجديب فتقتلع حظائر الشجر وتقذف بها بيوت الحيّ، ويبيس العشب فتعزّ الإبل السمينة ويعمّ الغلاء ويزداد البؤس والجوع، عندها يعلم الناس[٥٣٨]:

---

[٥٣٤] ديوان الأعشى: ص ١٢٥ و ١٣٧ و ٢٣٠ و ٣٥٧.وديوان الطفيل الغنوي: ص ٤٠ (كرنكو) والهضوم: الذي ينفق ماله. والجبائر: جمع جبيرة وجبارة، سوار عريض تلبسه المراة في العضد وجالت الجبائر في اعضادها كناية عن الهزال، لأن الأصل في الجبارة أن تكون لاصقة بالعضد. ديوان الأعشى.

[٥٣٥] ديوان الأعشى: ص ٣٨٣، وانظر ايضا: ص ١٣٧و ٢٩١. وديوان أوس بن حجر: ص ٥٣، وديوان الحماسة ص ١٣٩١، وديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٧٤، وديوان عمرو بن قميئة: ص ٢٨/ ٢٩. وديوان الهذليين ٣: ١٢٦. وقحط القطر: احتبس المطر. وضريب : الثلج والمطر. ديوان الأعشى.

[٥٣٦] انظر ديوان الأعشى: ص ٣٩٥ (حاردت خور اللقاح).

[٥٣٧] ديوان الأعشى: ص ١٨٣. وشط: جانب السنام او نصفه والمنقية: الإبل السمينة، وانظر في معنى مقارب الحماسة الشجرية: ص ٩٤. والحماسة البصرية ٢: ٣٠٧.

[٥٣٨] شرح ديوان زهير: ص ١٢٢. وانظر الأصمعيات: ص ١٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَنْ نِعْمَ مُعتَرَكُ الحَيِّ الجِيـاعِ إذا خَبَّ السفيرُ ومَأْوَى البائسِ البَطِنِ[٥٣٩]

مَنْ لايُذابُ لهُ شَحْمُ النصيبِ إذا زارَ الشِتاءُ وعَزّتْ أَثْمُنُ البُـدُنِ[٥٤٠]

وحتى في "السنة الشهباء"[٥٤١] التي يشتد فيها الجدب والقحط، ويعزّ ويقل ما يمكن تقديمه للمحتاجين، لايتخلّى الشاعر عن واجبه، بل يجهد في مدّ يد العون لهم واحاطتهم بما يدخل البهجة والأمل إلى نفوسهم[٥٤٢].

ولماذا هذا الجهد؟ وذاك الحرص على البذل والعطاء؟ لأنه يخزى أن تبدو عليه علائم الشبع والتخمة، وأبناء حيّه يتضورون جوعاً، وقد غلب على أجسامهم النحافة والهزال، يقول حاتم الطائي[٥٤٣]:

وإني لأَخْزَى أَنْ تُرَى بي بِطْنَةٌ وجاراتُ بيتي طـــاوياتٌ وُنُحَّفُ

وإني لأَغشَى أَبعدَ الحَيِّ جفنَتي إذا حَرَّكَ الأطنابُ نَكباءُ حَرْجَفُ[٥٤٤]

فهو يحاول بعث الدفء في عروق المقرورين، والتغلب على آثار الجوع الذي تعاني منه نساء الحي فضلا عن رجاله، باطعامهم مما في جفنته من وفير الطعام.

ويتباهى عمرو بن قميئة بكثرة قرى ممدوحه في السنين الشديدة التي يأتي فيها الجدب على الأخضر واليابس، فيحيى ببشاشته وكرمه موات الأمل في النفوس المنكوبة. يقول[٥٤٥]:

---

(٥٣٩) معترك الحيّ: حيث يزدحمون، وخبّ : جرى. والسفير: ما تناثر من الورق. والبطن: الجائع اللاصق بطنه بظهره. شرح الديوان.

(٥٤٠) يذاب له شحم: لايدّخر نصيبه من الشحم . ويطعمه للناس طريّا. زار: أتى وعزت: ارتفعت، غلت ,اثمن: أثمان (جمع ثمن) الديوان.

(٥٤١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ١١٠. وانظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٧٤. والأصمعيات: ص ٢١٦.

(٥٤٢) ديوان الهذليين (المتنخل) ٢: ٢٢.

(٥٤٣) ديوان شعره: ص ٢٢٣/ ٢٢٤و ٢٥٤ و انظر الحماسة الشجرية: ص ٥٢/ ٥٣.

(٥٤٤) الأطناب: جمع طُنُب، ما يشدّ به البيت من الحبال بين الأرض والطرائق. الديوان.

(٥٤٥) ديوانه: ص ١٠. وانظر ديوان أوس بن حجر: ص ٢٠. وسلامة بن جندل: ص ١٩ (الكتاب العربي).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عظيمُ رَماد القِدرِ لا مُتَعَبّسٌ ولا مُؤْيِسٌ منهـــا إذا هو أَوْقَدَا

وإن صَرَّحَتْ كَحلٌ وَهَبَّتْ عَرِيَّةً مِنَ الريحِ لم تَتْرُكْ لذي المالِ مِرْفَدا(٥٤٦)

ويفخر شاعر آخر بكبر حجم قدره هو نفسه، واتساعها بحيث يطفو فيها فيل غير مقطع الجسم، كما يتباهى بكثرة استعمالها في اعداد الطعام لقاصديه الكثر، فيقول(٥٤٧):

بِقِدرٍ كأنّ الليلَ شُحْنَةُ قَعرِهـا تـــرى الفـــيلَ فيها طافِيًا لم يُقطعِ

يُعَجِّلُ للاضيافِ وارى سَديفِها وَمَنْ يأتِها من سائرِ الناسِ يشبَعِ(٥٤٨)

وأمّا قدر الأعشى فإنها في رفدها للسائل المقرور المرمل، كالأم الرءوم في احتضانها لإبنها، وفي احاطته بالرعاية والاهتمام، وفي سعيها لتوفير الغذاء المادي والمعنوي له، ولاسيما في أوقات الشده والفاقة. يقول(٥٤٩):

إذا احمرّ آفاقُ السماءِ وأَعْصَفَتْ رِياحُ الشتاءِ واستَهَلّتْ شُهورُها(٥٥٠)

تـــرى أنّ قِـــدري لاتزالُ كـأنها لذي الفَروَةِ المَقرورِ أُمٌّ يَزورُها(٥٥١)

مُبَرَّزَةٌ لايَـــجْعَلُ الستْـــرَ دُونها إذا أُخْمِـــدَ النيرانُ لاحَ بشيرُها(٥٥٢)

اذا الشَولُ راحَتْ ثُمَّ لَمْ تَقْدِ لحمَها بـــألبانِها ذاقَ السِنانُ عقيرُها(٥٥٣)

---

(٥٤٦) كحل: السنة الشديدة. وصرّحت : أحدبت وصارت خالصة في الشدّة وعرية: باردة. المرفد: المعونة.

(٥٤٧) انظر الوحشيات: ص ٢٦٩. والشعر غير منسوب.

(٥٤٨) الوارى: الشحم السمين. ترتيب القاموس المحيط، مادة ورى.
والسديف: لحم السنام. لسان العرب. مادة سدف.

(٥٤٩) ديوانه: ص ٤٢١ و ٢٧٥، وترد في المفضليات لعوف بن الأحوص، انظر: ص ١٧٦/١٧٧ منها.

(٥٥٠) احمرّ آفاق السماء: اغبرّت جوانب السماء وذلك في القحط، والعرب تسمّي السنة الشديدة حمراء، الديوان.
وانظر ديوان شعر حاتم الطائي: ص ٢٤٦.

(٥٥١) الفروة: الكيس الذي يجمع فيه السائل ما يتصدّق عليه الناس به، الديوان.

(٥٥٢) مبرزة: ظاهرة للعيان أمام الدار بحيث يراها كل الناس فيقصدونها. نفسه.

(٥٥٣) الشول: الإبل التي جفت ألبانها، راحت: عادت من المرعى آخر النهار. نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشاعر لاتنقصه الوسائل لتوفير القرى في الأزمات، فعنده النوق التي من عادة لبنها أن يفي بالغرض، واذا ماجففه الجدب، فهناك لحمها الذي "يشبع من عفا"[٥٥٤] وإنه ليتحدّى الظلام، عدو السارى والضال في متاهات القفر، فيوقد النار الليل كله في ليالي الشتاء وغيرها ليستدلّ بها الأضياف"[٥٥٥] والمستغيثون المضرورون الذين يتلفتون هنا وهناك بحثاً عن "ضوء نار في يفاع تحرق"[٥٥٦].

ويتباهى السموأل بأن ناره موقدة دائماً، كما نزول الطارقين به الذين يجدون عنده ما يستحق الحمد والثناء والعرفان، يقول[٥٥٧]:

وما أُخْمِدَتْ نارٌ لنا دُونَ طارِقٍ ولا ذَمَّنا في النازلينَ نَزيلُ

ويهتم الشاعر بالنواحي النفسية لمن عضّهم الدهر بنابه، وأوقعهم في شدّة وجهد وضيق، لذا فإنه لايكتفي بإيوائهم وتقديم الطعام والشراب لهم، وإنما يوليهم كل حدب ورعاية وعطف، فهو:

حَدْبٌ على المَولَى الضَّريكِ إذا نابَتْ عليهِ نوائبُ الدَّهْرِ[٥٥٨]

ولعلّ أوضح مثل على تحدّي الجدب وما يحيط به من عوامل جويّة قاسية –قد تؤدي إلى فقدان الحياة– تلك القصص التي يسردها الشعراء ويصورون فيها حال "المستنبح" أو "الساري" وهو يعاني أشدّ المعاناة في صراعه من أجل البقاء، من ذلك ما جاء في حماسة أبي تمام[٥٥٩] :

---

(٥٥٤) الأصمعيات: ص ١٤٢/١٤٣، وانظر ديوان الحارث بن حلّزة: ص ٤٤. وديوان ذي الإصبع العدواني: ص ٧٤.

(٥٥٥) انظر نشوة الطرب ٢: ٨٠.

(٥٥٦) انظر ديوان الأعشى: ص ٢٧٣. واليفاع: الأرض المرتفعة. وانظر فيه ايضا: ص ٢٨٩.

(٥٥٧) ديوانه: ص ١٤، وانظر في ايقاد النار معجم الشعراء (يزيد بن حمار السكوني) : ص ٤٧٩. وشرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٩١.

(٥٥٨) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٩٠. والضريك: المحتاج وهو القرضوب (الفقير) والصعلوك: الديوان.

(٥٥٩) شرح ديوان الحماسة: ص ١٦٤٥، وانظر ايضا: ص ١٧٠٥ و ١٥٦٩ والمفضليات (عوف بن الأحوص): ص ١٧٦ و(عمرو بن الأهتم): ص ١٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَمُسْتَنبِحٍ تَهوي مساقِطُ رَأْسِـهِ إلى كُلِّ شَخْصٍ فَهوَ للسَمْعِ أَصْوَرُ[٥٦٠]

يُصَفِّقُهُ أَنفٌ مِـنَ الريحِ بـارِدٌ ونكباءُ لَيلٍ مِنْ جُمادَى وَصَرْصَرُ[٥٦١]

حَضَأْتُ له ناري فَأبْصَرَ ضَوْءَها ومـا كاد لولا حَضْأَةُ النارِ يُبْصِرُ[٥٦٢]

دَعَتْهُ بغيرِ اسمٍ هَلُمَّ إلى القِـرَى فـأسرى يَبوعُ الأرضَ والنارُ تُزْهِرُ[٥٦٣]

فلما أَضاءَتْ شَخصَهُ قلتُ مَرْحَباً هَـلُـمَّ وللصالِـينَ بالنارِ أَبْشِرُوا[٥٦٤]

فهذا الساري التائه المستنبح يتلفت حوله يسترق الحظى وكله آذان صاغية يرجو أن يسمعه منقذ أو مغيث، وهو لايكاد يتبين طريقه بسبب الرياح الصرّة التي كانت تضربه وتتلاعب به دون رحمة أو هوادة، وحين سمع الشاعر صوت استغاثته هيج النار فارتفعت مما مكّن المستنبح من رؤيتها والاهتداء بها إلى طريق النجاة قاطعاً المسافة .التي تفصله عنها بسرعة فائقة. وحين وصلها وجد الموئل والملاذ والبشر والترحاب من الشاعر وممن يتدفأ بالنار كما جرت عادة العرب حين يلمّ بأحدهم ضيف إذ أن في وصوله إيذانا ببدء تقديم القرى، وفرحة بانتشاله من براثن الهلاك.

وأما هذا القرى فقد كان قوامه قطع لحم مطهوة أخذت من "كوماء لم يذهب بها النهى مذهباً"[٥٦٥] وهو ما جرت عليه عادة الكرماء في تصديهم للتغلّب على آثار الجدب، إلى جانب دخولهم في الميسر في فصل الشتاء، ثم التوقف عنه في الصيف[٥٦٦].

---

(٥٦٠) المستنبح: الرجل اذا كان في مضلة فأخرج صوته على مثل نباح الكلب ليسمعه الكلب فيتوهمه كلباً فينبح فيستدل بنباحه فيهتدي، لسان العرب، مادة نبح. وتهوى مساقط رأسه: تقصد وتسرع. اصور، مائل للسمع.

(٥٦١) يصفقه: يضربه. والأنف من الريح: أوله. وصرصر: برد شديد والصر والصرصر بمعنى، الحماسة.

(٥٦٢) حضأت له ناري: رفعتها وهيجتها له فأبصرها واستدلّ بها.

(٥٦٣) يبوع الأرض: يقطعها بخطو واسع وحركة سريعة. والنار تزهر: تضيء في صُعود.

(٥٦٤) هَلُمَّ: هنا امر بالدنو. وأبشروا : استبشروا بالضيف فقد طرق. الحماسة.

(٥٦٥) انظر د يوان المثقب العبدي: ص ١٢١ وما قبلها.

وكوماء: ناقة عظيمة السنام طويلته، والجمع كوم.

والنيّ: الشحم. الديوان.

(٥٦٦) الميسر والقداح: ص ١٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والميسر –كما يعرّفه ابن قتيبة– الجزور نفسه، سُمّيَ ميسراً لأنه يجزأ أجزاء فكأنه موضع التجزئة ، وكل شيء جزأته فقد يسرته، والياسر الجازر لأنه يجزئ لحم الجزور"[٥٦٧].

ويقال للداخل في الميسر المتقامر على الجزور (يَسَر) والجمع أيسار، وقد يكون (اليَسَر) جمعاً لياسر،ثم يجمع (اليَسَر) فيقال أيسار جمع الجمع[٥٦٨].

وكان العرب ينسبون الدخول في الميسر إلى لقمان بن عاد، ولعلّه أوّل من فعله، يقول طرفة بن العبد مادحاً قوماً[٥٦٩]:

وهم أيسارُ لُقمانَ إذا أَغْلَتِ الشَتوةُ أبداءَ الجُزُرْ[٥٧٠]

وقد "كانوا في الشتاء-عند شدّة البرد،وجدب الزمان،وتعذّر الأقوات على أهل الضرّ والمسكنة-يتقامرون على الإبل ثم يجعلون لحومها لذوي الحاجة منهم والفقراء، فإذا فعلوا ذلك اعتدلت أحوال الناس، وأُخصبوا وعاشوا واستراشوا"[٥٧١] كما كانوا يكادون يقصرون الميسر على الليل الذي فيه يشتد البرد والتزامن مع مجيء الأضياف [٥٧٢].

كان القوم يجتمعون،فيشترون ما يصلح لأن يذبح من الإبل،ويقسمونها عشرة أقسام على عشرة أنصباء، ثم يؤتي برجل لم يشتر لحما لطعامه قط ويسمّى (الحُرْضَة).

ثم يؤتى بعشرة قداح، سبعة منها بها حظوظ ان فازت، وعلى أهلها غرم بقدر حظها إن خابت[٥٧٣]،والقداح التي لها حظوظ أسماؤها: الفذ، والتوأم، والرقيب[٥٧٤]،

---

(٥٦٧) الميسر والقداح: ص ٣٢.

(٥٦٨) نفسه: ص ٣٦.

(٥٦٩) ديوانه: ص ٧٢. وانظر ديوان اوس بن حجر: ص ٣٣.

(٥٧٠) أغلت الشتوة: جعلتها صعبة المشترى. وأبداء:جمع بدء،وهو النصيب من الجزور. الديوان.

(٥٧١) الميسر والقداح: ص ٤٣/ ٤٤. وانظر ديوان الأعشى: ص ٢٦٥ .

(٥٧٢) نفسه: ص ١٠٧. وانظر ديوان الفروسية: ص ١٩٤ (سراة العشاء يزجرون المسابلا).

(٥٧٣) انظر الميسر والقداح: ص ٥٦. وانظر أيضا المحبر: ص ٣٣٣. ونشوة الطرب ٢: ٧٩٧. وفيهما عدد القداح أحد عشر قدحاً.

(٥٧٤) في نشوة الطرب ٢: ٧٩٧ الضريب بدلا من الرقيب، وكذلك في المحبّر: ص ٣٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحلس، والنافس، والمُسبِل، والمعلّى،وأما التي لاحظوظ لها فهي: السفيح، والمنيح، والوغد[٥٧٥]، ويطلق عليها اسم (الغُفْل) في معظم الأحيان.

والمشاركون في الميسر يجب أن يكونوا سبعة رجال، فإن نقصوا واحداً أو اثنين وأحبّ الباقون أن يأخذوا ما فضل من القداح، أمكن للواحد منهم أن يأخذ القدح والقدحين مع مالهما من فوز، وما عليهما من غرم، ويسمى مثل هذا الرجل التميم[٥٧٦]. ومنه جاء قول النابغة[٥٧٧]:

إني أُتَمِّمُ أَيْسَاري وَأَمْنَحُهُمْ مَثنى الأيادي وأَكْسُو الجَفْنَةَ الأَدَمَا[٥٧٨]

فهو يتمم عدد الياسرين إذا كانوا دون العدد الكافي لاقتسام الجزور الذي يتياسرون عليه،ويدفع ما يحق دفعه من ثمن الجزور، ثم يعطي ماربحه من الجزور بلا مقابل.

وتكون القداح متشابهة في الأحجام[٥٧٩] ولكنها تختلف بما عليها من علامات ووسوم. يقول عمرو بن قميئة[٥٨٠]:

بأيديهم مَقرومةٌ ومغالِقٌ يعودُ بأرزاقِ العِيالِ مَنيحُها[٥٨١]

فهم ييأسرون بهذه القداح بعلاماتها وأنصبائها المختلفة،من أجل توفير الطعام والرزق للفقراء العالة، وذلك "عند الشتاء وقلة الأنواء"[٥٨٢] بوجه مخصوص.

---

(٥٧٥) الميسر والقداح: ص ٥٦.وفي كل من المحبّر: ص ٣٣٤، ونشوة الطرب ٢: ٧٩٨، هي على النحو الآتي، السفيح، والمنيح، والمضعّف، والمصدّر.

(٥٧٦) انظر المحبر: ص ٣٣٤. ونشوة الطرب ٢: ٧٩٨. وأيضا الميسر والقداح: ص ١١٠.

(٥٧٧) ديوانه: ص ٢١٨. وانظر في (مثنى الأيادي) ديوان الفروسية (لبيد بن ربيعة): ص ١١٤.

(٥٧٨) أكسو الجفنة: أغطيها. الأدم: اللحم لأنه يؤدم به الخبز فيصير ثريداً. الديوان.

(٥٧٩) انظر :بمغالق متشابه أجسامها" في معلقة لبيد بن ربيعة.

(٥٨٠) ديوانه: ص ٣٠ . وانظر الميسر والقداح: ص ٧٦. وشرح ديوان علقمة الفحل: ص ٥١ (الكتاب العربي).

(٥٨١) المقرومة: المعلّمة بحزٍّ أو عضٍّ. والمغالق من نعوت قداح الميسر التي يكون لها الفوز، وهي التي تغلق الخطر (اي الرهان) فتوجبه للقامر الفائز كما يغلق الرهن لمستحقه. انظر اللسان، وتاج العروس ، مادة غلق.

(٥٨٢) انظر شرح ديوان زهيربن أبي سلمى: ص ٣٣٣. وديوان الأعشى: ص ١٩٥، ٢٩٩. وديوان سلامة بن جندل: ص ٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان العرب يتحدّون شدّة الزمان باستغلال الميسر في إطعام المنكوبين، ولايُيسر منهم إلا المعروف بالجود والكرم، اذ أن الآخرين كانوا يحرصون على أموالهم خشية أن ينضموا إلى ركب المدقعين إذا طال أمد الجدب.

ومن هنا جاء تباهي طرفة بن العبد بقومه الذين يدخلون الميسر لالـيربحوا،وإنما ليخسروا ويغرموا، فيذبحوا المنقيات لإطعام المعسرين المقرورين، يقول[٥٨٣]:

إنـــي مِنَ القــومِ الذين إذا ... أَزِمَ الشِتاءُ ودُوخِلَتْ حُجَرُهْ[٥٨٤]

يوماً، ودُونِيــتِ البيوتُ له ... فَــثَنى قُبيلَ رَبيعِهِم قِرَرُهْ[٥٨٥]

رفعوا المنيحَ وكان رِزْقَهُمُ ... فــي المُنقياتِ يُقيمُهُ يَسَرُهْ[٥٨٦]

ومن الشعراء من يعدّ المياسرة إحدى الخلاّت الكريمة المميزة التي يفضل بها القوم غيرهم –كما الوفاء– فيما يرى بشر بن أبي خازم إذ يقول[٥٨٧]:

هــم فضلوا بِخَلاّت كِرامٍ ... معْداً حيثما حَلُّوا وساروا

فمنهن الوفاء إذا عَقَدْنا ... وأيسارٌ إذا حَبَّ القُتارُ[٥٨٨]

إن من شيمة هؤلاء القوم الوفاء بالعهد والالتزام بما تعاقدوا عليه، ومن شيمتهم أيضا ذبح الجزر في الميسر في جدب الشتاء،حين يقل الغذاء،ويشتهى الشواء.

والمياسرة أيضا سجيّة لديهم كالكرم كما يذهب إليه شاعر الحماسة[٥٨٩] فهم:

هَيْنونَ لَيْنون أيسارٌ ذوو كَرَمٍ ... سُوّاسُ مَكْرُمَةٍ أبناءُ أيسارِ[٥٩٠]

---

(٥٨٣) ديوانه: ص ١٢٥. وانظر أيضا المفضليات (المرقش الأكبر): ص ٢٣٣.

(٥٨٤) أزم الشتاء: اشتد برده، ودوخلت حجره: دخلوا البيوت ليستكنوا من البرد. الديوان.

(٥٨٥) فثنى قبيل ربيعهم: تثنت عليهم القرر، مرة بعد مرة، والقرر: جمع قرة، وهي البرد. الديوان.

(٥٨٦) المنتقيات: سمان الإبل، يقيمه: يضرب به. يَسَره: الضارب بالقدح المنيح. نفسه.

(٥٨٧) ديوانه: ص ٧٢/٧٣.

(٥٨٨) القُتار: رائحة شواء اللحم. وحُبَّ : اشتهاه الناس لندرته.

(٥٨٩) شرح ديوان الحماسة: ص ١٥٩٣. وانظر ديوان أوس بن حجر: ص ٣٣.

(٥٩٠) سُوّاسُ مكرمة: يسوسون المكارم ويعمرونها بعد ابتنائها ويحافظون عليها. الحماسة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انهم ذو طبع سلس كريم، ويتوخّون المكارم ولا يغفلون عنها، كما لايغفلون عن إغاثة الفقراء وأرباب الحاجة والضرّاء عند الجدب والقحط، متحدين بذلك ما يخلفه هذا الجدب من جوع ومسغبة.

ولايقتصر هذا التوجّه على الجماعات، بل إن الأفراد ليقومون بمثل ذلك، وربما بأكثر إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فهذا علقمة بن عبدة الفحل يشترك في الميسر درءاً لغائله الجوع عن المشتين المكروبين، ولايتقاعس عن المقامرة على ما هو أثمن من الإبل، يقول[٥٩١] :

وَقَدْ يَسَرْتُ إذا ما الجُوعُ كَلَّفَهُ ... مُعَقَّبٌ مِنْ قِداحِ النَبْعِ مَقْرُومُ[٥٩٢]

لَوْ يُيْسِرونَ بِخَيْلٍ قَدْ يَسَرْتُ بِها ... وَكُلُّ ما يَسِرُ الأقوامُ مَغرُومُ

إن الحصان بالنسبة للعربي –وكما هومعروف– من أنفس وأغلى ما يُقتنى، ولكن حياة الإنسان في نظر الشاعر، أغلى وأقيم، لذا فإنه لايتوانى عن التضحية بفرسه أو بأي شيء ييسره القوم، قهراً للجوع وانقاذاً للحياة.

ثم إن الياسر قد لايفرّق في قراه بين الغني والمستجدي لأنه كريمٌ بطبعه ، ولأنه يدرك أن الجميع في زمن السوء والكرب بحاجة إلى غوث ومعونة. يقول عوف بن عطيّة[٥٩٣] :

وَلقَدْ زَجَرْتُ القِدْحَ إذ هَبَّتْ صَبا ... خَرْقاءُ تَقْذِفُ بِالخِطارِ المُسْنَدِ[٥٩٤]

فإذا قَمَرْتُ اللحمَ لم أَنْظُرْ بِهِ ... نِيئًا كما هُوَ ماؤُهُ، شَرْقَ الغَدِ[٥٩٥]

وَجَرَى بِأَعراضِ البُيوتِ وأَهْلِها ... وإلى المقامَةِ ذي الغِنَى والمُجتَدي[٥٩٦]

---

[٥٩١] شرح ديوانه: ص ٥١، انظر في الميسر والقرى، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ١١٢، ٢١٨.

[٥٩٢] مُعقّب: قدح قد شُدّ بالعصب علامة. والنبع: شجر تتخذ منه القسى والقداح.

[٥٩٣] الأصمعيات: ص ١٧٠/١٧١. ولسنان بن أبي حارثة معنى مشابه، انظر المفضليات: ص ٣٥٠.

[٥٩٤] زجر القدح: صاح به وزجره كما يفعل المقامرون بالنرد، وخرقاء: هوجاء لاتدوم على جهتها في هبوبها. والحظار: جمع الحظيرة وهي تعمل للإبل من حجر لتقيها البرد والريح.

[٥٩٥] قمرت اللحم: كسبته، لم أنظر به: لم أؤخره شرق الغد: شمسه.

[٥٩٦] أعراض البيوت: نواحيها. والمقامة: الجماعة يجتمعون في مجلس. والمجتدي: طالب الجدا وهو العطاء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشيد الشاعر بالجرور التي تدعى لحتفها[٥٩٧]، هذه الجزور التي يضحى بها من أجل الإبقاء على حياة الإنسان، حين لايكاد يوجد وسيلة أخرى لهذه الغاية: يقول عبيد بن الأبرص[٥٩٨]:

وَلَنِعْمَ أَيْسارُ الجَزورِ إذا زَهَتْ ... رِيحُ الشِتاءِ ومَأْلَفُ الجِيرانِ[٥٩٩]

ويذهب الشاعر إلى أن عطاء المياسرة، ليس هو من قبيل التفضل والمراءاة، وإنما هو واجب تليدٌ على الكرام، يحفزهم إلى تحدّي الجدب وكلب الزمان، بما تمتلئ به الجفان العظام من طعام ورفد. وهو ما يستشف من قول لبيد بن ربيعة[٦٠٠]:

وَبِيضٌ على النِيرانِ في كُلِّ شَتْوَةٍ ... سَراةَ العِشاءِ يَزْجُرونَ المَسابِلا[٦٠١]

وَأَعْطَوْا حُقوقـًا ضَمَّنُوها وِراثَةً ... عِظامَ الجِفانِ والصِّيامِ الحَوافِلا[٦٠٢]

تُوَزِّعُ صُـــرَّادَ الشَمالِ جِفانُهُمْ ... إذا أَصْبَحَتْ نَجْدٌ تَسوقُ الأَفائِلا[٦٠٣]

فالميسر -كما الكرم والقرى- آية من آيات البذل والعطاء، وتمثل بمجملها مظهراً بينا من مظاهر التحدّي فيما يتعلق بالجدب وذيوله من فقر وضيق في العيش وضنك في اسباب الحياة بوجه عام، وهدفه التغلب على مسببات المعاناة، وربما الهلاك، في صراع الإنسان الجاهلي من أجل البقاء.

---

[٥٩٧] انظر ديوان الأعشى: ص ٧٧. وانظر ايضا ديوان الفروسية (لبيد بن ربيعة): ص ٢٤٨.

[٥٩٨] ديوانه: ص ١٢١ .

[٥٩٩] زهت: هبّت. ومألف الجيران: يألفهم الجيران لكرمهم.

[٦٠٠] ديوان الفروسية: ص ١٩٤.

[٦٠١] بيض: رجال كرام، والمسابل: واحدة مسبل، قدح له ستة أنصباء.

[٦٠٢] الصيام الحوافل: القدور الممتلئة.

[٦٠٣] صُرّاد: سحاب بارد لامطر فيه، والأفائل: قطع السحاب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٢-

رحلة الشاعر والتحدّي

لاريب في أن الترحل هو ضرب من الحركة، والحركة تعبير عن طاقة حيويّة، كما أن السكون -سواء أكان آنيا أم مطلقا- يعني بطلان هذه الطاقة أو فقدانها.

وقد أملت ظروف البادية، الطبيعية منها والمناخية، على الإنسان العربي أن يبقى في حركة دائبة، توخيا لأسباب الحياة، وتغلبا على عوامل الفناء والهلاك.

ولعلّه من هذا المنطلق تطالعنا رحلة الشاعر الجاهلي، التي تباينت الآراء في حقيقتها وفي ما تمثله. فهناك من يذهب إلى أنها تعبير عن رؤية الشاعر للحياة فهي "رحلة الحياة نفسها بما يختلف على المرء فيها من الأحزان والمخاوف والرضى، والأمن والحنين والخيبة وسوى ذلك، إنها شراع العمر المسافر صوب الضفة الأخرى، تعبث به الريح حينا، وتعنف به وتجور حيناً آخر، وتجري عليه صبا حينا ثالثا... ولكنه في أحواله جميعاً لايكفّ عن الرحيل او يتوقف"[٦٠٤].

ويرى البعض أن الشاعر إنما يرمز إلى "العمل من أجل تحقيق الأمل"[٦٠٥] أيّا كان هذا الأمل، مع ما في ذلك من ايحاء بأنها ربما تكون من نسج الخيال، في بعض جوانبها وأبعادها، ان لم تكن بمعظم عناصرها ومراحلها.

وفي نظرة أخرى، ترى على أنها مثل لعلو الهمة وكبر النفس والقدرة على التحمل وفي الوقت نفسه هي مظهر للجرأة والشجاعة والتعالي على الألم والمعاناة[٦٠٦].

وعلى تعدد الأقوال، وتباين الآراء حول رحلة الشاعر وترحله، فإنهما -فيما أرى- مظهر جليّ للتحدّي المتبادل بين الإنسان والطبيعة، والاستجابة الفاعلة لهذا التحدّي.

---

(٦٠٤) الرحلة في القصيدة الجاهلية: ص ٢٠٣.

(٦٠٥) الصورة الفنية: ص ١٧١.

(٦٠٦) اثر الصحراء في الشعر الجاهلي: ص ١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يذكر لنا الشعر الجاهلي أن المرتحل ينطلق -وفي معظم الأحيان وحيداً، لارفيق له سوى مطيته، الناقة، ينطلق في رحلة قد تقصر وقد تطول، ولكنها في كل الأحوال رحلة مضنية شاقة، تكتنفها أجواء طبيعية صعبة عاتية، ربما تفوق في شدتها وعنفوانها قدرة البشر على التحمل، فلا يستخذي ولا يستسلم بل يمضي "على الهول"[٦٠٧] وقد يعيد الكرّة، وقد يغدو مدمن ترحل فيقضي العمر بين "حلّ وارتحال"[٦٠٨] بالرغم من معرفته بما ينتظره من شدائد وأهوال وأخطار. إنه لاييأس ولا يكلّ ولا ينيي بل يدأب في عناد وإصرار إلى أن يدرك غايته، مهما كانت التحديات أو الأخطار.

وفي رحلة الشاعر تتمحور الأحداث حول عناصر ثلاثة هي: الإنسان، والناقة، وثور الوحش، ولكل من هذه العناصر دوره في تحدّي الطبيعة.

يتحدث الشاعر عما يواجه المرتحل من مصاعب في الطريق وأهوال في النهار والليل ومن عوامل جويّة ومناخيّة قاسية، وأثر ذلك كلّه في جسمه ونفسيته. ويشير إلى تحدّيه للمصاعب والمشاق والأهوال وتغلبه عليها بمساعدة مطيته، الناقة الضخمة[٦٠٩] القوية الصلبة[٦١٠] الجسرة[٦١١] النشيطة[٦١٢] الأمون[٦١٣] التي لها من سرعة الحركة ومن شدة المقاومة ما يتيح لها التغلب على ما يعترض سبيلها من عوائق، والنجاء بنفسها وبصاحبها، وكأنها ثور وحشي قويّ ذو ثبات وقدرة على الصراع والخروج منتصراً منه.

ان ما يرد في الشعر الجاهلي عن رحلة الإنسان العربي لكثير، ولربما كان في التوقف عند بضعة نماذج منه ما يجلّي توجهنا في هذا المقام.

---

(٦٠٧) انظر ديوان النابغة: ص ١٥٠.

(٦٠٨) انظر ديوان المثقب: ص ١٩٨.

(٦٠٩) انظر ديوان أوس بن حجر: ص ٢. والأعشى: ص ٨٧. وعبيد بن الأبرص: ص ١٠١ .

(٦١٠) انظر ديوان الأعشى: ص ٥٧ و ٢٦١و ٣٢٧و ٣٨٣. وشرح ديوان زهير: ص ٢٦٥.

(٦١١) انظرديوان الأعشى: ص ٦٧ و ٨٧، و ١٩٧ و ٢٦٩ و ٤٠٣. شرح ديوان علقمة الفحل: ص ٢٥. وديوان بشر: ص ١٧٩.وديوان قيس بن الخطيم: ص ٢١٣، وديوان امرئ القيس: ص ٦٣ و ١٦٩.ولبيد بن ربيعة: ص ٦٧ و ١٤٠. وديوان عبيد بن الأبرص: ص ١٠٨. وشرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٢٥٧ و ٢٧٠.

(٦١٢) انظرديوان الأعشى: ص ٢٣٩ . وشرح ديوان زهير: ص ٢٦٥ (ذات هباب).

(٦١٣) انظر مثلا ديوان امرئ القيس: ص ١٦٩، وديوان طرفة بن العبد: ص ١٢. وديوان بشر بن أبي خازم ص ٣٢ و ٣٥ و ٤٥و ١٠١و ١٢٠و ١٤٥. وديوان المتلمس: ص ١٠٢. وديوان لبيد بن ربيعة: ص ١٨، ٧٥ . وديوان دريد بن الصمّة: ص ٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصف زهير بن أبي سلمى أجواء رحلة له من حيث المكان والزمان فيقول[٦١٤]:

وَبَيْداءَ تِيهٍ تَحرُجُ العَينُ وَسْطَها ... مُخَفَّقَةٍ غَبراءَ، صَرْماءَ، سَمْلَقِ[٦١٥]

بِها مِنْ فِراخِ الكُدْرِ زُغْبٌ كَأنَّها ... جَنَى حَنْظَلٍ في مِحْصَنٍ مُتَفَلِّقِ[٦١٦]

قَطَعْتُ، إذا ما الآلُ آضَ كأنَّهُ ... سُيوفٌ تَنَحَّىَ نَسْفَةٌ ثُمَّ تَلْتَقي[٦١٧]

ونقف معه عند لفظة (بيداء) وفي محاولة للتعرف إلى مدلولها، يتضح أنها الفلاة، وأنها المفازة المستوية يُجرى فيها الخيل، أو المفازة التي لاشيء فيها، وقيل سميت بذلك لأنها تبيد من يحلّها، وهي أيضا المكان المستوي المشرف قليل الشجر جرداء[٦١٨].

وهذه البيداء -في وصف الشاعر- مضلّة، يتيه فيها الإنسان[٦١٩]، ولا ماء فيها ولا نبت. يتلاعب فوقها السراب الأبيض اللامع كما السيوف، فهو يظهر تارة، وأخرى يغيب" وصغار القطا تتناثر هنا وهناك مطمئنة إلى أنه لن يزعجها أحد في هذا الخرق الواسع "مشتبه المتان"[٦٢٠] الذي ركدت فيه الرياح واشتد قيظ هاجرته[٦٢١] ومن شدة حرّ الهاجرة تبلّدت حركة الكائن الحيّ فالحيات "مذلى"[٦٢٢] و"الجندب الجون قالا"[٦٢٣] وللهاجرة، ولاسيما هاجرة القيظ دورها في جعل الأمور أشدّ صعوبة وعنتا أمام المرتحل،

---

(٦١٤) شرح ديوانه: ص ٢٤٧. وانظر في البيداء أيضا ديوان الأعشى: ص ٧١و ٩١و ١٣٤ (دار الجيل). والجمهرة: ص ٢٢٥.

(٦١٥) تحرج العين: تحار ولا يهتدي نظرها. ومخفقة: تخفق بالسراب أي تلمع. وصرماء: لاحياة فيها، سملق: لانبات فيها.

(٦١٦) الكدر: نوع من القطا. وزعب : صغار القطا. وجنى حنظل: صغاره. ومتفلّق: يتكسّر. ومحصن: زبيل من جلود. شرح الديوان.

(٦١٧) آض: صار. ونسفة: خطوة.

(٦١٨) لسان العرب، مادة بيد.

(٦١٩) وانظر ايضا ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٥٠. وديوان الأعشى: ص ٩١ (دار الجيل).

(٦٢٠) شرح ديوان زهير: ص ٣٤٩. وانظر في الخرق دواوين لبيد بن ربيعة: ص ٦٦ و ١٠١، والأعشى: ص ٥٣و ٢٦٩ . وعبيد بن الأبرص: ص ٣٨.وامرئ القيس: ص ٩١ و ٢٩٨. والمفضليات: ص ٢٨٦. والجمهرة: ص ٢٣٥ وديوان الشنفرى: ص ٧٢.

(٦٢١) انظر ديوان الحارث بن حلّزة: ص ٥٦.

(٦٢٢) شرح ديوان زهير: ص ٣٥٠ وانظر ديوان الشنفري: ص ٧١.

(٦٢٣) ديوان عمرو بن قميئة: ص ١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ففيها تتوهج الشمس وتلتهب أشعتها فيغدو الجو "كأوار الجحيم"[٦٢٤] وينقد التراب كما الجمر[٦٢٥] او الأتون الذي ينضج اللحم[٦٢٦] وإذا ما واكبت الهاجرة رياح السموم، التي تخترق ثياب المرء حتى لتتغلغل في جسمه من الرأس حتى القدم، فإن قطع الصحراء يصبح أمراً بطولياً يحفز الشاعر للفخر والتباهي، كما يبدو من قول علقمة الفحل[٦٢٧]:

وَقَدْ عَلَوْتُ قُتُودَ الرَحْلِ يَسْفَعُني ... يومٌ تجيءُ به الجَوزاءُ مَسْمُومُ[٦٢٨]

حامٍ، كَـــأَنَّ أُوارَ النارِ شامِلُهُ ... دُوَن الثيابِ وَرَأْسُ المَرْءِ مَعمومُ

إن رياح السموم لتحرق الوجه فـ "تغيّر ألوان الرجال"[٦٢٩] ثم إن الحرّ مستمر مادام النهار قائما، وإن خفّت حدته في الصباح أو المساء، فإنه في أواسط النهار يبلغ الذروة، وتشتد وطأته، فلا غرو أن يجس المرء بالظمأ والعطش الشديد ومن ثم فإن المرتحل الصدي يمضي في طلب الماء، ولكن أنى له الماء وهو في "تنوفة جرداء مهلكة"[٦٣٠]؟ ومع إدراكه لصعوبة العثور على ماء يسعفه في محنة عطشه فإنه لايضعف ولا ييأس بل يواصل البحث، فيقع على ماءٍ آجن فيه الشيء الكثير من القذارة والأوساخ والرمل[٦٣١]، ولعدم تجدد هذا الماء وركوده أمداً، أصبح لونه أصفر كالحنّاء[٦٣٢]، يحاول المسافر الظمآن أن يأخذ منه قليلا، واذ يذوقه يبصقه، فهو لايمكن جرعه، إنها تجربة

---

(٦٢٤) انظر ديوان عمرو بن قميئة: ص ١٢٠ وانظر "وهاجرة حرّها يحتدم" ديوان الأعشى: ص ٨٧.

(٦٢٥) انظر ديوان الأعشى: ص ٣٠٥.

(٦٢٦) انظر المفضليات (سويد بن أبي كاهل): ص ١٩٣.

(٦٢٧) شرح ديوانه: ص ٤٨، وانظر ديوان الأعشى: ص ٤٢٣.

(٦٢٨) قتود الرجل: عيدانه. والجوزاء: من بروج السماء.

(٦٢٩) ديوان الهذليين (المتنخل) ص: ٢: ٩٨.

(٦٣٠) انظر ديوان امرئ القيس: ص ٢٣٧.

(٦٣١) انظر ديوان الأعشى: ص ٦٩ و ٦٧ و ٥٣ و ٨٧ . وانظر ايضا المفضليات (الحارث بن ظالم): ص ٣١٦، وديوان عبيد بن الأبرص: ص ٢٣ . وديوان امرئ القيس: ص ٣٠٢ و ٣٦٣.

(٦٣٢) شرح ديوان علقمة الفحل: ص ٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قاسية لم يستطع الأعشى خوضها لأنه قد اعتاد شرب الماء العذب وليس هذا الذي يصفه بقوله[٦٣٣]:

وأصفرَ كالحِنّاءِ طامٍ جمامُهُ ... إذا ذاقَهُ مُسْتَعذِبُ الماءِ يَبْصُقُ[٦٣٤]

وكما أن الصبر على العطش يتطلب شدة تحمّل وقوة إرادة متحدّية العنت والمعاناة، فإن قسر النفس على تناول ما تعافاه، انتصارا للحياة، وقهرًا للهلاك هو -بحدّ ذاته -تحدّ كبير، ولعل في قول المتنخل ما يؤيد ذلك، فهو يقول واصفا مسببات معاناته، ومتباهيا بقدرته على تجاوزها بحمل النفس على تقبّل ما تنفر منه[٦٣٥]:

وماءٍ قَدْ وَرَدْتُ أُمَيمَ طامٍ ... على أَرجائِهِ زَجَلُ الغَطاطِ[٦٣٦]

قَليلٍ وِرْدُهُ إلا سِباعــــاً ... يَخِطْنَ المشيَ كالنَّبْلِ المِراطِ[٦٣٧]

فَبِتُّ أُنَهْنِهُ السِّرْحانَ عني ... كِلانا وارِدٌ حَرّانَ ساطــــي[٦٣٨]

كأن وَغى الخَموشِ بِجانِبيهِ ... وَغى رَكْبٍ أُمَيمَ ذوي هِيــاطِ[٦٣٩]

كَأَنَّ مَزاحِفَ الحَيّاتِ فيه ... قُبَيلَ الصُبحِ آثارُ السِّياطِ[٦٤٠]

شَرِبْتُ بِجَمِّهِ وَصَدَرْتُ عَنْهُ ... وأَبيضَ صارِمٍ ذَكَرٍ إباطي[٦٤١]

في هذه اللوحة المعبرة عن الكثير من بواعث الرعب والتقزز، نرى الشاعر يرد ماء آسنا يضجّ بقذارة القطا والبعوض، قد هجره الناس فلا يرده إلا الضواري من سباع

---

(٦٣٣) ديوانه: ص ٢٧٣، وانظر : ص ٤٢٣، وفيها (وماء صرّ).

(٦٣٤) طام جمامه: مطموس ما اجتمع فيه من الماء. الديوان.

(٦٣٥) ديوان الهذليين ٢: ٢٤-٢٦.

(٦٣٦) زجل: صوت. والغطاط: نوع من القطا لاتجتمع أسراباً وأكثر ما تكون ثلاثا أو اثنين. الديوان.

(٦٣٧) الوخط: الزّج،وهو ضرب من المشي يخط فيه، يُزجّ بنفسه زجّا. المراط: التي (تمرط ريشها). نفسه.

(٦٣٨) السّرحان: الذئب. وأنهنه: أزجر.

(٦٣٩) الخموش: البعوض. والهياط: الصياح والمجادلة. والوغى: الصوت في الحرب.

(٦٤٠) انظر في الأفاعي والماء ديوان امرئ القيس: ص ٣٠٣.

(٦٤١) الجمّ: ما اجتمع في البئر من الماء. والجمّة: معظم الماء. وإباطي: يريد القول أنه قد تأبط السيف الباتر. ديوان الهذليين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذناب بعد أن برّح بها العطش، وإلا الأفاعي التي تزحف إليه قبيل الصبح مخلفة آثارا منها ما هو بادٍ وظاهر للعين، ومنها ما هو خفي قد اختلط بالماء.

وبالرغم من كل ذلك، يقبل الشاعر -ودونما وجل أو تردد- على الماء الفاسد الضار فيشرب منه، ويصدر عنه دون أن يفقد شيئا من قوّته أو من عنفوانه أو قدرته على الصراع، وعلى الاستمرار في اجتياز الصحراء.

ثم إنه ليمتطي ناقته ويتلهّى "بها الهواجر"[٦٤٢] متطلّعا إلى انحسار الحرّ في حلول الظلام، حين يرخي الليل سدوله. وإذا كان ليل الصحراء مما يُتغنى به لاسيّما في الليالي الصافية المقمرة، فإن ليل المرتحل ديجور ابدا لاينير سماءه بدر أو هلال[٦٤٣] ولا تخفف من حلكته النجوم لعلوها وبعد المسافة بينها وبين الأرض[٦٤٤].

ومع الليل تستمرّ المعاناة ولكنها معاناة نفسيّة أكثر منها جسميّة. فالليل، في ما يشير إليه الأعشى، لايقل عنتا عن الهاجرة[٦٤٥]:

وَإدْلاجُ لَيْلٍ على خِيفَةٍ وَهاجِرَةٍ حَرُّها يَحْتَدِمْ

ولكن ما الذي يثير في الإدلاج الخوف والفزع إلى درجة أن "يخاف به المدلجون الخبالا؟"[٦٤٦] وأي رعب يسيطر على ليل الصحراء وعلى رماله القفرة اللامتناهية؟ لنستمع إلى ما يقوله عبيد بن الأبرص في توضيحه لأحد مسببات الخوف في الليل[٦٤٧]:

وَخَرْقٍ تَصيحُ الهامُ فيهِ مَعَ الصَّدَى مَخوفٍ إذا ما جَنَّهُ الليلُ مَرْهوبِ[٦٤٨]

إنه نعيق البوم -نذير الشؤم والموت- وإنه ليجلجل في الأجواء الساكنة المخوفة، فيتضاعف تأثيره المفزع في النفوس المتوحّدة التي لا أنيس لها في بهمة الليل الموحش،

---

(٦٤٢) ديوان الحارث بن حلّزة: ص ٢٢.

(٦٤٣) انظر في الظلام الحالك ديوان الأعشى: ص ٣٤٥و ٤٢٣. انظر ديوان شعر حاتم الطائي: ص ٢٣٨.

(٦٤٤) نفسه: ص ١٣٩.

(٦٤٥) نفسه: ص ٨٧.

(٦٤٦) ديوان عمرو بن قميئة: ص ١٢٢. وانظر ايضا: ص ١٦٨. والخبال: الهلاك. لسان العرب، مادة خبل.

(٦٤٧) ديوانه: ص ٣٥ .

(٦٤٨) الهام: ذكر البوم، وفي لسان العرب، أنها جمع هامة وهي روح الميت تصير طائراً فتطير. انظر مادة هوم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشعراء يكثرون من ذكر البوم والصدى والضوع ونئيمها[٦٤٩] ويدخلونها في نطاق الأهوال التي تعزى للفلاة والقفر، ويفخرون ويتباهون بأنهم ومطاياهم قادرون على تحدّيها ومغالبة تأثيرها المعنويّ الرهيب. ومن ذلك قول المثقب العبدي[٦٥٠]:

ويعملة أرمي بها البيد في السرى يقطع أجواز الفلاة رسيمها[٦٥١]

أمضي بها الأهوال في كل قفــرة ينادي صداها آخر الليل بومها

وهناك نوع آخر من الأهوال وهو الضواري من ذئاب وسباع مفترسة، تجوب الأماكن المقفرة والبراري بحثا عن فرائس لها وضحايا[٦٥٢]، وتتسلل في الظلام وتهاجم جماعات جماعات لاتكاد تخطئ أحدا، وأخطرها التي عضّها الجوع وأمضّها فباتت تنتظر فريسة تلقيها إليها المفاوز، وهي في تلك الحالة أشدُّ شراسة وهولا لأنها تهاجم دون تردّد وتحسّب[٦٥٣]، وحين لاتعثر على ما تسدّ به جوعها تعوي "كالخليع المُعَيَّل"[٦٥٤] ويتعالى صراخها شبيها بالنواح الذي يبعث في الجسد قشعريرة الرهبة ورجفة الاضطراب والوجل، أو النواح المعبّر عن الألم والتوجّس كما اليتامى في تحسّبهم من الشدائد والدواهي التي قد تنزل بهم بعد موت معيلهم.

وفقا لما يذهب إليه حاتم الطائي في قوله[٦٥٥]:

ودوية قفر تعاوى سباعُها عواء اليتامى من خدار التراتر

---

(٦٤٩) انظر مثلا شرح ديوان علقمة الفحل: ص ٩٧ وبشر بن أبي خازم: ص ٢٢ و ٢٠٣ والمثقب العبدي: ص ٣٠ و ٣٤. وطرفه : ص ١٣٤ والأعشى: ص ١٥٣، وانظر المفضليات (المرقش الأكبر): ص ٢٢٥. وديوان لبيد بن ربيعة: ص١١٤، وديوان امرئ القيس: ص ٢٨٦.

(٦٥٠) ديوانه: ص ٢٤١ وما بعدها. وانظر ديوان شعر حاتم الطائي: ص ٢٣٨.

(٦٥١) اليعملة: الإبل او الناقة المطبوعة على العمل والسريعة. والأجواز" الأوساط والرسيم: ضرب من السير. الديوان.

(٦٥٢) انظرديوان الأعشى: ص ٦٩ و ٣٢٥. وديوان النابغة: ص ١٤٩. وديوان الهذليين (المنخل) ٢: ٢٥.

(٦٥٣) انظر أثر الصحراء: ص ١٩٠. وانظر ديوان الأعشى: ص ٦٩.

(٦٥٤) ديوان تأبط شراً: ص ١٨١. وانظر ديوان امرئ القيس: ص ٣٦٣.

(٦٥٥) ديوان شعر حاتم الطائي: ص ١٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد لاتقتصر مثيرات الرهبة والخوف والوجل، في الترحل، على موجودات الطبيعة وأفعالها، بل تمتد لتشمل جانباً من عالم ما وراء الطبيعة أي "ما بَعُدَ عن عالم الحسيّات والمعقولات وما جاوز الموجودات الطبيعية"[٦٥٦] وهو الجانب المتعلق بالجنّ.

والجنّ كما يقول الدميري "أجسام هوائية قادرة على التشكّل بأشكال مختلفة لها عقولٌ وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة، وهم خلاف الإنس... ويقال أنها سميّت بذلك لأنها تتّقى ولا تُرَى"[٦٥٧].

ولقد شاع عند العرب الاعتقاد بالجن، وفي اشعارهم وأخبارهم وقصصهم الشيء الكثير عن الجن وسلوكياتهم. على أن من علماء العرب القدامى من يشكك في حقيقة رؤية المرتحل للجنّ او في سماع أصواتهم. ويعزو ذلك إلى الوهم الذي يقع المرتحل في حبائله نتيجة لما يعرض له من عناصر وعوامل طبيعية[٦٥٨] "والتوحّد في القفار، والتفرّد في الأودية، والسلوك في المهامه والمروراة الموحشة؛ لأن الإنسان إذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحّد، يفكّر، وإذا هو تفكّر، وجل وجبن، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة، والأوهام المؤذية" فصوّرت له الأصوات، ومثّلت له الأشخاص وأوهمته المحال[٦٥٩] ". "فرأى ما لايُرى، وسمع ما لايُسمع"[٦٦٠].

ولكن، إذا كان البعض يذهب إلى أن رؤية الجن وسماع أصواتهم ضرب من الوهم فإن الشعراء يرونها على أنها حقيقة، مشيرين إلى أن ذلك يقع فيما يقع لهم من مخاطر وأحوال أثناء سفرهم. وهم يلحون على سماعهم لأصوات الجن أكثر من رؤيتهم لهم أو الالتقاء بهم.

فزهير بن أبي سلمى مثلا يتحدث عن سماعه لعزيف الجن في مكان ناءٍ مخوف تستولي الرهبة فيه على الإنسان وضواري الحيوان على حدّ سواء. إنه يقول[٦٦١]:

---

(٦٥٦) في طريق الميثولوجيا عند العرب: ص ١٩٦.

(٦٥٧) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٢٠٣ . وانظر آكام المرجان في أحكام الجان: ص ١٧.

(٦٥٨) انظر الحيوان ٦: ٢٤٨.

(٦٥٩) مروج الذهب ٢: ١٣٩.

(٦٦٠) الحيوان ٦: ٢٥٠.

(٦٦١) شرح ديوانه: ص ٢٦٥. وانظر ايضا ديوان المثقب العبدي: ص ٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَبَلْـدَةٍ لاتَـرُامُ خَائِفَةٍ زَوراءَ مُغْبَرَّةٍ جَوانِبُها[٦٦٢]

تَسمَعُ لِلجِنِّ عازِفين بها تَضِجُّ مِنْ رَهْبَةٍ ثَعالِبُها

وهذه البلدة موحشة و"للجن بالليل في حافاتها زجل"[٦٦٣] ويحلو للجن أن تعزف في "دويّة سبب سملق من البيد"[٦٦٤] وكذلك في الخرق الذي "فيافيه يطير بها السـهام"[٦٦٥] بـل إنها لتعزف في اللاحب المنفهق[٦٦٦] على وضوح الرؤية فيه وذاك لأنها اعتـادت العـزف على أي ارض خلاء " قبل هذا الجيل من عهد أبد"[٦٦٧].

وعمر بن معد يكرب يتباهى بأنه، وعلى الرغم من معاناة سماع ضوضـاء الجـن، ومـرأى المـوت المـاثل فـي جيـف المطـيّ المتنـاثرة هنـا وهنـاك، اسـتطاع ان يتجـاوز الصعوبات وأن يقطع أرض الأهوال وصولا لإدراك غايته. يقول[٦٦٨]:

وَأَرْضٍ قَدْ قَطَعْتُ، بها الهواهي مِنَ الجِنَّانِ، سَرْبَخُها مَلِيعُ[٦٦٩]

تَـــرى جِيَفَ المَطِيِّ بِحافَتَيْهِ كَأَنَّ عِظامَها الرَّخْمُ الوُقوعُ[٦٧٠]

وإذا كان سماع عزيف الجن يرتبط بمعاناة أهوال الترحل، فإنّ رؤيتهـم –علـى مـا تذكر كتب الأخبار– قد لايثير الفزع أو الوجل لدى من يصـادفهم. وأن انتـاب المرتحـل المدلج شيء من هذا الشعور، فإنه يحاول الإستعلاء عليـه وتحدّيـه باستضافتهم، وهـو مـا يمكن استشفافه من قول بعض الشعراء[٦٧١]:

---

(٦٦٢) لاترام: لايقدر عليها. خائفة: ذات خوف. زوراء: ليس طريقها بمستقيم. الشرح.

(٦٦٣) انظرديوان الأعشى: ص ١٠٩، وزجل: اصوات مختلطة.

(٦٦٤) انظر بلوغ الأرب ٢: ٣٥٨. والسبب: المفازة او الأرض المستوية البعيدة لاماء فيها ولا أنيس، وجمعها سباسب. لسان العرب، مادة سبب.

(٦٦٥) انظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٠٣. والفيافي: جمع فيفاء، وهي المفازة الواسعة لاماء فيها.

(٦٦٦) انظر ديوان المثقب العبدي: ص ٣١، واللاحب: الطريق الواضح والمنفهق: الواسع.

(٦٦٧) انظر ديوان طرفة بن العبد: ص ١٣٤.

(٦٦٨) ديوانه: ص ١٤٣. وانظر الأصمعيات: ص ١٧٦.

(٦٦٩) الهواهي: ضوضاء الجن، الواحدة، هوهاة. والسربخ: مابينها وبين أرض أخرى. والمليع: الواسع.

(٦٧٠) الرخم: طائر ابقع. لسان العرب، مادة رخم. والوقوع: الساكن.

(٦٧١) بلوغ الأرب ٢: ٣٥٢ ، ص ٣٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَتَوْا ناري فقلتُ: مِنونَ أنتم؟ فقالوا: الجِنُّ قلتُ: عِموا صَباحا
نَزلتُ بِشِعْبِ وادي الجِنِّ لمّا رَأيتُ الليلَ قد نَشَرَ الجَنـــاحا
أتيتُهـــم ولـــلاقدارِ حَتْمٌ تـــلاقي المَرْءَ صُبحا أوْ رَواحا
أتيتُمْ غـــريباً مُستـــضيفًا رَأوْا قـــتلي إذا فَعلوا جُناحا
نَحَرْتُ لهم وقلتُ: ألا هَلُمّوا كُلـــوا مما طَهيتُ لكم سَماحا

وأن المرتحل ليحشد في قوله الشعري هذا الكم من المشاق والأخطار، ليبرز أنه على الرغم من أهوال المعاناة التي مرّ بها في رحلته، وعلى الرغم من عنف صدامه مع الطبيعة القاسية وضراوة صراعه معها من أجل البقاء؛ لم تخضع نفسه للإحباط، ولم ييأس، وإنما استمد من إرادته الصلبة، ومن شدة تحمله، ومن جرأته، قوّة جعلته يتحدّى أي شيء، وكل شيء كي يحقق هدفه، متكئا في ذلك على رفيقة دربه الناقة.

الـنـاقـــة:

وقد كانت الناقة هي الوسيلة المأمونة المضمونة، والأداة الفاعلة في تمكين المرتحل من جعل هذا الهدف يتحقق. وإنها لتشاركه في التحدّي،وفي التغلب على مسببات الهلاك،وعوامل الفناء إذ تحمله عبر البيد والفيافي والمفاوز والفلوات، وعبر الخرق والقفر والدويّة، وغيرها من ألوان الصحراء، قاطعة المسافات الزمنية دون تراخ أو تأثر.

فلا غرو أن نرى الشاعر يضفي عليها الكثير من الصفات التي توحي بالقوة والنشاط وشدّة الأسر فهي "عِرمِسٌ غذافرةٌ ذاتُ هباب"[٦٧٢] ، وهي "عُلَنداة مذكّرة كالعير مُوّارة الضبعين مِمراح"[٦٧٣] وهي قوية وبوُمن عثارها كما في قول بشر بن أبي

---

(٦٧٢) انظر شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٢٦٥ وايضا ٣٧٠ وانظر كذلك دواوين الأعشى: ص ٢٤٥، ولبيد بن ربيعة: ص ٧٦،وبشر بن أبي خازم: ص ١٠٠ و ٥٥ ، والنابغة: ص ١٨٤. والمتلمس: ص ١٧٨. وعرمس: ناقة صلبة شديدة. وفي الأصل هي الصخرة ومنه به شبهت الناقة. والغذافرة: الغليظة.وذات هباب: ذات نشاط.

(٦٧٣) ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٤٣ و ١١١وفي ٢٣ (عيرانه). وانظر في هذا المعنى ديوان النابغة: ص ٧٨ و١٥٠و ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٧٩" ديوان عمرو بن قمينة: ص ١٦٩ وديوان الأعشى ص:٥٥ وديوان لبيد بن ربيعة: ص ١١٥،١٤٠. وشعر بشامة بن الغدير، مجلة المورد م ٢٦ ع ١، ١٩٧٧: ص ٢٢٢. وعلنداة: الناقة الغليظة الشديدة والعير: الحمار الوحشي، وموارة: سريعة الحركة، والضبع: العضد أو الإبط.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خازم[٦٧٤]:

وَخَرْقٍ قَدْ قَطَعْتُ بِذاتِ لَوْثٍ ... أَمونٍ ما تَشَكّى مِنْ جِراحِ[٦٧٥]

ثم إنها جرينة، فتقطع المجاهل والمتاهات، وليس في وضح النهار فحسب وإنما في ظلمة الليل الدامس، وهو ما يستشف من قول المرقش الأكبر[٦٧٦]:

وَدَوِيَّةٍ غَبراءَ قد طالَ عَهدُها ... تهالَك فيها الوِرْدُ والمَرْءُ ناعِسُ[٦٧٧]

قَطَعْتُ إلى مَعروفِها مُنكراتِها ... بِعَيْهامَةٍ تَنْسَلُّ والليلُ دامِسُ[٦٧٨]

تَرَكْتُ بها لَيلاً طويلاً وَمَنزِلاً ... وَمُوقَدَ نارٍ لم تَرَمْهُ القَوابِسُ[٦٧٩]

إن الشاعر وحيد متفرّد في قفر تدوّي رياحه، مشيعة الرهبة، وظلام الليل الطويل يحيط به، فيحاول تبديده بإيقاد نار علّها تجلب بعض السارين، ولكن عبثا، إذ ما من كائن آخر هناك سوى ناقته، إذن ليمتط هذه الناقة، وليحثها على الإسراع في السير كي تعبر به مجاهل القفر إلى حيث الوضوح والأمان. ولأنها "عنتريسٌ شملال"[٦٨٠] فإن نشاطها لايؤثر فيه السفر الطويل الشاق، وإنّ أثر فلفترة وجيزة، إذ سرعان ما تستعيد طاقتها ونشاطها وحيويتها ومنطلق نزيف بصاحبها[٦٨١]:

---

[٦٧٤] ديوانه: ص ٤٥. وانظر ايضا دواوين: المثقب العبدي: ص ١٦٥. وامرئ القيس: ص ٩١. والأعشى: ص ١٥٣. وبشر بن أبي خازم: ص ١٠١و ١٢٠.

[٦٧٥] ذات لوث: أي ناقة ذات قوة.

[٦٧٦] المفضليات: ص ٢٢٥. وانظر ديوان الأعشى: ص ١٣٩ و ١٥٣و ٣٤٥و ٦٧ و ١٤٧. وفي تحدي الناقة للمشاق انظر ديوان لبيد: ص ٦٦ و ٩٥ و ١٠١ و ١١٤. وديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٠٠ و ١٠١. وديوان عبيد بن الأبرص: ص ٢٣ و ٤٣ و ١١١. وديوان شعر المثقب العبدي: ص ٢٤٠-٢٤٣. وديوان شعر حاتم الطائي: ص ١٩٩. وديوان شعر المتلمس: ص ١٠١.

[٦٧٧] تهالك الورد: تسرع الإبل.

[٦٧٨] عيهامة: ناقة قوية جرينة. ومنكراتها: ما لايعرف من الدوية، والدامس: شديد السواد.

[٦٧٩] القوابس: جمع قابس وهو طالب النار. لم ترمه القوابس: لم يكن فيه أحد يقتبس نارا.

[٦٨٠] انظر ديوان الأعشى: ص ٥٧ و ٢٦١. وانظر ديوان عبيد بن الأبرص: ص ٩٩. والمتلمس: ص ١٣٦.

[٦٨١] ديوان الأعشى: ص ٥٥- ٥٧. وانظر ايضا ديوان لبيد بن ربيعة: ص ١٤٢/١٤٣. وديوان المتلمس: ص ١٤١/١٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَـــوقَ دَيْمومَةٍ تَغوَلُ بالسَفْـ ... ـرِ قِفـــــارٌ إلا مِنَ الآجالِ[١٨٢]

وإذا ما الضلالُ خِيفَ وكان الـ ... ـوِردُ خمسـا يرجونه عن ليالِ[١٨٣]

وَاسْتُـحِثَّ المُغيرونَ مِنَ القَو ... ـمِ وكانَ النِّطافُ ما في العَزالي[١٨٤]

مَرِحَـــتْ حُرَّةٌ كقنطرةِ الرُّو ... ـمِـــيِّ تَفري الهجيرَ بالإرقالِ[١٨٥]

تَقْطَعُ الأمعزَ المُكَوْكَبَ وَخداً ... بِنـــــــواجٍ سريعةِ الإيغالِ[١٨٦]

لننظر في الأجواء التي أحاطت بالناقة أثناء السفر. إننا لنقع على صحراء قفرة بعيدة الأطراف، والسفر فيها يدوم ويطول ويشقّ مع ما يرافقه من تغيّر وتلوّن في أحوال الطبيعة. ونلمح الخوف من الضلال لعدم وضوح السبل والاتجاهات، ثم نلحظ اشتداد الحال بالمسافرين إذ نفد منهم الماء، ولا أمل لديهم في الوصول إليه قبل ليالٍ خمس؛ غير أن الناقة في تحدّيها لذلك كله، تتمكن من قطع الأرض الغليظة المتوقدّة من الحرّ وهي "مروح بعد الكلال رجوف"[١٨٧] وبخطى واسعة سريعة وكأنما "أطاع لها الريح قلعا حفولا"[١٨٨].

فأية ناقة تلك التي لاتعرف الكلل أو الإجهاد، وإذا عرفته فلبرهة قصيرة، تعود بعدها إلى شيمتها المتحدّية، فتتغلب عليه وتظل في حركة دائبة نشطة؟

---

(١٨٢) تغول: تشبه الغول في تلونها وتغير أحوالها. والآجال: القطيع من بقر الوحش.

(١٨٣) الخمس: ورود الماء بعد خمس أيام.

(١٨٤) المغيرون: الذين يغيرون رواحلهم بعد أن تتعب. والنطاف: جمع نطفة فهي بقية الماء في أسفل الإناء أو الوعاء. والعزالى: جمع عزلاء وهي مصب الماء من القربة.

(١٨٥) مرحت: نشطت. والإرقال: ضرب من عدو الإبل. وتفرى: تسير وتقطع الأرض.

(١٨٦) الأمعز: الغليظ من الأرض. والمكوكب: المتوقد من الحر. والوخد: سعة الخطو. ونواج: قوائم. ورجوف: يهتز الرحل فوقها لنشاطها.

(١٨٧) ديوان الأعشى: ص ٣٦٥، وانظره ايضا في "مروح السرى" : ص ٢٣٩ و ٢٦١. ورجوف: يهتز الرحل فوقها لنشاطها.

(١٨٨) شعر بشامة بن الغدير: ص ٢٢٣، والقلع: الشراع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنها لتبدو وكأنها من خوارق الطبيعة أو "عَفْرَناة"[٦٨٩]، الأمر الذي -ربما- حدا الخيال العربي لأن يلحق بها "اساطير ومعتقدات تسبغ عليها صفات تأليه وتقديس"[٦٩٠] كما الثور الوحشي الذي يشبهها به الشاعر المرتحل.

ثور الوحش:

وثور الوحش يكاد لايذكره الشاعر الجاهلي إلا في سياق قصة درامية، وتتكرر عناصرها في معظم المواضع التي ترد فيها. فهي تتحدّث عن ثور منفرد وحيد تتكالب عليه عناصر الطبيعة ومظاهرها -من صامتة وحيّة- بقصد النيل منه، والفتك به. ولكنه يوظف ماله من قوة جسميّة، وإباء، وجرأة؛ في ما يمكنّه من التحدّي ثم الغلبة في صراعه من أجل البقاء.

وقد استأثرت هذه القصة وما ترمي إليه، باهتمام الأدباء والنقاد العرب -قديمهم وحديثهم- ومن بينهم الجاحظ الذي يربطها بفكرة القدر والحياة والموت[٦٩١].

ومن المحدثين من ينظر إليها من زاويتين مختلفتين: إحداهما تتناولها تناولاً فنياً صرفاً وبمنظور واقعي[٦٩٢]، والثانية تحاول الربط بينها وبين مدلولات أسطورية أو دينية قديمة. فهناك من يرى أن لهذه القصة جذورا تمتدّ إلى جوانب ميثولوجية عميقة[٦٩٣] و"أن بين رحلة الشعراء الجاهليين وملحمة جلجامش البابليّة كثيراً من الشبه، ففيهما ثور وحشي يحتل جزءاً أساسياً وفيهما تجواب طويل"[٦٩٤].

---

(٦٨٩) انظر ديوان الأعشى: ص ١٥٣ و ٢١٩. والعفرناة في الأصل اللغوي هي القوية الجريئة. انظر لسان العرب، مادة عفر وهي الداهية، الذكر من الغيلان، في معجم ألفاظ الإبل في الشعر الجاهلي، مادة جن.

(٦٩٠) انظر الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام: ص ١٨٢.

(٦٩١) انظر الحيوان ٢: ٢٠.

(٦٩٢) كثيرة هي الدراسات والأبحاث التي في هذا المجال، ومن الأمثلة عليها: الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه: ص ٢٣٤/٢٣٥. والطبيعة في الشعر الجاهلي: ص ١٣١ و ٢٧٣. والواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي: ص ٥٦/٥٧.

(٦٩٣) انظر الصورة الفنية: ص ٨٢.

(٦٩٤) نفسه: ص ١٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويربط آخر بين الثور الوحشي والإله "بعل" إله الخصب والمطر في ديانة عرب جنوب الجزيرة[٦٩٥]، فقصة هذا الثور عنده "إنما هي تطوّر لترانيم،أوملاحم،أو تفوّهات دينية قديمة تتصل بقدسيّة الثور، وكان يرمز إليه من الخصب والمطر والاتحاد به بالصيد، ولكنها لم تعد تحمل مغزى دينيا بل انتهت إلى الشعراء الجاهليين المعروفين تقاليد أدبية"[٦٩٦].

ولايقف ثالث عند ربط هذه القصة بأسطورة الإله الثور فحسب، وإنما يذهب أيضا إلى أنه "يمكن ربطها بمنبع طقوس شعائر السحر المتعلق بالصيد"[٦٩٧].

وبغض النظر عن إمكان وجود صلة بين ثور الوحش والميثولوجيا والأديان القديمة أو عدم وجود مثل هذه الصلة، فإن ثور الوحش ليمثل ظاهرة فريدة وغنيّة لتحدّي الطبيعة في محاولتها السيطرة على مصير الكائنات الحيّة.

ذكرنا آنفا أن في قصة ثور الوحش عناصر متكررة، ولعلّ أبرزها ما يتمحور حول الزمان والمكان، والظواهر الجوّية ثم الطبيعة الحيّة من إنسان وحيوان. وجميعها – باستثناء المكان.في مجمله– عناصر معادية رهيبة تعمل على خلق جوّ من العنت والمعاناة والتوجّس المضني.

فأحداث القصة تبدأ عامّة في الليل، مع ثور وحشي متوحّد، والليل في قصة الثور مناقض لليل في رحلة الشاعر من حيث العوامل الجوّيّة. فليلة الثور **قَرّة** أبدا، ماطرة غالبا، فهي "رجبيّة"[٦٩٨] ومن "جمادى أخضلت ديَما"[٦٩٩] ولشدّة البرد يتحوّل المطر أحيانا إلى جليد[٧٠٠]:

---

[٦٩٥] انظر مجلة كلية الآداب، ، ع ١٢، ١٩٦٩م.

[٦٩٦] نفسه: ص٨، ٢٣٨ وانظر مواقف في الأدب والنقد ص ١٠٧.

[٦٩٧] الصورة في الشعر العربي: ص ١٢٤.

[٦٩٨] انظر ديوان بشر ص ٨٢ و ١٠٣. وديوان عبيد بن الأبرص: ص ٥١ وشرح ديوان زهير: ص ٤٥ وليلة رجبية من ليالي شهر رجب وهو من شهور الربيع عند العرب يكون فيه برد ومطر. ديوان بشر.

[٦٩٩] انظر ديوان النابغة ص ٢٢. وجمادى: الشتاء لجمود الماء فيه. انظر لسان العرب، مادة جمد.

[٧٠٠] ديوان الأعشى: ص ٣٧٥. وانظر دواوين بشر بن أبي خازم. ص ٢٠٤. وعبيد بن الأبرص: ٥١ والنابغة: ص ٢٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَضَيَّـفَ رَمْلَـــةَ البَقَّارِ يوماً فَـــباتَ بِتلكَ يَضرِبُهُ الجليدُ[٧٠١]

وفي فصل الشتاء تهب الرياح الشمالية الصرصر فتجلب معها المطر والبَرَد[٧٠٢]:

أَسْرَتْ عليهِ من الجَوزاءِ سارِيَةٌ تُزجي الشَمالُ عليهِ جامدَ البَرَدِ[٧٠٣]

وهنا تبرز الحاجة إلى ملجأ ليلوذ به الثور في هذا الجوّ العاصف العاتي:

فباتَ مُعتَصِماً مِنْ قرِّها لُثِقـــا رَشَّ السحابِ عليه الماءَ فاطَّرَقا[٧٠٤]

يُمري بأظلافِهِ حتى إذا بَلَغَتْ يُبْسَ الكَثيبِ تَداعَى التُرْبُ فَانْخَرَقا[٧٠٥]

إنه مبتلّ ومقرور وبحاجة إلى ما يعتصم به ويحميه من "الشفان والقطر"[٧٠٦] وليس حوله سوى "صحراء مرت"[٧٠٧] لذا فإنه يحاول أن يحفر له كناسا في كثيب الرمل، ولكن ذلك لايتسنى له لأن الرمل الجاف "رجّاف"[٧٠٨] وسريع التداعي والانهيال. فماذا يفعل؟ هل يستسلم ويكفّ عن البحث؟ أم يتحمّل ويثابر إلى أن يجد ملاذاً يطمئن إليه؟ إن غريزة حب البقاء تدفعه لأن يستمر في جهوده وفي محاولاته، وسرعان ما يثمر ذلك فيقع على منطقة رملية "حقف" تنمو فيه شجرة أرطاة، تغدو كناً له ومبيتا[٧٠٩]:

فباتَ في حِقْفِ أرطاةٍ يَلوذُ بِها كأنَّهُ في ذُراها كَوْكَبٌ يَقِدُ[٧١٠]

---

(٧٠١) رملة البقار: رمل في نجد أو اليمامة (موطن الأعشى) . الديوان.

(٧٠٢) ديوان النابغة: ص ٧٩. وانظر شرح ديوان لبيد: ص ١٠٥ و ٢٣٩. وديوان أوس: ص ٢ و ٨٣.

(٧٠٣) سارية: سحابة تجيء ليلا. تزجي: تسوق.

(٧٠٤) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٤٦. ولثقا: مبتلا. اطرق: ركب بعض شعره بعضا. الشرح.

(٧٠٥) يمري: يحفر ويستخرج. تداعى: تساقط الرمل الندي لدى حفر الرمل الجاف.

(٧٠٦) انظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٠٣. والشفان: الريح الباردة مع المطر.

(٧٠٧) نفسه. وصحراء مرت: قفر لانبات فيها.

(٧٠٨) انظر شرح ديوان لبيد: ص ٢٣٩. والرجاف: المتحرك الذي يهيل كلما عالجه. وانظر كذلك: ص ١٤٤.

(٧٠٩) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٥٥ و ٥١ . وانظر في (حقف وأرطاة) ديوان المتلمس: ص ٢٣٢. وشرح ديوان لبيد: ص ٦٨ و ١٤٣. وديوان كل من امرئ القيس : ص ١٠٢. والأعشى: ص ٢٦٣ و ٣٤٥. والنابغة الذبياني: ص ١٥١.

(٧١٠) الحقف: ما اعوج من الرمل واستطال. الذرى: كل ما استتر به الإنسان أي هو في كنف الأرطاة وسترها. يقد: يضيء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا أن في مبيته هذا لاتفارقه المعاناة، فهو لايزال يكتنفه ليل "مدجان"[٧١١] وتلقه "رياخ شآمية تزجي الرباب الهواطلا"[٧١٢] وكلها مدعاة للإحساس بالإجهاد والإرهاق.

وطال الليل وناء بما يحمله من متاعب ومشاق، والثور ساهر مستنفر، يتحدّى بدأبه وصموده العنت والإرهاق،وينتظر أن تنجلي الظلماء ويذرّ قرن الشمس ليصنع الصباح حداً لمعاناته وينعم عليه بالأمن والسلام[٧١٣]:

فَباتَ يقولُ: أَصْبِحْ لَيلُ حَتّى ... تَجَلّى عَنْ صَريمَتِهِ الظلامُ[٧١٤]

إلا أن ذلك لم يكن ليتحقق له، فمع الصباح تطالعه مفاجأة مروعة، مفاجأة تنطوي على خطر داهم رهيب، يجليها قول الأسود بن يعفر[٧١٥]:

حَتى إذا ما انْجَلَتْ ظَلماءُ لَيلتِهِ ... عِندَ الصباحِ ولمْ يَستَوْعِبِ الغَلَسُ[٧١٦]

هاجَتْ به فِنةٌ غُضْفٌ مُخَرَّجَةٌ ... مِثلُ القِداحِ على أَرزاقِها عُبُسُ[٧١٧]

انها كلاب الصيد التي أحسن تدريبها صيادون مشهورون معروفون بالإسم، فهي كلاب ابن مر او كلاب ابن سنبس[٧١٨]، والتي تهيج بالثور وتستثيره تمهيداً لصيده.

ومع هذه المفاجأة تبدأ مرحلة جديدة من مراحل صراع الثور والطبيعة، مرحلة يتقرّر فيها مصيره، إذ يغدو في مواجهة عدو شرس هدفه ليس التغلب عليه وقهره فحسب، وإنما سلب حياته بمجملها. فما الحلّ؟ هل يلوذ بالحذر فيهادن وينحو منحى

---

(٧١١) شرح ديوان لبيد: ص ١٤٣. ومدجان: دائم المطر، وانظر قصيدة زهير بن مسعود الضبي في مجلة المورد، م ٩ ع ١، ص ١٥٣.

(٧١٢) شرح ديوان لبيد: ص ٢٣٩. والرباب: السحاب الأبيض. وانظر ديوان الأعشى: ص ٤١٣. وامرئ القيس: ص ١٠٣.

(٧١٣) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢٠٥.

(٧١٤) صريمته: رملته التي كان فيها.

(٧١٥) ديوانه: ص ٤١/٤٠. وانظر (في معنى مشابه أي الثور والكلاب صباحا) ديوان الأعشى: ص ٣٤٥، ٣٢٩. ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٨٤ و ١٠٣. و ٥١ و ٥٦ وشرح ديوان لبيد: ص ٢٣٩.

(٧١٦) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٧١٧) محرجة: طويلة الأعناق. وعبس: كالحة أي كاشفة عن اسنانها. لسان العرب، مادة عبس.

(٧١٨) انظر ديوان امرئ القيس: ص ١٠٣. والبيت نفسه يرد في ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٠٣. وانظر ديوان الأعشى: ص ٤١٣. وديوان اوس بن حجر: ص ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السلام، فينسحب من حلبة الصراع ويفرّ ناجيا بنفسه؟[٧١٩] أم يثبت ويواجه بشجاعة وأنفة وإباء ذلك العدّو، متحدّيا المصير الذي ستؤدي إليه هذه المواجهة غير المتكافئة، كونه فردا وحيدا والعدو جمع ضار مستلحم؟

لعلّ الصورة تتكشف لنا في اللوحة التي يرسمها النابغة الذبياني في قوله[٧٢٠]

مُطَـــرَّدٌ أفرَدَتْ عَـنهُ حلائِلُهُ ... مِنْ وَحشِ وَجرَةَ أو مِنْ وَحْشِ ذي قارِ[٧٢١]

أهوَى لـه قانِصٌ يسعـى بأكْلُبِهِ ... عاري الأشاجِعِ مِـنْ قُـنّاص أنمارِ[٧٢٢]

يَسعى بِغُضْفٍ بَراها فهي طاوِيَةٌ ... طـولُ ارتـحالٍ بها مِنهُ وتَسْيارِ

حتى إذا الثورُ بعدَ النفرِ أمكَنَهُ ... أشْلَـى وأرسَلَ غُضْفًا كُلها ضارِ[٧٢٣]

فكرَّ مَحْمِيَّةً مِنْ أنْ يفِرَّ كما ... كَـرَّ المحامي حِفاظًا خَشيةَ العارِ[٧٢٤]

فَشكَّ بالرَوقِ مِنهُ صدرَ أولِها ... شـكَّ المُشاعِـبِ أعشارًا بأعشارِ[٧٢٥]

ثم انثنى بعـدُ للثاني فأقصدَهُ ... بـذاتِ ثَـغْرٍ بَعيـدِ القَعرِ نَعّارِ[٧٢٦]

وأثبتَ الثالثَ الـباقيَ بنافذةٍ ... مِـنْ باسِـلٍ عالِمٍ بـالطَّعْنِ كَرّارِ

وظلَّ في سَبْعةٍ مِنها لَحِقْنَ بهِ ... يَكُـرُّ بِـالرَّوْقِ فيها كَرَّ إسْوارِ[٧٢٧]

حتى إذا ما قَضَى منها لُبانَتَهُ ... وعـادَ فـيها بإقـبالٍ وإدبارِ

انَقَضَّ كالكوكبِ الدُّرِّيِّ مُنْصَلِتًا ... يَهـوي وَيَـخْلِطُ تقريبًا بإحضارِ[٧٢٨]

---

(٧١٩) انظر في هذا المعنى ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٤٨. وديوان الأعشى: ص ٢٦٣ و ٤١٣. وديوان المثقب العبدي: ص ٣٥-٤٩.

(٧٢٠) ديوانه: ص ١٥٠-١٥٣. وانظر فيه ايضا ص ٧٩-٨١.

(٧٢١) مطرد: كثير طرد معاركيه من الثيران، وذلك لقوته.

(٧٢٢) عاري الأشاجع، الأشاجع: الأصابع المتصلة بعصب ظاهر الكف، أي هو مشمّر ناشط، وأنمار: حي من بني اسد.

(٧٢٣) أمكنه: صار غير بعيد من الصياد.

(٧٢٤) محمية: أي امتناعا من أن يفر.

(٧٢٥) المشاعب: النجار لأنه يشعب أي يجمع الأعواد بعضها إلى بعض.

(٧٢٦) بذات ثغر: بطعنة ذات شق متسع. نعار: نعر العرق: فار منه الدم.

(٧٢٧) أسوار: قائد الجيش الفارسي لأنه يكون لابسا سوارين في يديه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انقض كالكوكب الدري منصلتا يهـــوي ويـــخلط تقريبا بإحضار[٧٢٨]

لننظر في أحداث هذه "الملحمة البطولية" – إن جاز لنا أن نقول ذلك، فماذا نرى؟

هناك ثور مقرور مبتل ومرهق أيما إرهاق بعد معاناة ليلة ليلاء، ولم يبق لديه أي عنصر من عناصر القوة سوى قرنيه الحادّين؛ هذا الثور في مواجهة عشرة من الكلاب الضارية المدربة على الصيد أحسن تدريب، إلى جانب خبرتها الهجومية التي اكتسبتها من خلال ممارسة بعيدة الأمد، وعلى الرغم من أن نفسه تنزع به بادئ الأمر إلى اللوذ بالفرار طلبا للنجاء، إلا أنه لايلبث أن يتراجع عن ذلك، ويرى في الهروب عارا لاترضى به كرامته أو إباؤه، ولا تقره عليه بسالته وجرأته، إذن ليثبت ويصمد ويتحدى الموت الماثل في عيون هذه الكلاب الاعداء. وهكذا يشتبك معها في صراع جبار من اجل البقاء. أو ليس صراع البقاء هو ناموس الطبيعة القاسية الضنينة؟

في مشهد التحدي المستفيض هذا تتجلى روعة الحركة، بسرعتها وتتاليها وشموليتها كما تتجلى أبعاد تأثير الحركة في مجريات الصراع وفي نهايته. فالثور وقد انتهى من طعن الثلاثة من طليعة الكلاب، ينطلق يصول ويجول بين السبعة الأخرى، وهو في أوج قوته ونشاطه يقسم بينها المنايا مسيطرا على ميدان المعركة"[٧٢٩] حتى قضى لبانته من الكلاب، "وشفى نفسه، واكد انتصاره، فانطلق مبتعدا في خيلاء المنتصر، لايسرع إسراع الهارب، ولا يبطئ إبطاء المجهود"[٧٣٠] ولكنه يواصل مسيرته وهو جذل "كأنه مرزبان فاز محبور"[٧٣١] ولم لايشعر بالجذل والزهو والفخار لانتزاعه النصر من براثن عدوه الشرس بعد أن قاتل وبمفرده[٧٣٢]:

قتال كمي غاب انصار ظهره ولاقى الوجوه المنكرات البواسلا

---

(٧٢٨) الدري: المضيء ضوءا أبيض. ومنصلتا: ماضيا سابقا. ويهوى: يعدو عدوا شديدا. لسان العرب، مادة هوى.

تقريب واحضار: نوعان من جرى الفرس. وانظر (وانقض كالدري) في ديوان أوس بن حجر: ص ٣.

(٧٢٩) الصورة في الشعر العربي: ص ١٣٠.

(٧٣٠) نفسه.

(٧٣١) انظر ديوان أوس بن حجر: ص ٤٣. والمرزبان: الفارس الشجاع المقدّم على القوم دون الملك.

(٧٣٢) ديوان الفروسية (لبيد بن ربيعة): ص ١٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إضافة إلى أنه قد أقدم على هذا القتال وهو لايعرف عاقبتـه[٧٣٣] او مصيره. فهو اذ يقهر العدو وينتصر عليه إنما ينتصر للحياة و للبقاء، وهـو المفهـوم الـذي لعـل الشـاعر الجاهلي قد استوعبه، فجاء تعبيره عنه من خلال لوحات أو مشاهد عديدة مماثلة[٧٣٤].

و"بقصة الثور" تكون عناصر رحلة الشاعر قد اكتملت، هذه الرحلة التي سبقت الإشارة إليها على أنها مظهر واضح للتحدي المتبادل بين الإنسان والطبيعة، وفي الوقت نفسه هي مظهر للاستجابة الفاعلة الجريئة القادرة على توجيه التحدي البشري ليأخذ مساره الصحيح في دورة الحياة.

---

(٧٣٣) هذا ما يصرّح به جلجامش وهو ذاهب لقتال خمبابا حارس غابة الأرز. انظر ملحمة جلجامش: ص ٨٣.

(٧٣٤) انظر مثلا ديوان امرئ القيس: ص ١٠٣/١٠٤. واللوحة نفسها في ديوان بشر بن أبي خـازم: ص ١٠١-١٠٤. وانظر في ديوان بشر: ص ٥١-٥٧. وفي دواوين اوس بن حجر: ص ٢-٤ و ٤٢/٤٣. والأعشى/ ص ٣٤٥-٣٤٧ و ص ٤١١-٤١٣. والأسـود بـن يعفـر: ص ٣٩-٤١. والمتلمـس: ص ٢٢٥-٢٣٣. وديوان الفروسية ٠(لبيد بن ربيعة) ص ١٧٨. وشرح ديوان لبيد: ص ١٤٣-١٤٦. وانظر لوحتي زهير بن مسعود الضبي في مجلة المورد، م ٩، ع١، ص ١٥٣و ١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

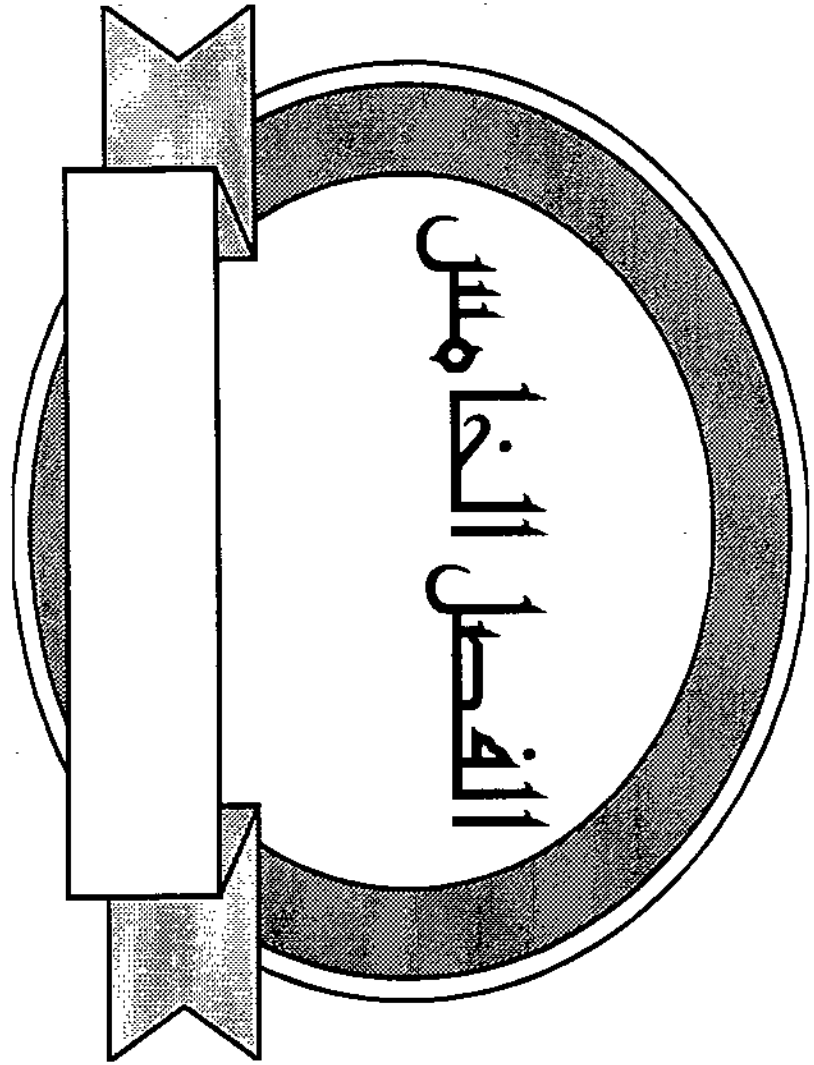

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

التحدي الاجتماعي في الشعر الجاهلي

لايخفى أن المجتمعات البشرية -قديمها وحديثها- وإن تباينت فيها معايير القيم والسلوكيات الخلقية والاجتماعية، إلا أنها تتفق في كون الظلم مظهرا من مظاهر الحياة بأبعادها المختلفة، ويطال -فيما يطال- الحريات والحقوق والكرامة الإنسانية.

والمجتمع القبلي الجاهلي، وهو واحد من هذه المجتمعات، لم يكن بمنأى عن ممارسة الظلم وربما إقراره أحيانا(٧٣٥) . ولأن العربي كان يقدر عاليا القيمة الخلقية للعدل إلى جانب اعتزازه بحريته الشخصية وبكرامته، فقد رفض الظلم بشتى ضروبه ودعا إلى تحديه وعدم الاستكانة له. وجاءت دعوته من خلال مظاهر عدة: منها الإقبال على المتع وملذات العيش، ومنها الرفض المتمرد، وكذلك الهجاء، والمنافرة، والتهديد والوعيد، ثم الأخذ بالثأر.

الشاعر والقبيلة

لاريب في أن للمعمار الاجتماعي القبلي، "وللدستور" العرفي للقبيلة إسهاما لايستهان به في خلق الظلم وفي إشاعته، وكذلك في استثارة الاحقاد والضغائن.

فالمعمار بفئاته الثلاث: الصرحاء، والموالي، والرقيق، اوجد ما يمكن وصفه بالتمييز الطبقي الذي من طبيعته إرهاص الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بين الافراد.

وقد ألزم "الدستور" الفرد بالقيام بكل ما تتطلبه "العصبية" من واجبات ومهام سواء أكان ذلك في زمن الحرب، أو كان في عهد السلم، مقابل التمتع بما توفره له هذه العصبية من حقوق ومميزات، ومنها احترام الحرية الشخصية وصون الكرامة، وضمان الأمن الاجتماعي والاقتصادي.

---

(٧٣٥) انظر مثلا دعوة زهير بن أبي سلمى لظلم الآخرين في شرح ديوانه: ص ٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير أنه –وفي بعض الأحوال أو الظروف– كانت الحرية الشخصية تكبل، وكان الحق في الاستقرار الأمني الاجتماعي ينتزع، وكانت الكرامة تهان، ولما كان العربي يثمن عاليا حريته بل يقدسها، ويعتز اعتزازا كبيرا بكرامته(٧٣٦) ، فضلا عما كان يحسه من تقدير بالغ للقيمة الخلقية للعدل، فقد رأى في هذه التجاوزات والتعديات ظلما وعدوانا لايليق به تقبلهما وهو المعروف بإبائه وبعدم الاستكانة والخنوع.

فكان الغضب والسخط، وكان الرفض المتمرد المتحدي، فالفرد يسلك "شعوريا أو لاشعوريا في ضوء بعدين أو دعامتين لسلوكه: الدعامة الأولى البعد الاجتماعي للسلوك أما الدعامة الثانية فهي البعد الشخصي لهذا السلوك... فالبعد الاجتماعي يحدده النظام الاجتماعي السائد في بيئة الفرد... وأما البعد الفردي الشخصي لسلوك الفرد، فإنه يتحدد بالفرد ذاته، كفرد له إمكانات معينة في تنظيم ديناميكي مميز لشخصيته.... وعلى هذا فإن سلوك الفرد الاجتماعي ما هو إلا نتيجة للتفاعل الدينامي بين هذين البعدين"(٧٣٧) .

لقد نادى بعض الشعراء بمقاومة الظلم وتحدي الظالم، وحذروا من سوء عاقبة الظالم الباغي. وفي ذلك يقول المتلمس(٧٣٨) :

وَمَنْ يَبْغِ، أو يَسْعَ على الناسِ ظُلما ... يقعْ غيرَ شكٍّ لليدينِ وللفمِ

ويقول عبيد بن الأبرص(٧٣٩) :

ومَنْ رامَ ظُلمي منهمُ فكأنما ... تَوَقَّصَ حينا من شَواهِقِ صِنَّدَدِ(٧٤٠)

ورأوا أن تحديه لابد وأن تسنده الشجاعة والحمية والإباء. تدعمها قوة السلاح كما يذهب إليه عمرو بن براقة(٧٤١) :

متى تجمعُ القلبَ الذكيَّ وصارما ... وانفاً حَمِيًّا تَجْتَنِبكَ المَظالِمُ

---

(٧٣٦) انظر Arabia before Muhammad, P. 20 .

(٧٣٧) انظر مدخل إلى الأسس النفسية والفسيولوجية للسلوك: ص ٢١٩.

(٧٣٨) ديوانه: ص ٣٢٣.

(٧٣٩) ديوانه: ص ٥٩ .

(٧٤٠) توقص: بمعنى دقت عنقه. والوقص أيضا: شدة الوطء في السير. لسان العرب، مادة وقص. صندد: جبل في تهامة.

(٧٤١) الأمالي: ٢: ١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتجلى تحدي القبيلة عبر مظاهر عديدة، منها الإقبال على المتع ولذات العيش في محاولة للتغلب على المعاناة من مرارة الواقع وقسوة الحياة والظلم الاجتماعي.

ومنها الرفض والتمرد بوجهيهما الإيجابي والسلبي. ويتمثل الأول في التميز الذاتي والاستعلاء على الألم المعنوي والمعاناة النفسية، من خلال القيام بالمميز والمتفرد من أعمال البطولة والشجاعة والبسالة. بالمقابل ثمة الوجه السلبي المتمثل بالجنوح إلى العنف والفتك والتنكيل.

ومظهر مغاير يبدو في الهجاء وما يمت إليه من منافرة وتهديد ووعيد، وهذا المظهر قد يستهدف الأقارب أو العشيرة، وقد ينصب على الخصم والعدو، وإن كان التحدي فيه يجنح للقول لا الفعل.

غير أن هناك مظهرا يجمع بين القول والفعل وهو الثأر، تحريضا وطلبا وإدراكا. والثأر- وإن كان في جانب منه -يعد من مظاهر التحدي الاقتصادي، إلا أنه -وفي معظمه- يتناول ظاهرة هامة في الحياة العربية فيما يمت إلى النواحي الاجتماعية وهو يطال -كما الهجاء- القريب والبعيد، السيد والمسود، الحليف والعدو ولعل هذه المظاهر تتجلى بصورة أوضح أثناء تناول كل منها على حدة.

-١-

المتع ولذات العيش

وهي من الظواهر الشائعة في الحياة العربية في عهد ما قبل الإسلام، حين لم تكن هناك قوانين تحكمها، أو ضوابط تضبطها، أو حدود تقام على من يسرف في طلبها. فكان الحكم الأول والمرجع الرئيس في نظرة المجتمع الى طالبها وإلى مدى تأثيرها عليه وعلى من حوله، هي الأعراف والتقاليد المتفق عليها في هذا المجتمع.

ولقد تناول بعض الشعراء الجاهليين هذه الظاهرة، ووقفوا عند أبرز ألوان المتع ولذات العيش كما تراءت لهم، فأجملوها في شرب الخمرة، ومعاشرة النساء، وركوب الخيل للحرب، أو للصيد والطرد، واللهو في مجالس القيان. واتخذوا من طلبها والاقبال عليها سلاحا يتحدون به ظلم الطبيعة القاسية والحياة الجافة الصعبة التي فرضت عليهم؛ كما تحدوا بها الضيم الذي كان يلحقه بهم -احيانا- النظام الاجتماعي القبلي بأعرافه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقاليده المرسومة. وقد أدى بهم هذا التوجه إلى أن يقصروا العيش عليها فغدا شعارهم "وماذا العيش إلا التمتع"(٧٤٢) .

وهؤلاء الشعراء كانوا على تباين من حيث نظرتهم لنوع المتع وملذات العيش التي تروق لهم وتستهويهم. فمنهم من كان يرى أنها "غارة تشن وغنائم تمتلك"(٧٤٣) ، ومنهم من رآها في(٧٤٤)

صَحابةِ فِتيانٍ علـــى ناعِجِيَّةٍ ... مَناسِمُها بالأمعزِ المَحلِ تَرْعُفُ(٧٤٥)

وكأسٍ بأيدي الساقِيَينِ رَوِيَّةٍ ... يُمِدَّانِ راووقَيْهِما حين تُنْزَفُ(٧٤٦)

وَرَبَّةِ خِدْرٍ يُنْفَحُ المِسكَ جَيبُها ... تَضَوَّعَ رَيّاها بهِ حينَ تَصدُفُ

فالشاعر يجد متعته في الرحلة مع الفتيان الأقوياء عبر الفلوات، وفي احتساء الخمرة في مجالس اللهو(٧٤٧) وفي معاشرة ربات الخدور.

وهي المتع والملذات نفسها عند طرفة بن العبد مع استبدال الرحلة بالمبادرة إلى اغاثة الملهوف(٧٤٨) . ويوافق بشر بن أبي خازم هذين الشاعرين في التمتع بالخمر والمرأة، ويفارقهما في أنه يستمد المتعة من حبه للقداح والميسر وذلك لإطعام الفقراء والمحتاجين في السنين الشديدة وإن أفنى هذا النمط من الحياة طريفه وتالده(٧٤٩) .

ولكن خلات العيش عند امرئ القيس أربع(٧٥٠) :

---

(٧٤٢) انظر شرح الحماسة : ص ٧١٦.

(٧٤٣) انظر الإنسان في الشعر الجاهلي: ص ٢٨٠.

(٧٤٤) قصائد جاهلية نادرة: ص ١٢٨.

(٧٤٥) ناعجية: ناقة ناعجة، سريعة، وقيل: هي الناقة البيضاء.

(٧٤٦) راووق الخمر: المصفاة.

(٧٤٧) انظر ايضا ديوان عبيد بن الأبرص: ص ١٠٢- ١٠٤. وديوان الأسود بن يعفر ص ٢٢و ٦٤ و ٦٨. والمفضليات: ص ٢١٨. والحماسة الشجرية: ص ٨٤. وديوان الأعشى: ص ٦٧و ١٠٩و ٢٢٣و ٢٦٩و ٤٠٩. وديوان الهذليين، ٢: ١٩-٢١. وديوان أحيحة بن الجلاح: ص ٦٣/٦٢.

(٧٤٨) انظر ديوانه: ص ٣٣/٣٢. وانظر شرح المعلقات السبع: ص ٨٢/ ٨٣.

(٧٤٩) انظر ديوانه: ص ١١٩. وانظر النقائض ١: ١٤٠. والعقد الفريد ٥: ٢٣١. والمفضليات: ص ١٥٨.

(٧٥٠) ديوانه: ٢٤١/٢٤٠ وانظر فيه ايضا: ص ٣٦/٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَمِنهُـــنَّ قولي للندامى ترفَّعوا ... يداجون نَشّاحا مِنَ الخمرِ مُتْرَعا(٧٥١)

ومِنهُنَّ ركضُ الخيلِ تَرجُمُ بالقَنا ... يبادِرْنَ سرباً آمنا أنْ يُفزَّعا(٧٥٢)

ومنهن نَصُّ العِيسِ والليلُ شاملٌ ... تَيمَّمَ مَجهولاً منَ الأرضِ بَلْقَعا

ومنهن سَوْقي الخُودَ قد بَلّها الندى ... تُراقِبُ مَنظومَ التمائمِ مُرْضَعا(٧٥٣)

وامرؤ القيس بقوله هذا إنما يحيط بمعظم المتع وملذات العيش التي كانت تطيب للانسان الجاهلي. فقد تطرق الشاعر إلى بعدين متناقضين يمتان إلى حياته: أحدهما البعد الجدّ الماثل في الغارة والحرب والترحل، وثانيهما البعد العابث اللاهي ويمثله شرب الخمر ومعاشرة النساء، وفي موضع آخر نراه يشير إلى مجالس الغناء والطرب(٧٥٤) .

وحين ننظر في شعره يتجلى لنا إسرافه في اللهو والمجون، وتباهيه في مغامراته الكثيرة مع المرأة(٧٥٥) • والسؤال الذي يطرح نفسه،هل كان هذا المسلك أمرا عاديا في المجتمع الجاهلي، وهل كانت الأعراف والتقاليد تغض النظر عنه ولاترى فيه إثارة للفضائح(٧٥٦) ؟ وهل كان مما يتهاون القوم في شأنه؟ وإذا كان كذلك، فلم نرى بعضهم يعمد إلى إحاطة المرأة بالحراسة حماية لها ممن يمس بها أو بسمعتها(٧٥٧) ؟

يبدو أن امرأ القيس كان على وعي تام بالقيم الجاهلية وأعرافها فيما يمت للمرأة، ولكنه التحدي فيما أرى: تحدي الظلم الذي ألحقه به والده إذ ضيعه صغيرا(٧٥٨) حين طرده "وآلى ألا يقيم معه أنفة من قول الشعر"(٧٥٩) فكان التشرد ومخالطة جماعات من

---

(٧٥١) يداجون: أي يدارون ويرفعون ويعالجون والنشاح: الذي يجيد الشرب. مترع: مملوء.

(٧٥٢) ترجم بالقنا: أي تعدو عدوا شديدا. والسرب ها هنا: الحي.

(٧٥٣) السوق: الشم. الخود: المرأة الخفرة الحيية.

(٧٥٤) ديوانه: ص ٨٧ و ٣٠٨.

(٧٥٥) انظر مثلا في ديوانه: ص ١٠-١٢و ٢٩-٣٣و ٣٤/٣٥.

(٧٥٦) انظر ديوان امرئ القيس: ص ٣١ و ٧١/٧٢. وانظر الشعر والشعراء ١: ٧٤.

(٧٥٧) انظر ديوان امرئ القيس: ص ١٣/١٤.

(٧٥٨) انظر الشعر والشعراء ١: ٥٢. والأغاني ٩: ٣٢٠٨. والروائع من الأدب العربي ١: ٩٤.

(٧٥٩) انظر الأغاني ٩: ٣٢٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شذاذ العرب والترحل معهم طلبا للهو والعبث واللذة حين يقعد عن الغارة والحرب، كما يشير إليه قوله(٧٦٠) :

كأني لَمْ أركبْ جواداً لِلذةٍ ... وَلَمْ أتَبَطَّنْ كاعِبا ذاتِ خَلخالِ

ولَمْ أَسْبأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أَقُلْ ... لِخيلي كُرّي كَرَّةً بعدَ إجْفالِ(٧٦١)

ولَمْ أَشهدِ الخيلَ المُغيرَةَ بالضُحا ... على هَيْكَلٍ نَهدِ الجُزارَةِ جَوّالِ(٧٦٢)

وإذا كانت الحياة هي المجال الرحب لتحقيق المتع والملذات، فإن الموت إذ يضع حدا للحياة،إنما يذهب أيضا بما تقدمه من أسباب اللهو والمتع. ويبدو أن بعض الشعراء قد تنبهوا لهذه الحقيقة، ورأوا في الموت خصما باغيا، فاندفعوا يتحدونه بالإقبال على ما يتاح لهم من المتع ولذات العيش، ذاهبين إلى أن كل ملذ "سبقت به الوفاة هو المتاع"(٧٦٣) ، ويأتي هذا التحدي جليا واضحا في قول طرفة بن العبد(٧٦٤) :

فلولا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الفتى ... وَجَدّكَ لَمْ أَحفَلْ متى قام عُوّدِي(٧٦٥)

فَمِنهُنَّ سَبقُ العاذلاتِ بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزبِدِ(٧٦٦)

وكَرّي إذا نادى المُضافُ مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الغَضا نَبَّهْتُهُ المُتَوَرِّدِ(٧٦٧)

وَتَقصيرُ يومَ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ تحتَ الخِباءِ المُعَمَّدِ(٧٦٨)

---

(٧٦٠) ديوانه: ٣٥/٣٦.

(٧٦١) أسبأ: اشترى. الروي: المملوء خمرا. والإجفال: الانهزام من الموضع بسرعة.

(٧٦٢) هيكل: فرس طويل. نهد الجزارة: مرتفع القوائم. جوّال: نشيط سريع في إقباله وإدباره.

(٧٦٣) الاصمعيات: ص ١٤٨. ومعجم الشعراء: ص ٣٩٦ (دار الجيل) وانظر ديوان امرئ القيس: ص ٨٧.

(٧٦٤) الشعر والشعراء ١: ١٢٣. وعيون الأخبار ١: ٣٦٩. وشرح القصائد السبع الطوال: ص ١٩٤-١٩٦. وشرح المعلقات السبع: ص ٨٢/٨٣.

(٧٦٥) لم أحفل: لم أبال. قام عودي: مت فقام من يعودني في المرض. ديوانه : ص ٣٣.

(٧٦٦) بشربة: بخمر يشربها. والكميت: الحمراء تضرب إلى الكلفة.

(٧٦٧) المضاف: الملجأ المدرك الذي احاط به العدو. ومحنبا: فرسا في يديه انحناء وتوتير وهو مما يمدح به. نبهته: هيجته وحركته. والمتورد: الذي يطلب الورد.

(٧٦٨) الدجن: إلباس الغيم السماء. بهنكة: التامة الخلق الحسنة. المعمد: المشدود بالأطناب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعله لم يكن يحفل بأي شيء بعد أن قست الحياة عليه، فظلمه الأهل غلاما وشابا(٧٦٩) ، وخذلته العشيرة فلم تنصره ولم تسانده في مسعاه لاسترداد حقه وحق إخوته الصغار في ميراث أبيهم(٧٧٠) ؛ وعانده القدر فلم يحقق له ما كان يطمح إليه من سؤدد وثروة(٧٧١)، ومن ثم فإن الإقبال على المتع وملذات العيش وتروية النفس بها(٧٧٢) هي الوسيلة –فيما بدا لطرفة– للتعبير عن عدم الاكتراث بالآثار المترتبة على ذلك من إتلاف لما يرفد الحياة من طريف ومتلد(٧٧٣)، ومن تحد للأهل والعشيرة في قيمهم الخلقية وأعرافهم الاجتماعية، ومن استثارة لمشاعر الغضب والاستياء والنفور لدى القوم(٧٧٤) الذين لايملكون من أمرهم أو أمره شيئا أمام سطوة الموت. فزجرهم له وعدمه سيان، وإنه ليسفه أقوالهم ويبدي لهم فساد آرائهم في شيء غير قليل من القحة والعناد والزراية والتحدي، ويبنى أحكامه على الخلود والفناء، فما دام الإنسان مائتا على كل حال، ولا خلود في هذه الدنيا لحي، فلماذا لايبادر الفتى منيته بماله وملذاته(٧٧٥) ؟ يقول(٧٧٦) :

ألا أيهذا الزاجري أحْضُرُ الوَغى ... وأنْ اشهَدَ اللذاتِ، هل أنت مُخلِدي؟

فإنْ كُنتَ لاتسطيعُ دفعَ مَنيّتِي ... فَدَعْني أُبادِرُها بما مَلكتْ يدي

والموت والحياة "مثلان"(٧٧٧) عند بعض شعراء ما قبل الإسلام، وكما الإقبال على المتع وبخاصة شرب الراح كانت وسيلتهم الفاعلة في مواجهة الحياة بقسوتها وظلمها، فإن ذلك كان وسيلتهم ايضا لمواجهة الموت بصمود وثبات. يقول حاجز بن عوف الأزدي(٧٧٨):

---

(٧٦٩) انظر ديوانه: ص ٣٨/٣٧ و ٤٠ و ٩٩.

(٧٧٠) انظر الشعر والشعراء ١: ١١٩. وديوانه : ص ١٠٧.

(٧٧١) انظر شرح القصائد السبع: ص ٢١٠/٢٠٩. وديوانه: ص ٤٢/٤١.

(٧٧٢) انظر ديوانه: ص ٣٥.

(٧٧٣) نفسه: ص ٣١.

(٧٧٤) نفسه.

(٧٧٥) انظر أدباء العرب ١: ١٢٤. وانظر ديوانه: ص ٣٢ و ٤٨.

(٧٧٦) ديوانه: ص ٣٢/٣١. وانظر شرح القصائد السبع: ص ١٩٣/١٩٢.

(٧٧٧) انظر ديوان حسان بن ثابت: ص ٢٥١.

(٧٧٨) الأغاني: ١٣: ٤٧٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألا عَلِّلاني قبلَ نَوْحِ النوادِبِ وقبلَ بُكاءِ المُعوِلاتِ القَرائِبِ
فإنَّ تأتِني الدُنيا بيومي فُجاءَةً تَجِدني، وَقَدْ قَضَيْتُ منها مآربي

وذهب حسان بن ثابت إلى أن شرب الخمر من مقومات العيش الصالح، لذا على المرء أن يعب من تلك المتعة قبل أن يفنى ذلك العيش. يقول(٧٧٩)

فاشْرَبْ مِنَ الرّاحِ ما آتاك مَشْرَبُهُ واعلمْ بأنَّ كُلَّ عيشٍ صالحٍ فاني

-٢-

الرفض والتمرد

يرى بعض الدارسين أن الرفض والإباء وعدم الخضوع والتحدي معطيات إنسانية كريمة تتبلور ملامحها وتتألق من خلال مسيرة الأمم والشعوب عبر مسافات زمنية طويلة. وتتجلى صورها بشكل بطولي في أعمال شعرية، أو في صراع فردي أو توجه جماعي يحدوه وحدة الهدف والمصير(٧٨٠) . وعلى ذلك يمكن القول أن الرفض والتمرد مظهر حي للبطولة المتحدية في العصر الجاهلي.

ولعل أجلى من يمثل هذا المظهر، تلك الطائفة من العبيد التي كان المجتمع الجاهلي يطلق عليها إسم (الأغربة)، و"أغربة العرب سودانهم شبهوا بالأغربة في لونهم"(٧٨١) .

ومن أشهر أغربة العرب عنترة العبسي وسليك بن السلكة وتأبط شرا والشنفرى وحاجز بن عوف الأزدي، وهم أولاد آباء من العرب وأمهات من الإماء السود، وقد تجلت في كل منهم شخصية العبد الأسود المتمرد الثائر على وضعه الاجتماعي، الرافض لظلم المجتمع الذي حرمه من حقه في الحرية والمساواة.

وقد سلكوا في التعبير عن رفضهم وتمردهم طريقين: أحدهما ينحو منحى الاستعلاء المستند إلى التميز في القوة الخلقية والمعنوية، وفي الشجاعة والجرأة والإقدام وانتهج الأخر سبيل التحدي العدواني بأبعاده ووجوهه المختلفة من سلب ونهب وإغارة وقطع طرق، ومن فتك وقتل في بعض الأحيان.

---

(٧٧٩) ديوانه: ص ٢٥١.

(٧٨٠) دراسات في الشعر الجاهلي: ص ٩٧ (القيسي).

(٧٨١) لسان العرب، مادة غرب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولربما كان عنترة العبسي خير مثال على الاستعلاء والتميز، إذ استطاع بما حبي به من شجاعة وصفات بطولية أن ينتزع من والده وقومه الاعتراف به إنسانا حرا كريما. ففي المجتمع الجاهلي تعد الشجاعة أبرز القيم الخلقية، ولذلك فإنها تحتل في حياة أفراده "ونفوسهم مكانة ذات أهمية كبيرة جدا"(٧٨٢) .

وفي عرف الجاهلي لاتقتصر الشجاعة على خوض المعارك ومقارعة الخصوم ودحر المعتدين،وانما تشمل الناحية المعنوية التي تمثلها الجرأة والإقدام واقتحام الأهوال. والشجاعة عند العرب "من الصفات الغريزية والسجايا الطبيعية، وقوة للنفس معنوية، لاتدرك إلا بآثارها وغاياتها، ولا تعلم إلا بمقتضياتها وعلاماتها، وهي الأقدام في مواضع الإحجام، وعدم المبالاة بالحياة ولا بالممات"(٧٨٣) .

وقد اجتمع لعنترة ذلك كله، الأمر الذي جعله يستنكر أن يقع عليه ظلم ما، أو يلحق به أي ضيم أو أهانة، وهو -كما يرى نفسه- الفارس الشجاع. المدرب على فنون القتال(٧٨٤) :

أَظُلماً وَرُمْحي ناصري وحسامي وَذُلاً وعِزّي قائِدٌ بزمامي

ولا يكتفي بالاستنكار، بل يندفع يتهدد ويتوعد ويتحدى(٧٨٥) :

فإذا ظُلِمْتُ فإنّ ظُلمِيَ باسلٌ مُرٌّ مَذاقَتُهُ كَطَعْمِ العَلْقَمِ

وقد استمد عنترة من شجاعته وبسالته ثقة كبيرة بنفسه، فانبرى يتحدى من يعيبه بلونه الموروث عن أمه ويتعالى عليه قائلا(٧٨٦) :

فإن تَسْكُ أمسي غَرابِيَّةٌ مِنْ أبناءِ حامٍ بها عِبْتَني
فإني لطيفٌ بِبِيضِ الظُبَى وَسُمْرِ العَوالي إذا جِئْتَني
ولولا فِرارُكَ يومَ الوَغَى لقُدْتُكَ في الحَرْبِ أو قُدْتَني

---

(٧٨٢) انظر الإنسان في الشعر الجاهلي: ص ١١٨.

(٧٨٣) بلوغ الأرب ١: ١٠٣.

(٧٨٤) ديوانه: ص ٢٧٦.

(٧٨٥) نفسه: ص ٢١.

(٧٨٦) ديوانه،ص ٤٩ وانظر في فخره بلونه الشعر والشعراء ١: ١٧٥ وشعراء النصرانية،ص ٨٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتميز في الشجاعة والبسالة والفروسية أظهر ما يبين حين يثبت المرء في أرض المعركة يخوض غمار المنايا متحديا الموت بمواجهته له دونما رهبة أو خشية أو وجل. وقد تباهى عنترة بمجابهته مثل هذا الموقف فقال(٧٨٧) :

أنا العبد الذي يلقى المنايا غداة الروع لايخشى المحاقا

بل إنه ليفتخر بالتفوق على الموت من حيث الجرأة والشجاعة، فيقول(٧٨٨) :

وما دانَيْتُ شخصَ الموتِ إلاّ كما يَدنو الشجاعُ من الجبانِ

وحين يكون المرء على هذا القدر من الشجاعة والجرأة على اقتحام الحروب والمهالك متحديا الموت ومنتصرا عليه، فلابد وأن يحس بالتميز والتفوق على غيره من أفراد مجتمعه، وإن قل عنهم حسبا ومالا وربما من حيث المكانة الاجتماعية، ويبدو أن ذلك هو ما كان يدور في خلد عنترة، وما كان يعتمل في أعماقه، اذ نراه يقول بشيء غير قليل من المباهاة والفخر(٧٨٩) :

إني امرؤ من خير عَبْس منصباً شَطري وأحمي سائري بالمُنصلِ
إن يُلْحَقوا أكرُرْ وإن يُسْتَلْحموا أشْدُدْ، وإن يُلفَوْا بِضَنكٍ أنزلِ(٧٩٠)
وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتلاحَظَت الفِيتُ خيراً من مُعِمٍّ مُخْوَلِ

والإحساس بالتميز او التفرد في مجالات يتمادح الناس فيها ويتفاخرون، كالشجاعة والبطولة، يعزز الثقة بالنفس ويشحذ الهمم، ويقوي من الشعور بالكرامة والكبرياء بحيث يخال المرء نفسه معززا مكرما أينما وجد "وفي كل موطن"(٧٩١) .

لقد كان لهذا الاستعلاء، وذاك التميز البطولي الأثر الكبير في تغيير النظرة العنصرية لمجتمع القبيلة، هذا المجتمع الذي لم يجد من ينقذه في محنته في الحرب سوى عنترة الذي لبى نداء الكماة والفرسان فهب لنجدتهم ونصرتهم. فكانت استجابته لهم بلسما

---

(٧٨٧) ديوانه: ص ٢٢٤و ٢١٤و ٢٩٥. وانظر في تصوره انه هو الموت بعينه، الشعر والشعراء ١: ١٧٥.

(٧٨٨) ديوانه: ص ٩٨و ٢١٣.

(٧٨٩) الشعر والشعراء ١: ١٧٤ (ماعدا البيت الثاني) والأغاني ٨: ٢٩٨٧.

(٧٩٠) استلحم: روهق في القتال. لسان العرب، مادة لحم.

(٧٩١) ديوان عنترة: ص ٢٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لجروحه، وشفاء لما عاناه –أمدا– من آلام نفسية ومعنوية، بسبب من ظلم مجتمعه وأهله له في مطلع عهده بالحياة(٧٩٢) :

ولقد شَفَى نفسي وأذهبَ سُقْمَها قيلُ الفوارسِ وَيْكَ عنترُ أقدمِ

وفي تناول الوجه الثاني للرفض والتمرد، تطالعنا أمور ذات مظهر عدواني يتسم بالعنف والجنوح إلى ارتكاب اعمال دموية، في كثير من الأحيان. ومن ذلك الفتك، والغارة والسلب والنهب.

وسيتناول الحديث هاهنا الفتك، إذ ستكون لنا وقفة مع الغارة والسلب والنهب في موضع لاحق.

والفتك في اللغة ركوب ما هم من الأمور، ودعت إليه النفس، وقيل هو القتل أو الجرح مجاهرة(٧٩٣) . وذهب البعض إلى أن القتل غرّة هو من الفتك أيضا(٧٩٤) ، بينما ذهب البعض الآخر إلى جعل "كل من هجم على الأمور العظام فاتكا"(٧٩٥) فالفاتك بهذا المعنى هو الجريء الشجاع الذي لايهاب شيئا.

وعلى ذلك يمكن القول أن الفتك يمت إلى الشجاعة والجرأة والإقدام. ولعل هذا المفهوم هو الذي حدا العرب إلى أن يفتخروا بفتاكهم وأن يتناقلوا قصصهم وأخبارهم(٧٩٦). فابن حبيب مثلا –افرد في كتابه الموسوم بالمحبر، فصلا ذكر فيه اسماء فتاك العرب في الجاهلية وأورد طرفا من اخبارهم. وممن ذكرهم: الحارث بن ظالم المري، والبراض بن قيس الكناني، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وتأبط شرا، وهو ثابت بن جابر بن سفيان من بني فهم(٧٩٧) .

وكما نرى، فإن ابن حبيب جمع بقوله هذا بين سيد القوم (الحارث وعمرو) والخليع (البراض) والصعلوك (تأبط شرا).

---

(٧٩٢) شرح القصائد السبع: ص ٣٥٩. وشرح المعلقات العشر: ص ٢١٣. وديوانه: ص ٢٧.

(٧٩٣) لسان العرب، مادة فتك.

(٧٩٤) نفسه.

(٧٩٥) نفسه. وانظر ترتيب القاموس المحيط، مادة فتك.

(٧٩٦) دراسات في الأدب الجاهلي: ص ٢٣٧.

(٧٩٧) انظر المحبر: ص ١٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تقدم الحديث عن كل من هؤلاء الفتاك، باستثناء تأبط شرا، الذي هو -فيما نراه- خير من يمثل الوجه الثاني للرفض والتمرد، كما الشنفرى الذي لايقل عنه رفضا او تمردا وربما فاقه فتكا.

ولكن -وحفاظا على اتساق البحث، وتجنبا للتكرار، آثرنا أن نجعل الحديث عنهما في الفصل التالي الذي يتناول فيما يتناوله، الصعلكة والصعاليك من زاوية اجتماعية واقتصادية معا.

-٣-

الهجاء

وهو أحد الأبواب الرئيسية في الشعر العربي، وقد وقف عنده نخبة من الأدباء والنقاد العرب القدامى[٧٩٨] والهجاء -كما يصفه البعض "أدب غنائي يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء[٧٩٩] . فما هو إلا وسيلة قولية يصطنعها الفرد للتعبير عن طريقته في الحس والتفكير، معارضا بها سبل الآخرين في حسهم وتفكيرهم ومتحديا لها، تلك السبل التي -وبالمعارضة ذاتها- تستثير غضبه أو سخطه او استهزاءه واستخفافه.

والهجاء -كما يذهب إليه صاحب لسان العرب- هو الشتم بالشعر وهو خلاف المدح[٨٠٠] وقد كان العرب يمتدحون القوة في كل صورها، جاعلين منها المثل الأعلى الوحيد الذي يؤمنون به ويحرصون عليه، وكانوا يرون أن الفضيلة هي الرجولة والشجاعة والإقدام وتحدي المخاطر، وكذلك حماية الجار والنجدة وطلب الثأر. ومما يمدح به الرجل -عندهم- ان يكون جلدا صبورا على المصيبة، لأن الجلد من آثار القوة والتماسك ومغالبة الزمن.

وفي المقابل كان كل ما يهجى به المرء إنما يرجع إلى الضعف والخور، يهجى بالجبن والقعود عن الغزو، وبالتراخي في إدراك الثأر، وفي قبول الدية، وبالعجز عن

---

(٧٩٨) مثلا أبو تمام - ٢٣١هـ في حماسته. وقدامة بن جعفر - ٣١٠هـ في "نقد الشعر". وابو هلال العسكري -٣٩٥هـ في "ديوان المعاني". وابن رشيق القيرواني -٤٥٦ في "العمدة".

(٧٩٩) الهجاء والهجاءون في الشعر العربي: ص ١٢.

(٨٠٠) لسان العرب، مادة هجا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حماية الجار، وبذهاب الهيبة بين الناس بسبب من خمول النسب أو البخل أو الفقر وغير ذلك(٨٠١) .

والغالب في الهجاء أن يوجه وعلى سبيل التحدي إلى خصم، وقد يكون هذا الخصم أحد الأقارب أو بعضهم، أو من رهط الهاجي وقبيلته، وقد يكون الخصم من قوم آخرين أو قبيلة معادية أو منافسة.

والهاجي ربما لايتورع عن أن يعزو الى خصمه أحط الصفات وأسوأ الأخلاق والطباع، فالخصم "كالكلب يعوي لدى بيداء مقفرة"(٨٠٢) وهو ورهطه "ثعالب قد توالت"(٨٠٣) أو تيوس "بالشَظِيِّ لهم يُعارُ"(٨٠٤) او "أعبدٌ"(٨٠٥) و"لئامٌ أدِقَّةٌ"(٨٠٦) .

وهذا الخصم ايضا بائس جاهل(٨٠٧) وجبان غدار "يقتل النيام ولايقتل يقظان ذا سلاح كميًّا"(٨٠٨) ، وضال ذليل قاطع للاقارب محسن للابعاد(٨٠٩) ، ثم إنه ابن امة مغبون الرأى سيء الأخلاق والطباع(٨١٠) ، بينما في الحرب هو "غنم يغبطها غواة شروب"(٨١١) والمرقش الأكبر يربأ بنفسه وبقومه عن أن يكونوا كخصومهم في البغي واللؤم والفساد(٨١٢):

لَسْنا كَـــاقوامٍ مَطاعِمُهم ... كسبُ الخَنا وَنهْكَةُ المَحْرَمِ

إن يُخصبوا يَعْيَوا بخصبهِم ... وأن يُجــدِبُوا فَهُمْ به ألِمُ

---

(٨٠١) الهجاء والهجاءون في الشعر العربي: ص ٨٢. وانظر العصر الجاهلي: ص ٢٠١. وديوان الأعشى: ص ١٦٥.

(٨٠٢) الحماسة الشجرية: ص ٤٨.

(٨٠٣) ديوان عدي بن زيد العبادي: ص ٣٥.

(٨٠٤) ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٧١. واليُعار: اصوات المعز.

(٨٠٥) المفضليات (عميرة بن جعل): ص ٢٥٩. وانظر ديوان بشر بن ابي خازم: ص ٥٩. وديوان الأعشى: ص ٢٩٧.

(٨٠٦) ديوان السليك بن السلكة: ص ٩٦. وشرح ديوان الحماسة: ص ١٥٤٨. والمفضليات (عبدالله بن غنمة) ص ٣٨١. وانظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٩٠.

(٨٠٧) ديوان النابغة: ص ٢٢٨.

(٨٠٨) الأغاني ١١: ٣٩٠٧(عمرو بن الاطنابه).

(٨٠٩) ديوان طرفة: ص ٨٣. وشرح ديوان الحماسة: ص ١٤٤٥.

(٨١٠) المفضليات (ذو الإصبع العدواني) : ص ١٦٠.

(٨١١) ديوان قيس بن الخطيم: ص ٦١.

(٨١٢) المفضليات: ص ٢٤٠. وانظر أيضا: ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصف طرفة بن العبد أعداءه بالخور وسوء الحال والمهانة والذل فيقول(٨١٣) :

تذكـــرون إذ نُقاتِلُكُمْ ... لايَضُـــرُّ مُعدماً عَدَمُهْ(٨١٤)

انتم نخـــلٌ نطيف بهِ ... فـــإذا ما جَزَّ نصْطَرِمُهْ(٨١٥)

وعذاريكُـــم مَقَلَّصَةٌ ... في دُعاع النخلِ تجترِمُهْ(٨١٦)

وخصوم الأعشى من صفاتهم الدونيّة، الضعة والبخل(٨١٧) :

تبيتون في المشَتى مِلاءً بُطونُكُمْ ... وجـــارَاتُكُمْ جَوْعى يَبتن خمائصا

يُراقِبْنَ مـــن جُوعٍ خِلال مَخافَةٍ ... نُجوم السماء الطالِعاتِ الشواخصا

فلو كنتم نخـــلاً لكُنتـــمْ جَرامَةً ... ولـــو كُنْتم نَبْلاً لَكُنتمْ مَعاقِصا(٨١٨)

وقد يرد الهجاء بصورة توحي بالتهكم والسخرية من الخصم إمعانا في إذلاله، ومنه قول عروه بن الورد، إذ شنق بعض أعدائه أنفسهم خوفا من الأسر(٨١٩) :

ونحن صبحنا عامراً إذ تمرست ... عُلالةَ أرماحٍ وضرباً مُذكّرا(٨٢٠)

عَجِبْتُ لهم إذ يخنقون نُفوسَهم ... ومقتلُهم تحت الوغى كان أجدرا

ولعل من أوجع الهجاء في نظر العربي –وهو الذي يقدس القوة ويتغنى بالشجاعة والرجولة– ذاك الذي يعمد إلى تشبيه الرجال بالنساء من حيث الضعف، وعدم التمرس بفنون القتال، والعجز أو التقاعس عن القيام بمهمة تقتضيها قيمة خلقية لها مكانتها في المجتمع الجاهلي، كالتصدي لحماية الجار، والحفاظ على حقوقه وصون كرامته.

---

(٨١٣) ديوانه: ص ٧٦/٧٧. وانظر شرح ديوان الحماسة: ص ٤١٤و ١٤٤٥. وانظر ديوان الأعشى: ص ٢٠٧.

(٨١٤) لايضر معدما عدمه: أي أن عدمه لايضره إذا كان مليئا من القوة والجرأة. الديوان ص ٧٧.

(٨١٥) جز النخل: بلغ الصرام. والمعنى أنتم ضعفاء، ولا مدفع عنكم، من أتاكم أخذ منكم. نفسه.

(٨١٦) المقلصة: المشمرة. والدعاع: رديء التمر. وتجترمه: تقطعه. نفسه.

(٨١٧) ديوانه: ص ١٩٩ – ٢٠١. وانظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٢١. وانظر الحماسة البصرية ١: ٢٠٥.

(٨١٨) الجرامة: حثالة النخل. معاقص: جمع معقص، وهو السهم المعوج او الذي لاينكسر. نفسه.

(٨١٩) الديوان: ص ٨١. وانظر كامل أبن الأثير ١: ٦٤٤.

(٨٢٠) علالة أرماح: طعنا متتابعاً بالرماح. ومذكر: طلب، قاس، شديد. ديوان عروة: ص ١٦٥ (دار الجيل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما جاء في ذلك قول زهير بن أبي سلمى يهجو أهل بيت من كلب من بني عليم لتخليهم عن نصرة جارهم في محنته المادية، كما نما الخبر إليه(٨٢١) ، فيبدأ هجاءه بالاستهزاء(٨٢٢) :

وما أَدري وَسوفَ إخالُ أدري ... أَقَـــومُ آلُ حِصنٍ أمْ نِساءُ

فإنْ تَكُنِ النِســـساءُ مُخَبَّـآتٍ ... فَحَقَّ لِكُلِّ مُحْصَنَةٍ هِداءُ(٨٢٣)

ثم يجنح إلى الذم والتقريع القاسي حتى ينتهي إلى الإشارة بتفرد هؤلاء القوم بخفرهم للعهد اذ أسروا الجار وسبوا أهل بيته(٨٢٤) :

فَلمْ أَرَ مَعْشرًا أَسَروا هَدِيًّا ... وَلمْ أَرَجارَ بَيْتٍ يُسْتَباءُ(٨٢٥)

ومنه يتضح أن الهجاء –وفي أحيان كثيرة– كان يتعمد المثالب والعيوب الخلقية فينشرها وكذلك السلوك المجافي للقيم والتقاليد التي تعارف عليها المجتمع العربي، فيفضحه ويشهر به، مع ما ينطوي عليه ذلك في بعض الأحيان من ظلم للمهجو(٨٢٦) أو الحاق للأذى به معنويا ونفسيا.

–٤–

التهديد والوعيد

وهما مما يكثر ورودهما –مظهرا للتحدي الاجتماعي– في الشعر العربي. ويردان غالبا في مجالين يمكن القول أنهما متضادان، من حيث أن احدهما يأتي ردا دفاعيا على استفزاز قولي او فعلي، بينما يتسم الآخر بالهجومية إذ يعمد إلى توعد الأعداء او الخصوم بالقتل والتنكيل، والتهديد بالثأر لذوي القربى وابناء القبيلة "من الذين سقطوا صرعى

---

(٨٢١) انظر الخبر في شرح ديوانه: ص ٥٦.

(٨٢٢) شرح الديوان: ص ٧٣/ ٧٤.

(٨٢٣) هداء: أي زفاف.

(٨٢٤) شرح الديوان: ص ٧٩.

(٨٢٥) الهدي: الرجل ذو الحرمة. ويستباء: تؤخذ منه امرأته بقصد النكاح.

(٨٢٦) كما كان واقع الحال مع مهجو زهير الذي تبين له فيما بعد أنه ظلم بني عليم بهجائهم انظر شرح الديوان: ص ٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بأيديهم"(٨٢٧) . وهذا المجال أوسع بكثير من سابقه نظرا لارتباطه بأيام العرب والغارة والغزو، وهي كثر في تاريخ ما قبل الإسلام.

فمما جاء في الرد على وعيد، قول نفيل بن عبد العزى لأبي عمرو بن أمية بن عبد شمس(٨٢٨) :

أيوعِدُني أبو عَمرٍو ودونـــي ... رِجـــالٌ لايُنَهّيهـا الوعيدُ؟
رِجالٌ مِنْ بني سَهمِ بنِ عمرٍو ... إلـى أبـــياتِهم يأوي الطَريدُ
وكيف أَخافُ أو أخشى وعيدا ... ونصرُهُمُ -اذا أَدعُو- عَتيدُ؟

وقول قِرواشُ بنُ حَوّطٍ الضبي(٨٢٩) :

نُبِّئْـــتُ أنَّ عِقالاً ابنَ خُوَيلِدٍ ... بِنعـــافِ ذي غُذُم وأنَّ الأَعلما(٨٣٠)
يَنمي وَعيـــدُهُما إليّ وبينَنَا ... شُمٌّ فَوارِعُ مِنْ هِضابِ يَرَمْرَما(٨٣١)
غضا الوعيد فما أكون لموعدي ... قنصـــا ولا أكلا له متخضما(٨٣٢)

وفي الرد على الشتيمة والهجاء يقول ذو الإصبع العدواني لابن عمه(٨٣٣):

ياعمرُو إلّا تَدَعْ شتميَ وَمنقَصَتي ... اضْرِبْكَ حَيثُ تقولُ الهامةُ أَسقوني

ويهزأ الأعشى بشتم بني عبدان وسبهم له ويتوعدهم بالرد عليهم بهجاء مرير كالعلقم وسام قاتل كنبات السلع، يقول(٨٣٤) :

إليكُمْ قبلَ تجهيزِ القوافي ... تزورُ المُنجدِين مَعَ الرياحِ

---

(٨٢٧) ايام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي: ص ١٦١. وانظر ديوان عمرو بن يكرب: ص ١٦٤.

(٨٢٨) الحماسة البصرية ١: ٨١. والحماسة الشجرية: ص ٦و ١٦٦. وانظر معنى مشابها في ديوان بشر بن أبي خازم: ص ١٤و ٢١.

(٨٢٩) شرح ديوان الحماسة: ص ١٤٥٩/١٤٦٠. وانظر ديوان عبيد بن الأبرص: ص ١١٧ .

(٨٣٠) النعاف: جمع نعف، وهو المكان المرتفع في اعتراض. والأعلم: اسم رجل . نفسه.

(٨٣١) الفوارع: العوالي. ويرمرم ويروى (يلملم): علم لجبل. نفسه.

(٨٣٢) يقول: اقصرا اليكما من تهددكما، فإن لاتحتفل بكما ولا بوعيدكما. فلن أكون فريسة أو أكلة سهلة لوعيدكم. والخضم: أكل الشيء الرطب خاصة كالقثاء. لسان العرب، مادة خضم.

(٨٣٣) ديوانه: ص ١٦٠. والمفضليات: ص ١٦٣. وانظر ديوان الأعشى: ص ١١و ٢٩٥.

(٨٣٤) ديوانه: ص ٣٩٥، وانظر في تهديده ووعيده أيضا: ص ١١١و ١٢٩و ١٣٥و ٢٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فما شَتْمي بسنونٍ بِزُبْدٍ ولا عَسَلٍ تُصَفِّقُهُ بِراحِ(٨٣٥)

ولكنْ ماءُ عَلقَمَةٍ وَسَلْعٍ يُخاضُ عليه مِنْ عَلَقِ الذباحِ(٨٣٦)

ويحذر راشد بن شهاب اليشكري خصمه من اللجوء إلى الشتيمة أو الوعيد لأنه بعمله هذا سيقرع سنه ندما وسيعرض نفسه للقتل؛ فيقول(٨٣٧) :

فمهلاً أبا الخَنساءِ لاتَشْتُمَنّي فَتَقرعَ بعدَ اليومِ سِنكَ مِنْ نَدَمْ

ولا تُوعِدَنّي إنني إنْ تلاقني معي مِشْرِفِي في مُضارِبِهِ قَضَمْ

وفي التهديد بشن حرب انتقامية يرد قول الجميح متوعدا غطفان لاشتراكهم في قتل –غدرا– أحد بني فقعس الذي كان مجاورا لبني عبس؛ يقول(٨٣٨) :

لاتَسْقِني إنْ لم أُزِرْ سَمَرًا غَطَفانَ مُوكِبَ جَحْفَلٍ دَهْمِ(٨٣٩)

هَجْرٍ يَغُصّ به الفَضاءُ له سَلَفٌ يَمورُ عَجاجُهُ فَخْمِ(٨٤٠)

حتى أجازي بالذي اجترَمَتْ عبسٌ بأسوأ ذلك الجُرْمِ

وكذلك قول امرئ القيس إذ بلغه نبأ قتل بني أسد أباه حجرا وبعض آله(٨٤١) :

فإن تَدْفِنُوا الداءَ لاتُخْفِهِ وإن تَبْعثُوا الحربَ لاتَقْعُدُ

وإن تَقتلونا نُقَتِّلْكُمْ وإن تَقصِدوا لِدَمٍ نَقْصِدِ

وقريب من ذلك تهديد الربيع بن زياد العبسي لبني ذبيان في قتلهم مالك بن زهير بن جذيمة العبيسي، فيقول معربا عن انتصاره لقومه إذ يتجرد لقتال خصومه(٨٤٢):

---

(٨٣٥) السنوت: التمر. وصفق الشراب: حوله من إناء إلى إناء ليصفو. نفسه.

(٨٣٦) العلقم: شجر الحنظل، وايضا اشد الماء مرارة، وذلك إذا تغير وختر. خاض الشراب: خلطة. والعلق: ما تتبلغ به الماشية من الشجر. والذباح: نبت سام يقتل آكله. نفسه.

(٨٣٧) المفضليات: ص ٣٠٨. وانظر قصائد جاهلية نادرة : مجلة المورد. م٩، ع١، ص ١٥١.

(٨٣٨) المفضليات: ص ٣٦٧. وانظر الحماسة الشجرية: ص ٧. وانظر ديوان المهلهل: ص ٧٠.

(٨٣٩) دهم: كثير العدد. لسان العرب، مادة دهم.

(٨٤٠) المجر: الثقيل الذي لايتبين سيره من كثرته. ويغص: يضيق. والسلف: الخيل المتقدمة. المفضليات.

(٨٤١) ديوانه: ص ١٨٦.

(٨٤٢) انظر العقد الفريد ٥: ١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإنْ تَكُ حربُكُمْ أمْسَت عوانًا ... فـإني لم أكُنْ مِمَّنْ جَناها(٨٤٣)

ولكـــنْ وُلْدَ سَودَةَ أرّثوها ... وَحَـشُّوا نارَها لِمَنِ اصْطلاها

فـــإني غيرُ خاذِلكُمْ ولكنْ ... سأسعى الآن إذْ بَلَغَتْ مَداها

وقد ينحو الشاعر منحى الإسراف في التحدي،من خلال المبالغة في التهديد والوعيد بالانتقام من الأعداء شر انتقام وأقساه.

ومن ذلك قول المهلهل إذ يتهدد بني بكر لقتلهم أخاه كليبا(٨٤٤) :

يـــا لَبكرٍ انْشُروا لي كُليباً ... يـــا لَبكرٍ أينَ أينَ الفرارُ؟(٨٤٥)

يـــا لَبكرٍ فاظْعَنُوا أو فَحُلُّوا ... صَـــرَّحَ الشَـــرُّ وبان الشَرارُ

يا كليبُ الخيرِ لستُ براضٍ ... دونَ رَوْحٍ تُراحُ مِنه الديارُ(٨٤٦)

أو أغـادرُ قتلى تَقَرُّ بِعيني ... وَيُـــؤَدّي مـــا عِنْدَهُ المُستعارُ

فهو لن يهدأ باله وتطيب نفسه(٨٤٧) :

حتى أُبيدَ قبيلةً وقَبيلةً ... وقَبيلةً وقبيلتينِ جَميعاً

وهو لايكفيه هذا، فيذهب بعيدا في تهديده ويقسم بأن يتتبع البكريين قتلا حتى الأجنة في الأرحام(٨٤٨) :

ويموتُ الجنينُ في عاطفِ الرَّحْـ ... ـمِ ونَروي رِماحَنا والخُيولا

ولا يبعد امرئ القيس عن هذا التوجه كثيرا اذ يقول مهددا قتلة أبيه(٨٤٩) :

لاتَسْقِني الخمرةَ إنْ لمْ يَرَوْا ... قـــتلي فِناماً بأبي الفاضِلِ

---

(٨٤٣) العوان: هي من الحروب التي قوتل فيها مرة. نفسه.

(٨٤٤) الديوان: ص ٣٢/٣٣. وانظر العقد الفريد ٥: ٢٢٠.

(٨٤٥) انشروا: أحيوا.

(٨٤٦) روح: نفحة خير.

(٨٤٧) الديوان: ص ٥٠ و ٨٠. وانظر شعراء النصرانية: ص ١٧٢. وأخبار المراقسة: ص ٢٨١.

(٨٤٨) الديوان: ص ٦٥/٦٦.

(٨٤٩) الديوان: ص ٢٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتى أَبَير الحيّ مِنْ مــالِكٍ قتلاً وَمَنّ يَشْرُف مِنْ كاهلِ

—٥—

المنــــافرة

المنافرة المحاكمة في النفر، لأن العرب كانوا إذا تنازع الرجلان منهم وادعى كل واحد منهم أنه اعز من صاحبه، تحاكما إلىعالم، فمن فضل منها قدم نفره عليه(٨٥٠)، بمعنى أن الرجلين إذا اشتد بينهما الخصام، وادعى كل منهما أنه أشرف من صاحبه، وارفع منه مكانة وحسبا ومنعة، تحدى أحدهما الآخر للمنافرة، كما الناس كانوا يفعلون في العصور الوسطى حين يتحدى الرجل خصمه للمبارزة بالسلاح.

وكما المبارزة، كان المتنافران يضربان موعدا للمنافرة، ويتراضيان حكما من كهان العرب وأشرافها المشهود لهم بالفصاحة والحكمة والعلم بأخبار العرب وأنسابهم(٨٥١). فإذا كان يوم المنافرة، أقبل كل منهما مع قومه وشعرائهم. ويجلس الحكم في قبة أعدت له، يسمع ويرى. ويبدأ أحدهما التحدي بأن يعدد مناقبه ومفاخر قومه ومزاياهم، مهاجما في الوقت نفسه خصمه ومشهرا بعيوبه ومثالبه. فإذا انتهى،وقف خصمه فرد عليه ناقضا ما قاله. ثم يتبادل شعراء الطرفين الإنشاد متملقين الحكم بالمدح، ومؤكدين مفاخر صاحبهم ومآثر قومه(٨٥٢) .

ولعل سوق عكاظ هي من أبرز المحافل التي كانت تجري فيها المنافرات، وقد "سميت عكاظ لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضا بالمفاخرة، أي يدعك"(٨٥٣) .

ولربما كانت منافرة عامر بن الطفيل، وعلقمة بن علاثة، من أشهر منافرات الجاهلية.والمتنافران كلاهما من كلاب بن عامر بن صعصعة(٨٥٤) . وكان السبب في

---

(٨٥٠) انظر بلوغ الأرب ١: ٣٠١.

(٨٥١) المصدر نفسه ١: ٣٠٨.

(٨٥٢) انظر الهجاء والهجاءون في الشعر الجاهلي: ص ٨٦.

(٨٥٣) لسان العرب، مادة عكظ.

(٨٥٤) انظر خبر هذه المنافرة في الأغاني ١٧: ٦١٠١ وصبح الأعشى ١: ٣٨٢. وبلوغ الأرب ١: ٢٨٧ وديوان الأعشى: ص ١٨٨. وهناك إشارة إليها في الشعر والشعراء ١: ٢٥٢. والعمدة ١: ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوع هذه المنافرة التنازع على السيادة والشرف ورناسة القبيلة بعد أن اسن رئيسها أبو براء(ملاعب الاسنة)، وقد اشتد الجدل والشجار بينهما حتى صارا إلى المنافرة، وبعد أن احتكما إلى عدد من الحكام استطاع هرم بن سنان أن يسوي بينهما قائلا "أنتما كركبتي البعير الأدرم، تقعان إلى الأرض معا، وليس فيكما واحد إلا وفيه ماليس في صاحبه، وكلاكما سيد كريم"(٨٥٥) .

ومما جاء من الشعر في هذه المنافرة قول أحد بني الأحوص مؤيدا علقمة وموجها الخطاب إلى أبي جهل بن هشام بن المغيرة حين احتكم إليه(٨٥٦) :

يـــا لُقُريشٍ بَيِّنوا الكَلامـــا ... إنـــــا رَضِينا مِنكمُ الأَحكاما

فَبَـــيِّنوا إنْ كُنتمُ حكامـــا ... كـــان أبـــونا لَهـــمْ إماما

وعَـــبدُ عَمْرٍو مَنعَ الفِناما ... في يومِ فَخْرٍ مُعْلَمٍ إعلاما(٨٥٧)

لولا الذي أجشمهم إجشاما ... لاتَّخَذْتُهُـــم مَـــذحِجُ أنعاما

وقول لبيد بن ربيعة مؤيدا عامرا حين احتكموا إلى هرم بن سنان(٨٥٨)

يا هَرِمُ ابنَ الأكرَمِينَ مَنْصِـــبا ... إنـــّـك قد وليتَ حُكماً مُعجبًا

فاحكُمْ وَصَوِّبْ رأيَ مَنْ تَصَوّبا ... إنّ الذي يَعلو عليها تُرْتَبا(٨٥٩)

لَخَـــيْرُنا عَمـــّا وأُمـــّا وأبـا ... وعـــامِرٌ خَيرُهُما مَرْكَبا(٨٦٠)

وعامرٌ أدنى لِقَيْسٍ نَسَبا

---

(٨٥٥) الأغاني ١٧: ٦١١٣.

(٨٥٦) المصدر نفسه ١٧: ٦١٠٥. وصبح الأعشى ١: ٣٨٥.

(٨٥٧) الفئام: الجماعة من الناس ، لاواحد له.

(٨٥٨) ديوان الفروسية: ص ١١٩، وانظر فيه ايضا: ص ٢١٠/٢١١. ورجز آخر له في صبح الأعشى ١: ٣٨٥.

(٨٥٩) ترتبا: أمرا ثابتا.

(٨٦٠) مركبا: الأصل والمنبت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن حكم هرم لم يرق للأعشى، فقد جاء هذا على أعقاب الحكم، فانحاز إلى عامر، وزعم أنهما قد حكّماه في أمرهما، فقال قصيدتين ينفر فيهما على علقمة، ثم ذاع حكمه في الناس. فمما قاله(٨٦١)

عَلْقَمِ لا لستَ إلى عامِرٍ ... الناقضِ الأوتار والواترِ

سُدْتَ بني الأحوصِ لم تَعْدُهُمْ ... وعامِرٌ سادَ بني عامِرِ

ساد وألفى قَوْمَهُ سادَةً ... وكابرا سادوكِ عن كابرِ

حَكّمْتموني فقضى بَيْنكُمْ ... أبْلَجَ مِثْلَ القمرِ الباهرِ

ياعجبَ الدهرِ متى سُوّيا ... كَمْ ضاحِكٍ مِنْ ذا وكم ساخِرِ

واذا كانت هذه المنافرة وقعت بين فردين، فهناك منافرة أخرى تصور المنافسة بين قبيلتين ممثلتين في سيدين من سادتهما وهي منافرة جرير البجلي وخالد الكلابي(٨٦٢)

ويعزى سببها إلى أن كلابا أسرت فردا من بجيلة، وحملته معها إلى عكاظ، فمر بالبجلي رجل من قومه يأكل تمرا، وحين تناول الأسير بعضا من ذلك التمر، جذبه الكلبي، واندلعت بينهما مشادة كلامية. فطاف البجلي بقومه يستنصرهم لفك أسر صاحبه، حتى انتهى إلى جرير بن عبدالله، من سراة بجيلة ووجهائها. فنهض جرير للأمر وهجم برهطه على منازل كلب في عكاظ وانتزع منهم الأسير.

واستفز هذا التحدي كلبا فتجمعت برئاسة خالد بن أرطاة، وتجمع رهط جرير برئاسته، وحكموا الأقرع بن حابس لمنافرة بينهما. وبعد أن تنافر خالد وجرير، قام شاعر بجيلة وأخذ يشيد بقومه ويتوسل إلى الحكم مذكرا إياه بصلة القرابة بينهما. فقال(٨٦٣) :

يا أقرعَ بنَ حابسٍ يا أَقْرعُ ... إني أخوك فانْظُرَنْ ما تَصْنَعُ

إنك ان يُصْرَع أخوك تَصْرَعُ ... إني أنا الداعي نزاراً فاسمعوا

---

(٨٦١) ديوان الأعشى: ص ١٩١ و ١٩٩ . وانظر العصر الجاهلي: ص ٣٥١.

(٨٦٢) انظر بلوغ الأرب ١: ٣٠١.

(٨٦٣) النقائض ١: ١٢٨. وانظر بلوغ الأرب ١: ٣٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى باذخٍ مِنْ عِزَّةٍ وَمُفْـزِعُ ... بِـهِ يُضَـرُّ قَـادِرٌ وَيُنْفَعُ

هَـلْ هـو إلا ذَنَبٌ وَأكرُعُ ... وَحَسَبٌ وَغْلٌ وَأنْفٌ أجْدَعُ[٨٦٤]

واستمر الأخذ والرد حتى انتهت المنافرة بحكم الأقرع لجرير. وذاك حين قال: "واللات والعزى، لو فاخرت قيصر ملك الروم، وكسرى عظيم الفرس، والنعمان ملك العرب، لنفرتك عليهم"[٨٦٥] .

ومما يمت إلى المنافرة، قيام الرجل المتباهي بحسبه ونسبه في جمع، فيزعم لهم أنه أعز العرب وأشرفهم ، ويتحدى من ينكر عليه ذلك بدعوته للمنافرة.

ومن ذلك ما أورده صاحب العقد الفريد[٨٦٦] من أن وفود العرب اجتمعت عند النعمان بن المنذر ملك الحيرة، فأخرج إليهم بردى محرق وقال: "ليقم أعز العرب قبيلة فيلبسهما" فقام عامر بن أحيمر بن بهدلة السعدي فائتزر بأحدهما وارتدى الآخر. وحين سأله النعمان كيف تأتي له أن يكون أعز العرب قبيلة، أجابه بأن العزة والعدد من العرب في معد ثم وبالتسلسل ينتهيان إلى بهدلة. وأعقب ذلك بقوله متحديا: "من أنكر هذا من العرب فلينافرني" فلم يعارضه أحد من الحاضرين.

ومثال آخر رواه ابن الأثير[٨٦٧] ومفاده أن رجلا من بني غفار وكان غازيا منيعا في نفسه جلس بسوق عكاظ، ومد رجله، وقال مفتخرا بعزة قومه وشجاعتهم وشرفهم وكثرة عددهم.

نَحنُ بَنو مُدرِكَةَ بنِ خِندِفْ ... مَنْ يَطْعَنوا في عَينِهِ لايَطرِفْ

وَمَنْ يكونوا قومَهُ يُغَطْرِفْ ... كأنَّـهُ لُجَّةُ بَحرٍ مُشْرِفْ[٨٦٨]

ثم تحدى الحضور بقول: "أنا والله أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف" فناوشه أحدهم، ثم حجز بينهما الناس وتفرقوا دون إراقة دماء.

---

(٨٦٤) حسب وغل: الضعيف النذل الساقط المقصر في الأشياء. ترتيب القاموس المحيط، مادة وغل.

(٨٦٥) النقائض ١: ١٢٨. وانظر بلوغ الأرب ١: ٣٠٨.

(٨٦٦) انظر العقد الفريد ٢: ١٩٤/١٩٥ و ٥: ٣٣١.

(٨٦٧) انظر كامله ١: ٥٨٩. وانظر العقد الفريد ٥: ٢٥١. والأغاني ٢٥: ٨٧٥٧.

(٨٦٨) يغطرف: يشرف ويسود. لسان العرب، مادة غطرف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٦-

طلب الثأر وإدراكه

وهو عند العرب -كما الشجاعة والأنفة وإباء الضيم والوفاء- من الفضائل التي تجمعها كلمة مروءة، على أنه يحمل في ثناياه رد فعل عنيف يتمثل في الرغبة بالانتقام، والاقتصاص من المعتدي أو القاتل بغض النظر عن بواعث القتل أو الاعتداء.

ولما كانت الحياة العربية قائمة على الصراع من أجل البقاء، فإن الحروب والغارات والغزوات كانت جزءا لايتجزأ من هذا الصراع. ومن شأن الحروب أن تسفر عن قتلى واسرى وسبي ناهيك عن النهب والسلب واستنزاف للموارد المعيشية والحياتية. لذا كان ابرز قانون يخضع له الكبير والصغير "هو قانون الأخذ بالثأر، فهو شريعتهم المقدسة... ولم يكن لأي فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق في نقض هذه الشريعة ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها(٨٦٩) .

فهي شريعة لاتقبل جزاء غير المعاملة بالمثل: أي قتلا بقتل، واعتداء باعتداء. ومن هنا غدت الثارات حلقة مفرغة يدور فيها الواترون والموتورون، وتقاذف الحياة تيّارا القتل وطلب الثأر. ولعل خير تعبير عن هذا النمط من الحياة قول دريد بن الصمّة(٨٧٠) :

يُغـــارُ علينا واترين فَيُشْتَفى ... بنا أن أُصبنا او نُغيرُ على وِترِ

قَسَمْنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فلا ينقضي إلا ونحن على شطر

وإذ كان أخذ الثأر شريعة العرب المقدسة فقد كانت "تصطبغ عندهم بما يشبه الصبغة الدينية"(٨٧١) فكانوا يحرّمون على أنفسهم أثناء طلبهم للثأر ما كان محللا لهم قبل ذلك مما كانوا يعدونه من متع الحياة وأطايب العيش، مثل معاشرة النساء ودهن

---

(٨٦٩) العصر الجاهلي: ص ٦٢. وانظر الفروسية في الشعر الجاهلي: ص ١١٢.

(٨٧٠) ديوانه: ص ٦٤/٦٥. وشرح ديوان الحماسة : ص ٨٢٤-٨٢٦. والشعر والشعراء ٢: ٦٣٧.

(٨٧١) العصر الجاهلي: ص ٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرأس(٨٧٢) وشرب الخمر(٨٧٣)، لأنها مشغلة لهم عن طريم الأخلاق والإقبال على الشهرة"(٨٧٤) .

فإذا أدرك الموتور ثأره أعلن أنه لاتثريب عليه في التحلل مما حرمه على نفسه كما يشير إلى ذلك قول امرئ القيس(٨٧٥)

حَلَّتْ ليَ الخمرُ وكنتُ امرَأً ... عَنْ شُربِها في شُغُلٍ شاغِلِ

فاليومَ أُسْقَى غيرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إثماً مِنَ اللهِ ولا واغِلِ(٨٧٦)

ولم يكن العرب ليقبلوا في قتلاهم الديات والمغارم، إلا عند الضرورة القصوى، كأن تستنفد الحروب قواهم بعد أن تأتي على الحرث والنسل. فأخذ العقل عار "يبقى والمعاقل تذهب"(٨٧٧) وهو سبة لايمحوها ولا يزيلها إلا الدم المسفوك(٨٧٨) . ففي الدماء "شفاء وخير الثأر للمتأوب"(٨٧٩) .

وقبول دية القتيل أمر لايقبل به من كان شجاعا أبيا ذا عزة وكرمة(٨٨٠) :

إذا ما طَلبنا نِبلَنا عِندَ مَعْشَرٍ ... أَبَيْنا حِلابَ الدَّرِّ أَو نَشربَ الدما

من هنا جاء التحريض على طلب الثأر، وحفز الهمم لإدراكه، ومن ذلك قول عنترة مخاطبا قيس بن زهير يستحثه ويحرضه على الانتقام لقتلى عبس(٨٨١) :

---

(٨٧٢) انظر العقد الفريد ٥: ١٧٦. والمفضليات: ص ٢٤٩. وديوان امرئ القيس: ص ٣٦١. وديوان المهلهل: ص ٦٤.

(٨٧٣) انظر كتاب ايام العرب ٢: ٣١٥،تأبط شرا : ص ٦٨، وديوان امرئ القيس: ص ٥٧. وديوان المهلهل: ص ٣٢.

(٨٧٤) بلوغ الأرب ٣: ٢٤. وانظر أمالي القالي ١/ ١٢٩.

(٨٧٥) ديوانه: ص ١٢٢. وفي تحليل الشرب بعد تحريمه انظر معجم الشعراء: ص ١٢١.والعقد الفريد ٥: ٢٤٨. والمؤتلف والمختلف ص : ١٤١.

(٨٧٦) مستحقب إثما: محتمله أو مكتسبه. الواغل: الداخل على القوم يشربون ولم يدع. الديوان.

(٨٧٧) شرح ديوان الحماسة: ص ٢١٥.

(٨٧٨) ديوان قيس بن الخطيم: ص ٤٩.

(٨٧٩) ديوان عامر بن الطفيل: ص ٢٧.

(٨٨٠) حماسة البحتري: ص ٢٨. وانظر فيه : ص ٢٩ و ٣١.

(٨٨١) ديوانه: ص ١٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا قَيسَ إنّ صُدورَنا وَقَدَتْ بها ... نـــــارٌ بأضْلُعِنا تَشُبُّ وَقودُها

فانهضْ لِأَخذِ الثارِ غيرَ مُقَصِّرٍ ... حـــتى تُبيدَ مِنَ العِداةِ عَديدَها

وقول كبشة أخت عمرو بن معد يكرب، اذ تحض أخاها وقومها على إدراك الثأر وترك التباطؤ والتكاسل فيه، ورفض العقل مهما كان، لما في قبوله من مهانة وإذلال(٨٨٢):

أرسلَ عبدُاللهِ إذ حانَ يومُهُ ... إلى قومِهِ لاتَعقِلوا لهمُ دَمي(٨٨٣)

ولا تَأخُذوا منهمْ إفالاً وأبكُرًا ... وأُترُكُ في بَيْتٍ بِصَعْدَةَ مُظلِمِ(٨٨٤)

فإن أنتُمْ لم تَثأروا واتَّدَيْتُمُ ... فَمُشُّوا بآذانِ النَّعامِ المُصَلَّمِ(٨٨٥)

وقد يأخذ التحريض والحض بعدا سلوكيا يهدف إلى استثارة مشاعر الموتور وحفزه للنهوض والإسراع في إدراك الثأر. ومن ذلك ما حدث يوم مقتل كليب، إذ عقر قومه الخيول وكسروا السلاح وخرجت النساء(٨٨٦) :

يَخْمِشْنَ مِنْ أَدَمِ الوُجوهِ حَواسِرًا ... مِنْ بَعْدِهِ وَيَعْدِنَ بِالأَزمانِ(٨٨٧)

مُتَسَلِّـــباتٍ نُكَدُهُنَّ وقدْ وَرَى ... أجوافَهُنَّ بِحُرْقَةٍ ورَواني(٨٨٨)

ويعدّدن مناقب كليب ومآثره من إغاثة للواقع في ضيق، ومن ايسار بالجزور، ومسابقة على دفع ديات القتلى،وتصد "لفادحات نوائب الحدثان"(٨٨٩) .

---

(٨٨٢) شرح ديوان الحماسة (التبريزي) ١: ٢١٧. والنوادر: ص ١٩٠ وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام: ص ٩٧.

(٨٨٣) عبدالله: هو أخو كبشة.

(٨٨٤) الإفال: واحد أفيل، وهي صغار الإبل، والأبكر: جمع بكر،وهو الفتي منها، وصعدة: مكان باليمن. وبيت مظلم: كان العرب يزعمون إن المقتول إذا ثأروا به أضاء قبره، فإن أهدر دمه أو قبلت ديته بقي قبره مظلما. نفسه.

(٨٨٥) فمشوا: امشوا. المصلم: المجدع، كناية عن الذل. نفسه.

(٨٨٦) ديوان المهلهل: ص ٨٧. وانظر خبرا مشابها في أمالي القالي ١: ١٢٧/١٢٨.

(٨٨٧) أدم الوجوة: بشرة الوجوه. وحواسرا: غير محجبات. الديوان.

(٨٨٨) متسلبات: شققن جيوبهن وأرسلن شعورهن لشدة حزنهن. ورواني : وناظرات بعيون ذابلة. نفسه.

(٨٨٩) ديوان المهلهل: ص ٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحتل التهديد والوعيد حيزا هاما من مساحة طلب الثأر. والأشعار التي تعبر عن ذلك كثيرة. ومنها قول عامر بن الطفيل[٨٩٠] :

وَلأثأرنَّ بمالكٍ وبمالكٍ ... وأخي المَروارةِ الذي لم يُسْنَدِ

وقتيلُ مُرَّةَ أثأرَنَّ فإنه ... فَرْعٌ، وإنّ أخاهُم لم يُقْصَدِ[٨٩١]

وقول المهلهل موجها تهديده ووعيده لقتلة أخيه كليب[٨٩٢] :

إن نحنُ لم نَثأر بهِ فاشْحَذوا ... شِفارَكُمْ منّا لِحَزِّ الحُلوقْ

ليس أخوكُمْ تارِكًا وِتْرَهُ ... وليسَ عن تَطلابِكُمْ بالمُفيقْ

وكما قدمنا فإن المهلهل يجنح إلى كثير من المبالغة والتهويل في رسم صور الانتقام لأخيه والتي يتهدد بها قاتليه، وهو "لايفتأ يرددها ولا يمل تكرارها والإلحاح عليها وكأنما سيطرت على تفكيره، واستبدت بمشاعره[٨٩٣] ".

وامرؤ القيس يتهدد ويتوعد، ولكنه يؤثق ذلك بقسم يوحي بأنه مصمم على ادراك ثأره من قتلة أبيه. يقول[٨٩٤] :

والله لايَذْهَبُ شيخي باطِلًا

حتى أُبيرَ مالِكًا وكاهِلا[٨٩٥]

القاتلَـــينَ المَلِكِ الحُلاحِلا

وقد يلجأ الموتور إلى التهديد بشن غارة على الواترين، انتقاما منهم، وإدراكا لثأره، ومن ذلك تهديد تأبط شرا لبني العوض إذ قتلوا صاحبيه[٨٩٦] :

---

(٨٩٠) ديوانه: ص ٥٦.

(٨٩١) فرع: شريف.

(٨٩٢) ديوانه: ص ٥٧/٥٨. وانظر فيه أيضا: ص ٦٣و ٦٩/ ٧٩و ٨٠/ ٨١و ٨٨و ٩٠.

(٨٩٣) الروائع من الأدب العربي ١: ٨٤. وانظر ديوان المهلهل: ص ٥٠و ٦٥/٦٦و ٦٩/٧٠و ٨٠/٨١و ٨٨و ٩٠.

(٨٩٤) ديوانه: ص ١٣٤. وانظر فيه ايضا: ص ٢٥٦/ ٢٥٧.

(٨٩٥) أبير: أهلك. ومالك وكاهل: من بني أسد. الديوان.

(٨٩٦) ديوانه: ص ١٢١-١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبعدَ قتيلِ العوصِ آسى على فتى ... وصـــاحِبِهِ أو يـــأملُ الـزادَ طارِقُ
لُأطْـــرُدُ نهبـــاً أو نَزورَ بِفِتْيَةٍ ... بـــأيمانِهم سُمْـرَ القنا والعقائقُ(٨٩٧)
مساعِرَةٌ، شُعْثٌ، كـــأنّ عُيونَهُمْ ... حريقُ الغضا تُلْفَى عليها الشقائقُ(٨٩٨)

وإذا كان القعود عن طلب الثأر مما يجلب المسبة ويستوجب الذم والقدح. فإن إدراكه مما يستحق الفخر والتباهي والزهو، ولاسيما إذا كان الاقتصاص أقسى وأكبر وهو ما يلاحظ في كثير من أقوال الشعراء.

فدريد بن الصّمة، وبعد أن ثأر لأخيه عبدالله -أو غالب كما كان يدعى أحيانا- يطلب بفخر تعميم هذا الخبر وإبلاغه لأبي غالب ليقرّ عينا، فيقول(٨٩٩) :

يا راكباً إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... أبـــا غـــالبٍ أن قد ثأرنا بغالبِ
قتلنا بعبدِ الله خيرَ لِداتِـــهِ ... ذُؤابَ بنَ أسماءَ بنِ زيدِ بنِ قارِبِ
وعَبساً قتلناهم بِحَرِّ دارِهم ... بِمَقْتَلِ عـــبدالله يـوم الذنائبِ(٩٠٠)

وفي عرف الجاهلي الأبيّ الشجاع لابد من إدراك الثأر وإن بعدت المسافة الزمنية والمكانية. وآية ذلك حديث قيس بن الخطيم الذي قتل والده وجده، ولم يعلم بذلك إلا بعد أن غدا شابا يافعا. فما كان منه إلا أن أخذ بالسعي بعزم وتصميم حتى أدرك ثأره. واذ ذاك فقط أحس بالراحة النفسية والزهو إذ أسقط عنه مسبة وعار عدم ادراك الثأر الذي عير به حين كان لايدري من الأمر شيئا. وفي ذلك يقول(٩٠١) :

ثأرتُ عَدِيّاً والخطيمَ فلم أُضِـعْ ... ولايـــةَ أشياءٍ جُعِلتُ إزاءها(٩٠٢)

---

(٨٩٧) العقائق: السيوف تشبيها لها بما يبقى في السحاب من شعاع البرق. ترتيب القاموس، مادة عقق.

(٨٩٨) مساعِرَة: اشداء، ومساعرة: جمع مِسْعَر، وهو الرجل الذي تحمى به الحرب وتشتعل، أو الطويل الشديد. وعيونهم حريق الغضا: أي تتقد غضبا. الديوان.

(٨٩٩) ديوانه: ص ٢٧. والحماسة الشجرية: ص ١٣. وانظر في إدراك الثار مثلا. قصائد جاهلية نادرة: ص ١٤٧. وديوان الشنفرى: ص ٥٧. وديوان المهلهل: ص ٧٩. والمفضليات: ص ٢٥.

(٩٠٠) الذنائب: من أيام العرب المشهورة. انظر العقد الفريد ٥: ٢١٨.

(٩٠١) ديوانه: ص ٤٣-٥٠، وشرح ديوان الحماسة: ص ١٨٣. وانظر في موقف مشابه، ديوان الشنفرى: ص ٣٧.

(٩٠٢) عدي: جد قيس بن الخطيم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضَرَبْتُ بذي الزَّرَّيْنِ ربقَةَ مالكٍ فأَبْتُ بنَفْسٍ قد أَصَبْتُ شِفاءَها(٩٠٣)

طَعَنْتُ ابنَ عبدِالقيسِ طعنةَ ثائرٍ لهـــا نَفَذٌ لولا الشُعاعُ أَضاءَها

وكنتُ أمرأ لاأَسمَعُ الدهرَ سُبَّةً أُســـبُّ بها إلا كَشَفْتَ غِطاءها

وقريب من ذلك خبر الأسعر الجعفي في إدراك ثـأره، فقد قتل أبوه وهو غلام، فأخذ إخوته لأبيه الدية كلها فأكلوها. وعندما شب الأسعر أدرك ثأر أبيه، وقال(٩٠٤) :

ولقَدْ ثَأَرْتُ دِماءنا مِـنْ واتِرٍ فاليومَ إنْ زارَ المَنونُ قد أَكْتَفي

وشريعة أخذ الثأر قد تكون ذات نفوذ وسيطرة أقوى من صلة القرابة ومن رابطة الدم،والمثل على ذلك انتقام هجرس بن كليب من خاله جساس بن مرة الذي تعهده طفلا وقام على رعايته حتى غدا شابا، وزوجه ابنته. فحين علم هجرس أن خاله هو قاتل أبيه، لم يحجم عن طعنه برمحه وقتله وقال(٩٠٥) :

ألـــم تـــرني ثَأَرْتُ أبي كُلَيبا وقد يُرَجَّى المُرَشَّحُ للذُحولِ(٩٠٦)

غَسَلْتُ العارَ عنْ جُشَمِ بنِ بَكرٍ بِجسّـــاسِ بنِ مُرَةَ ذي التَبولِ

جَـــدَعْتُ بقتلِهِ بَكرًا وأَهلٌ لَعَمْـــرُ اللـــهِ لِلْجَدعِ الأصيلِ

ثم لحق بقومه تغلب، "فكان آخر قتيل في بكر بن وائل"(٩٠٧)

فالثأر عند عدد من الشعراء يشبه الداء الذي يتفشى في الجسم ويسقم الروح. وهو داء لايبرئه إلا التحدي والانتقام من مسببه(٩٠٨) . وقد أشار الجاحظ إلى أن "الأعراب تعد القتل سقما وداء لايبرئه أخذ ثأره دون أخ او ابن عم"(٩٠٩) .

---

(٩٠٣) ذو الزربن: سيف من سيوف كان يعمل فيها شبه الثؤلول والربقة: موضعها من العنق. الديوان.

(٩٠٤) الأصمعيات: ص ١٤٣.

(٩٠٥) معجم الشعراء: ص ٤١٧ (دار الجيل).

(٩٠٦) الذحول: الثأر.

(٩٠٧) الأغاني ٥: ١٧٠٦ ، وفيه تفصيل الخبر.

(٩٠٨) انظر الأغاني ٢٤: ٨٣٧١.

(٩٠٩) الحيوان ٦: ٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لذا فقد ذهب هؤلاء الشعراء إلى أن في إدراك الثأر شفاء للنفس، وبالثأر "يشتفي المدرك"(٩١٠) ، وقد شفيت نفس المهلهل "من أبناء بكر"(٩١١) ، وقيس بن الخطيم آب بنفس قد أحرزت شفاءها(٩١٢) ، وقيس بن زهير وجد من سيفه معينا له على شفاء نفسه بقتله واتريه(٩١٣) .

ولايجد بعضهم حرجا في التباهي بقسوة انتقامهم مؤكدين أن ذلك هو ما شفى أنفسهم. ومنهم باعث بين صريم الذي قتل بنو أسيد من تميم أخاه وائلا. فأقسم أن يقتل منهم، ثأرا بأخيه -حتى يملأ دلوا من دمائهم، وكان له ذلك. فقال(٩١٤) :

سائِلْ أُسَيِّدَ: هل ثَأَرْتُ بِوائلٍ ... أَمْ هَلْ شَفيتُ النفسَ من بَلبالِها(٩١٥)

إذا أُرسلوني مائِحًا بِدِلائِهم ... فَمَلأتُها عَلَقًا إلى أسبالِها(٩١٦)

وإذا كان إدراك الثأر يبرئ الداء ويشفي نفوس مدركيه، فإنه -فيما يزعم العرب- يجعل القتيل يكف عن عناء المطالبة بثأره، ويمنحه الراحة والسكينة في قبره.

وقد أشار ابن سعيد -صاحب نشوة الطرب- إلى هذا الاعتقاد فقال: "وزعموا أن الإنسان إذا قتل ولم يطلب بثأره خرج من رأسه طائر يسمى الهام، وصاح على قبره اسقوني"(٩١٧) ويدلل ابن سعيد على ما أورده بقول ذي الإصبع العدواني(٩١٨) :

يا عَمْرُو إنْ لاتَدَعْ شتمي وَمَنْقَصَتي ... أَضْرِبْكَ حتى تقولَ الهامةُ اسقوني

---

(٩١٠) الروائع في الأدب العربي ١: ٩١. والأغاني ٥: ١٧٠٨. وانظر ديوان الفروسية: ص ٢٠.

(٩١١) ديوانه: ص ٢٦. وانظر فيه أيضا: ص ٤٩. وانظر في إدراكه الثأر الأصمعيات: ص ١٥٥.

(٩١٢) ديوانه: ص ٤٤. وانظر ديوان امرئ القيس: ص ١٣٨.

(٩١٣) عيون الأخبار ٣: ١٠٠. وانظر قوله في شرح ديوان الحماسة: ص ٢٠٣. وشرح الحماسة (التبريزي) ١: ١٩٨.

(٩١٤) شرح ديوان الحماسة: ص ٥٣١. والعقد الفريد ٥: ٢١٢. وانظر قولا آخر له في العقد ٥: ٢١٢.

(٩١٥) البلبال: الاهتمام بطلب الثأر.

(٩١٦) المائح: الذي يخرج الماء من البئر. والعلق: الدم. وأسبالها : أعاليها. الشرح.

(٩١٧) نشوة الطرب ٢: ٧٨٨. وهذا القول له ما يشابهه في كامل المبرد ١: ٢٢٠.

(٩١٨) المفضليات: ص ١٦٠ و ١٦٣. والأغاني ٣: ٩٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما عبر حديج بن حبيب عن سكون الهامة بعد إدراك الثأر فقال(٩١٩) :

أَلَـمْ تَـرَني ثَـأَرْتُ بني زيادٍ فَقَـرَّتْ هامتي وشَفيتُ صَدري

وبذلك يبين الشعر أنه بعد الحض على طلب الثأر، وتحقيق الانتقام وإدراك الوتر، يبرأ الداء، فتصح النفوس والأبدان، ويمتنع التحريم ويتحلل منه،وتسكن الهامة التي لها دورها في هذا التحدي المنتقم: تحدي إدراك الوتر.

(٩١٩) انظر المؤتلف والمختلف: ص ١٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

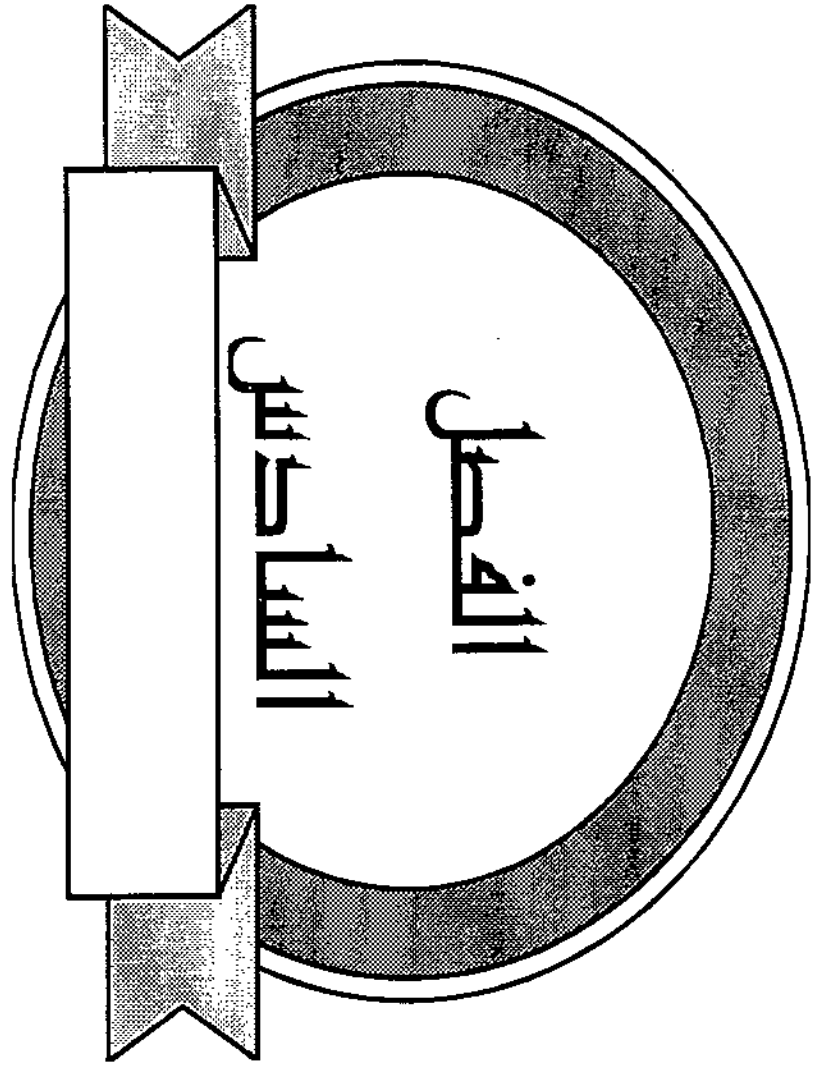

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السادس

التحدي الإقتصادي في الشعر الجاهلي

-١-

الصعلكة والتحدي

ومفهوم الصعلكة تأطره دائرتان: إحداهما لغوية، والأخرى اجتماعية. فالتصعلك لغة هو الفقر وعدم حيازة المال أو الاعتماد، والصعلوك هو الفقير الذي لامال له، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك(٩٢٠) ".

وفي هذا المعنى يأتي قول حاتم الطائي(٩٢١) :

غَنينا زماناً بالتصعلك والغنى كما الدّهرُ في ايامه العُسرُ واليُسْرُ

فما زادنا بَغيا على ذي قرابةٍ غِنانا ولا أزرى بِأَحْسابِنا الفَقْـــرُ

وفي الدائرة الاجتماعية أصبح المفهوم يشير إلى "صعاليك العرب وذؤبانها ومن كان يتجرد للغارات وقطع الطرق، ولاينتمي إلى قبيلة محددة(٩٢٢)"

فالصعاليك من هذا المنطلق -وفي معظمهم- لم يكونوا من أبناء القبائل الصرحاء، وإنما من الموالي أو من الأغربة والهُجـن الذين رفض قومهم أن يلحقوهم بهم، أو من الخلعاء الذين خرجوا على عرف القبيلة وتقاليدها، فنبذهم مجتمعهم، وألقى بهم في خضم الحياة، عزلا من سلاح العصبية القبلية. فكان مصيرهم التشرد والفقر والجوع ومعاناة الحرمان.

ولكن من كان منهم على قدر من الشجاعة والبأس، لم يخنع ولم يستسلم لمصيره، بل عمل على تحديه بشتى الطرق والوسائل.

---

(٩٢٠) لسان العرب مادة صعلك. والقاموس المحيط، مادة صعلكة.

(٩٢١) ديوانه: ص ٢١٣.

(٩٢٢) انظر الشعراء الصعاليك: ص ٥٧/٥٨. والمفصل ٩: ٦٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتأبط شرا -مثلا- كان "شجاعا، وكان يغزو على رجليه فلا تجاريه الخيل ولايهاب شيئا... وكان لايهم بشيء إلا ركبه"(٩٢٣) . و"كان فاتكا شديدا"(٩٢٤) وعلى وعي بأنه يمتلك من الخصال والطبائع ما أهله لأن يعد من الفتاك الشجعان. ومن ذلك صبر "على معظم الخطب"(٩٢٥) ، وبأس وسورة وقلب جسور "في كل فادحة"(٩٢٦) .

كما كان يرى أنه لاينقصه الطموح ولا الجرأة على خوض المهالك، ولا تنتفي عنه المكارم أو السجايا الفاضلة. ولعل ذلك ما قصده في قوله(٩٢٧) :

لَكِنّما عِوَلي ، إنْ كنتُ ذا عِوَلٍ ... على بَصيرٍ بِكَسْبِ الحَمْدِ سَبّاقِ(٩٢٨)

سَبّاقِ غاياتِ مَجْدٍ في عَشيرَتِهِ ... مُرَجِّعِ الصَّوْتِ هدّاً بَين أرْفاقِ(٩٢٩)

عاري الظَنانيبِ، مُمْتَدٌّ نواشِرُهُ ... مِدْلاجِ أدْهَمَ واهي الماءِ غَسّاقِ(٩٣٠)

حَمّالِ أَلْوِيَةٍ، شَهّادِ أَنْدِيَةٍ ... قَوّالِ مُحْكَمَةٍ ، جَوّابِ آفاقِ(٩٣١)

إنه يرى نفسه كما رئيس القوم الذي يكون الناس تبعا له؛ هو قول الفصل في قضاياهم، وله رأي صائب يؤخذ به عندما تحزب الأمور الشديدة، وهو ذو عزم وجرأة، وصاحب أسفار وغارات.

وهو إذ يتباهى بذلك، فإنما ليعبر به عن تحديه للمجتمع الجاهلي الذي استهان به وازدراه،كونه من غير الطبقة الأرستقراطية في عشيرته.

---

(٩٢٣) المحبر: ص ١٩٧. وانظر قول تأبط شرا في الشعر والشعراء: ١: ٢٣١.

(٩٢٤) الأغاني ٢٤: ٨٣٣٣.

(٩٢٥) نفسه ٢٤: ٨٣٢٨.

(٩٢٦) نفسه.

(٩٢٧) ديوانه: ص ١٣٥-١٣٧. وانظر المفضليات : ص ٢٩.

(٩٢٨) عولي: عمدتي ومحملي. لسان العرب، مادة عول.

(٩٢٩) مرجع الصوت: يصيح آمرا ناهيا. هدا: رافعا صوته. أرفاق: رفاق. المفضليات.

(٩٣٠) الظنابيب: جمع ظنبوب، وهو حرف عظم الساق. والنواشر: عروق ظاهر الذراع. الأدهم: الليل واهي الماء: مطر شديد، سحابه لايمسك الماء. الغساق: شديد الظلمة. والمعنى أنه ذو عزم وجرأة.

(٩٣١) المحكمة: الكلمة الفاضلة. جواب آفاق: صاحب أسفار وغزو.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن تحديه ليتخطى الحياة بمجملها، ليطال الموت ايضا. فهو لايهاب مواجهته ولا يعبأ بلقائه لأنه يعلم أن الذي يرمي بنفسه في المهالك، ويولع بمقارعة الأعداء لابد وأن يصرعه الموت، ولايتصدى لذلك إلا الشجاع الكميّ يقول(٩٣٢) :

وإني -ولا عِلمٌ- لأعلَمُ أنني ... سألقَى سِنانَ الموتِ يبرقُ أصلعا

وَمَنْ يُغْرَ بالابطالِ لابُدّ أنه ... سيلقى بِهم من مَصرَعِ الموتِ مَصْرَعا

ويبدو أن موقفه المتحدي المتمرد وجّهه الى رسم نمط حياة يتلاءم وكونه صعلوكا فاتكا، فهو يقول(٩٣٣) :

ولست أبيت -الدهر- إلدّ على فتى ... أُسَلِّبُهُ أو اذعَرُ السِّرب أجمعا(٩٣٤)

وكونه أيضا متشردا يتخذ -احيانا- من القفر مأوى يبيت فيه مخالطا الوحوش والحيوانات الخرافية، لايخالطه خوف ولايعتريه وجل. يقول(٩٣٥) :

أنا الذي نكح الغيلان في بَلدٍ ... ما ظَلَّ فيه سِماكيٌّ ولا جادا(٩٣٦)

في حَيْثُ لايَعمِتُ الغادي عَمايَتَهُ ... ولا الظليمُ به يبغي تَهبّادا(٩٣٧)

على أنه في الغالب -وكما تذكر بعض كتب الأخبار- كان يقيم في ديار قومه(٩٣٨)،وهو ايضا يشير إلى ذلك في قول له من قصيدة يذكر فيها غارة له على الأزد(٩٣٩) :

ستأتي إلى فَهمٍ غنيمةٌ خُلّةٌ ... وفي الأزد نَوْحٌ وَيْلَةٌ بعويل(٩٤٠)

---

(٩٣٢) ديوانه: ص ١١٨/١١٩، وانظر فيه : ص ٨٤. وانظر شرح الحماسة التبريزي ٢: ٧١. والأغاني ٢٤: ٨٣٥٠.

(٩٣٣) ديوانه: ص ١١٨ و ١١٣و ١٥٠-١٥٦.

(٩٣٤) اذعر السرب: أغير على إبل لقوم أذعرها وأسوقها حتى أغنمها.

(٩٣٥) ديوانه: ص ٧٧. وانظر في أخباره مع الغول والسعلاة، الشعر والشعراء ١: ٢٣٠/٢٣١. والأغاني ٢٤: ٨٣٢٤ و ٨٣٢٦و ٨٣٢٧و ٨٣٣٣. وانظر ديوانه: ص ١٦٤/١٦٥و ٢٢٢-٢٢٧.

(٩٣٦) سماكي: نجم. برج في السماء.

(٩٣٧) تهباد: مصدر تهبد إذا أكل الهبيد أي (الحنظل). لسان العرب، مادة هبد. يعمت: تلف ويضل.

(٩٣٨) انظر الأغاني ٢٤: ٨٣٣٤ و ٨٣٤٣و ٨٣٤٧.

(٩٣٩) نفسه: ٨٣٦١.

(٩٤٠) خلة: صديق (على سبيل التهكم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان تأبط شرا -مع تمرده- بقي بوجه عام- ضمن إطار قبيلته، فإن الشنفرى سلك سبيلا مفارقا في تحديه لقومه وتمرده على ممارساتهم الظالمة وذلك باتخاذ قرار الرحيل عنهم -متخليا عن جنسيته التي تمثلها العصبية القبيلة- إلى قوم غيرهم ووطن آخر. يقول(٩٤١):

أقيموا بني أُمّي صُدورَ مَطِيّكُم ... فإني إلى قَومٍ سِواكُمُ لأَمْيَلُ

فقدْ حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ ... وَشُدَّتْ لِطَيّاتٍ مَطايا وأَرْحُلُ(٩٤٢)

فأما الوطن فهو الأرض الرحبة التي لاتضيق بامرئ "سرى راغبا أو راهبا"(٩٤٣) والتي فيها "منأى للكريم عن الأذى"(٩٤٤) ، وعن الذل والبغض والكراهية التي عانى منها كثيرا وهو بين أهله وقومه(٩٤٥) .

وأما القوم الآخرون الذين سيتخذهم أهلا له، فهم يفضلون عشيرته من حيث كونهم أكثر تعاطفا معه، وحرصا على أسراره، وهم أيضا لايخذلونه إذا ما أتى ذنبا، ولايأخذونه بجريرة فرض عليه ارتكابها، وهو ما يعبر عنه في قوله المتحدي لعشيرته(٩٤٦) :

ولي دُونَكُمْ أهلونَ: سِيدٌ عَمَلَّسٌ ... وَأَرْقَطُ زُهلولٌ وَعَرْفاءُ جَيْئَلُ(٩٤٧)

هُمَ الأهلُ لامُسْتَوْدَعُ السِّرِّ ذائِعٌ ... لَدَيْهِم ولا الجاني بِما جَرَّ يُخْذَلُ

فأي تحد أعنف من هذا الذي يجعل الضواري خيرا من البشر؟ وأي تمرد؟ وأي رفض للحياة القبلية المتعنتة؟

---

(٩٤١) النوادر: ص ٢٠٣. وديوانه: ص ٥٨ .

(٩٤٢) حمت: قدرت ودبرت. والطيات: جمع طية، وهي الحاجة، أو الجهة التي يقصدها المسافر.

(٩٤٣) النوادر: ص ٢٠٣. وديوانه : ٥٩ .

(٩٤٤) لامية العرب، نشيد الصحراء: ص ١٥.

(٩٤٥) انظر ديوان الشنفرى: ص١٠ .

(٩٤٦) لامية العرب: ص ١٩. وديوانه : ص ٥٩ .

(٩٤٧) العملس: القوي السريع. زهلول: خفيف. العرفاء: الضبع طويلة العنق. جيئل: من أسماء الضبع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن هذا الرفض وذاك التحدي والتمرد لم يأتيا من فراغ. فالشاعر يعي أنه باسل وشجاع وجريء(٩٤٨) ، وأنه عزيز النفس أبي(٩٤٩) ، ولديه قوة تحمل تمكنه من الصبر على الجوع المادي والمعنوي(٩٥٠) وكذلك قدرة على مواجهة المصاعب والتغلب على المشاق(٩٥١) وفوق ذلك فهو يرى أنه من أرومه عريقة، فأبوه "خير الأواس وغيرها"(٩٥٢) وأمه "ابنة الخيرين"(٩٥٣) وإن كانت –على ما يذكر الرواة– أمة سبية(٩٥٤) .

ولكن هؤلاء الرواة مختلفون حول نشأته، وحول الباعث له على رفض القوم الذين نشأ فيهم، والتمرد عليهم(٩٥٥) . بالمقابل هناك شبه إجماع على انه عزم على الانتقام منهم لاضطهاده والتلاعب بمصيره، فآلى على نفسه أن يقتل مائة رجل منهم، وبر بقسمه(٩٥٦) .

وقد ذهب الشنفرى في انتقامه كل مذهب. فتارة يقتل في موسم الحج غير عابئ بالتحريم الذي تعارف العرب عليه، ويتباهى بذلك(٩٥٧) .

قَتلنـــا قتـــيلاً مُحْرِمـاً بِمُلَبَّدٍ ... جِمارَ مِنىً وَسطَ الحجيجِ المُصَوِّتِ(٩٥٨)

جَزَيْنا سلامانَ بنَ مُفرِجٍ قَرضَها ... بمـــا قَـــدَمَتْ أيـــدِيهِمُ وَأَزَلَّتِ(٩٥٩)

---

(٩٤٨) انظر النوادر: ص ٢٠٣. وديوانه: ص ٥٩ .

(٩٤٩) انظر ديوانه: ص ٣٨ . وانظر المفضليات: ص ١١٢.

(٩٥٠) انظر النوادر: ص ٢٠٤. ولامية العرب: ص ٣٣. وديوانه : ص ٦٢ .

(٩٥١) انظر ديوانه : ص ٥٣و ٧٥ .

(٩٥٢) انظر ديوانه: ص ٤١ .

(٩٥٣) نفسه.

(٩٥٤) انظر الروائع من الأدب العربي ١: ٤٣٦.

(٩٥٥) انظر شرح ديوان الحماسة: ص ٤٩٠. والأغاني ٢٤: ٨٣٩١.

(٩٥٦) انظر الأغاني ٢٤: ٨٣٩٢ و ٨٤١٤. والروائع من الأدب العربي ١: ٤٣٧. وديوانه: ص ١٠ .

(٩٥٧) انظر المفضليات : ص ١١٢/١١١. والأغاني ٢٤: ٨٤٠٦. وديوانه: ص ٣٧ .

(٩٥٨) بملبد: بمحرم لبد رأسه، أي جعل في رأسه شيئا من صمغ ليتلبد شعره. وجمار منى: اي عند الجمار. المصوت: الملبي. المفضليات.

(٩٥٩) سلامان بن مفرج: هم الذين اسروه فداء، ومنهم حرام بن جابر قاتل أبيه. أزلت: قدمت. المفضليات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخرى ينسل ليلا إلى القوم، فيأخذهم على غرة، ويعمل فيهم القتل ويكثر من التنكيل، ليعود بعد ذلك من حيث أتى، دون أن يصاب بأذى. ولا يكتفي بذلك، بل إنه ليتباهى بما أقدم عليه(٩٦٠):

فَأَيَّمْتُ نِسوانًا وأَيْتَمْتَ إِلْدَةً ... وَعُدْتُ كما أَبدَأْتُ واللَّيلُ أَلْيَلُ(٩٦١)

ولم يفارقه التحدي والتمرد حتى في أحلك أوقاته. فحين تمكن بنو سلامان -الذين كانوا هدفا لانتقامه- من أسره، وهموا بقتله سألوه: أين نقبرك؟ أجابهم بكل ما لديه من تحد وثورة(٩٦٢) :

لاتَقبرُوني إنّ قبري مُحَرَّمٌ ... عَلَيْكُمْ ولكنّ أبشري أُمَّ عامِرِ (٩٦٣)

على أن تحدي كل من تأبط شرا والشنفرى قد تجاوز البعد الإجتماعي حين امتد ليطال البعد الإقتصادي. فقد عمدا، كما الكثير من الصعاليك إلى التحدي والصمود في وجه المشاق والمهالك،وصولا لقهر الفقر والجوع ونيل مرادهم من التزود بأسباب الحياة. وفي ذلك يقول السليك بن السلكة(٩٦٤) :

وما نِلْتُها حتّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً ... وكِدْتُ لِأسْبابِ المَنيةِ أَعْرِفُ

وحتى رَأَيْتُ الجُوعَ بالصيفِ ضَرَّني ... إذا قُمْتُ تَغشاني ظِلالٌ فأُسْدَفُ(٩٦٥)

ويأتي عروة بن الورد فيبين أن السبيل لتحدي الفقر والظفر بالغنى هو الغزو والإغارة للسلب والنهب وذاك في قوله(٩٦٦) :

---

(٩٦٠) النوادر: ص ٢٠٦. والحماسة البصرية ٢: ٥٣٢. وديوانه: ص ٧٠.

(٩٦١) إلدة: أولاد. أليل: شديد الظلمة.

(٩٦٢) البرصان والعرجان: ص ٣١١. والشعر والشعراء ١: ٢٥. وشرح ديوان الحماسة (التبريزي) ٢: ٦٣. والأغاني ٢٤: ٨٣٩٧.

(٩٦٣) أم عامر: كنية الضبع. ومعنى عجز البيت: دعوني للتي يقال لها أبشري أم عامر إذا صيدت. د يوان الشنفرى: ص ٤٨ .

(٩٦٤) ديوانه: نفسه ٨٤.

(٩٦٥) فأسدف: يغمى عليه.

(٩٦٦) ديوانه: ص ٤١. وفي الأغاني البيت الثاني فقط انظر ٣: ٩٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَمَنْ يَكُ مِثلي ذا عيالٍ وَمُقتِرا مِنَ المالِ يطرحْ نَفْسَه كُلَّ مَطْرَحِ
لِيُبْلُغَ عُذرا، أوْ يُصيبَ رَغيبةً ومُبلِغُ نَفسٍ عُذْرَها مِثلُ مُنْجِحِ(٩٦٧)

ويمضي فيعمد إلى الحث على التحلي بالجرأة وقوة النفس لمواجهة المخاطر التي قد تعترض طريق الساعي إلى الغنائم(٩٦٨) :

خاطِرْ بِنَفْسِكَ كي تُصيبَ غنيمةً إنّ القُعودَ مَعَ العِيالِ قَبيحُ

وعليه السعي ضاربا في البلاد ليحقق ما يطلب من الغنى، وإن ضحى بحياته من أجل غايته(٩٦٩) :

فَسِرْ في بلادِ اللهِ والتمسِ الغِنَى تَعِشْ ذا يَسارٍ أو تَموتَ فَتُعذَرا

ويبدو أن هذا الإلحاح على طلب الغنى وإدراك المال، كان مبعثه التوق إلى التغلب على الوضع المادي السيء لهؤلاء الصعاليك. فقد كانوا -وبوجه عام- فقراء ولايستثنى من ذلك عروة الصعاليك. ولقد تحدث شعراؤهم عن الفقر وما يجره من جوع وهزال(٩٧٠) . وتحدثوا عن تشعث المنظر وتهلهل الثياب وتمزق النعال(٩٧١) .

وهم في حديثهم عن الجوع والفقر، يصدرون عن إحساس بالتحدي، وشعور أبي بالكرامة وعزة النفس، كما في قول الشنفرى(٩٧٢) :

أُديـــمُ مِطالَ الجُوعِ حتى أُميتَهُ وَأَضْرِبُ عنْه الذكرَ صَفحاً فَأُذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُربَ الأرضِ كيلا يُرَى له عليَّ مِنَ الطَوْلِ امرؤٌ مُتَطَوِّلُ(٩٧٣)

---

(٩٦٧) رغيبة: ما يرغب فيه ماديا أو معنويا. وهي (غنيمة) بدلا من رغيبة في الأغاني ٣: ٩٣٢.

(٩٦٨) ديوانه: ص ٤٣.

(٩٦٩) نفسه: ص ٨٩.

(٩٧٠) انظر في الجوع والهزال مثلا ديوان عروة: ص ٤٤ و ٥٢ و ٦٤و ١٠٧و ١١٤. وديوان تأبط شرا: ص ١١٥و ١٥٠.

(٩٧١) انظر مثلا المفضليات: ص ٣٠. وديوان تأبط شرا: ص ١٨١. وديوان الهذليين ٢: ١٣١.

(٩٧٢) ديوانه: ص ٦٢/٦٣ وديوان الهذليين ٢: ١٢٧.

(٩٧٣) الطول: المن. ومتطول: منان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولولا اجتنابُ الذامِ لم يُلْفَ مَشرَبٌ يُعـــاشُ بـــهِ إلاّ لديّ وَمَأكَلُ

ولكـــنّ نَفســـًا مُـــرّةً لاتُقيمُ بي على الذامِّ إلا ريثما أتَـــحوّلُ(٩٧٤)

إن هذه الأنفة، وذاك الإباء، ليجعلهم لايطلبون ولا يستجدون. ولكنهم كانوا ذوي حس مرهف. الأمر الذي أوقع في نفوسهم أنهم مهضومو الحق، وأنهم موضع استهانة، وغذى هذا الشعور، مالمسوه من فوارق بينهم وبين الأغنياء، تنعكس على المعاملة التي كانوا يلقونها من قومهم ومجتمعهم. وقد أوضع ذلك عروة إذ قال(٩٧٥)

دعيني للغِنى أَسْعَى فإني رَأيـــتُ الناسَ شَرُّهُمُ الفَقيرُ

وأَبعدُهُمْ وأَهْـونُهُمْ عليهِم وإن أَمسى له حَسَبٌ وخِيرُ

وَيُلفَى ذو الغِنى وله جَلالٌ يَكـــادُ فؤادُ صاحبِهِ يطيرُ

قليـــلٌ ذنبُـــهُ والذنبُ جَمٌّ ولكـــنٌ للغِـــنَى ربٌّ غَفورُ

ولأن الصعاليك كانوا -في معظمهم- على قدر من الشجاعة والجرأة والبأس وإجادة لاستعمال السلاح، فقد عمدوا لأخذ حق رأوا أن الأغنياء والبخلاء قد سلبوه منهم. وكانت وسيلتهم إلى ذلك الغارة. والغارة تحتاج إلى قوة بدنية، وهمة عالية، وسرعة بالغة في الحركة، وتمرس بأسلوب المباغتة، إلى جانب الانتباه والحذر. ولم تكن هذه الأمور مما يفتقر إليه الكثير من الصعاليك(٩٧٦) .

ومن ثم أصبحت الغارة والغزو المباغت أسلوب حياة لشجعان الصعاليك(٩٧٧) :

فيومًا على نَجْدٍ وغاراتِ أَهلِها ويومًا بأرضٍ ذاتِ شَتٍّ وَعَرْعَرِ

---

(٩٧٤) مرة: صعبة أبية. والذام: العيب الذي يذم به. الديوان.

(٩٧٥) ديوانه: ٩٢/٩١. وانظر الأغاني ٣: ٩٢١. وفي معنى قريب، انظر شرح الحماسة: ص ١١٧١.

(٩٧٦) انظر ديوان السليك: ص ٤١/٤٠و ٦٤. وانظر ديوان تأبط شرا: ص ٨٦ (قليل غرار النوم) وشرح ديوان الحماسة: ص ٩٦، والأغاني ٢٤: ٨٣٨٨. وانظر الحياة العربية من الشعر الجاهلي: ص ٣٠٠و ٣٠٦.

(٩٧٧) ديوان عروة: ص ٧٤و ٩٩و ١١٦/١١٥. وانظر ديوان الشنفرى: ص ٦٩-٧١. والأغاني ٣: ٩٢٧و ٩٣٢و ٢٤: ٨٣٣٤و ٨٣٣٩و ٨٣٤٣و ٨٣٩٩و ٨٤١٢و ١٤: ٥٠١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا الأسلوب يستغرق الدهر كما يذهب إليه تأبط شرا(٩٧٨) :

ولَسْتُ أَبيتُ -الدهرَ- إلا على فُتى أُسَلِّبُهُ أو أَذْعَرُ السِّرْبَ أَجمعا

وقد كان الصعلوك يدرك أن الموت يترصده في كل غارة يقوم بها. ولكن ذلك لم يكن ليثبط عزمه على الإغارة،التي من خلالها يحصل على ما يرفد حياته. لذا فإنه يتحدى الموت إذ يقبل عليه ويجعله "خزيان ينظر"(٩٧٩)، في الوقت الذي يكون هو نفسه رابط الجأش(٩٨٠)

وأَجْملُ مَوْتِ المرءِ، إذ كان مَيِّتاً ولا بُدَّ يوما، مَوتُهُ وهو صابِرُ

وقريب من ذلك قول عروة(٩٨١) :

فإن فازَ سَهْمُ المَنِيّةِ لم أَكُنْ جَزوعا، وهل عن ذاكَ مِنْ مُتَأَخِّرِ

والشنفرى مصمم على الإغارة، ولا يبالي إن لقي مصرعه في الاثناء، ولم يبالي وهو لن يخلف وراءه ما يحزن على تركه أو من يبكي عليه(٩٨٢) :

إذا ما أَتَتْني مَنِيّتي لم أُبالِها ولَمْ تَذَرْ خالاتي الدموعَ وعمتي

وإذا كان الصعلوك يتحدى الموت ولايأبه له، فهل يخنع إذا ما وقع عليه اعتداء من شخص ما ويخضع؟إن من أخبار الصعاليك ما يجيب على هذا التساؤل.

فقد روى أبو الفرج الأصفهاني أن رجلا من مراد يدعى حريما، أغار على إبل وخيل لعمرو بن براقة وذهب بها، فاستشار عمرو امرأة في عزمه على استرداد ماله، فنصحته بعدم القيام بذلك خشية أن يقتله حريم. فخالفها ومضى فأغار على خصمه

---

(٩٧٨) ديوانه: ص ١١٨.

(٩٧٩) انظر ديوان تأبط شرا: ص ٩١.

(٩٨٠) نفسه: ص ٨٤.

(٩٨١) ديوانه: ص ٦٧.

(٩٨٢) ديوانه: ص ٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستاق كل شيء عنده ورجع إلى محلته حيث احتفظ بما غنمه جميعه. وقال إثر ذلك(٩٨٣):

تَقولُ سُلَيمى لاتَعَرَّضْ لِتَلْفَةٍ ... وَليلُكَ عَـــن لَيلِ الصعاليكِ نائمُ

وكيف ينامُ الليلَ من جُلُّ مالِهِ ... حُسامٌ كلونِ المِلحِ أبيضُ صارِمُ

كَذَبْتُمْ وبيتُ اللهِ لاتأخُذونَهـا ... مُـــراغَمةً ما دام للسيفِ قائمُ

ومَنْ يَطلبِ المالَ المُمَنَّعَ بالقَنا ... يعيشْ ذا غِنى أو تَخْتَرِمْهُ المخارِمُ(٩٨٤)

وكنتُ إذا قومٌ غَزَوْني غَزَوْتُهُمْ ... فهـــلْ أنا في ذا يالِ همدانَ ظالِمُ؟

فالصعلوك الذي لايكاد يملك شيئا من حطام الدنيا -اذا استثنينا سلاحه- لن يتقاعس عن تحدي أي شيء حتى الموت في سبيل الاحتفاظ بما يأتيه به هذا السلاح من غنائم،التي هي وسيلته الوحيدة للخلاص من ربقة الفاقة والحاجة والجوع،ولإدراكهم لأهمية الغنائم في تحدي الفقر والتغلب عليه، كان بعض الصعاليك يعمدون إلى تقاسمها مع من لم يشاركهم في الغارة بسبب الضعف أو المرض أو كبر السن. ولعل خير مثال على ذلك عروة بن الورد الذي كان -في السنين الشديدة- يجمع الضعفاء والمرضى والمسنين، ويظل يرعاهم إلى أن يشفى المريض ويقوى الضعيف. فيخرج بهم ويغيرون معه. ثم يقسم الغنائم بين الجميع من غار وخلوف(٩٨٥) . وقد تحدى بعمله هذا من تعرض له بالاستهزاء لهزاله ونحول جسمه. فقال وبشيء من التعريض اللماح(٩٨٦) :

إني امرؤٌ عافي إنائي شَرِكَةٌ ... وأنت امرؤٌ عافي إنائِكَ واحِدُ(٩٨٧)

أتهزأُ مني أنْ سَمِنتَ وأن تَرى ... بوجهي شُحُوبَ الحقِّ، والحقُّ ماجِدُ

أُقَسِّمُ جسمي في جُسومٍ كثيرَةٍ ... وأحسو قُراحَ الماءِ، والماءُ بارِدُ

---

(٩٨٣) الأغاني ٢٤: ٨٣٨٧-٨٣٨٩.

(٩٨٤) تخترمه. تهلكه. المخارم: أسباب الهلاك.

(٩٨٥) الأغاني ٣: ٩٢٤/٩٢٥.

(٩٨٦) ديوانه: ص ٥١/٥٥.

(٩٨٧) العافي: ما يرد في الإناء من مرقة في القدر إذا استعيرت. ترتيب القاموس، مادة عفو.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والملاحظ أن معظم الغارات كانت تقوم بها مجموعات من الصعاليك، ولكل مجموعة رئيس، وغالبا من المتمرسين بالتخطيط للغارات وشنها. وإلى ذلك يشير الشنفرى في حديثه عن غارة قام بها مع رهط من أصحابه يتزعمهم تأبط شرا فيقول(٩٨٨):

وأمِّ عيالٍ، قد شَهِدْتُ، تَقوتَهم ... إذ أطعمتْهُم أوْتَحَتْ وأقَلَّتِ(٩٨٩)

مُصَعْلَكةٍ لايَقْصُرُ السِترُ دونَها ... ولا تَسْتَجي للبيتِ إن لم تُبَيَّتِ

اذا فَزِعوا طارتْ بأبيضَ صارمٍ ... ورامَتْ بما في جَفْرِها ثم سَلَّتِ(٩٩٠)

وهذا التجمع مما يجلّي التآزر والتعاضد الذي كان بين الصعاليك في مواجهة الفقر والجوع. على أن من الصعاليك من كان يخرج وحده سعيا وراء الغنيمة، متحديا الأخطار والتعرض للقتل أو الأسر.

ومن ذلك خروج حاجز بن عوف وحيدا في بعض غاراته، ولما لم يعد ولم يعرف له خبر أيقن أهله أنه قد ضل أو مات عطشا، وهو ما عبرت عنه أخته في رثائها له(٩٩١):

أحيٌّ حـــاجزٌ أم ليس حياً ... فيسلكَ بين جَنْدفٍ والبهيمِ(٩٩٢)

ويشربُ شُرْبَةً مِنْ ماء تَرْجٍ ... فيصدرَ مشيةَ السبعِ الكليمِ(٩٩٣)

وكان الشنفرى يغير راجلا على الأزد، ولوحده في كثير من الأحيان(٩٩٤)، وقد أسر ثم قتل في إحدى تلك الغارات(٩٩٥).

---

(٩٨٨) ديوانه: ص ٣٥/٣٦. والمفضليات: ص ١١٠/١١١. وانظر في معنى قريب، ديوان الهذليين ٣: ١١٤/١١٥.

(٩٨٩) أم عيال: أراد بذلك تأبط شرا. أوتحت: أعطت قليلا.

(٩٩٠) الجفر: كنانة السهام.

(٩٩١) الأغاني ١٣: ٤٨٢٨.

(٩٩٢) جندف والبهيم: جندف: جبل باليمن. والبهيم: جبل أيضا. الأغاني.

(٩٩٣) ترج وبيشة: قريتان متقابلتان بين مكة واليمن. نفسه.

(٩٩٤) الأغاني ٢٤: ٨٣٩٣.

(٩٩٥) نفسه: ص ٨٤٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك كان تأبط شرا. وآية ذلك أشعاره التي تحدث فيها عن لقائه بالغول أو السعلاة[٩٩٦] . وقد جاء في أخباره أنه كان يغير وحده على خثعم أحيانا، وكذلك على الأزد[٩٩٧]. وقد تحدث عن غارة له على الأزد التي رصدت له ثلاثة رجال، فقتل اثنين منهما وفر الثالث، واستطاع تأبط شرا بعد ذلك أن يسوق إبل الأزد وجاء بها قومه. وجاء حديثه عنها في قصيدة تناول فيها أحداث هذه الغارة. ومما قاله فيها[٩٩٨] :

تُرَجّي نساءُ الأزدِ طلعَةَ ثابتٍ ... أسيرًا ولم يَدْرينَ كيف حَويلي[٩٩٩]

فإن الألى أوّ صَيْتُمُ بينَ هاربٍ ... طَـــريدٍ ومسفـــوحِ الدماءِ قتيلِ

ستأتي إلى فَهْمٍ غنيمةُ خُلَّـــةٍ ... وفي الأَزد نَوْحٌ وُيلَةٌ بِعَويلِ[١٠٠٠]

والسليك بن السلكة الذي كان جريئا جرأة لاحدود لها، كان يغزو منفردا احيانا. ومن ذلك إغارته على بني عوار من بني مالك بن ضبيعة التي لم يظفر فيها بشيء وكاد يقتل،لولا استجارته بامرأة منهم، فأجارته ونجا بذلك من القتل[١٠٠١] . غير أن انتفاء الهيبة من قلبه ونفسه[١٠٠٢] جعله يبلغ من الغرور مبلغ التحدي، والتحدي قضى عليه في مجابهة له مع بني خثعم[١٠٠٣] .

ومنه نرى أن الصعاليك قد تحدوا الفقر والجوع والحاجة، من خلال حصولهم بالقوة على ما حرموا منه من أسباب الحياة ومقومات العيش. وسبيلهم إلى ذلك كان شن الغارات للاستيلاء على مغانم من إبل وخيل وغيرها من متاع الحياة وزادها.

---

(٩٩٦) انظر الحيوان ٦: ٢٣٤. والشعر والشعراء ١: ٢٣١. والأغاني ٢٤: ٨٣٢٤و ٨٣٢٦و ٨٣٣٣. وانظر ديوانه: ص ٧٧ و ١٦٤/١٦٥و ٢٢٢و ٢٢٨/٢٢٩.

(٩٩٧) انظر الأغاني ٢٤: ٨٣٥٦.

(٩٩٨) انظر الأغاني ٢٤: ٨٣٦٠/٨٣٦١. وديوانه : ص ١٨٦.

(٩٩٩) ثابت: اسم تأبط شرا. والحويل: الحذق وجودة النظر والقدرة على التصرف. الديوان.

(١٠٠٠) خلة: صديق (تهكما).

(١٠٠١) الأغاني ٢٣: ٨٠٩٧/٨٠٩٨.

(١٠٠٢) انظر الشعر والشعراء ١: ٢٨٢. وعيون الأخبار ١: ٢٧٠.

(١٠٠٣) انظر الشعر والشعراء ١: ٢٨٥. والأغاني ٢٣: ٨١٠١/٨١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٢-

الحروب والغزوات والغارات

اعتمد المجتمع الجاهلي الغزو والحروب مصدراً من مصادر رزقه ونماء ثروته. ولكن هذا لايعني أن الحروب بمجملها كانت مظهرا للتحدي الاقتصادي. فقد كان بعضها ينشب تحديا لآفات اجتماعية تتمثل في الظلم والاستبداد والتعنت كما في حرب البسوس، وبعضها كان بواعثه النيل من كرامة المرء وكيانه والاستخفاف به من حيث القوة العقلية والبدنية والمعنوية، كما في حرب داحس والغبراء.

ولأن الظروف الطبيعية تتحكم في الأسس الإجتماعية والاقتصادية والسياسية لحياة البشر(١٠٠٤) فقد أوجدت الطبيعة الصحراوية للجزيرة العربية، نمطا من الحياة يعتمد الحركة المستمرة نحو الماء والمرعى. واتخذت هذه الحركة مظهر التسابق والصراع على المرعى والحدود والآبار والعيون، وذاك طلبا للكلأ والماء حين تجدب الأرض وينحبس المطر ويشح الماء(١٠٠٥) .

ونشأ عن ذلك الغارات والعداوات والأيام والحروب. يقول عامر بن الطفيل(١٠٠٦) :

للهِ غارَتُنا والمَحْلُ قد شَجِيَتْ مِنْهُ البلادُ فصارَ الأُفقُ عُريانا

وإذا كان هدف بعض الحروب والغزوات استباحة "سنام الأرض إذ قحط القطر"(١٠٠٧) والاستيلاء على مواطن الخصب والنماء، وموارد المياه؛ فإن البعض الآخر كان يستهدف استجلاب موارد رزق،أو زيادة الثروة المادية من أموال وغنائم، والثروة البشرية من أسرى وسبايا.وآية ذلك ما ورد في أخبار أيام العرب من وقائع استهدفت الكسب المادي لاالقتل(١٠٠٨) .

(١٠٠٤) انظر الفروسية في الشعر الجاهلي: ص ٤٥.

(١٠٠٥) انظر مقدمة القصيدة العربية: ص ٥٨. والشعر وأيام العرب: ص ٨٥. وتاريخ العرب في عصر الجاهلية: ص ٤٢٦.

(١٠٠٦) ديوانه: ص ١٣٧.

(١٠٠٧) انظر ديوان بشر بن أبي خازم: ص ٥٦.

(١٠٠٨) انظر مثلا كتاب أيام العرب ٢: ٢٢٣و ٣٢٠و ٣٥٤و ٣٦٢و ٤٧٣و ٤٨٦و ٥٩٦. والنقائض ١: ٢٠و ١٧٧و ١٨٥و ٢: ٢٠و ٣٣. وأمالي القالي ٢: ٢٧١. والعقد الفريد ٥: ١٦٢و ١٦٣و ١٥٨و ١٦٨و ٢٣٨و ٢٤٩. وكامل ابن الأثير ١: ٣٥٨و ٣٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان المهاجمون في هذه الوقائع يعتمدون السرية والسرعة في الحركة وعنصر المباغتة، لذلك كثرت الإشارة إلى معظم أيام العرب على أنها غارات أو غزوات.

فمن أيام الصراع على موارد المياه، يوم سفوان. وسفوان ماء التقت عليه بنو مازن وبنو شيبان، فزعمت بنو شيبان أنه لهم، وأرادوا أن يجلوا تميما عنه. فنشب بينهما قتال شديد أسفر عن انتصار بني تميم وإجلاء بني شيبان عن الماء. ويبدو أن بني شيبان كانوا يتوعدون خصومهم قبل ذلك. الأمر الذي حدا وذّاك المازني للرد عليهم مهددا ومتحديا وعيدهم[١٠٠٩] :

رويداً بني شيبان بَعض وعيدكم ... تلاقوا غدا خيلي على سَفَوانِ

عليها الكماةُ الغُرُّ من آل مازنٍ ... ليوث طعانٍ كُلَّ يوم طِعانِ

إذا استنجَدوا لم يسألوا من دعاهمُ ... لأيةِ حَرْبٍ أم لأيِّ مكانِ

ويوم الزُّوَيْرَيْن[١٠١٠] من أيام الصراع على المرعى. وكان بين بكر بن وائل وبني تميم. وخبره أن بكر بن وائل كانت تنتجع أرض تميم، ترعى بها إذا اجدبوا، ولكنهم في أثناء عودتهم إلى محضرهم كانوا لايقعون على شيء في طريقهم إلا استولوا عليهم، فغرمت تميم على منعهم من الرعي في أرضها. ولم يرق ذلك لبكر، فحشد الطرفان جموعهما والتقيا واقتتلا قتالا شديدا، أسفر عن هزيمة تميم وقتل عدد كبير منها. وفي هذا اليوم قال رجل من بني سدوس[١٠١١]

نحن الذين هَزمنا يوم صَبّحنا ... جَيْشَ الزُّوَيْرَيْنِ في جمع الأحاليفِ

ظَلّوا وظَلّنا نَكُرُّ الخيلَ وسطهمُ ... بالشَّيبِ منا وبالمُردِ الغطاريفِ

(١٠٠٩) العقد الفريد ٥: ٢٠١. وانظر في الصراع على الماء مثلا النقائض ٢: ٣٢/٣٣. ونهاية الأرب ١٥: ٣٩٠و ٤٠٠.

(١٠١٠) الزويران: جملان مجلان مقرونان مقيدان كانا لتميم. العقد الفريد ٥: ٢٠٥.

(١٠١١) انظر كتاب أيام العرب ٢: ٣٤٨. والعقدالفريد ٥: ٢٠٤. وكامل ابن الأثير ١: ٣٦٨. ونهاية الأرب ١٥: ٣٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي يوم جدود[١٠١٢] أغار بنو بكر على بني ربيع بن الحارث، فأصابوا سبيا ونعما فاستنجد بنو ربيع ببني منقر بن عبيد فأجابوهم ولحقوا ببكر وقاتلوهم قتالا شديدا فهزمت بكر وتركوا ما كان في أيديهم من السبي والأموال، فرجع بنو منقر بسبي بني ربيع وأموالهم وبأسارى بكر وأسلابهم[١٠١٣] . وفي ذلك يقول قيس بن عاصم المنقري[١٠١٤]:

عَصَمْنا تميماً في الأمورِ وأصبَحتْ ... يَلوذُ بنا ذو وَفْرِها وفقيرها

ويومَ جواثا والنِّباج وثَيْتلا ... مَنَعْنا ربيعاً ان تُباحَ ثُغورها[١٠١٥]

وقريب من ذلك ما حدث يوم المِعا[١٠١٦] ، وفيه أغار المُنبطحُ الأسدي على عُباد ابن ضُبيعة فأخذ نعما لبني الحارث بن عُباد، وهي ألف بعير، فمر ببني سعد بن مالك بن ضبيعة وبني عجل بن لُجيم، فتبعوه حتى انتزعوها منه واستنقذوا السبي. وقال شاعرهم[١٠١٧] :

وَمنبَطحَ الفواضِرِ قد أذقنا ... بناعجةِ المِعا حَرَّ الجلادِ[١٠١٨]

تَنَقَّذْنا أخاذيذاً فَرُدَّتْ ... على سَكنٍ وجَمْعِ بني عُبادِ[١٠١٩]

ويوم اللوى[١٠٢٠] الذي قال فيه دريد بن الصمّة (داليته) المشهورة، كان سببه غزوة شنها عبدالله بن الصمّة، على غطفان فأصاب منهم إبلا كثيرة واطردها، ولكنه تلكأ في طريقه إلى دياره، مخالفا بذلك نصيحة دريد له بالإسراع في العودة، مما مكن فزارة

(١٠١٢) جدود: اسم موضع في أرض تميم. العقد الفريد ٥: ١٩٩.

(١٠١٣) انظر النقائض ٢: ٣٢-٣٤. والعقد الفريد ٥: ١٩٩-٢٠٠. ونهاية الأرب ١٥: ٣٨٩. وبلوغ الأرب ١: ٧١.

(١٠١٤) انظر النقائض ٢: ٣٥.

(١٠١٥) النباج: موضع قريب من الثيتل. والثيتل: اسم ماء قريب من البصرة.
والنباج وثيتل: يوم لتيميم على بكر. انظر العقد الفريد ٥: ١٨٥.

(١٠١٦) المعا: جانب من الصّمّان. معجم البلدان.

(١٠١٧) انظر العقد الفريد ٥: ٢٤٧. وانظر خبرا مشابها فيه: ص ٢١٠/٢١١.

(١٠١٨) الناعجة: الأرض المستوية السهلة.

(١٠١٩) الأخاذيذ: من أخذ من النساء. وسكن: ابن باعث بن الحارث بن عباد.

(١٠٢٠) اللوى: إسم موضع وأصل اللوى ما التوى من الرمل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من أن تتبعه وتدركه. فنشب بينهما قتال، تمخض عن قتل عبدالله، وجرح أخيه دريد، وهزيمة رهطهما. وفي رثاء دريد لأخيه يشير إلى هذه الواقعة وإلى عصيان قومه له، فيقول(١٠٢١) :

وقُلتُ لعارِضٍ وأصحابِ عارضٍ ... وَرَهْطِ بني السوداءِ والقومُ شُهَّدي

عــــلانيةً ظُنُّوا بألفيْ مُدَجَّجٍ ... سَــراتَهُمُ فـــي الفارسيِّ المُسَرَّدِ

وقلتُ لهم: إنَّ الأحاليفَ أَصْبَحَتْ ... مُطَنَّبَـــةً بيــن السِّتارِ فَثَهْمَدِ(١٠٢٢)

فما فَتِئـــوا حتى رأوها مُغيرةً ... كَرِجْلِ الدَّبى في كُلِّ رَبْعٍ وفَدْفَدِ(١٠٢٣)

أمرتُهمُ أمــري بِمُنْعَرَجِ اللوى ... فلم يستبينوا النُصحَ إلا ضُحى الغَدِ

وحين ننظر في أخبار هذه الأيام والغزوات، نجد أن كما من المهاجمين او المغيرين كانوا من ذوي اليسار والسؤدد(١٠٢٤) ، مما يشير إلى أن الباعث لها لم يكن تحدي الفقر والتغلب عليه فحسب، بل الرغبة أيضا في زيادة الغنى وتضخيم الثروة. ولاريب في أن ثراء القبيلة أو العشيرة مظهر من مظاهر قوتها وعظم مكانتها وشجاعة افرادها.

من هنا جاء امتداح الشعراء لمن يشن الغارات أو يقوم بالغزو، لما ينطوي عليه هذا العمل من جرأة وإقدام على اقتحام المخاطر والمهالك. يقول عامر بن الطفيل في ممدوحه(١٠٢٥) :

له كل يومٍ غارةٌ عُرِفَتْ به ... إذا قادَها للموتِ جرداً سواهما

(١٠٢١) انظر كتاب أيام العرب ٢: ٢٩١. والعقد الفريد ٥: ١٦٨. والأغاني ١٠: ٣٤٧٢. وأمالي القالي ٢: ٢٧١. وبلوغ الأرب ١: ٧٠. وانظر ديوان دريد : ص ٤٦/٤٧.

(١٠٢٢) مطنبة: التي ضربت الأطناب. والستار وثهمد: موضعان. الديوان : ص ٤٧.

(١٠٢٣) رجل الدبى: القطعة العظيمة من الجراد. والفدفد: الفلاه. نفسه.

(١٠٢٤) على سبيل المثال: بسطام بن قيس، وعامر بن الطفيل. ودريد بن الصمة، ولقيط بن زرارة. انظر مثلا العقد الفريد ٥: ١٤١و ١٦٠و ١٦٨و ١٩٨و ٢٠٢.

(١٠٢٥) ديوان الفروسية: ص ٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممدوح الأعشى متمرس بالحرب وبإعداد الأسلحة والعتاد الحربي المميز والملائم للغزو(١٠٢٦) :

وأعـــدّت للحرب أوزارها رمـــاحاً طِـــوالاً وخَيلاً ذكورا

ولابُدَّ من غَزوَةٍ في المَصيـ فِ حَتَّ تُكِلُ الوَقاحَ الشَكورا(١٠٢٧)

ولا يخفي الأعشى هدف ممدوحه من الغزو المتكرر فهو(١٠٢٨) :

ثَقيفٌ إذا نـــالتْ يداهُ غنيمةً شَـــدَّ الركاب لمثلِها ليَنالَها(١٠٢٩)

وقد تباهى الشعراء بقيامهم -هم أنفسهم- بشن الغارات وبالغزو. فهذا النابغة الذبياني يقول مفتخرا بغارة له ومعه جمع كثيف من المقاتلين(١٠٣٠) :

وغـــارةٍ ذاتِ أظفـــارٍ مُلَمْلَمَةٍ شَعواءَ تَعْتَسِفُ الصحراءَ والأكَما(١٠٣١)

أقْدَمْتُها ونواصي الخيلِ شاجِبَةٌ جـــرداءَ عِجْلزَةً أرمي بها قُدُما(١٠٣٢)

وفخروا بقدرتهم على حماية مكتسباتهم من الغارة، وبتحديهم لمن يحاول استرداد هذه المكتسبات. فزيد الخيل أغار ومعه بنو نصر وبنو مالك من بني نبهان على بني فزارة وبني عبداللات، فأوقعوا بهم، وفازوا منهم بغنائم وأخذوا يقتسمونها. فما لبثت فزارة أن كرّت عليهم واستنقذت ما بأيديهم. إلا أن زيد الخيل تصدى لها وشد عليها حتى قتل رئيسها، واسترد ما أخذته فزارة من بني نبهان. وفي ذلك يقول(١٠٣٣) :

(١٠٢٦) ديوانه: ص ١٤٩.

(١٠٢٧) حت: سريعة. الوقاح: الصلب. الشكور: الضخم السمين. الديوان.

(١٠٢٨) ديوانه: ص ٨١.

(١٠٢٩) ثقف: رفيق حاذق. الديوان.

(١٠٣٠) ديوانه: ص ٢٢٢/٢٢٣. وانظر دواوين الطفيل: ص ٥٩. والأسود بن يعفر: ص ٢٢. وعمرو بن قميئة: ص ٧٦.

(١٠٣١) ململمة: مجتمعة مضمونة لايستطيع الخصم النفاذ منها. وشعواء: متفرقة الجهات لكثرة جيشها. وتغتسف: لاتبالي كيف سلكت.

(١٠٣٢) شاجبة: هالكة من شدة التعب. وعجلزة: فرس شديدة. أرمي بها: أغير بها على العدو.

(١٠٣٣) الحماسة الشجرية: ص ٧٠/٧١. وانظر ديوانه: ص ١٠٠/١٠١. وفي خبر مشابه انظر، كتاب أيام العرب ٢: ٣٤٢. والعقد الفريد ٥: ١٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد عُلِمَتْ نَبهانُ أني حَمَيْتُهـــا وأني مَنَعتُ السبيَ أن يَتبدَّدا

بذي شُطَبٍ أُغشي الكتيبةَ سَلهباً أَقَبَّ كسِرْحانِ الظَلام مُعَوّدا

فما زلتُ أرميهم بِغُرَّةِ وجهِهِ وبالسَيفِ حتى كرَّ تحتي مُجْهَدَا(١٠٣٤)

ولم يكتف الشعراء بالفخر والتباهي، بل ذهبوا يعلنون عما قاموا به من غزو ومن غارات، متحدين بذلك القوم المغار عليهم. ومن ذلك قول الطفيل الغنوي(١٠٣٥) :

ألا هل أتى أهلَ الحجازِ مغارُنا على حَيِّ وردٍ وابنِ رَيّا المُضَرَّبِ

وقول زيد الخيل(١٠٣٦) :

ألا هل أتى غَوثًا ورُومانَ أننا صَبَحْنا بني ذبيانَ إحدى العظائمِ

وسُقنا نساءَ الحيِّ -مُرَّةَ- بالقَنا وبالخيلِ تَردي قد حَوَينا ابنَ ظالمِ(١٠٣٧)

فَمنْ مُبلغٌ عني الخزارِجَ غارةً على حَيِّ عَوفٍ مُوجِفاً غيرَ نائمِ(١٠٣٨)

ولا ينسى هؤلاء الشعراء ذكر الغنائم وفي طليعتها الإبل والنعم(١٠٣٩) التي هي - كما أشرنا سابقا- رأسمال العربي في جزيرته. ومنهم سلامة بن جندل الذي يرى ان نتيجة الغارة إما الموت او الظفر بالغنيمة، فيقول(١٠٤٠) :

تقولُ ابنتـــي: إن انطلاقك واحداً إلى الرَوع، يومًا تاركي لأَباليا(١٠٤١)

دَعينا من الإشفاقِ، أو قَدِّمي لنا مِـــنَ الحَـــــدثانِ والمَنِيَّةِ راقِيا

(١٠٣٤) ذي شطب: كناية عن السيف. وسلهب: حصان عظيم طويل. وأقب: ضامر . الديوان.

(١٠٣٥) ديوانه: ص ٦ (كرنكو) وانظر فيه ايضا: ص ٤١.

(١٠٣٦) ديوانه : ص ٩٦-١٨و ١٠٣. وانظر ديوان عنترة: ص ٨٣. وديوان عامر بن الطفيل: ص ١٩.

(١٠٣٧) تردي: تعدو. ابن ظالم: الحارث بن ظالم المري وقد أسره زيد ثم أطلقه.

(١٠٣٨) موجف: شديد الاضطراب.

(١٠٣٩) انظر مثلا: ديوان الهذليين ٣: ٨٣/٨٢. وديوان تأبط شرا: ص ١٥٧و ١٨٦. وديوان عنتره: ص ١٥٥.

(١٠٤٠) ديوانه: ص ٥١.

(١٠٤١) الروع: الحرب. لأباليا: أي يتيمة فقدت أباها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَتَتْلَفُ نفسي، أو سأجمع هَجمَةً تَرى ساقِيَيْها بِـــأَلْمَانِ التراقيا(١٠٤٢)

فمن أجل الفوز بالغنائم تهون الأرواح، كما يقول قتادة بن مسلمة(١٠٤٣) :

فلئن بَقيتُ لأَرْحَلَنَّ بِغَزوةٍ تحوي الغنائم أو يموتَ كريمُ

وقد زهقت أرواح سبعة من بني كلاب في غارة انتقام منهم، بسبب إستيلائهم على إبل لبني محارب بن حفصة(١٠٤٤) .

ومن الغنائم التي يتباهى الشعراء بحيازتها، السبايا اللاتي كن -في عرف الجاهلي- مصدر ثروة بشرية. -لما ينجبنه من نزائع- وإن لم تكن من حيث النوع فلاريب أن لها أهميتها من حيث الكم. يقول عامر بن الطفيل(١٠٤٥) :

لقينا جمعهم صبحاً فكانوا كمثلِ الضأنِ عاداهُنَّ سِيدُ

وأردفنا نِساءهم وجئنا وقد دَمِيَتْ من الخَمشِ الخدودُ

والأسرى أيضا هم من الغنائم التي يسعى إليها المغيرون، لما يتبع الأسر من فدية تعود عليهم بالمال والثروة(١٠٤٦) . وقد أسر بسطام بن قيس في إحى الغارات ففدى نفسه بأربعمائة بعير وثلاثين فرسا(١٠٤٧) .

وفي يوم شِعب جَبَلة أُسر عدد من أشراف بطون تميم وغطفان، من بينهم حاجب ابن زرارة الذي يقول فيه عامر بن الطفيل(١٠٤٨) :

(١٠٤٢) الهجمة: الجماعة من الإبل ما بين الثلاثين والأربعين إلى المئة. والتراقي: جمع ترقوة، وهي أعلى الصدر. الديوان.

(١٠٤٣) شرح ديوان الحماسة: ص ٣٢٢.

(١٠٤٤) انظر كتاب أيام العرب ٢: ٤٢٢/٤٢٣. والعقد الفريد ٥: ١٦٢.

(١٠٤٥) ديوانه: ص ٥٠/٥١ وص ٩٧. وانظر ديوان زيد الخيل: ص ٩٦. وفي السبي انظر كتاب أيام العرب ٢: ٥٩٦. والأغاني ١٣ :٤٧٢٥و ٤٧٢٧.

(١٠٤٦) انظر مثلا: ديوان سلامة بن جندل: ص ٤١و ٥٢ (الكتاب العربي). والمفضليات: ص ٣٢٨و ديوان النابغة: ص ٢٢٧.

وكتاب أيام العرب ٢: ٤٨٦. والعقد الفريد ٥: ٢٤٩،والأغاني ١١: ٣٩١٣/ ٣٩١٤و ٣٩٣٦و ٣٩٣٩و نهاية الأرب ١٥: ٣٧٧.

(١٠٤٧) انظر ايام العرب ٢: ٣٦٢و ٤٥٣. والعقد الفريد ٥: ١٩٦. ونهاية الأرب ١٥: ٣٨٩.

(١٠٤٨) ديوانه: ص ١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَسَرْنا حاجِبا فثوى أسيراً ولم نَترُكْ لأُسرَتِهِ سَواما

بالمقابل كان هناك من يعرض نفسه للموت أو القتل في سبيل أن يحول بين المرأة والوقوع في السبي. ولعل أبرز من أقدم على ذلك هو ربيعة بن مكدم فارس بني كنانة. ومجمل خبره أن دريد بن الصمة خرج في فوارس من بني جشم يريدون الغارة على بني كنانة. فرأوا في واد يقال له (الأخرم) رجلا ومعه ظعينة. فطمع دريد بها، وأرسل لأخذها من رجلها، ثلاثة من الفرسان، الواحد تلو الآخر، وفي كل مرة كان الرجل -وهو ربيعة- يجابه الفارس ويصرعه برمحه، وفي المرة الأخيرة انكسر رمحه. ولما جاء دريد يستطلع خبر أصحابه عجب مما رأى، وأعجب بشجاعة ربيعة وبسالته، فأعطاه رمحه قائلا: "أيها الفارس، إن مثلك لايقتل" وانصرف بأصحابه عنه وقال(١٠٤٩) :

ما إنْ رَأَيْتُ ولا سَمِعْتُ بِمثلِهِ حامي الظعينةِ فارسًا لم يُقتَلِ

أَردَى فوارِسَ لم يكونوا نُهزَةً ثُـم استَمَرَّ كأنْ لم يَفْعَلِ(١٠٥٠)

يُزجي ظَعينَتَهُ وَيَسحَبُ رُمْحَهُ مُتَوجِّهاً يمُـناهُ نَحوَ المَنزِلِ

وفي هذا التصدي بالغ التحدي يقول ربيعة بن مكدم(١٠٥١) :

إن كانَ يَنفعكِ اليقينُ فسائلـي عني الظعينةَ يومَ وادي الأخرمِ

إذ هـي لأولِ مَـنْ أتاها نُهزَةٌ لـولا طِعانُ ربيعةَ بنِ مُكَدَّمِ

إذ قالَ لي أدنَى الفوارسِ منهمُ خَـلِّ الظعينةَ طـائِعاً لاتَنْدَمِ

فَصَرَفْتُ راحِلةَ الظعينـةِ نحوَهُ عَمَـداً لِيَعلمَ بعـضَ مالمْ يَعْلَمِ

وَهَتَكْتُ بالرُمْحِ الطَويـلِ إهابَهُ فهـوى صريعاً لليَدَيْنِ وَلِلْفَمِ

(١٠٤٩) انظر أيام العرب ٢: ٢٩٧. والعقد الفريد ٥: ١٧١. والأغاني ١٦: ٥٨٣٣، ونهاية الأرب ١٥: ٣٧٠ وديوان دريد : ص ٩٥. وفي ابن مكدم قال ابو عمروبن العلاء: "ما نعلم قتيلا حمى ظعائن غير ربيعة بن مكدم. بلوغ الأرب ١: ١٤٥.

(١٠٥٠) نهزة: الشيء الذي هو لك معرض كالغنيمة. وهي (نهبة) في العقد الفريد ٥: ١٧١.

(١٠٥١) أمالي القالي ٢: ٢٧٢. ونهاية الأرب ١٥: ٣٧١. ودراسات في الأدب الجاهلي: ص ٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَمَنَحْتُ آخرَ بَعدَهُ جَيّاشَـــــةً نَجلاءَ فاغِرَةً كَشِدْقِ الأَضْجَمِ[١٠٥٢]

وَلَقدْ شَفَعْتُهما بآخرَ ثالثٍ وأبى الفِرارَ عَنِ العِداةِ تَكَرُّمي

وقد يسوغ لنا أن نشير هنا إلى أن بعض الغارات كانت تستهدف ايضا القوافل التجارية، بغض النظر عما إذا كان اصحابها من التجار السوقه أم من الملوك، وآية ذلك أن اصحاب القوافل كانوا يعهدون بتولي أمرها في سفرها، إلى من يستطيع حمايتها وإبلاغها مقصدها بسلام، دون تعرضها لغارات قطاع الطرق، أو بعض القبائل الفقيرة التي كانت ترى في الاستيلاء عليها، فرصة سانحة للحصول على مورد رزق وكسب للعيش.

ولعلنا نكتفي –من هذا المجال– بمثال تناقلته المصادر. وهو –وبإيجاز– أن النعمان بن المنذر جهز عير اللطيمة للمتاجرة بها في عكاظ. ولمعرفته بشيوع الغارات على القوافل التجارية بين القبائل التي تمر بأرضها تلك القوافل[١٠٥٣] ،طلب رجلا يجيرها في رحلتها. فعرض عليه البراض بن قيس النمري أن يجيرها على بني كنانة. ولكن النعمان أراد لها الحماية في نجد وتهامة على سعة ديارهم، فتكفل بذلك عروة الرحال، "وهو يومئذ رجل هوزان"[١٠٥٤] مستهينا في الوقت نفسه بالبراض ومحقرا له، الأمر الذي أثار حفيظة البراض –وقد كان من فتاك الجاهلية– فعمد إلى الفتك بعروة واستاق اللطيمة إلى خيبر، وكان هذا الحادث سبب حرب الفجار بين كنانة وقيس[١٠٥٥] .

وللتأكد من نجاح الغارة وتحقيق هدفها، كان الغالب الأعم من الغزوات والغارات، يقع في الصباح[١٠٥٦] . ولذلك كان العرب يقولون "واصباحاه" وقت القيام بالغارة ويسمون يوم الغارة يوم الصباح[١٠٥٧] .

(١٠٥٢) جياشة: تتدفق بالدم. نجلاء: واسعة. الأضجم: الذي في فمه عوج وميل. لسان العرب، مادة ضجم.

(١٠٥٣) جاء في المحبر أن بلعاء بن قيس الكناني اعترض لطائم النعمان مرتين ونهبها، المحبر: ص ١٩٥/١٩٦. وانظر نهاية الأرب ١٥: ٤٠٧.

وقد استمر التعرض للقوافل بقصد نهبها حتى أوائل عهد الاسلام. انظر السيرة النبوية ١: ٤٠١.

(١٠٥٤) العقد الفريد ٥: ٢٥٣. وانظر نهاية الأرب ١٥: ٤٢٥.

(١٠٥٥) انظر المحبر: ص ١٩٦. وأيام العرب ٢: ٥٠٦. والأغاني ٢٥: ٨٧٦. وكامل ابن الأثير ١: ٣٥٨.

(١٠٥٦) انظر النقائض ٢: ١٦٢.

(١٠٥٧) انظر ديوان عمرو بن قميئة: ص ١٧٩ (الحاشية).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ثم كثر في الشعر الجاهلي –التعبير بفعل "صبح" ومشتقاته في الحديث عن شن الغارات، ولعل عامر بن الطفيل من أكثر الشعراء تطرقا إلى وقت الصباح. ومن ذلك قوله في غارة على عبد القيس(١٠٥٨) :

وعبد القيسِ بالمرْداءِ لاقت صباحاً مثلَ ما لَقِيَتْ ثمودُ(١٠٥٩)

صبحناهُم بِكُلِّ أقَبَّ نَهـــدٍ وَمُطّرِدٍ له يَقِدُ الحـــديدُ(١٠٦٠)

وفي غارة على عامر يقول عروة بن الورد(١٠٦١) :

نحن صبحنا عامِراً، إذ تَمَرَّسَتْ عَلاَلَةُ أرماحٍ وضرباً مذكّـــرا(١٠٦٢)

بِكُلِّ رقـــاقِ الشفرتَين مُهَنَّـدٍ وَلَدْنٍ من الخَطِّيِّ قد طُرَّ أسمرا(١٠٦٣)

ومنه يتبين لنا أن الغارة والحروب هي المحور الأول الذي كان يدور حوله سلوك عرب الجزيرة كونهما مصدرا منه يرتزقون وعليه يعتمدون في مواجهة التحديات الاقتصادية، وفي التغلب عليها. وبهذا المفهوم لم تكن الغارة والسلب عملا قانونيا فحسب، وإنما عمل بطولي، ومصدر شرف، ومجال مفاخرة، كونه رافدا مهما من روافد الثروة والقوة.

(١٠٥٨) ديوان الفروسية: ص ٣٤. وانظر ديوانه: ص ٣٧و ٤٩و ٦٧و ٩٤و ١١٧و ١١٨و ١٢٩و ١٤١. وديوان الأعشى: ص ٨٧و ٣٩٥. وديوان قيس بن الخطيم: ص ٨٦و ٩١و ١٨٤. وديوان عمرو بن قميئة: ص ١٧٩. وديوان الطفيل الغنوي: ص ٤٤. وديوان أحيحة بن الجلاح: ص ٦٤. وديوان زيد الخيل: ص ٣٧. وانظر الأغاني ١١: ١٥٠ (الثقافة).

(١٠٥٩) المرداء: أرض في هجر. ديوان الفروسية.

(١٠٦٠) أقب نهد: خيل ضامر. مطرد: رمح طويل. يقد: يشتعل، اي سنان الرمح يسطع كأنه نار مشتعلة.

(١٠٦١) ديوانه: ص ٨١.

(١٠٦٢) تمرست: تعرضت وعالجت ذلك. علالة كل شيء: ما جاء منه بعدما يمضي اوله. المعنى: طعناهم طعنا بعد طعن.

(١٠٦٣) رقاق: سيف رقيق الشفرتين أي حديه. لدن: اللين المهمزة من الرماح. طر: سن. الأسمر: الرمح. الخطي: القنا كله يؤتى به من الخط وهو مرفأ في البحرين. الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

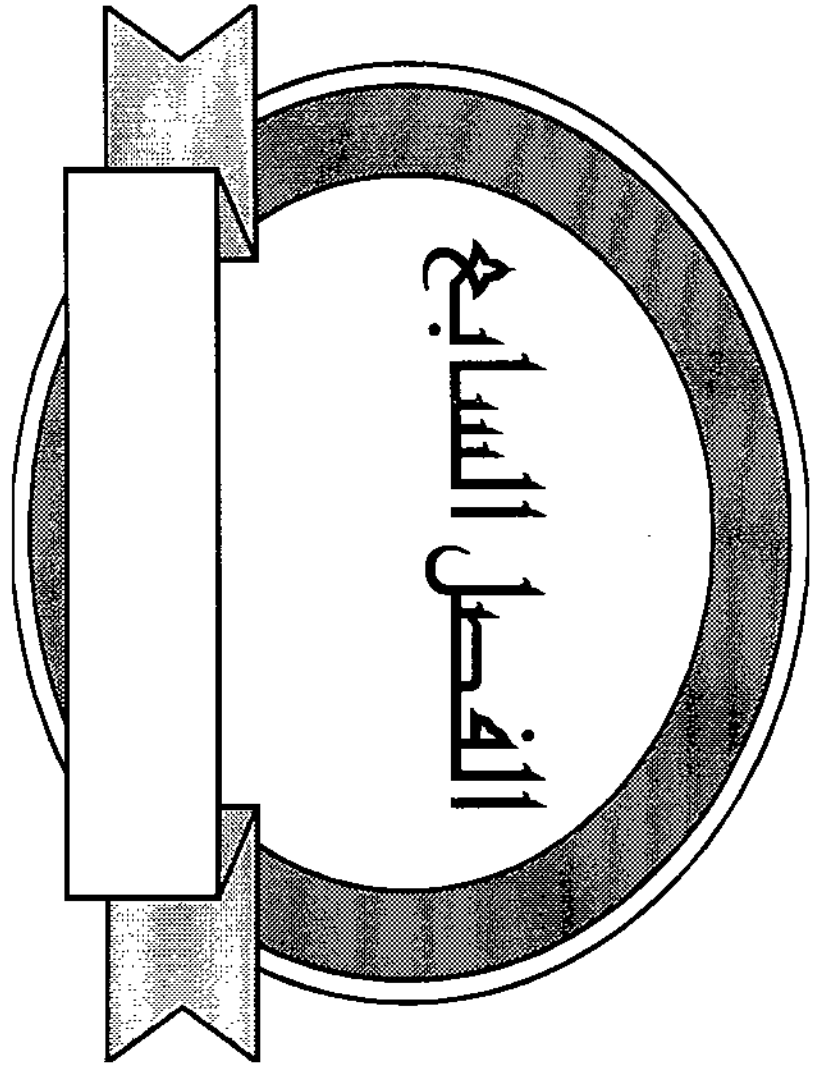

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السابع

التحدي السياسي في الشعر الجاهلي

كان العربي يمقت الظلم والجور مقتا كبيرا. والظلم من منظوره كل ما يحد من حريته أو ينتقص من كرامته وكيانه. ولأنه مفطور على الشجاعة والحمية وعدم المبالاة بالحياة إذا كان الذل يكتنفها، ويهيمن عليها الهوان، فإنه كان يرى في السلطة الغاشمة تحديا لإبائه ولعزته وكرامته، ولحريته الشخصية. "والعربي مجبول على الحرية لايطيق الخضوع لأحد غير قبيلته على أن لايؤثر ذلك في حريته الشخصية"(١٠٦٤) .

وقد بلغ إحساس العربي بكرامته حدا جعله يغدو متمردا على أي شكل من اشكال السلطة(١٠٦٥) من هنا جاء تحدي السلطة وبخاصة إذا كانت تجنح للظلم وللعسف.

وحين نقول السلطة، فإننا نشير بذلك إلى ما يمكن تسميته جوازا بالسلطة الداخلية والتي يمثلها سيد القبيلة أو من يتولى أمور السيادة عليها. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى هناك ما يسمى بالسلطة الخارجية التي كانت تحاول فرض هيمنتها على القبائل ورؤسائها. ومن أصحاب هذه السلطة ملوك إمارات التخوم والدول غير العربية المجاورة لبلاد العرب مثل الروم وفارس والحبشة، ولقد كان لكل من هذه السلطات أثرها ودورها في استثارة مشاعر التحدي لدى العربي وفي حفزه للتصدي والمواجهة قولا أوفعلا.

-١-

الشاعر والسلطة القبلية

درج العرب على تقدير سيد القبيلة وإجلاله واحترامه، وعلى الأخذ بتوجيهاته وإرشاداته في الأمور المصيرية الفردية والجماعية. ونظرا لعظم المسؤوليات الملقاة على عاتقه، وكثرة الواجبات الملزمة له مثل الحفاظ على تماسك القبيلة، وحمايتها، وصون هيبتها ومكانتها، وتوفير الأمن الاجتماعي والاقتصادي لها، فقد خصته القبيلة بامتيازات مادية

(١٠٦٤) المفصل ٤: ٤٨.

(١٠٦٥) انظر فجر الإسلام: ص ٣٣ و Arabia before Muhammad, P. 20 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومعنوية. فمن الإمتيازات المادية ما كان يفرد له من الغنائم كالمرباع والنشيطة والصفايا والفضول التي تضمنها قول شاعرهم(١٠٦٦) :

لك المرباعُ منها والصَفايا وَحُكْمُكَ والنشيطةُ والفضول(١٠٦٧)

وبالمقابل كان أفراد القبيلة يتطلعون إلى أن يكون سيدهم عادلا منصفا بعيدا عن الظلم والبغي. وهو ما الح عليه سلمة بن الخرشب الأنماري في شعره الذي أُرسله إلى سَبَيع سيد تغلب الذي جعل حكما بين قبيلتي عبس وذبيان. يقول(١٠٦٨) :

نُبّئتُ أن حَكّموكَ بينَهُمَ فلا تقولَنَّ بِنَـــاسَ ما حكما

إنْ كُنتَ ذا خِبْرَةٍ بشانِهِمَ تَعرفُ ذا حَقُّهُمْ ومَـــنْ ظلما

فاحكم، فَأَنتَ الحكيمُ بينهمَ لن يَعْدَموا الحقَ بارداً صَتَما(١٠٦٩)

وأذا ما شعروا بأنه -لسبب أو لآخر- لم يعد أهلا لقيادة القبيلة أو توجيهها، أو جنح للظلم، أو كان البغي طبعا فيه، تحدوه وخلعوا عنه السيادة وجردوه من حقوقها. وقد يخرجونه من ديارهم كما وقع لسيد بني سليم بن قيس(١٠٧٠) .

وإذا كان التحدي يأخذ مثل هذا المظهر السلمي في حالات معينة، فإنه يأخذ مظهرا عنيفا يتسم بطابع التمرد الفاتك او الثورة الدموية، في حالات أخرى.

ومن ذلك ثورة هوزان على سيدهم زهير بن جذيمة الذي كانوا لايعرفون لهم ربا غيره فقد طغى زهير وتجبر فيهم ولاسيما من ناحية عشرهم والإتاوة التي فرضها عليهم. وكذلك بغى في المعاملة حتى لنسائهم، مما أثارهم واستفزهم وملأ نفوسهم بالغيظ والحقد عليه. الأمر الذي حدا خالد بن جعفر العامري إلى أن يقسم "والله لأجعلن ذراعي وراء

(١٠٦٦) انظر الحيوان ١/ ٣٣٠.والمفصل ٥: ٢٦٧.

(١٠٦٧) المرباع: ربع الغنيمة. والصفايا: ما يصطفيه السيد لنفسه قبل القسمة من الغنيمة. والنشيطة: أخذ العلق النفيس عند قسمة المتاع. والفضول: ما فضل عن القسمة بعد توزيع الغنائم. المفصل.

(١٠٦٨) عيون الأخبار ١: ١٣٤.

(١٠٦٩) صتم: الغليظ الشديد أو الصحيح القوي.

(١٠٧٠) انظر الحيوان ٥: ٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنقه حتى أقتل أو يقتل"[١٠٧١] ثم تربص ونفر من بني عامر به وقتلوه. وفي ذلك يقول خالد بن جعفر متباهيا باليد التي اسداها إلى هوزان اذ قتل زهيرا[١٠٧٢] :

بَلْ كيفَ تكفُرُني هَوزِانُ بعدما ... أَعْتَقْتُهُمْ فتوالدُوا أحرارا

وقتلتُ ربهَمُ زُهيرا بعدما ... جَدعَ الأنوفَ وأكثرَ الأوتارا

وجعلتُ مهرَ بناتِهِمْ ودِمائهم ... عَقلَ المُلوكِ هَجائِنًا أبكارا

والظلم والبغي أديا -فيما أرى- إلى قتل (كليب وائل). فقد كان متغطرسا متعسفا مستبدا. وكان من استبداده "أنه إذا مر بمكان أعجبه كنع كليبا له ثم رمى به هناك"[١٠٧٣] فإذا عوى الكليب وسمعه من كان قريبا منه لم يمكنه الاقتراب من ذلك المكان. وبلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب، فلا يرعى حماه، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته. ويقول: وحش أرض كذا في جواري فلا يهاج، ولا تورد إبل مع إبله، ولا توقد نار مع ناره"[١٠٧٤] .

صحيح أن كتب الأدب والأخبار تذكر أن قتله كان بسبب تعرضه بالأذى لناقة البسوس، إلا أنها لم تأت على ذكر البواعث الخفية التي حدت بجساس بن مرة إلى قتله، على ما بينهما من نسب بالمصاهرة. إن إسرافه في التعنت والتعسف والبغي، لم يكن ليطيقه من حوله أو يحتمله إلى مالانهاية. فكان لابد من وضع حد للظلم والطغيان ومصداق ذلك قول عمرو بن الأهتم[١٠٧٥] :

وإنّ كليبا كان يَظلِمُ قومَهُ ... فأدركَهُ مِثلَ الذي تَرَيان

فلما حَشاهُ الرمحَ كفُّ ابنِ عمِهِ ... تَذكّرَ ظُلمَ الأهلِ أيَّ أوانِ

(١٠٧١) انظر الأغاني ١١: ٣٨٦٨ وما بعدها. والعقد الفريد ٥: ١٣٥/١٣٦. ونهاية الأرب ١٥: ٣٤٦. وبلوغ الأرب ١: ١١٩/١٢٠.

(١٠٧٢) الأغاني ١١: ٣٨٧٦. والعقدالفريد ٥: ١٣٧. ونهاية الأرب ١٥: ٣٤٨.

(١٠٧٣) المفصل ٥: ٢٦٧. وانظر الأغاني ٥: ١٦٧٨.

(١٠٧٤) العقد الفريد ٥: ٢١٤.

(١٠٧٥) نفسه ٥: ٢١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولايبعد كثيرا عن هذين الحادثين، حادث قتل بني أسد لصاحب الأمر فيهم والسلطة عليهم،الملك حجر بن الحارث الكندي، الذي أساء الحكم فيهم،وجار وبغى عليهم ولاسيما في جمع الإتاوة التي فرضها عليهم. فتحدوه في بادئ الأمر بالامتناع عن دفعها، ثم بقتل رسله فيما بعد. وكانت استجابته لهذا التحدي عنيفة، اذ سار إليهم بجيشه، فأخذ سراتهم وجعل يقتلهم بالعصا، وأباح الأموال ونفى سائرهم. وقد كان لهذه المعاملة القاسية وقع شديد على بني أسد، فأي إذلال للعربي الشجاع المقاتل، وأي امتهان لكرامته أقسى من القتل بالعصا؟ فلا غرو أن امتلأت نفوس بني أسد بالحقد الممزوج بالغضب والسخط، ولم يكن غريبا أن يتحينوا الفرص للانتقام وأن يخططوا لقتله. وقد تم لهم ذلك(١٠٧٦) . وقد قال عبيد الأبرص منددا بظلم حجر وبغيه(١٠٧٧) :

وإني لأطفي الحربَ بعدَ شُبوبِها ... وقد أَوْقدتُ للغَيِّ في كُلِّ مَوْقِدِ

فأوقدتُها للظالمِ المُصطَلي بها ... إذا لم يَزَعْهُ رأيُهُ عن تَرَدُّدِ(١٠٧٨)

كما قال متباهيا بقتل قومه حجرا ونفرا من أتباعه(١٠٧٩) :

إنـــا إذا عَـضّ الثقـا ... فُ بـرأسِ صَعْدَتِنا لَوَيْنَا(١٠٨٠)

هـلا سألـتِ جُمـوعَ كِنـ ... ـدَةَ يـومَ وَلَّـوْا أيْنَ أيْنا

أيـامَ نَضـرِبُ هـامَهُمْ ... بِبـواتِرَ حتـى انْحَنَينا

كـمْ مـن رئـيسٍ قد قَتلـ ... ـناهُ وضَيْـمٍ قَـدْ أَبَيْنا

وقتل بني أسد لحجر من الأحداث التي تباهى بها شعراؤهم،وتفاخروا بانجازها. ومن هؤلاء الشعراء بشر بن أبي خازم إذ يقول(١٠٨١) :

(١٠٧٦) انظر الأغاني ٩: ٣٢٠٦. وانظر في قتله معجم الشعراء: ص ٢٧ (دار الجيل).

(١٠٧٧) ديوانه : ٥٩ .

(١٠٧٨) يزعه: يمنعه. والمصطلي: المحترق.

(١٠٧٩) ديوانه: ص ١١٨/١١٩ . وانظر الشعر والشعراء ١: ١٨٧.

(١٠٨٠) الثقاف: آله تقوم بها الرماح. الصعدة: الرمح. لوينا: أعرضنا.

(١٠٨١) ديوانه: ص ٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحولـــي من بني أَسدٍ حُلولٌ ... مُـــبِنَّ، بينَ شُبّانٍ وشِيبِ[١٠٨٢]

بـــــأيديهمْ صوارِمُ للتداني ... وإن بَعُدُوا فوافِيَةُ الكُعوبِ[١٠٨٣]

هم ضربوا قوانِسَ خيلِ حُجْرٍ ... بِجَنْبِ الردَّةِ فِي يومٍ عَصيبِ[١٠٨٤]

ويذهب يؤكد الحدث بكثير من التحدي فيقول[١٠٨٥] :

ونحنُ أولى ضَرَبْنا رأسَ حُجْرٍ ... بِـــأسيـــــافٍ مُهَنَّدَةٍ رِقاقِ

مخالفا بذلك تكذيب امرئ القيس للأمـر، واستنكاره أن تقدم قبيلـة أسد علـى قتل "ربهـا"[١٠٨٦] وهـي -فيمـا كـان يحسـب- الذليلـة المهانـة المستضعفة. ولـم يـدر بخلـده أن المستضعف قد يقوى، وأن المظلوم قد يستمد من شجاعته وجرأتـه الكـامنتين،القدرة علـى تحدي القوة الغاشمة، وعلى التصدي للظلم والعدوان، فيتحرر ويسترجع كرامته المسلوبة. وهو ما بينته لنا الوقائع التي تقدم ذكرها.

-٢-

الشاعر والسلطة الخارجية

تقدم معنا أن العرب كانوا يكرهون الظلم ويمقتـون الجـور والبغـي، وهـم إذ كـانوا لايطيقونه داخل إطار العشيرة أو القبيلة، فإن إباءهم للعسف والطغيان خارج هـذا الإطـار وتمردهم على شتى ضروب الظلم،لهو أكبر وأعمق.

فمن وجوه هذا الظلم المكس الذي كان ملوك العرب يأخذونه من التجـار فـي البر والبحر،وفي اسواقهم،"وكانوا يظلمونهم فـي ذلـك"[١٠٨٧] وقـد بيـن جـابر بـن حنـي التغلبـي شمولية المكس الذي كان يتناول كل صغيرة وكبيرة من عملية المتاجرة، فقال[١٠٨٨] :

(١٠٨٢) مبن: مقيم، من الإبنان وهو اللزوم والإقامة بالمكان.

(١٠٨٣) وافية الكعوب: الرماح الطويلة.

(١٠٨٤) القوانس: جمع قونس وهو عظم ناتئ بين أذني الفرس. والردة: موضع في بلاد قيس.

(١٠٨٥) ديوانه: ص ١٦٦.

(١٠٨٦) انظر ديوانه: ص ٢٦١.

(١٠٨٧) الحيوان ٦: ١٤٨.

(١٠٨٨) المفضليات: ص ٢١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي كُلِّ أَسواقِ العِراقِ إتاوةٌ وفي كُلِّ ما باع امرؤٌ مَكْسَ دِرهَمِ

كما أشار يزيد بن الخذاق إلى أن المكس كان يجبى من الصراري(١٠٨٩) أيضا.

ويبدو أن الظلم –وعلى تفاوت في شدة الوطأة– كان سمة الحكم وطابع السلطة المميز لعهود عدد من ملوك المناذرة. ولعل عمرو بن هند هو اكثر هؤلاء الملوك ظلما وجورا، الأمر الذي حدا المتلمس إلى أن يصف مدى الظلم الذي شاع في عهد هذا الملك، ومدى رسوخ البغي والطغيان في أرجاء مملكته. فقال منددا بذلك(١٠٩٠) :

والظُلمُ مربوطٌ بأفـ نِيَةِ البُيوتِ أَعَزُّ أبلقُ

وعمرو بن هند هذا هو صاحب يوم البؤس،الذي يقتل فيه أول رجل يطلع عليه، ويوم النعمة الذي يقف الناس فيه ببابه، ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول عليه، على ما في ذلك من إذلال وإهانة لكرامة القوم، وبخاصة الأشراف منهم والأسياد. وقد جلى طرفة بن العبد هذا الوضع التعسفي في قوله(١٠٩١) :

قَسمتَ الدهرَ في زَمَنٍ رخِيٍّ كذاك الحُكمُ يُقصِدُ او يَجورُ

لنا يومٌ ولِلْكِروانِ يَومٌ تَطِيرُ البانساتُ ولا نَطيرُ

فإما يومُهُنَّ فيومُ نَحْسٍ تُطارِدُهُنَّ بالحَدَبِ الصُقورُ

وإمّا يومُنا فنظَلُّ رَكْباً وُقوفًا ما نَحُلُّ وما نَسيرُ

وهو قول يوحي بشيء غير يسير من التوجه الثوري، ومن التمرد المتحدي، وبخاصة حين يقارن الشاعر بين حال الإنسان المكبل بقيود رغبة السلطة ومشيئتها، وحال الطير الذي ينعم بحرية الحركة والتصرف.

(١٠٨٩) نفسه: ٢٩٨، والصراري: الملاحون.

(١٠٩٠) ديوانه: ص ٢٥٣.

(١٠٩١) ديوانه: ص ١٠٢/١٠٣. وانظر النوادر : ص ١٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هنا جاءت الدعوة إلى تحدي ظلم الملوك، ورفض الخضوع لجبروتهم وهي دعوة قد تكون مبطنة، يعبر عنها بالتباهي والتفاخر كما في قول عبيد بن الأبرص[١٠٩٢]:

أَبَوْا دينَ المُلوكِ فهم لَقاحٌ إذا نُدِبوا إلى حَرْبٍ أجابوا[١٠٩٣]

وكما في قول عمرو بن كلثوم[١٠٩٤]

إذا ما المَلِكُ سامَ الناسَ خَسْفا أَبَيْنا أن نُقِرَّ الذُلَّ فينا

وقد جاء تحدي الملوك عبر مظاهر عدة. منها عدم الإستجابة لرغباتهم، كما فعل عبيدة بن ربيعة التميمي،حين رفض رغبة أحد الملوك في اقتناء فرس عبيدة المسماة سكابا، قائلا له بثقة وحزم يغلفان شيئا من التهديد المتحدي[١٠٩٥] :

أَبيتَ اللعنَ إنّ سَكابَ عِلْـــقٌ نفـــيسٌ لاتُعارُ ولا تُباعُ

مُفَـــدّاةٌ مُكَرَّمـــــةٌ عَلينا يُجاع لها العِيالُ ولا تُجاعُ

فلا تَطْمَعْ -أَبَيْتَ اللعنَ- فيها وَمَنْعُكَـــها بِوَجهٍ يُستطاعُ

وإن هذا المنع لمستطاع إذا توفرت له العوامل والعناصر المؤثرة الفاعلة وفي مقدمتها القوة. واظهار القوة والتهديد باللجوء إليها قولا أو فعلا، هو مظهر آخر من مظاهر تحدى السلطة الخارجية، والذي يكثر ذكره في الشعر الجاهلي.

فمما جاء في هذا المجال قول عمرو بن كلثوم مهددا ومتوعدا الحارث الأعرج الغساني[١٠٩٦] :

ألا فاعْلَمْ -أَبيتَ اللعنَ- أنا على عَمدٍ سناتي ما نُريدُ

(١٠٩٢) ديوانه: ص ٢٦. وانظر النقائض (عمرو بن حوط اليربوعي) ١: ٦٤. وديوان الأفوه: ص ١٣.

(١٠٩٣) دين الملوك: طاعتهم. ولقاح: يريد أنهم لقحوا بحب القتال. الديوان.وفي معنى قريب انظر الطرائف الأدبية: ص ٢٢.

(١٠٩٤) ديوانه: ص ٩٠ . وانظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ص ٤٢٥، وشرح المعلقات السبع: ص ١٨٩.

(١٠٩٥) شرح ديوان الحماسة: ص ٢٠٩. وانظر بلوغ الأرب ٢: ٨١.

(١٠٩٦) ديوانه: ص ٣٤/٣٣. . وانظر في التهديد، المفضليات: ص ٢٩٨. وديوان المتلمس: ص ٢٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَعَلَّمْ أن مَحْمَلَنَا ثَقِـــيلٌ ... وأنّ زِنادَ كُبَّتِنا شَديدُ(١٠٩٧)

وقول الحارث بن ظالم مُدلاّ بفتكه ومتحديا النعمان بن المنذر إذ يعلمه بأنه سيقتل خالد بن جعفر الذي كان نازلا بالملك(١٠٩٨) :

تعلم أبيتَ اللعنَ أني فاتــك ... منَ اليومِ أو من بعده بابن جعفر

ومنه الرد المتحدي على تهديد الملوك أو توعدهم، كما في قول عامر بن الجوين الطائي للمنذر بن النعمان الأكبر(١٠٩٩) :

تَعلّم أبيتَ اللَعْنَ أن قَـــناتَنا ... تَزيدُ على غَمْزِ الثقـــاف تَصَعُّبا

أتوعدنا بالحربِ أمُكَ هابِـــلٌ ... رُوَيْـدَكَ بَـــرْقا لاأبـــالك خُلَّبا

إذا خَطَرَتْ دوني جَديلة بالقنا ... وحامت رجال الغوث دونـي تحدبا

أبيتَ التي تهوى فاعطيتَك التي ... تسوق إليك الموتَ أخرجُ أكهبا(١١٠٠)

والهجاء مظهر آخر لتحدي الملوك، ويجلوه أقوال عديدة صدرت عن الشعراء في مناسبات متباينة، وفي مواقف مختلفة. ومنها قول المتلمس يهجو عمرو بن هند حين علم بما عزم عليه من غدر به وبطرفة(١١٠١) :

شر الملوك، شَرُها حَسَباً ... في الناسِ مَنْ عَلِموا وَمَنْ جهلوا

الغَدْرُ والآفاتُ شيمتُهُ ... فافهمْ، فَعُرْقوبٌ له مَثَلُ

(١٠٩٧) الكبة: الحملة في الحرب. والدفعة في القتال. الديوان.

(١٠٩٨) شعره في مجلة كلية الآداب، بغداد ع١٥:ص ٣٧٨و ٣٧٩. ودراسات في الأدب الجاهلي: ص ٢٦٤.

(١٠٩٩) انظر الخبر مفصلا في النوادر: ص ١٧٧/ ١٧٨، وانظر قول عامر بن الجوين كاملا في المصدر نفسه: ص ١٧٨.

(١١٠٠) الأخرج: الأسود في بياض والسواد الغالب. والأكهب: من الكهبة وهي الدهمة: لسان العرب، مادتي خرج وكهب.

(١١٠١) ديوانه: ص ٤٦، وانظر فيه ايضا: ص ٢٣٦و ٢٥٣و ٢٩٩/٣٠٠. وله هجو مقذع للملك في شرح القصائد السبع الطوال: ص ١٣٠. وانظر ايضا ديوان عمرو بن كلثوم : ص ٢٥و ٢٨و ٤٠ ، وديوان طرفة: ص ١٥٣ و ١٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويهجو يزيد بن الخذاق الشني النعمان بن المنذر ويتوعده، متباهيا في الوقت نفسه بقومه واستعصائهم على من يريد لهم الذل والخسف، فيقول(١١٠٢) :

نُعمانُ إنك خانِنٌ خَدِعٌ ... يخفي ضميرُكَ غيرَ ماتُبدي

فإذا بدا لَكَ نحتُ أَثْلَتِنا ... فَعليكَها إنْ كنتَ ذا خُرُدِ(١١٠٣)

يأبَى لنا أنا ذَوُو أَنَفٍ ... وأُصولُنا مِنْ مَحْتِدِ المَجْدِ

إنْ تَغْزُ بالخَرقاءِ أُسْرَتَنا ... تَلْقَ الكتائِبَ دونَنا تَرْدي(١١٠٤)

وللتحدي مظهر مباين لما تقدم، وهو يقوم على الفعل لا القول؛ ويتمثل في أسر الملوك وقتلهم أو قتل أولادهم. وقد ذهب بعض الشعراء إلى أن قتل الملوك ليس بمحرم عليهم(١١٠٥) . بينما تباهى آخرون بأن من عادة قومهم "أسر الملوك وقتلها وقتالها"(١١٠٦) وهي عادة قديمة ومعروفة عنهم "من عهد عاد"(١١٠٧) .

وقد تباهى عمرو بن كلثوم بقتل عمرو بن هند فقال(١١٠٨):

وسيدَ مَعْشَرٍ قد تَوَّجُوهُ ... بتاجِ المُلكِ يحمي المُحجَرِينا(١١٠٩)

تركنا الخيلَ عاكفةً عليهِ ... مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صَفونا(١١١٠)

(١١٠٢) المفضليات: ص ٢٩٦.

(١١٠٣) أثلتنا: شجرتنا وجعلها مثلا لعزهم. وجرد: القصد والتعمد.

(١١٠٤) الخرقاء: الجهل. تردي: من الرَّدَيان، وهو فوق المشي ودون العدو.

(١١٠٥) انظر المفضليات: ص ٢١١.

(١١٠٦) شعر بشامة بن الغدير: ص ٢٢١. وانظر ديوان الحارث بن حلزة: ص ٣٥/٣٤ .

(١١٠٧) شعر بشامة: ص ٢٢١. وانظر شرح ديوان الهذليين ١: ٣٠٤ . وكتاب أيام العرب ٢: ٥٦٣/ ٥٦٤و ٥٧٢.

(١١٠٨) ديوانه: ص ٧٢/٧١ . وانظر في قتل بني حرملة النعمان بن المنذر وجمع معه، دراسات في الأدب الجاهلي: ص ٢٧٢.

(١١٠٩) المحجرون: اللاجئون. الديوان.

(١١١٠) عاكفة: مقيمة. صفونا: جمع الصافن، وهو من الخيل الذي قام على ثلاث قوائم وثنى سنبكه الرابع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحادثة القتل هذه ورد ذكرها -وعلى تفاوت في التفاصيل- في كثير من كتب الأدب والأخبار(١١١١) غير أن الشاعر أفنون التغلبي أتى على مجمل أحداثها في قوله(١١١٢):

لَعَمْرُكَ ما عَمرُو بنُ هِندٍ وقد دعا ... لِتخْدُمَ ليلى أُمَّهُ بِمُوَفَّقِ(١١١٣)

فقامَ ابنُ كُلثومٍ إلى السَيفِ مُصْلَتاً ... فأمسكَ مِنْ نَدمانِه بالمُخَنَّقِ(١١١٤)

وَجَلَّلَهُ عمرٌو على الرأسِ ضَرْبةً ... بذي شُطَبٍ صافي الحديدِ رَوْنَقِ(١١١٥)

ويوم بزاخة الذي جاء خبره عند ابن الأثير وكان أبو عبيدة قد رواه، هذا اليوم كان ثمرة تحد قولي وتوعد وتهديد، متبادلين بين عمرو بن كلثوم والملك الغساني الحارث بن ابي شمر الملقب بالأعرج،ولأن الخير -فيما أرى- مظهر جلي للتحدي والاستجابة فلابأس من ايراده هنا. وقد بدأ حين مر الحارث الأعرج بأفاريق من تغلب فلم يستقبلوه، وحين عاتب عمرو بن كلثوم بذلك، قال له: "لم يعلموا بمرورك". فقال الحارث: "لئن رجعت لاغزونهم غزوة تتركهم أيقاظا لقدومي". فكان جواب عمرو له: "ما استيقظ قوم إلا نبل رأيهم وعزت جماعتهم، فلا توقظن نائمهم". وبديهي أن هذا الجواب لم يعجب الملك،سيما وأنه أدرك ما فيه من تهديد، فجاء تهديده وتوعده أكبر وأقسى اذ قال: "كأنك تتوعدني بهم، أما والله لتعلمن إذا نالت غطاريف غسان الخيل في دياركم أن أيقاظ قومك سينامون نومة لاحلم فيها، تجتث أصولهم، وتنفي فلهم إلى اليابس الجدد والنازح الثمد"(١١١٦) .

(١١١١) انظر مثلا كتاب أيام العرب ٢: ٦٠٥ والأغاني ١١: ٣٨٣٩/٣٨٤٠ .

(١١١٢) الأغاني ١١: ٣٨٤١، وانظر المفضليات: ص ٢٦٠ (الحاشية) والشعر والشعراء ١: ١٥٩. وديوان عمرو بن كلثوم: ص ١٠٨ ، وفي إيراد الأبيات بعض الاختلاف.

(١١١٣) ليلى: هي أم عمرو بن كلثوم.

(١١١٤) ندمانه: أي عمرو بن هند.

(١١١٥) الشطب: جمع الشطبة، وهي الخط في متن السيف من شدة بريقه. الديوان.

(١١١٦) انظر كتاب أيام العرب ٢: ٥٧٩/٥٨٠. وكامل ابن الأثير ١: ٣٢٥. وفي ايام غسان مع الأحاليف في الشعر الجاهلي: ص ١٣٦/١٣٧. والجدد : المكان المستوى. والنازح الثمد: المكان ذو الآبار البعيدة القاع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجمع كل من الخصمين جموعه واقتتلوا، فانهزم الحارث وبنو غسان، وقتل أخو الحارث وعدد كبير من قومه. وقد تباهى عمرو بن كلثوم بما أسفر عنه القتال فقال(١١١٧) :

هَلّا عَطَفْتَ على أخيكَ إذا دعا ... بالثُكْلِ ويلَ ابيكَ يا ابن أبي شَمِرْ

فَذُقْ الذي جَشَّمْتَ نفسَكَ واعتَرِفْ ... فيها اخاكَ وعامِرَ بنَ أبي حُجُرْ(١١١٨) .

وسبى النعمان بن المنذر جارات للحارث بن ظالم في غارة على قوم الحارث، فثار الحارث لكرامته ولعزته، فتحايل حتى أخذ ابن النعمان من لدى حاضنته سلمى،ثم قتله، وقال قصيدة سجل فيها مصرع الابن،وخاطب النعمان بعنف وتوعده، وبدأها بالإعلان المتحدي عن فعلته تلك(١١١٩) :

قِفا فاسْمَعا أُخْبِرْكُما إذا سألتُما ... مُحارِبَ مَولاهُ وثكلانَ نادِمُ(١١٢٠)

فإن تَكُ أذوادٌ أُصِبْنَ وَصِبْيَةٌ ... فهذا ابنُ سلمى رأسُهُ مُتفاقِمُ

عَلَوْتُ بذي الحَيّاتِ مَفرقَ رأسِه ... وهل يَركَبُ المَكروهَ إلا الأكارِمُ(١١٢١)

وقد أخذ تحدي الملوك مظهرا جماعيا من خلال تصدي القبائل العربية للجيوش الملكية. ومن ذلك تصدى فوارس بني ضبة لكتائب أحد ملوك المناذرة الملقب بمحرّق فهزموهم وأسروا محرّقا وأخاه ثم قتلوهما(١١٢٢). وفي ذلك يقول أحد شعراء بن ضبة(١١٢٣):

نِعَمَ الفوارسِ يومَ جيشِ مُحَرِّقِ ... لحِقُوا وهم يَدْعونَ بالضرارِ

حتى سَمَوا لِمُحَرِّقٍ بِرماحِهِمْ ... بالطعنِ بين كتائبٍ وغُبارِ

(١١١٧) انظر كتاب أيام العرب: ٢: ٥٨٠. وديوان عمرو بن كلثوم: ص ٣٩ .

(١١١٨) عامر بن حجر: ابن عم الحارث الأعرج.الديوان.

(١١١٩) انظر الأغاني :١١ ,٣٨٩٤ وكامل ابن الأثير :١ ,٦٥٣ وشعر الحارث: ص ,٣٧٤ وانظر خبر قتل الأشعر الرقبان الأسدي اثنين من أبناء عمرو بن هند في معجم الشعراء: ص ٢٢.

(١١٢٠) مولاه: ابن عم الحارث بن ظالم، وثكلان نادم: اي الملك: قتلت ابنه فهو ثكلان نادم.

(١١٢١) ذو الحيات: سيفه عليه تمثال حية.

(١١٢٢) انظر النقائض ١: ١٨١، وانظر في أيام غسان: ص ١٣٥/١٣٦.

(١١٢٣) النقائض ١: ١٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جَعلوا لعافي الطيرِ منهم وَقعةً صَرْعى تَضوَّرَ في قنا أكسارِ

ومنه أيضا تصدي بنو أسد للحارث الأعرج في معركتين أسفرتا عن قتل عدي بن مالك ابن اخت الحارث الأعرج، وقرص من رجالات غسان(١١٢٤). وقد أشار عبيد بن الأبرص إلى هذه المواجهة الحربية في بعض أشعاره فقال(١١٢٥) :

نحن قُدْنا من أهاضيبِ المَلا الـ خيلَ في الأرسانِ أمثالَ السَعالي

فانتجَعْنـــا الحارثَ الأعرجَ في جَحْفَلٍ كالليلِ خَطّارِ العَوالي(١١٢٦)

يـــومَ غادَرْنا عَدِيًّا بالقَنا الـــ ـذَبْلِ السُمْرِ صريعاً في المَجالِ(١١٢٧)

ثم عُجْـناهُنّ خُوصاً كالقَطا الـــ قارِبِ المَنْهَلِ مِنْ أينِ الكَلالِ(١١٢٨)

نَحوَ قُرْصٍ يومَ جالتْ حولَهُ الـــ خيلُ قُبّاً عن يمينٍ وشِمالِ(١١٢٩)

ومما جاء في هذا المجال تصدي الأوس والخزرج لقتال تبع أبي كرب إذ جاء يغزوهم لرفضهم الدخول في طاعته. وقد"كانوا يقاتلونه نهارا ويخرجون إليه القرى ليلا، فتذمم من قتالهم ورحل عنهم"(١١٣٠).

وهكذا نرى أن تحدي الملوك بوجوهه المتعددة، قد بين أن العربي الحر كانت نفسه تمور بالعزة والكرامة، وكانت أنفته وشجاعته تأبيان عليه الخضوع لظلم الملوك أو الانقياد لرغباتهم وأهوائهم. ولم يكن ليتواني في مواجهتهم قولا بالهجاء والتهديد والتوعد،

(١١٢٤) انظر في أيام غسان: ص ١١٣.

(١١٢٥) ديوانه: ص ١٠٠/١٠١ .

(١١٢٦) انتجعنا: قصدنا، والخطار: المضطرب، والعوالي: جمع عالية، وهي ما دون السنان من الرمح بذراع او شبر، أو كما يقول أبو عبيدة: هي من الثلث الأول. الديوان. ص ١٠٠.

(١١٢٧) عدي: هو ابن أخت الحارث الأعرج، والذبل: الرقيقة، والسمر: الجيدة من الرماح. نفسه.

(١١٢٨) عجناهن: عطفناهن وصرفناهن، والخوص: جمع أخوص وخوصاء، وهي الضامرة. والقارب طالب الماء. والإين: الأين: التعب. نفسه.

(١١٢٩) قرص: رجل من غسان، ويرى د. نصرت عبدالرحمن أن الاسم قد يكون محرفا عن "Dux" وتعني رئيسا أو قائدا عند البيزنطين. انظر في ايام غسان مع الأحاليف: ص ١١٣.

(١١٣٠) انظر الخبر مع بعض التفصيل والاستشهاد بالشعر في العقد الفريد ٢: ١٩٣و ٣: ٣٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو فعلا من خلال الاشتباك معهم في ميدان المعركة فجاءت قوة التحدي لهؤلاء الملوك، على تناسب مع شدة ظلمهم وتعسفهم.

-٣-

الشاعر والسلطة الأجنبية

أ. الروم

ونقصد بالسلطة الأجنبية دولة الفرس التي كانت تهدد بلاد العرب من حدودها الشرقية، ودولة الروم في شمال الجزيرة، ثم الأحباش جنوبا في اليمن.

وقد كان العرب يهادنون هذه السلطة مادامت بعيدة عن التدخل في شؤونهم الداخلية أو في أمور حياتهم بكافة أبعادها، ومادامت لاتحاول الحد من حريتهم، بأي وجه من الوجوه . فالعرب "عرفوا منذ القدم بحبهم للحرية وبمقاومتهم للاسترقاق، بحيث أنهم كانوا الشعب الوحيد من بين الشعوب الآسيوية الذي لم يخضع لحكم الفرس، فلم يتمكن ملوك الفرس من استعبادهم"(١١٣١) .

ويبدو أن الروم كانوا على بينة من حب العرب للحرية، ونفورهم من أي شكل من أشكال الخضوع للسلطة الأجنبية أو الخنوع لها، ولاسيما إذا لمسوا في معاملتها الظلم والتعسف. فهم كما يقول الأعشى "أباة الضيم"(١١٣٢) . لذلك حاول الروم السيطرة – سياسيا– على بعض القبائل العربية الثرية المتنفذة مثل قريش، وذلك بتنصيب أحد رجالاتها –وهو عثمان بن الحويرث– ملكا عليها. إلا أن بعض الأسياد من قريش تحدّى هذا التوجه قائلا: إن قريشا لقاح لاتُمْلك ولا تُمَلّك"(١١٣٣) فلم يتم الأمر وفق رغبة الروم وتخطيطهم.

ولعل أهم مظهر لتحدي السلطة الأجنبية هو ما تمثل في المواجهة الحربية التي عمل الشعر الجاهلي على رصدها والإكثار من ذكرها. وهذه المواجهة المسلحة لم تكن مباشرة بين الروم والعرب، وإنما تبطنها الصدام بين الغساسنة والمناذرة كما في "يوم

(١١٣١) انظر المفصل ٤: ٤٠٨.

(١١٣٢) ديوانه: ص ٣٥١.

(١١٣٣) انظر الإنسان في الشعر الجاهلي : ص ٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أباغ"(١١٣٤) و"يوم حليمة"(١١٣٥) وهما كانا بقيادة الحارث الأعرج أحد ملوك غسان. وقد تقدم الحديث عن ذلك وعما قيل فيه من الشعر(١١٣٦) .

ب. الفرس:

كان الصدام الحربي مباشرا بين الفرس والعرب. وربما أرثه الاحتكاك الناتج عن قرب مملكة الأكاسرة من الجزيرة العربية ووقوعها على التخوم الشرقية القريبة من هجر ومن اليمامة والسواد حيث استقرت قبيلة إياد الذين "كانوا لقاحا لايؤدون خرجا"(١١٣٧).

ولأنهم كانوا لقاحا وذوي شدة ومنعة، فإن الصبر على ضيم تلحقه بهم السلطة الكسروية لم يكن من شيمتهم أو طبعهم. فكان تعاملهم معها يتسم بطابع التحدي الذي جلته المواجهة الحربية في حادثتين، فقد قتل الفرس غلاما من إياد وأخذوا ابله، وأسفرت الحادثة عن نهوض إياد لقتالهم واستطاعت ان تهزمهم بعد أن قتلت منهم أعدادا كبيرة، "فلم يفلت منهم إلا القليل وجمعوا جماجمهم وأجسادهم فكانت كالتل العظيم. وكان إلى جانبهم دير فسمي دير الجماجم"(١١٣٨) .

وبغرض الانتقام، جهز كسرى جيشا قوامه ستون ألفا من الجنود بأسلحتهم وعتادهم. وحين علم الخبر لقيط بن يعمر الإيادي الذي كان في الحيرة آنذاك، كتب إلى قومه يحذرهم وينبههم ويحضهم على تحدي كسرى وجنوده، وذلك في قصيدة طويلة معروفة، نجتزئ منها بعض الأبيات التي تنطوي على تحريض وحث على القتال. يقول(١١٣٩) :

يا قَومُ لاتأمَنُوا إنْ كُنتم غيرًا ... على نسائِكُم كسرى وما جَمَعا

هو الجَلاءُ الذي تَبقَى مَذَلَّتُهُ ... إن طارَ طائِرُكُمْ وإنْ وَقعَا

(١١٣٤) انظر كتاب أيام العرب ٢: ٥١-٥٣. والعقد الفريد ٥: ٢٦٠. وكامل ابن الأثير ١: ٣٢٥.

(١١٣٥) انظر كتاب أيام العرب ٢: ٥٤-٥٩. وكامل ابن الأثير ١: ٣٢٧-٣٣٠.

(١١٣٦) انظر في هذا البحث : ص ١٩١.

(١١٣٧) الشعر والشعراء ١: ١٢٩.

(١١٣٨) الأغاني ٢٦: ٩١٠٦.

(١١٣٩) ديوانه : ص ٢٦. وانظر الشعر والشعراء ١: ١٢٩. وذكر ان هذه الواقعة حدثت في عهد سابور ذي الأكتاف. انظر في ذلك كامل ابن الأثير ١: ٢٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو الفَناءُ الذي يَجْتَثُّ أَصْلَكُمُ فَمَنْ رأى مِثْلَ ذا يوماً ومَنْ سَمِعا

وقَدْ بذلتُ لكُمْ نُصحي بلا دَخَلٍ فاستَيْقِظوا إنّ خيرَ العِلمِ مانفعا

غير أن إيادا لم يستيقظوا،ولم يأخذوا بقول لقيط،ولم يستجيبوا لتحذيره وتحريضه. وأعماهم الغرور وأضلتهم الإستهانة بالغير، فلم يجمعوا كلمتهم ولم يحزموا أمرهم "ثقة بأن كسرى لايقدم عليهم"(١١٤٠) . هذه الثقة العمياء التي إن أصابت قوما ضللتهم وحادت بهم عن الطريق السوي الجلي، فقضت عليهم وعلى حقوقهم. وهكذا لحقت الهزيمة بإياد فكان الضياع والنزوح إلى أن لحقوا بقومهم بناحية أنقرة من بلاد الروم(١١٤١) :

نَزَلُوا بأنقرةَ يسيلُ عليهمُ ماءُ الفراتِ يجيءُ من أَطوادِ

وقد تحدث بنو تميم هيبة كسرى وسطوته بأن "أغاروا على لطيمة له فيها مسك وعنبر وجوهر كثير"(١١٤٢) . فكانت استجابة ملك الفرس عنيفة وقاسية إذا أوقع بهم، وأخذ الأموال وسبى النساء والأولاد(١١٤٣) .

وتحدث بكر بن وائل سيادة كسرى ونفوذه على السواد، فأخذوا يغيرون على تلك المنطقة المرة بعد المرة مما أثار حنقة وسخطه، وأخذ يعد جيشا لقتالهم(١١٤٤) .

وتطورت الأحداث إثر تحد عربي صريح لأمر كسرى. فقد أمر أبرويز بن هرمز -كسرى الفرس- هانئ بن قبيصة أن يسلمه حلقة النعمان بن المنذر، وهي ثمانمائة درع وسلاح كثير، كان النعمان قد أودعها هانئا قبل أن يقتله كسرى. وطلب الملك أيضا أن يقدم له مائة غلام من بكر يكونون رهنا كي تمتنع بكر وغيرها من القبائل عن الإغارة على السواد. وقد رفض هانئ أمر الملك ولم يستجب لمشيئته. وفي ذلك يقول الأعشى(١١٤٥) :

(١١٤٠) الأغاني ٢٦: ٩١٠٨.

(١١٤١) ديوان الأسود بن يعفر: ص ٢٧.

(١١٤٢) العقد الفريد ٥: ٢٢٤. وانظر نهاية الأرب ١٥: ٤٠٧.

(١١٤٣) انظر النقائض ١: ١٣٦. والعقد الفريد ٥: ٢٢٤. وكامل ابن الأثير ١: ٦٢٠.

(١١٤٤) الأغاني ٢٨: ٩٤٩٥-٩٤٩٨.

(١١٤٥) ديوانه: ص ٢٧٩. وانظر في الخبر كتاب أيام العرب ٢: ٤٩١ وما بعدها. والعقد الفريد ٥: ٢٦٢ وانظر في رهائن ملوك الفرس من فتيان العرب، كامل المبرد ١: ٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَنْ مُبلِغٌ كِسرى إذا ما جاءَهُ ... عني مآلكُ مُخَمّشات شُرّدا[١١٤٦]

آليت لاتعطيه من أبنائنا ... رهنا فيفسدهم كمن قد أفسدا

وكان لهذا التحدي رده العنيف لدى كسرى فعزم على استئصال بكر بن وائل[١١٤٧]، وحشد لهذا الأمر خمسة آلاف مقاتل، من بينهم بعض الموالين من أبناء القبائل العربية، وقد كان قيس بن مسعود البكري في سجن كسرى، وعلم بمقصد الفرس، فأرسل إلى قومه ينذرهم بالنية المبيتة لهم ويحرضهم على التحدي والقتال. قال[١١٤٨] :

ألا لَيتَني أرشو سِلاحي وَبغلتي ... فيخبر قَومي اليومَ ما أنا قائلُ

فإنا ثَوينا في شُعوبٍ وإنهم ... غَزَتْهُمْ جنودٌ جَمّةٌ وقبائلُ

وإنّ جُنودَ العُجْمِ بيني وبينَكُمْ ... فيا فَلَجي يا قومُ إنْ لم تُقاتِلوا

ويبدو أن رسالته لقيت أذنا صاغية من القبائل الحرة الشريفة. فأسرعت إلى الاتحاد والتماسك والتلاحم. وأجمعت أمرها على التصدي لقتال كسرى وجنوده، والثبات في المعركة حتى النهاية. وقدأسفرت المعركة التي وقعت في حنو ذي قار[١١٤٩] عن إلحاق الهزيمة بالأعاجم، وانتصار العرب انتصارا باهرا[١١٥٠] . وفي ذلك قال بعض شعراء ربيعة[١١٥١] :

ألا هل أتاها أنّ جَيشاً عَرَمْرَماً ... بأسفلَ ذي قارٍ أُبيدَتْ كتائبُهْ

فما حَلْقَةُ النعمانِ يومَ طلبتَها ... بأقربَ من نَجمِ السماءِ تُراقِبُهْ

وقال آخر[١١٥٢] :

(١١٤٦) مخمشات: مغضبات. شرد أي تأتي من كل مكان لشهرتها وذيوعها. الديوان.

(١١٤٧) انظر نهاية الأرب ١٥: ٤٣١.

(١١٤٨) الأغاني ٢٨: ٩٤٩٩. وانظر في التحريض على قتال الفرس، كتاب أيام العرب ٢: ٤٩٥ وتاريخ الطبري ٢: ٢١٠.

(١١٤٩) انظر تاريخ الطبري ٢: ٢٠٧ وما بعدها. والعقدالفريد ٥: ٢٦٢.

(١١٥٠) انظر كتاب أيام العرب ٢: ٤٩٦. والأغاني ٢٨: ٩٥١٠.

(١١٥١) الأغاني ٢٨: ٩٥١٣.

(١١٥٢) نفسه. وانظر في أشعار أخرى كتاب أيام العرب ٢: ٤٩٩. وتاريخ الطبري ٢: ٢١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هم ضَربوا الكتائِبَ يوم كِسرى أمامَ الناس إذْ كَـرِهوا جِلادا

ويوم ذي قار هو يوم تأكيد إحساس العربي الأنف الحمي الأبي، بالكرامة والعـزة، هو يوم تتجلى فيه إرادة التحدي الفاعلة، وهو يوم الانتصـار على الظلم والتعنت الغاشم والاستبداد المسـتعلي، اليوم الذي وصفه النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه "أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم"(١١٥٣) .

هذا اليوم الذي اباد العرب فيه "جيشا عرمرما بأسفل ذي قار"(١١٥٤) كان يوم فخر وزهو وتباه فيما يمت للشعراء الذين ذهبوا يتغنون بما أظهره المقاتلون العرب من شجاعة وصمود، وما أبدوه من حمية وإحساس بالأنفة والكبرياء. يقول أحدهم(١١٥٥):

لولا فوارِسَ لاميلٌ ولا عَزَلٌ من اللهازِمِ ما قِظتمْ بذي قارِ(١١٥٦)

إن الفوارِسَ من عِجلٍ همُ أنفوا من أن يُخَلّوا لِكسرى عَرْصَةَ الدارِ

لاقوا فوارِسَ من عِجلٍ بِشكَّتِها لَيسوا إذا قَلَّصَتْ حَرْبٌ بأغمـــار

ويقول الأعشى متباهيا ومفتخرا بانتصار قومه في هذه المعركة، ومشيرا إلى شـدة التحدي وعظمه أثناء القتال(١١٥٧) :

وجُنْدُ كِسْرى غَداةَ الجِنوِ صَبَّحَهُمْ مِنّا كتائِبُ تزجى الموتَ فانصرفوا

إذا أمالوا إلى النَّشّاب أيْـــدِيَهُمْ مِلْنا ببيضٍ فَظَلَّ الهامُ يُختَـــطَفُ

وخيلُ بكرٍ فما تنفكُّ تطحـــنُهُمْ حتى تَوَلَّوْا وكاد اليومُ يَنْتَصِـــفُ

لو أنَّ كُلَّ مَعَدٍّ كان شارَكـــنا في يومِ ذي قارٍ ما أخطأهُمُ الشَرَفُ

(١١٥٣) العقد الفريد ٥: ٢٦٢. وانظر كتاب أيام العرب ٢: ٤٩٢. وتاريخ الطبري ٢: ٢٠٧ وما بعدها.

(١١٥٤) الأغاني ٢٨: ٩٥١٣.

(١١٥٥) نفسه ٩٥١١. وانظر الشعر مع اختلاف في الأبيات في كتاب أيام العرب ٢: ٤٩٧. وتاريخ الطبرى ٢: ٢١٢ وانظر ديوان الأعشى ٣٠٩-٣١١.

(١١٥٦) ما قظتم: إشارة إلى بقاء بني بكر القيظ في ذي قار. انظر كتاب أيام العرب ٢: ٤٩١.

(١١٥٧) ديوانه: ص ٣٦١.ومع بعض الاختلاف، انظر العقد الفريد : ص ٢٦٦/٢٦٧.ونهاية الأرب ١٥: ٤٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله من قصيدة يمدح بها بني شيبان على بلائهم في يوم ذي قار[١١٥٨] :

هُمو ضربوا بالحِنوِ حِنـــوِ قُراقِرٍ ... مُقَدَّمَةَ الهامَرْزِ حـــتى تَوَلَّتِ[١١٥٩]

فثاروا وثُـرْنـــــا والمَنِيَّةُ بيننَا ... وهاجَتْ عَلَينا غَمـرَةٌ فَتَجَلَّتِ[١١٦٠]

أذاقُوهمُو كأسًا مِـنَ المَوْتِ مُرَّةً ... وَقَدْ بَذِخَتْ فُرْسانُـــهم وأَذَلَّتِ[١١٦١]

فَجادَتْ على الهامَرْزِ وسطَ بيوتِهِم ... شآبيبُ مَوْتٍ أَسْبَلَتْ واستَهَلَّتِ[١١٦٢]

ج. الأحباش

وإذا التفتنا إلى التخوم الجنوبية الغربية نجد الحبشة التي فرضت سلطتها حقبة من الزمن على اليمن. ولعل أجلى ممثل لهذه السلطة هو أبرهة الحبشي الملقب بالأشرم.

ولم يكن حكم الحبشة في اليمن بأعدل من غيره من الحكم الأجنبي فقد كان الحبش يعتدون على أعراض الناس وأموالهم ويأخذون عنوة كل ما كانوا يجدونه أمامهم حتى ضج أهل اليمن وضجروا[١١٦٣] .

فكان أن هبّ بعض سادات اليمن وثاروا على الحكم الغاشم في مواضع مختلفة. وثوراتهم وإن لم تغير من الوضع شيئا في النهاية، بسبب من إخمادها وقتل القائمين بها، إلا أنها كانت وسيلة للتعبير عن تمرد العربي على الظلم، وتحديه للسلطة التي تستهدف ببغيها وجورها حريته وكيانه وهويته.

ومن هذه الثورات، ثورة يزيد بن كبشة الذي كان من السادات البارزين في اليمن، ولما سير أبرهة إليه جيشا هزمه، مما حدا أبرهة أن يعيد الكرة، ولكن بعد أن حشد جيشا

(١١٥٨) ديوانه : ص ٣٠٩-٣١١ و ٣٥٣. وانظر كتاب أيام العرب ٢: ٤٩٧. والأغاني ٢٨: ٩٥١٣ .

(١١٥٩) الهامرز التستري كان على مسلحه كسرى بالسواد وتحت إمرته ألف من الأساورة. العقد الفريد ٥: ٢٦٣.

(١١٦٠) هاجت: ثارت وانبعثت. الغمرة: الشدة والزحام. فتجلت : تكشفت. الديوان.

(١١٦١) بذخت: تكبرت وعلت. أذلت: تاهت وترفعت. نفسه.

(١١٦٢) شآبيب: جمع شؤبوب، وهو الدفعة من المطر. أسبلت: هطلت. استهلت: انهلت واشتد انصبابها مع صوت.

(١١٦٣) انظر المفصل ٣: ٥٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لجبا من الأحباش وبعض الحميريين، ولما لم يكن لدى يزيد من القوة المسلحة والعتاد الحربي ما يمكنه من التغلب على مثل هذا الجيش، فإن النتيجة كانت محتومة وهي انخذال يزيد، الأمر الذي دفعه إلى طلب السماح والعفو من أبرهة. غير أن عددا ممن كان معه من المقاتلين أبوا الخضوع أو الإستسلام وتحصنوا في مواضعهم الى حين(١١٦٤) .

ويبدو أن قبائل من معد ثارت على أبرهة. إذ تروي الأخبار أنه توجه إليها بنفسه وغزاها في موضع باليمن يدعى خلبان، ولاشك في أنه كان متفوقا في العدد والعدة، الأمر الذي حقق له الإنتصار عليها "فاضطرت عندئذ إلى الخضوع ومهادنته"(١١٦٥) .

ولكن هذا النصر لم يتأت دون مقاومة من جانب معد الذين تحصنوا في حصن واقفلوا أبوابه. ولربما كان أبرهة يجد عنتا في اقتحام ذلك الحصن، لولا مساعدة بعض القبائل العربية الموالية والخاضعة لسلطته. ومنهم بنوسعد الذين هجموا على الحصن وبطريقة ما تمكنوا من فتح بابه، ودخلوه وجنودأبرهة. وفي هذه الحادثة ورد شعر يقول صاحبه(١١٦٦) :

ويومَ أبي يَكسومَ والناسُ حَضرٌ ... على خَلَبانَ اذ تَقْضي مَحامِلُهْ(١١٦٧)

طَوينَا لهم بابَ الحُصينِ ودُونَهُ ... عَـــزيزٌ يَمشي بالحِرابِ مَقاوِلُهْ

على أن ابرز مواجهة –وإن لم تسفر عن حرب– هي تلك التي جاءت في ثنايا حملة أبرهة على مكة. وقد تعددت الروايات حول بواعث قيام أبرهة بذلك. فبعضها يقول أن فتية من قريش دخلوا كنيسة القليس(١١٦٨) –فأججوا فيها نارا– وكانت الريح شديدة فاحترقت الكنيسة وسقطت إلى الأرض، مما أثار غضب أبرهة وحنقه، ودفعه إلى القسم بأن ينتقم من قريش بهدم كعبتهم(١١٦٩) .

(١١٦٤) نفسه: ٤٨٥.

(١١٦٥) انظر المفصل ٣: ٤٩٦.

(١١٦٦) نفسه: ٤٩٧.

(١١٦٧) خلبان: موضع في اليمن. انظر معجم البلدان.

(١١٦٨) هي كنيسة على قدر كبير من الفخامة وروعة الزخرف، بناها أبرهة بهدف صرف العرب عن كعبتهم فيصبح حجهم إليها. انظر نهاية الأرب ١: ٣٨٢/٣٨٣.

(١١٦٩) انظر المفصل ٣: ٥١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتذهب رواية أخرى إلى أن رجلا من كنانة غضب لدى سماعه بهدف أبرهة من بناء القليس، فأتاها وأحدث فيها، ثم خرج فلحق بدياره(١١٧٠) . فقابل أبرهة هذا التحدي بأن أرسل إلى بني كنانة يدعوهم أو يأمرهم بالحج إلى تلك الكنيسة. فكان تحدي بني كنانة أعنف إذ قتلوا الرسول. مما زاد في غضب أبرهة وسخطه وغيظه. فصمم على غزو مكة وهدم الكعبة "حجرا حجرا"(١١٧١) .

ويبدو أن أصحاب هذه الروايات لم يفطنوا إلى باعث قد يكون هو المحرك الحقيقي لحمل أبرهة علىغزو مكة. إنه باعث سياسي اقتصادي معا، يهدف إلى إخضاع الجزء الغربي من بلاد العرب، لسيطرة النصرانية، وبذلك يستفيد نصارى الشمال من الروم البيزنطيين، اذ يتخلصون من الضريبة الباهظة التي كان الساسانيون يفرضونها على السلع التجارية الآتية إلى بيزنطة من الهند عبر مناطق نفوذ الفرس إذ ذاك. في حين يصبح الطريق التجاري من الهند وسيلان مباشرا إلى بلاد الروم عبر غرب الجزيرة العربية، على ما في هذا الطريق من خفض لتكاليف البضائع المستوردة، ومن إشاعة لأمن وسائل النقل التجارية(١١٧٢) .

ولعل جميع هذه البواعث وغيرها، هي التي حدت أبرهة إلى العمل على تجهيز جيش من الحبش،وسار به يصحبه الفيل قاصدا مكة، الأمر الذي –على ما يبدو– استفز العرب،وجعلهم ينظرون إليه على أنه اعتداء على حريتهم الدينية،وعلى حرمة مقدساتهم. فتداعوا للتصدي لأبرهة وجنوده في محاولة لإفشال خطته ومراميه(١١٧٣) .

وممن تصدى له أحد أشراف أهل اليمن وأسيادهم يقال له ذو نفر. فدعا قومه ومن لبى نداءه من العرب إلى حرب أبرهة. وقد واجه المتصدون المعتدي، غير أنهم هزموا، وسجن أبرهة ذا نفر(١١٧٤) .

(١١٧٠) انظر السيرة النبوية ١: ٢٩. وأخبار مكة : ص ٨٦. وتاريخ الطبري ٢: ١٣١.

(١١٧١) نهاية الأرب ١٥: ٣٠٦. والمفصل ٣: ٥١٠.

(١١٧٢) نفسه؛٥١٧/٥١٨ وانظر فيما يؤيد ذلك تاريخ الطبري ٢: ١٣١.

(١١٧٣) انظر السيرة النبوية ١: ٢٩. وانظر أخبار مكة: ص٨٧. وتاريخ الطبري ٢: ١٣١/١٣٢.

(١١٧٤) نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتصدى له بأرض خثعم نفيل بن حبيب الختعي، ومن لبى دعوته وتبعه من قبائل العرب، ولكن –وفي غياب عدم التكافؤ في ميزان القوى– هزم العرب وأسر نفيل أيضا(١١٧٥) .

إن هذا التصدي، وإن لم يلحق الهزيمة بالمعتدي، لهو مؤشر على إباء هؤلاء العرب، وعلى رفضهم للسلطة الغاشمة، وكذلك على عدم خنوعهم أمام العدوان. وفي الوقت نفسه هو تعبير عن استنكارهم للخيانة، واحتقارهم لمن يتواطؤ مع العدو أو يسهل مهمته. وآية ذلك موقفهم من الدليل أبي رغال الذي انتدبته ثقيف ليدل أبرهة على طريق مكة. فحين وصل به إلى موضع يسمى المُغَمَّس(١١٧٦) مات ودفن فيه. فما كان من العرب إلا أن صاروا –فيما بعد– يرجمون قبره، ويتمثلون بذلك، كما يشير إليه قول القائل(١١٧٧):

وَأَرجُمُ قبرَهُ في كُلِّ عامٍ كَرَجْمِ الناسِ قبرَ أبي رِغالِ

وقد باءت حملة أبرهة بالفشل، وتكبدت خسائر بشرية ومادية جسيمة، وأخذ جنوده الهاربون يسألون عن الطريق إلى اليمن. فأجابهم نفيل بن حبيب بتهكم وتشف(١١٧٨) :

أينَ المَفَرُّ والإلهُ الطالِبُ والأشرَمُ المغلوبُ ليسَ الغالِبُ

وإنه وان كان أهل مكة –وفقا لما تذكره المصادر– لم يقاتلوا أبرهة ولم تقع بينهم وبينه مواجهة حربية، إلا أن تحديهم له جاء من خلال الايحاء له بان القوى الغيبية ستناصرهم وستمنعه من تحقيق هدفه؛ وهو ما يمكن استشفافه من قول عبدالمطلب لأبرهة "إن للبيت ربا سيمنعه" وحين تحداه أبرهة بقوله: "ماكان ليمتنع مني" رد عليه بإيجاز يوحي بالكثير من الثقة والتحدي: "أنت وذاك"(١١٧٩) .

(١١٧٥) نفسه: ص ٢٩.

(١١٧٦) المغمس: موضع بطريق الطائف. انظر السيرة النبوية ١: ٣١. وبلوغ الأرب ١: ٢٥٣.

(١١٧٧) المفصل ٣: ٥١٣.

(١١٧٨) تاريخ الطبري ٢: ١٣٦. وكامل ابن الأثير ١: ٤٤٦. وبلوغ الأرب: ١: ٢٥٦.

(١١٧٩) السيرة النبوية ١: ٣٢. وتاريخ الطبري ٢: ١٣٤. وبلوغ الأرب ١: ٢٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم إن من نتائج فشل أبرهة في غزوه لمكة ان اكتسبت قريش وقبائل مكة الأخرى نصرا معنويا اذ ازدادت هيبتها الدينية، وتعززت مكانتها بين القبائل العربية التي استقر في نفوسها أن الله قاتل عن قريش وأهل مكة "وكفاهم مؤنة عدوهم"(١١٨٠).

وقد تحدث بعض الشعراء عن ذلك، ومنهم عبدالله بن الزبعري فقال(١١٨١):

تنكّلوا عن بطنِ مكةَ إنـــــها ... كانت قديما لايُرامُ حَريمُهـــا

لاتَخْلُقُ الشِعرَى ليالِيَ حُـــرِّمَت ... إذ لاعَزيزَ من الأنامِ يرومُهـــا

سائلْ أميرَ الجيشِ عنها ما رأى ... ولسوفَ ينبي الجاهلين عليمُها

ستون ألفًا لم يؤبوا أرضَهـــمْ ... بلْ لمْ يَعِشْ بعدَ الإياب سقيمُها

ومنهم أبو قيس صيفي بن الأسلت الذي يجمل الخبر في قوله(١١٨٢) :

وَمِنْ صَنيعِهِ يومَ فيلِ الحُبوش ... إذ كُلُّ ما بَعثوهُ رَزَمْ(١١٨٣)

فَـــولّى وأَدبـــــرَ أدراجَهُ ... وقد باءَ بالظُلمِ منْ كانَ ثَمْ

فأرسلَ مِنْ فَوقِهِـمْ حـــاصِبًا ... فَلفّهُمْ مِثلَ لَفّ القُـزُمْ(١١٨٤)

تَحُضُّ على الصَّـــبرِ أَحْبارُهُمْ ... وقدْ ثَأَجُوا كَثُواجِ الغَنَم(١١٨٥)

(١١٨٠) بلوغ الأرب ١: ٢٥٨.

(١١٨١) نفسه.

(١١٨٢) نفسه ١: ٢٥٨/٢٥٩.

(١١٨٣) رزم: ثبت ولزم موضعه.

(١١٨٤) الحاصب: ريح تحمل التراب أو هو ما تناثر من دقاق الثلج والبرد، والسحاب الذي يرمي بهما. والقزم: صغار الغنم.

(١١٨٥) ثؤاج الغنم: صوت الغنم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نرى أن مظاهر التحدي السياسي جلت موقف العربي من السلطة الداخلية ومن السلطة الخارجية بما انطوتا عليه من ظلم واستبداد ومحاولة لسحق الهوية والكرامة.

وقد عبر الشاعر الجاهلي عن هذا الموقف من خلال الهجاء تارة، والتهديد والوعيد تارة أخرى، والتلميح والتلويح بالعصيان والتمرد الثائر أحيانا.

كما عمد إلى التباهي بالتخلص الدموي من السلطة الغاشمة، وبقتل الملوك وأسرهم وقتل أولادهم ومن يمت إليهم.

وتغنى بالانتصار على كسرى، وفخر بهزيمة جنده واساورته من قبل المقاتلين العرب البواسل.

وردد أناشيد الزهو إذ باءت حملة أبرهة ضد الكعبة بالفشل، وباءت معها بالخيبة مراميها وأهدافها المعلنة والخفية، مما حفظ لقلب الجزيرة العربية استقلالها المعنوي والمادي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

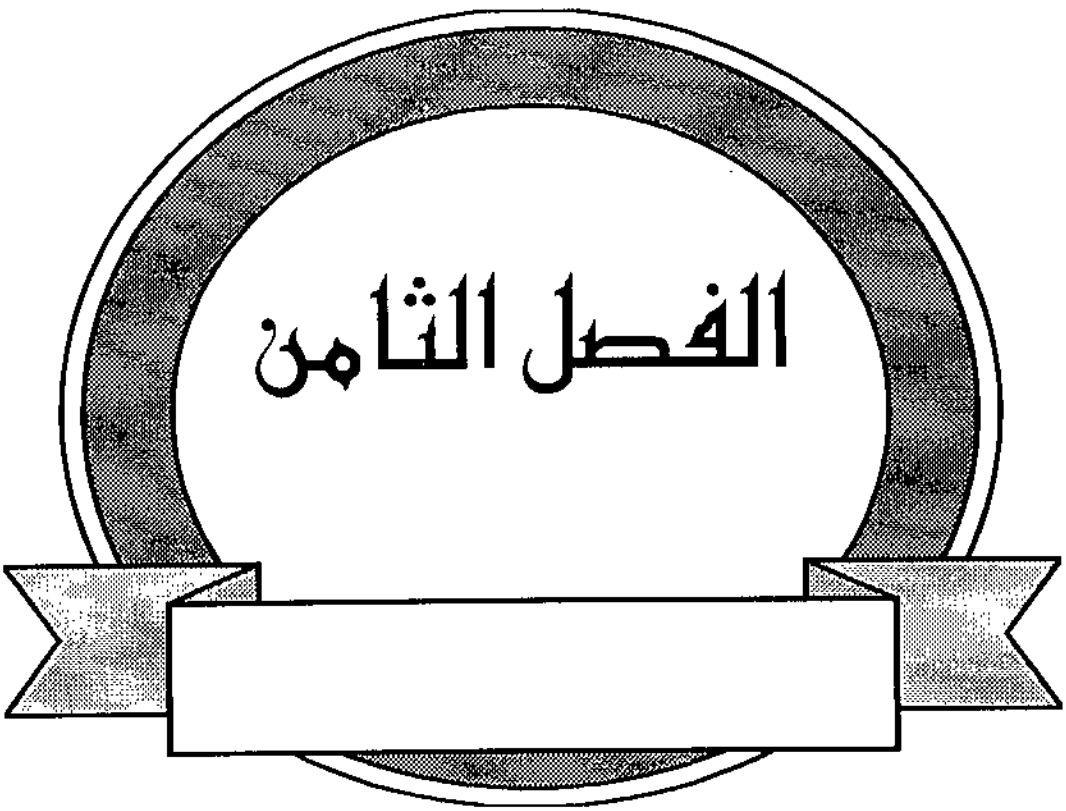

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثامن

ثلاثة شعراء متحدّين

-١-

عمرو بن كلثوم

هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان(١١٨٦) .

وأبوه كلثوم بن مالك كان سيدا من أسياد تغلب وعرف بالشجاعة والفروسية بحيث أنه وصف بـ "أفرس العرب"(١١٨٧) .

وأمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة التغلبي الذي خلف أخاه كليبا في سيادة جشم(١١٨٨).

وقد كانت قبيلة تغلب من أقوى القبائل وأشدها في العصر الجاهلي، إن لم تكن أقواها مما واتر القول عنها "لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس"(١١٨٩) . وكانت مساكنها في أعلى الفرات الأوسط وتمتد ببطء نحو الشمال الشرقي اتجاه الجزيرة العربية(١١٩٠) .

(١١٨٦) شرح القصائد السبع: ص ٣٦٩. وانظر الجمهرة: ص ٢٧٢. والأغاني ١١: ٣٨٣٨ ومعجم الشعراء ص:١٢. وشرح المعلقات العشر: ص ١٣٧. وشرح القصائد العشر: ص ٢٨٣. وسمط اللآلي: ص ٦٣٥. والخزانة ٣: ١٨٣.

(١١٨٧) انظر شرح المعلقات العشر ص ١٣٧. انظر الشعر والشعراء ١: ١٥٧. والأغاني ١١: ٣٨٣٩. وأدباء العرب ١: ١٥٢.

(١١٨٨) انظر تاريخ الأدب العربي: ص ٢٨١.

(١١٨٩) شرح القصائد العشر: ص ٢٨٣. وانظر شرح القصائد السبع: ص ٣٦٩. وانظر في أخبار انتصار تغلب على غيرها من القبائل، الأنوار والمحاسن ١: ١٦٦ و ١٦٩و ١٧٤و ١٧٩و ١٨٣و ١٩٠و ١٩٦و ٢٠٩و ٢٢٢.

(١١٩٠) تاريخ الأدب العربي: ص ٢٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذه القبيلة المنيعة، وفي بيت العز والسؤدد، نشأ عمرو بن كلثوم(١١٩١) ، ولكننا لانعرف شيئا عن مكان ولادته أو تاريخها، لإغفال المصادر وكتب الأخبار هذين الأمرين.

ويذكر بعضهم أنه ساد قومه (جشم) في سن الخامسة عشرة(١١٩٢) ، وأنه عمر حتى المائة والخمسين عاما ويذهبون إلى أنه كان "أعز الناس نفسا وحسبا وأكثرهم امتناعا"(١١٩٣)، ولعل قولهم هذا مبني على حادثة موته. ومفاد هذه الحادثة أو الخبر أن النعمان بن المنذر كان يبعث إلى عمرو بحباء في كل سنة، فلما اسن عمرو جعل يبعث إلى ابنه الأسود بمثله. فقال عمرو: "مت حتى ساواني بولي". وحلف لايذوق طعاما ولا شرابا إلا الخمر الذي أخذ يشربه صرفا حتى مات(١١٩٤) .

ومن المعروف ان سيادة القوم كان لها عند العرب شروط ومقومات، منها الشجاعة والفروسية، والنسب الصريح، والكرم، والحصافة والحكمة، وقد اجتمع معظم ذلك لشاعرنا إلى جانب ما تميز به من موهبة أدبية وبلاغة في القول.

ولكن يبدو أن شجاعته وجرأته البالغتين جعلتا منه فاتكا يضرب به المثل في نظر بعض الأخباريين والرواه(١١٩٥) . ولعلهما كانتا مواكبتين له منذ نعومة أظفاره، ونمتا وتبلورتا مع تقدم العمر به، الأمر الذي حدا البعض إلى نسج أسطورة حول العلم مسبقا بأنه سيولد لليلى بنت مهلهل غلام تجتمع فيه صفات وشمائل السيد الشمردل(١١٩٦) الذي "يقدم إقدام الأسد"(١١٩٧) ويكون "أشجع من ذي كبد هزبر"(١١٩٨) .

(١١٩١) أشار عمرو بن كلثوم إلى ذلك في ديوانه: ص ٢٣و ٣٥و ٥٢.

(١١٩٢) انظر الأغاني ١١: ٣٨٣٩. ومعجم الشعراء: ص ١٢،وسمط اللآلي: ص ٦٣٦. وتاريخ الأدب العربي؛ ص ٢٨١. وشرح ديوان امرئ القيس: ص ٣٦٩.

(١١٩٣) الجمهرة: ص ٨٦. وشعراء النصرانية: ص ١٩٨.

(١١٩٤) انظر النقائض: ص ١٩٩ (اوروبا). وشعره : ص ٦٠٩. وديوانه : ص ٤٢.

(١١٩٥) انظر المحبر: ص ١٩٦ و ٢٠٣. ومعجم الشعراء: ص ١٢. وسمط اللآلي: ص ٦٣٦. ومجمع الأمثال ٢: ٨٩.

(١١٩٦) انظر الأغاني ١١: ٣٨٣٨. وسمط اللآلي: ص ٦٣٦. والخزانة ٣:١٨٣.

(١١٩٧) الأغاني ١١: ٣٨٣٩.

(١١٩٨) نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونعثر في بطون الكتب على خبر، إن صح، فلاريب في أنه دليل جلي على جرأة عمرو بن كلثوم،ولجوئه إلى التحدي منذ حداثة سنه. ومفاد الخبر أن عمرا ضمه -وهو لايزال غلاما- ووالده كلثوما وجده مهلهلا مجلس شراب،وكانت أمه ليلى تصب الشراب لأبيها وزوجها بادئة من اليمين حيث جلس عمرو، ولكنها تخطت ابنها ولم تقدم له شرابا، فغضب عمرو من صنيعها وأنشأ يقول(١١٩٩) :

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أُمَّ عمرٍو وكانَ الكأسُ مَجراها اليمينا

وما شَرُّ الثلاثةِ أُمَّ عمــرٍو بصاحِبكِ الــذي لاتَصْحَبينا

وهنا غضب والده ولطمه على وجهه وقال: "يالكع، بلى والله شر الثلاثة. أتجترئ أن تتكلم بهذا الكلام بين يدي؟! وحين قتل شاعرنا عمرو بن هند انتصارا لكرامة أمه وعزتها قالت له: "**بأبي أنت وأمي، أنت والله خير الثلاثة اليوم**"(١٢٠٠)

ومن مظاهر التحدي عند الشاعر:

أ. الغارة والحروب:

سبق أن أشرنا إلى ما عرف عن شدة تغلب وقوتها، وتعدد انتصاراتها في حروبها وفي غاراتها على أعدائها. وتذكر المصادر أن عمرو بن كلثوم كان على قدر من المشاركة بها وأنه -أحيانا- كان يرئس قومه فيها.

ومن ذلك ما يرويه الشمشاطي من أن عمرا أغار في جمع من بني تغلب على بني ذبيان بمكان يقال له خو، والذنائب. ووقع بينهم قتال شديد، هزمت بنو ذبيان على أثره وأسر عمرو -فيمن أسر ذلك اليوم- حذيفة بن بدر، وجاء به،مع نعم كثيرة وسبايا، بني تغلب. فاشاروا عليه بقتله، فأبى. ولما عرض حذيفة أن يفدي نفسه منه بألف ناقة

(١١٩٩) انظر النقائض: ص ٨٨٦ (اوروبا). والجمهرة: ص ٢٧٤. والخزانة ٣: ١٧٨. وشرح المعلقات العشر: ص ١٣٨. هذا ويرجح الشنقيطي أن يكون قائل هذين البيتين هو عمرو بن عدي.

(١٢٠٠) كتاب أيام العرب ٢: ٦٠٧. والنقائض: ص ٨٨٦ (اوروبا) . والخزانة ٣: ١٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حمراء، قال له عمرو: "أنت سيد من سادات مضر، وأنا أحب الاصطناع إلى مثلك"(١٢٠١) ثم أطلقه وجز ناصيته، ورده إلى قومه، وقال في ذلك(١٢٠٢) :

ألم تَرَ أنني رَجلٌ صَبــورٌ ... إذا ما المَرءُ لم يَهْمُمْ بِصَبْرِ

وأني بالذَنائبِ يــــومَ خَوٍّ ... مَنَنتُ عـلى حُذَيفَةَ بعدَ أسرِ

ولو غيري تجيءُ بهِ أَسيراً ... لنالَ بـــه رغيبةَ ذُخرِ دَهرِ

وقد شكر حذيفة عمرا بقصيدة منها قوله(١٢٠٣) :

إني لَمُثنٍ وإنْ كانَتْ عشــيرَتُهُ ... خُزْرَ العُيونِ على عَمرِو بنِ كُلثومِ

المطلقِ الغُلَّ عني بعدما شَنَجَتْ ... كفي وما ذاك من عمرٍو بِمَكْتومِ

إنْ يشكروكَ فإنَّ الشُكرَ مَكْرُمَةٌ ... أَوْ يكفروكَ فما شُكــــري بِمَذْمُومِ

وخرج عمرو في عدة من بني تغلب قاصدا غزو صــداء، وكانت جمجمة مذحج(١٢٠٤) وكان الطريق بعيدا، فكلت خيله، ولكنه صبح صداء في وادي الأخرمين، فخرجت إليه وعلى رأسها جحش الصدائي، فتبارز وعمرا والقتال دائر حولهما. ثم طعن عمرو جحشا فقتله، وقتل معه سبعون رجلا، وغنمت بنو تغلب كثيرا من الأسرى والسبايا والنعم.

وكان في الأسرى فارس قد قتل بعضا من بني تغلب، فأخذه عمرو ليقتله، فساومه الفارس في شراء نفسه إلى أن رضي عمرو بما عرضه عليه. غير أن عمرا آثر أن يمن على الفارس وأن يصطنعه فقال له: لك من مالي ما عرضت، ولك نفسك"(١٢٠٥) وحمله وكساه. وفي هذه الغارة قال عمرو قصيدة منها(١٢٠٦) :

(١٢٠١) الأنوار والمحاسن ١: ١٥٧.

(١٢٠٢) نفسه ١: ١٥٧. وانظر ديوانه: ص ٤٧.

(١٢٠٣) الأنوار والمحاسن ١: ١٥٨.

(١٢٠٤) نفسه ١: ١٦٠ والجمجمة: القبيلة التي تجمع البطون وينسب إليها دونهم. أو أربع قبائل بين كل قبيلتين شأن. لسان العرب، مادة جمم.

(١٢٠٥) الأنوار والمحاسن: ص ١٦٥.

(١٢٠٦) نفسه. والأسل: الرماح. لسان العرب، مادة أسل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليجز اللهَ من جُشَمِ بنِ بَكْـرٍ ... فوارِسَ نَجْدَةٍ خيرَ الجَـزاءِ

بما حامَوْا عليَّ غَـداةَ دارَتْ ... بوادي الأَخْرَمَيْنِ رَحَى صُداءِ

قتلنا مِنهُمُ سَبعين جَحْشـا ... وَوَلّـوْنا بأَقْفِـيَةِ الإمـاءِ

وَأُبْنا بالهِجانِ مُـرَدَّفاتٍ ... خَطَبناهُنَّ بالأَسَلِ الظِّماءِ(١٢٠٦)

وَقُدْنا مِنْهُمُ سَرَواتِ قَـوْمٍ ... كَجُرْبِ الإبْلِ تُطْلى بالهِـناءِ

غير أن عمرا كان يقع في الأسر، وعلى قلة. ومن ذلك أنه أغار يوما على بني تميم ثم على حي من بني قيس بن ثعلبة، فغنم منها كثيرا، وأسر وسبى، وفي اثناء عودته مر ببني حنيفة في اليمامة، فخرجوا لقتاله. ويبدو أنه ومن معه كانوا منهكين من غزاتهم لذا فقد هزم عمرو في القتال، وتمكن زعيم بني حنيفة المدعو يزيد بن عمرو من أسره، ثم أطلق سراحه وأكرمه بأن "ضرب عليه قبة ونحرله وكساه وحمله على نجيبه وسقاه الخمر"(١٢٠٧)

وقد وصف عمرو بن كلثوم وقائع هذا اليوم في قصيدة مدح فيها يزيدا. قال(١٢٠٨):

ألا أَبلِغْ بـني جُشَمَ بنِ بَكْرٍ ... وَتَغْلِبَ كُلَّمـا أَتَيا حِلالا

بأَنَّ الماجِدَ القَرْمَ ابنَ عَمروٍ ... غَداةَ نَطاعِ قد صَدَق القِتالا(١٢٠٩)

كَتيبَـتُهُ مُلَمْلَمَةٌ رَداحٌ ... إذا يَرْمونَها تُغْني النِّبالا(١٢١٠)

جَزى الله الأَغَرَّ يزيدَ خيراً ... ولَقّـاهُ المَسَـرَةَ والجَمالا

بِمأخَذِهِ ابنَ كُلثومِ بنِ سَعْدٍ ... يَـزيدُ الخيرِ نازَلَه نِزالا(١٢١١)

(١٢٠٧) انظر الأغاني ١١: ٣٨٤١/٣٨٤٢. وشعره: ص ٥٩٢/٥٩٣.وشعراء النصرانية: ٢٠٠/٢٠١.

(١٢٠٨) الأغاني ١١: ٣٨٤٣.وشعره : ص ٥٩٣. وشعراء النصرانية : ص ٢٠١.

(١٢٠٩) القرم: السيد المعظم. لسان العرب، مادة قرم. ونطاع: اسم ارض باليمامة. شعر عمرو بن كلثوم. وقيل ماءه في بلاد بني تميم. معجم البلدان.

(١٢١٠) رداح: ثقيلة جرارة. الديوان.

(١٢١١) (ابن سعد): في الأغاني ١١: ٣٨٤٣. (وابن عمرو) في شعراء النصرانية: ص ٢٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن المرجح أن يكون عمرو قد اشترك في الحروب التي وقعت بين تغلب وبكر ولكن المظان لاتمدنا بشيء عن أخباره في هذا المجال، عدا خبر واحد يورده أبو عبيدة ويأتي ذكر عمرو فيه عرضا، وخبر ثان يورده الشمشاطي، وأيضا فيه ذكر عارض لشاعرنا.

فقد تحدث أبو عبيدة وباسهاب عن يوم الكلاب الأول، الذي كان طرفا القتال فيه الأخوين شرحبيل بن الحارث بن عمرو الكندي بمن معه من قبائل عديدة من بينها تميم وبكر؛ وسلمة بن الحارث بن عمرو الكندي بمن معه من تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة. وقد أسفر القتال في هذا اليوم عن هزيمة بكر وقتل شرحبيل(١٢١٢) . وقد جاء ذكر عمرو بن كلثوم في شعر منسوب لسلمة بن الحارث يتصل فيه من جريرة قتل أخيه، إذ يقول(١٢١٣) :

أَتَى عَلِيٌّ استَتَبَّ لَومُكُما ولَوْ تَلوما عَمرًا ولاعْصَما

وقد عقب أبو عبيدة على هذا البيت موضحا ما أبهم فيه، فقال إن سلمة "يعني عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم، وعصم بن النعمان بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير. وعصم هو أبو حنش، يعني: لوموا هؤلاء فهم قتلوه"(١٢١٤) كما يشير في موضع لاحق من هذا الخبر إلى أن عمرو بن كلثوم وأفنون بن معشر وجماعة شعراء بني تغلب قالوا في ذلك اليوم اشعارا كثيرا، وأنه تركها لطولها(١٢١٥) .

وأما الشمشاطي فيتحدث عن يوم أوارة الأول ويروى أن بني تغلب ورئيسها عمرو بن كلثوم التغلبي سارت والنمر ومعهم عمرو بن هند لقتال بكر وتميم، فالتقوا على جبل أوارة واقتتلوا أياما ثم "ظهرت تغلب وانهزمت بكر، وحازت تغلب بيوتهم".(١٢١٦) وقد

(١٢١٢) انظر كتاب أيام العرب ٢: ٤٩. وما بعدها. والنقائض ٢: ١٥٦. وما بعدها. والأغاني ١٢: ٤٣٧٥ والأنوار والمحاسن: ص ٢٠٩ وما بعدها.

(١٢١٣) كتاب أيام العرب ٢: ٤٨. والنقائض ٢: ١٥٧. وفي الأغاني ١١: ٤٣٧٦ ينسب هذا الشعر لامرئ القيس.

(١٢١٤) كتاب أيام العرب ٢: ٤٨.

(١٢١٥) نفسه ٢: ٥٩.

(١٢١٦) انظر الأنوار والمحاسن: ص ٢٢٣. وكامل ابن الأثير ١: ٥٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمر عمرو بن هند بذبح الأسرى من بكر وأن تحرّق النساء، فاستوهبهن عمرو بن كلثوم وأجيب إلى طلبه(١٢١٧) . على أن الشاعر نفسه يزودنا بشيء من أخبار الغارات والحروب التي شنها وقومه على خصومهم، وذاك من خلال بضع قصائد، ومقطعات شعرية له قالها في مجال التباهي والفخر بانتصارهم، أو في معرض التهديد والوعيد بشن الغارة تلو الغارة.

فمما جاء في التباهي والفخر قوله عن غارة لقومه على حي كلب(١٢١٨) :

ألا هَلْ أتى بنتَ الثُّوَيْرِ مغارُنا ... على حَيِّ كَلبٍ والضُحى لم تَرَحَّلِ(١٢١٩)

صَبحناهُمُ مِنا فَوارِسَ نَجدَةٍ ... وَشهباءَ تُردي بالسِّهامِ المُثَمَّلِ(١٢٢٠)

تركناهم صَرْعى لدى كُلِّ مَزْحَفٍ ... تَجُرُّهمُ عُرْجُ الضِّباعِ بِمَحفَلِ

لقد صبح الشاعر وقومه كلبا بغارة شديدة الوطأة، تمكن خلالها فرسان كتيبتهم الشهباء من الفتك بالعدو، وأكثروا فيهم القتل بحيث أن الجثث انتشرت في جميع ارجاء المعركة، وتركها من ولى الأدبار من العدو نهبا للضباع الشرهة.

وفي غارة لتغلب على تميم والرباب، أسفرت عن انتصار تغلب وإفناء جموع خصومهم في موضع يقال له ثأج، يفخر عمرو بن كلثوم بهذا النصر ويتباهى بكثرة ما حازوه من الغنائم والنهاب(١٢٢١) :

جَلَبْنا الخَيْلَ مِن كَنَفَي أريك ... عوابِسَ يَطَّلِعْنَ من النِّقابِ(١٢٢٢)

(١٢١٧) انظر الأنوار والمحاسن: ص ٢٢٤/٢٢٥. وفي كامل ابن الأثير ١: ٥٥٣ ان الذي استوهبهن رجل من قيس بن ثعلبة منقطعا إلى المنذر بن ماء السماء. وانظر ديوان الأعشى: ص ١٣٦.

(١٢١٨) شعره : ص ٥٩٧. وديوانه: ص ٥٦. وانظر في معنى مقارب ديوانه: ص ٤٥و ٤٨.

(١٢١٩) بنت الثوير: لعلها زوجة الشاعر. ترحل: ترتفع.

(١٢٢٠) شهباء: كتيبة شهباء لما فيها من بياض السلاح والحديد في حال السواد. لسان العرب، مادة شهب.
تردي: ترمي. المثمل: بمعنى السام القاتل.

(١٢٢١) شعره: ص ٦٠٠. وديوانه: ص ٢٧.

(١٢٢٢) أريك: اسم جبل بالبادية، وقيل اسم واد. معجم البلدان.
النقاب: جمع نقب، وهو الطريق الضيق في الجبل. لسان العرب، مادة نقب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صَبَحناهُنَّ عَنْ عَرَضٍ تميماً ... وَأتْلَفَ ركضُنا جمعَ الرِّبـــابِ

فـــأفنينا جُمـــوعَهُمُ بِثاجٍ ... وَكَرّتْ بالغَنائِمِ والنِّهـابِ(١٢٢٣)

ويبدو أن احد بني عجل من ربيعة، وهو عمرو بن قيس، قد استفز شاعرنا واستثاره بأمر أو قول -لم تتبننا به المظان- مما حداه إلى توجيه التهديد العنيف والوعيد الصارم بشن الغارة بعد الغارة "تحرب المال والنعم"(١٢٢٤) ولايعيقها تلون المكان ولا اختلاف الزمان والشاعر لن يكون منفردا في الغارة بل يأتي بالهم والغم لابن قيس وربعه، فيقول(١٢٢٥)

أقيسَ بنَ عمروٍ غارةٌ بعَد غارةٍ ... وَصُبّةَ خَـيْلٍ تُحْرِبُ المَـالَ والنَّعَمْ(١٢٢٦)

إذا ماوهَـى غيثٌ وأمرعَ جانِبٌ ... صَبَبْتُ علـيهِ جَحفَلاً غانِظاً لَهُمْ(١٢٢٧)

فإن أنا لَمْ أُصْبِحْ سَوامَكَ غارةً ... كريعِ الجَـرادِ شَلَّهُ الريحُ والرَّهْمْ(١٢٢٨)

فلا وضَعَـتَ أنثى الي قِناعَها ... ولا فازَ سَهمي حينَ تَجتَمِعُ السُّهُمْ(١٢٢٩)

ب. الهجاء:

حين ننظر في هجو عمرو بن كلثوم لغيره، نراه ينصب بوجه مخصوص على الملوك. ولانقع فيما بين أيدينا من شعره على هجاء موجه إلى السوقة مثلا، بل إننا لانجد له هجاء في اي من نظرائه من أشراف القبائل وأسياد العشائر. ولا ندري هل كان له

(١٢٢٣) ثأج: عين من البحرين على ليال. وقيل : قرية بالبحرين. معجم البلدان.

(١٢٢٤) شعره: ص ٦٠١. وديوانه: ص ٥٨.

(١٢٢٥) نفسه.

(١٢٢٦) صبة: جماعة.

(١٢٢٧) وهي: انبثق بشدة. لسان العرب، مادة وهى. غانظ: غنظة : همه. لهم: سباق أو عظيم. لسان العرب، مادة لهم.

(١٢٢٨) ريع: جماعاته المنضمة بعضها إلى بعض. شلة: طرده وساقه. الديوان

الرهم: المطر الخفيف الدائم.

(١٢٢٩) القناع: ما تتقنع به المرأة من ثوب يغطي رأسها ومحاسنها. لسان العرب، مادة قنع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هجاء في غير الملوك، وضاع ذلك فيما ضاع من شعره، أم أن الرواة شغلوا بمعلقته عما سواها مما نظمه أو أنشده في حياته المديدة.

فمما وصلنا من هجائه بضع مقطعات أو أبيات متفرقة، موجهة لعمرو بن هند أو لأخيه النعمان بن المنذر.

ففي هجوه لعمرو بن هند نراه يصفه تارة بأنه لايحفظ العهد والأمانة والذمام إذ يحمّل رهطا من بني تغلب جريرة غيرهم، وفي ذلك ظلم لهم واعتداء عليهم كما يقول(١٢٣٠) :

ألا من مُبْلِغٌ عَمرَو بنَ هِنْدٍ فمـــا رُعِيَتْ ذَمامَةُ من رَعَيْتا

أَتَغْصِبُ مالِكاً بِذنوب تَيْمٍ لقد جِئْتَ المحارِمَ واعتَدَيْتا(١٢٣١)

وأخرى يصفه بأنه لئيم العنصر، ويعرض به من حيث عدم محافظته على سلامة من ينزل في جواره(١٢٣٢) :

لايستـــوي الأَخَوان أمّا بكرُنا فيديـــن للملكِ اللئامِ العُنْصُرُ

أَخُماعُ لو أَصْبَحْتِ وَسْطَ رجالِهم عَرَفَتْ خُماعَةُ أنها لاتُخْفَرُ(١٢٣٣)

وفي هجائه للنعمان بن المنذر يتطرق إلى سليمى، أم النعمان -فيعيره بها، من حيث الحسب والنسب، كونها من أسرة يعمل بعض أفرادها بالحدادة والنسيج، وهو أمر كان العرب يحتقرونه، ولايعدون من أهل الشرف والرفعة إلا من كانوا أهل حرب يقتنصون أرزاقهم بالقوة وبالحرب لابالصناعة. وإذ يفرغ الشاعر من التعيير، يتحول إلى هجاء سليمى فينعتها بأنها مثقلة بما في طبعها من لؤم ومنقصة(١٢٣٤) :

(١٢٣٠) ديوانه: ص ٢٨. وشعره: ص ٥٩٥.

(١٢٣١) الغصب: الظلم. ومالك: بنو مالك بن بكر رهط من بني تغلب. تميم: بنو تميم اللات بن ثعلبه. رهط من بكر بن وائل . الديوان.

(١٢٣٢) ديوانه: ص ٤٠. وشعره : ص ٥٩٤.

(١٢٣٣) خماعة: بطن من بني ضبيعة بن ربيعة.

(١٢٣٤) انظر الأغاني ١١: ٣٨٤٤/٣٨٤٥. وديوانه: ص ٣٠ وشعره: ص ٥٩٥. وشعراء النصرانية: ص ٢٠٣. وشرح ديوان امرئ القيس: ص ٣٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حَلَّتْ سُلَيمى بِخَبْتٍ بعد فِرتاجِ ... وقد تكونُ قديماً في بني ناجِ(١٢٣٥)

اذ لاتُرَجّي سُليمى أن يكونَ لها ... مَنٌ بالخَورُنَقِ مِن قَيْنٍ ونَسّاجِ(١٢٣٦)

ولايكونُ على أبوابِها حَرَسٌ ... كما تَلَفَّفَ قِبطِيٌّ بديبـــــاجِ (١٢٣٧)

تمشي بِعدلَينِ مِن لُؤمٍ ومَنقَصَةٍ ... مَشيَ المُقَيَّدِ في اليَنبوتِ والحَاجِ(١٢٣٨)

وأما النعمان نفسه فهو الأدني إلى اللؤم،والألم خالا،والأعجز أبا، وهـو الأجدر أن يكون خاله حدادا ينفخ الكير "ويصوغ القروط والشنوف بيثربا"(١٢٣٩) ، وفي ذلـك تعريض ليس بالنعمان فحسب،وإنما بأسرة أمه ممثلة بخاله الحداد.

جـ. التهديد والوعيد

وتهديد الشاعر موجه –في مجمله– إلى الملوك كما الهجاء، إلا ما جاء في معلقتـه من تهديد وتوعد لبني بكر بن وائل. وقد توعد النعمان بن المنذر وأحـد خواصـه فقال(١٢٤٠):

ألا أبلغـــا عني سُلَيماً وَرَبَّهُ ... فزيدا عَلَيَّ مِنرَةً وَتَغَضُّـــبا(١٢٤١)

فإنْ كانَ جِدّ فاسْعَيا ما وَسِعْتُما ... وإنْ كانَ لِعبٌ آخرَ الدهـــرِ فالعَبا

ومِنْ بَعدِكَ الليثُ المُجَرَّبُ وَقْعُهُ ... بِحِسلَيْنِ لمّا يَعدُوا أنْ تَضَبَّبا(١٢٤٣)

(١٢٣٥) الخبت: المطمئن من الأرض فيه رمل. وقيل: هو سهل في الحرة. وقيل: هو ما تطاطـأ من الأرض وغمض، فإذا خرجت منه أفضيت إلى سعة. معجم البلدان. فرتاج: موضع في بلاد طيئ، وقيل: ماء لبني أسد. معجم البلدان،بنو ناج: بطن من عدوان.

(١٢٣٦) القين: العبد.

(١٢٣٧) القبطي: مفرد الأقباط. الديباج: ثوب لحمته وسواه من الحرير. ديوانه.

(١٢٣٨) اليَنبوت: ضرب من النبات، وهو نوعان، أحدهما ذو شوك، وهو المقصود هنا. والحاج : نوع من الشوك. ديوانه.

(١٢٣٩) انظر الأغاني ١١: ٣٨٤٥. وديوانه : ص ٢٥. وشعره : ص ٥٩٤. وشعراء النصرانية: ص ٢٠٣.

(١٢٤٠) ديوانه: ص ٢٥. وشعره : ص ٥٩٤.

(١٢٤١) المنرة: العداوة.

(١٢٤٢) الحسل: ولد الضب. تضببا: صارا ضبين. الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو في البداية يعلن عن استخفافه بعداوة خصميه وغضبهما، ثم يهددهما بأنه يلاحقهما كما يلاحق الليث الشجاع الخبير بالإيقاع، فريسته الضعيفة الجبانة، التي لايكون أمامها من سبيل للنجاة سوى الفرار.

ويبدو أن النعمان حين سمع بهجاء عمرو بن كلثوم له وتوعده، ثار وغضب فتوعد الشاعر. ولكن هذا قابل الوعيد بأحد منه وأعنف، إذ دعا كاتبا من العرب فكتب إليه(١٢٤٣) :

ألا أَبْلِغِ النعمانَ عني رسالةً ... فمدحُكَ حَوليٌّ وذمُّكَ قارِحُ(١٢٤٤)

متى تَلقَني في تَغلبَ ابنةِ وائلٍ ... وأشياعِها ترقى إليك المَسالِحُ(١٢٤٥)

فهو يتهدده بمواجهة حربية ومعه قبيلته تغلب بسلاحها وعتادها وعنفوانها.

وقد سبق أن ذكرنا خبر التهديد والوعيد المتبادلين بين شاعرنا والملك الغساني الحارث بن أبي شمر. وقد آل ذلك إلى صدام مسلح بين جموع تغلب وجموع الحارث، وانتهى الصدام بهزيمة بني غسان وقتل الحارث ومعه عدد كبير من أتباعه(١٢٤٦) . وفي ذلك قال شاعرنا وبكثير من التحدي والتشفي(١٢٤٧) :

هلّا عَطَفْتَ على أخيكَ إذا دعا ... بالثُكلِ وَيْلَ أبيك يا ابنَ أبي شَمِرْ

فَذُقْ بالذي جَشَّمْتَ نفسَكَ واعتَرِفْ ... فيها أخاكَ وعامرَ بن أبي حُجُرْ

(١٢٤٣) الأغاني ١١: ٣٨٤٤. وشعره : ص ٦١١. وشعراء النصرانية: ص ٢٠٢. وشرح ديوان امرئ القيس: ص٣٣٥. والبيت الأول فقط كماكرنكو في الصناعتين: ص ٢٩٣. وانظر مصادر الشعر الجاهلي: ص ١١٣و ١٢٩.

(١٢٤٤) القارح من ذي الحافر كمنزلة البازل من الإبل. ولايبزل البعير،أي لايطلع نابه، إلا في السنة الثامنة أو التاسعة. وقيل: القارح ما استتم الخامسة وسقطت سنه التي تلي الرباعية ونبت مكانها نابه. لسان العرب، مادة قرح.

(١٢٤٥) ترقى: تصعد. المسالح: جمع المسلح أو المسلحة وهي القوم ذوو السلاح. الديوان.

(١٢٤٦) انظر كتاب أيام العرب ٢: ٥٧٩/٥٨٠. والنقائض: ص ٨٨٥(اوروبا) والأغاني ١١: ٣٨٤٣/٣٨٤٤. وكامل ابن الأثير ١: ٥٣٩.

(١٢٤٧) كتاب أيام العرب ٢: ٥٨٠ وشعراء النصرانية: ص ٢٠٢. وشعره : ص ٦٠٢. وديوانه: ص ٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي معلقة الشاعر يمكن تبين قدر كبير من التهديد والوعيد، هذه المعلقة التي تضج فخرا وزهوا ومباهاة بتغلب، فيما يمت إلى الحسب والقوة والمنعة والمآثر في السلم والحرب. والتي عظمها بنو تغلب كثيرا، وغدت روايتها الشغل الشاغل لكبارهم وصغارهم. الأمر الذي جعلهم عرضة للهجاء ولاسيما من بعض شعراء بكر بن وائل. فقد قال شاعرهم(١٢٤٨) :

ألهى بني تغلبَ عن كلِ مَكرُمَةٍ ... قَصيدةٌ قالها عمرُو بنُ كُلثوم

يَروونَها أبـــداً مُذْكانَ أوّلُهُمْ ... يـالَلرجالِ لِشعرٍ غيرِ مَسؤومِ

هذا ويرد في المعلقة بيت يختزل مجمل معاني التحدي في كلمة واحدة "حديا"،التي لاترد في قول شعري لأي من الشعراء الجاهليين الآخرين. ففي البيت(١٢٤٩) :

حُدَيّا الناسِ كلِّهِمُ جميعاً ... مُقارَعَةً بنيهِم عَنْ بنينا(١٢٥٠)

إشارةٌ –ومن خلال كلمتي (كلهم جميعا) بتواليهما– إلى الشمولية والإحاطة في استهداف التحدي، ونسخ أي استثناء منه. وكأنما الشاعر يرمي إلى تأكيد تميز قومه ورهطه على غيرهم، بما هم عليه من عنفوان وشدة بأس وقوة في العدد والعدة.

ومع هذا، فإن عمرو بن كلثوم يعمد –وفي أبيات معينة– إلى التخصيص في التحدي،الذي يتخذ مظهر التهديد والوعيد لبني بكر بن وائل. فبكر وإن كانت تلتقي مع تغلب في الجد الأعلى، إلا أنه ولسبب لامجال للتطرق إليه هاهنا، قد تقطعت بينها وبين أبناء عمومتها حبال التفاهم وأواصر الود، وتناسى الطرفان رابطة الدم الواحد، فأصبحا خصمين. وبهذا الخصم يعرض شاعرنا متحديا ومتوعدا فيقول(١٢٥١) :

(١٢٤٨) الأغاني ١١: ٣٨٤٠. وشعراء النصرانية: ص ٢٠٣. وشرح ديوان المرئ القيس: ص ٣٣٦. ومصادر الشعر الجاهلي: ص ١١٠و ٢٣١.

(١٢٤٩) شرح القصائد السبع: ص ٣٩٩. والجمهرة: ٢٨٦. وشرح المعلقات السبع: ص ١١٧. وشرح القصائد العشر: ص ٣٠٢.

(١٢٥٠) مقارعة: مخاطرة أو مراهنة. شرح القصائد السبع.

(١٢٥١) شرح القصائد السبع: ص ٤١٣/٤١٤. والجمهرة ٢٩٢/٢٩٣. وشرح المعلقات السبع: ص ١٨٣. وشرح القصائد العشر: ص ٣١٤/٣١٥. وديوانه: ص ٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إليكُم يا بني بكـــــرٍ إليكم ... ألمّا تَعرِفوا منا اليقينـــا[١٢٥٢]

ألمّـــا تَعـــرِفُوا منّا ومنكم ... كَـــتائِبَ يَطَّعِـــنَّ ويَرتَمينا

نقودُ الخيلَ داميةً كُلاهـــــا ... إلى الأعداءِ لاحقةً بُطونا[١٢٥٣]

علينا البيضُ واليَلَبُ اليَماني ... وأسيافٌ يَقُمْنَ وَيَنْحَنينـا[١٢٥٤]

وواضح أن في هذا التهديد إنذارا بمهاجمة الخصم ومحاربته، ولكن الأمر لم يكن هكذا في تصدي الشاعر لعمرو بن هند،إثر حادثة استفزاز أم الملك لأمه ليلى ومحاولتها إذلالها[١١٩٥] . وقد جاء هذا التصدي عاصفا مشبعا بالثورة للكرامة ،والرفض القاطع للاذلال والانتقاص من القدر والذات، وجاء التعبير عنه بأسلوب الاستفهام الإنكاري كي يكون أشد وقعا وأعمق أثرا، وليس ذلك فحسب بل إنه لمدعم بالتكرار الهادف إلى تثبيت القوة الإنكارية الرافضة لأهداف الملك وتوجهاته نحو الشاعر وأمه[١٢٥٦]:

بأيِّ مشيئةٍ عمرَو بنَ هندٍ ... نكونُ لِقَيْلِكُمْ فيـــها قَطينا

بأيِّ مشيئةٍ عمرَو بنَ هندٍ ... تطيعُ بنا الوُشاةَ وَتَزْدَرينا

بأي مشيئةٍ عمرَو بنَ هـندٍ ... تَرى أنّا نكونُ الأرذَلينـــا

(١٢٥٢) اليكم: ارجعوا وتنحوا وتباعدوا عن مباراتنا . شرح المعلقات السبع.

(١٢٥٣) لاحقة بطونا: ضامرة. الجمهرة.

(١٢٥٤) البيض: الخوذ. واليَلب: الدرع. وفي شرح القصائد السبع: ترسة من جلود الإبل يعمل باليمن. وقال بعض أهل اللغة: جلود تلبس تحت الدروع.

(١٢٥٥) انظر القصة مثلا في كتاب أيام العرب ٢: ٦٠٥/٦٠٦. والشعر والشعراء: ١٥٧/١٥٨. والأغاني ١١: ٣٨٣٩/٣٨٤٠. وسمط اللآلي: ص ٦٣٦. والخزانة ٣: ١٨٤/١٨٥.

(١٢٥٦) في شرح القصائد السبع: ص ٤٠١/٤٠٢، وشرح المعلقات السبع: ص ١٧٨/١٧٩. وشرح القصائد العشر: ص ٣٠٦/٣٠٧. البيت الأول والثاني فقط. وفي الجمهرة: ص ٢٨٧ هناك بيت رابع صدره كما في المتن، وعجزه على النحو الآتي (تقدمنا ونحن السابقون). والخزانة ٧: ٤٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم ينطلق الشاعر من التصدي والتنديد إلى التهديد والوعيد، بادئا بالاستخفاف بتهديد الملك له وتوعده، ومثنيا بالتهديد المعاكس إذ يؤكد أن كل من نازع الشاعر وقومه، قاصدا مغالبتهم خاب وباء بالفشل(١٢٥٧) :

تَهَدَّدْنا وأوعِدنا رُويـدًا ... متى كنا لأمِكَ مُقتَوِينا(١٢٥٨)

فإن قناتَنا ياعمرُو أعيتْ ... على الأعداءِ قبلَكَ أن تلينا

ولعلنا نتساءل هنا: إذا كان شاعرنا ووفقا لما ذهب إليه بعض الرواة(١٢٥٩)، قد نظم هذه الأبيات إثر فتكه بعمرو بن هند، فلم جاء التعبير فيها بأسلوب الخطاب المباشر وكأن الملك لايزال على قيد الحياة ويتلقى قول الشاعر؟ أترى ذلك كان أسلوبا متبعا من بعض شعراء الجاهلية؟ أم هو من قبيل التنديد بالقتيل وبأفعاله؟ أو أنه من باب التسويغ والتبرير؟ أم بقصد التذكير وأخذ العبرة والعظة؟

أيا كان الأمر، فإن عمرو بن كلثوم، وفي موضع آخر من المعلقة، يسوق تهديدا خفيا للملك يمكن لمحه من خلال مباهاته بوقائع وأحداث مشهورة لقومه، كانوا يعصون فيها الملك كراهية أن يطيعوه ويتذللوا له، أو أنهم كانوا يقتلون الملك المتوج إذا توفرت الأسباب والدواعي لذلك. يقول(١٢٦٠) :

وأيامٍ لنا غُرٍّ طِـــوالٍ ... عَصيـــنا المَلكَ فيها أنْ نَدينـا

وَسيّدِ مَعشرٍ قد تَوّجُوهُ ... بِتاجِ المُلكِ يحمي المُحجَرِينا(١٢٦١)

تركنا الخيلَ عاكفةً عليهِ ... مُقَلَّـــدَةً أعِنَّتَها صُفونا(١٢٦٢)

(١٢٥٧) المصادر السابقة نفسها. وديوانه: ص ٧٩.

(١٢٥٨) المقتوون: الخدم. واحدهم مقتوي. شرح القصائد السبع: ص ٤٠٣.

(١٢٥٩) انظر مثلا: الشعر والشعراء: ص ١٥٨. ومعجم الشعراء: ص ١٢. والأغاني ١١: ٣٨٤٠. والخزانة ٣: ١٨٥. وأدباء العرب ١: ١٥٨.

(١٢٦٠) شرح القصائد السبع: ص ٣٨٨. والجمهرة : ص ٢٨١،وشرح المعلقات السبع: ص ١٧٢. وشرح القصائد العشر: ص ٢٩٤/٢٩٥. وديوانه: ص ٧١/٧٢.

(١٢٦١) المحجرين: الذين ألجئوا إلى الضيق. شرح القصائد السبع.

(١٢٦٢) صفون: واحدتها صافن، وهو القائم على ثلاث. نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذه الدواعي الخسف الذي ينزله الملك بالناس، والذي تأبى تغلب وهي القوية العزيزة المنيعة –أن تسامه(١٢٦٣) :

إذا ما المَلِكُ سامَ الناسَ خَسْفاً أَبَينا أنْ نُقِرَّ الخَسْفَ فينا

وإذ يفرغ الشاعر من التهديد المقيد أو الخاص يعود إلى التهديد العام، فيتوعد من يعمد إلى التكبر عليه وعلى قومه أو التجبر بهم، بالعقوبة والإهلاك، وهو جزاء يفوق التكبر والتجبر قوة وعنفا وشدة(١٢٦٤) :

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فَنَجهلَ فوقَ جَهلِ الجاهلينا

ولعلنا لاحظنا اختفاء الصوت الذاتي للشاعر في أبيات التهديد والوعيد من معلقته، وطغيان الصوت القبلي أو القومي فيها. والأمر نفسه نجده في تحديه المغلف بالفخر والمباهاة حين يسرد مفاخر قومه ومآثرهم في الحرب والسلم، وحين يتحدث عن شجاعتهم وعزتهم ومنعتهم(١٢٦٥) :

وقد عَلِمَ القبائلُ مِنْ مَعَدٍّ إذا قُبَبٌ بأبطَحِها بُنينا(١٢٦٦)

بأنا العاصِمونَ بكُلِّ كَحْلٍ وأنا الباذلونَ لمُجتَدِينا(١٢٦٧)

وأنا المانعونَ لِما يَلينا إذا ما البيضُ فارَقَتِ الجُفونا(١٢٦٨)

وأنا المانعونَ إذا قَدَرْنا وأنا المُهلِكونَ إذا أُتينا

(١٢٦٣) شرح القصائد السبع: ص ٤٢٥. والجمهرة: ص ٢٩٨ وشرح المعلقات السبع: ص ١٨٩. وشرح القصائد العشر: ص ٣٢٢. وديوانه: ص ٩٠.

(١٢٦٤) شرح القصائد السبع: ص ٤٢٦. والجمهرة: ص ٣٠٠. وشرح القصائد العشر: ص ٣٢٣. وهذا البيت يختلف موضعه من المعلقة في كل من شرح القصائد السبع: ص ١٨٨. والخزانة ٦: ٤٣٧. وديوانه: ص ٧٨.

(١٢٦٥) المصادر السابقة مع اختلاف في الصفحات. وفي الديوان (أبلغ) بدلا من (سائل) انظر: ص ٩٠.

(١٢٦٦) الأبطح والبطحاء: بطن الوادي بما فيه من رمل وحصى. والبطحاء: البقعة من الأرض.

(١٢٦٧) العاصمون: المانعون. المجتدي: الطالب.

(١٢٦٨) الجفون: أغماد السيوف. أي إذا سلت السيوف من أغمادها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأنا الشاربونَ الماءَ صَفوًا ... وَيشرَبُ غيرُنا كَدَرًا وطِينا(١٢٦٩)

ألا سائلٌ بني الطَمّاحِ عنّا ... ودُعْمِيًّا فكيف وَجدْتُمونا(١٢٧٠)

نَزلتُمْ مَنزلَ الأضيافِ منا ... فَعَجّلْنا القِرَى أنْ تَشتِمونا(١٢٧١)

قَرَيْناكُمْ فَعَجّلْنا قِراكُم ... قُبيلَ الصُبحِ مِرداةً طَحونا(١٢٧٢)

فهنا يأتي الصوت القومي مدوّيا مجلجلا، لانكاد نتبين فيه أثرا لصوت ذاتي. ولاندري ما إذا كان الشاعر قد تعمد أن تكون قافية المعلقة ورويها (نا) الفاعلين وفي ذلك تأكيد لاندغام الفرد بالجماعة، أم أن الضرورة الشعرية اقتضت ذلك.

ولكن هذا لايعني أن صوت الشاعر كان قوميا أو جماعيا في جميع أقواله الشعرية. فهناك صوت ذاتي يمكن تبينه في ما جاء من شعره هاجيا ومهددا. وهو يضاهي الصوت الجماعي في تعمده المباهاة والفخر، وفي النبرة الحادة للهجاء والتهديد والوعيد. غير أن مجمل شعره -وكما رأينا- يأتي في إطار من التحدي السياسي.

(١٢٦٩) ضرب الماء مثلا: ويريد أنا نغلب على الفاضل من كل شيء فنحوزه لعزنا وامتناع جانبنا.

(١٢٧٠) الطماح: حي في نمارة في بني وائل. ودعمي: حي من جديلة من اياد. الديوان.

(١٢٧١) أراد نزلتم بمنزل الأضياف فعجلنا القرى: عاجلناكم بالحرب ولم ننتظركم وذاك قبل أن توقعوا بنا فتكونوا سببا لشتم الناس إيانا. على أننا مستعدون فلا أحدا يفجؤنا بغارة.

(١٢٧٢) مرداة: صخرة. شبه الكتيبة بها. أي أن الكتيبة تطحنكم طحنا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٢-

طرفة بن العبد

اسمه الحقيقي عمرو(١٢٧٣)، وطرفة لقب غلب عليه لبيت شعر قاله(١٢٧٤) ، وأبوه العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل... من ربيعة(١٢٧٥) .

وكان والده -العبد- في حسب من قومه ومن ذوي المال،وقد توفي وطرفة صغير(١٢٧٦) . وأمه اسمها وردة، ولاتمدنا المصادر بشيء عن نسبها(١٢٧٧) . ولكن إذا صح أن المتلمس -وهو جرير بن عبدالمسيح بن عبدالله بن ربيعة- كان خال طرفة(١٢٧٨) ، فإن ذلك يرجح أن تكون أم طرفة تمت بلون من القرابة لوالده، مع أنها عدت غريبة في قوم زوجها.

وكان له أخ اسمه معبد(١٢٧٩) ، وأخت من أمه اسمها كبيشة -على ما يذهب إليه ابن الأنباري- والخرنق كما يذكر القرشي(١٢٨٠) . وقد كانت شاعرة ولها ديوان شعر، كما كان عمه المرقش الأصغر، وعم عمه المرقش الأكبر(١٢٨١) . فهو من أسرة لها مكانتها في الحسب والشعر.

(١٢٧٣) انظر معجم الشعراء: ص ١١.

(١٢٧٤) انظر الخزانة ٢: ٤١٩. وشرح ديوانه: ص ٣٩.

(١٢٧٥) شرح القصائد السبع: ص ١١٧. والجمهرة : ص ٣٤. وشرح المعلقات السبع: ص ٥٧. والشعراء الستة ٢: ٥. وسمط اللآلي: ص ٣١٩. وشرح المعلقات العشر: ص ٩٤. والخزانة ٢: ٤١٩. وهو من (صعصعة) بدلا من (ضبيعة) في الشعر والشعراء: ص ١٢٠.

(١٢٧٦) الشعر والشعراء: ص ١١٧ و ١١٩. وانظر شرح المعلقات السبع: ص ٥٧.

(١٢٧٧) في الشعر والشعراء: ص ١٢٠ انها من رهط ابيه.

(١٢٧٨) انظر الأغاني: ٢١: ١٢٠ (دار الفكر).

(١٢٧٩) انظر شرح القصائد السبع: ص ٢٠٤. والجمهرة : ص ٣٣١. وجمهرة أنساب العرب: ص٣٢٠. وشرح المعلقات السبع: ص ٨٧.

(١٢٨٠) شرح القصائد السبع: ص ١٢٨. والجمهرة: ص ٩٤. وانظر ايضا شعراء النصرانية: ص ٣٠٨.

(١٢٨١) انظر المفضليات (الهامش) ص ٢٢١. ومعجم الشعراء: ص ١٠. وجمهرة انساب العرب: ص ٣٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتنتمي ضبيعة إلى بكر بن وائل، ولبني بكر تاريخ طويل مجيد، ولهم على ملوك الحيرة أياد لاتحصى(١٢٨٢) ، مما جعل لهم مكانة كبيرة في بلاطهم وشأنا يراعى في التصرف حيالهم.

في هذه القبيلة ذات الشأن، وفي تلك الأسرة ذات الحسب والموهبة الشعرية ولد شاعرنا. ولم يمتد به العمر إذ قتل وهو في العشرين من عمره، في قول(١٢٨٣) وفي الخامسة والعشرين في قول آخر يستند إلى رثاء أخته له(١٢٨٤) :

عَدَدْنا له خَمساً وعشرين حِجّةً ... فلمـــا تَوَفّاها استوى سيّداً ضَخْما

فُجِعْنا به لمّا رَجَـــوْنا إيابَهُ ... على خير حالٍ، لا وليداً ولا قَحما(١٢٨٥)

ويمكن معرفة قدر ما عن نشأته وأخباره، مما يتناثر في بطون الكتب، ومما يجيء في شعره. فقد ولد في مكان ما من البحرين، ومات أبوه وهو صغير وتحرز أعمامه على إرثه(١٢٨٦) ، الأمر الذي جعله في ضائقة مادية، فاضطر إلى اللجوء إلى أخيه معبد ليمده بالمال. ولكن معبدا آثر أن يكسب أخوه عيشه بعرق جبينه، فعهد إليه برعي إبله. ويبدو أن طرفة سها عن مراقبتها ففقدت. وطالبه أخوه بردها، فتوجه إلى إبن عمه مالك سائلا إياه أن يعينه في طلبها فلامه، كما لامه بعض قومه على تفريطه بالإبل. ولما لم يجد شاعرنا أي عون أو مساعدة من أهله، أحس بالإحباط وتملكه الأسى، وتراءت له أمنية عزيزة المنال عبر عنها بقوله(١٢٨٧) :

(١٢٨٢) انظر القصائد السبع الطوال: معلقة الحارث بن حلزة: الأبيات ٦٨-٨٢: ص ٤٩٣-٤٩٨، وشرح المعلقات السبع: ص ٢٢٩-٢٣١. وشرح القصائد العشر: ص ٣٦٠-٣٦٥. وديوان الحارث: ص ٣١-٣٥.

(١٢٨٣) الشعر والشعراء: ص ١٢٠. وسمط اللآلي: ص ٣١٩.

(١٢٨٤) ديوان الخرنق بنت بدر: ص ٨٣٠،والجمهرة : ص ٩٤. وهي (ست وعشرون حجة) في كل من الخزانة ٢: ٤١٩. والروائع من الأدب العربي ١: ٢١٨.

(١٢٨٥) القحم: الكبير المسن. لسان العرب مادة قحم.

(١٢٨٦) الشعر والشعراء: ص ١١٩. والشعراء الستة ٢: ١٠و ٨٩.

(١٢٨٧) انظر شرح المعلقات السبع: ص ٨٧. والجمهرة : ص ٣٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلو شاءَ ربّي كنتُ قيسَ بنَ خالدٍ ولو شاءَ ربي كنتُ عمرَو بنَ مُرْثَدِ(١٢٨٨)

فأصبحتُ ذا مـــالٍ كثيرٍ وزارني بنـــونَ كـــرامٌ ســـــادَةٌ لمَسودِ

فلما سمع عمرو بن مرثد قول طرفة قال: ابعثوا إلى طرفة. فأتاه فقال له: "أما الولد فليس ذاك إلي، وأما المال... فلا تبرح حتى تكون اوسطنا مالا". ثم دعا بنيه وطلب منهم أن يعطوا طرفة عددا معينا من إبلهم، وأعطاه من إبله ايضا(١٢٨٩) .

ولكن يبدو أن طرفة كان مبذرا متلافا للمال، إذ نراه يتوجه بعد ذلك مع خاله المتلمس إلى ملك الحيرة،عمرو بن هند،لمنادمته طمعا في عطائه وحبائه. ويورد المرزباني خبرا مفاده أن عمرو بن كلثوم كان يصف جملا في مجلس الملك عمرو بن هند، فخرج الشاعر إلى ما توصف به الناقة، فقال طرفة "استنوق الجمل" فغضب الشاعر وهايج طرفة. ويذهب المرزباني إلى أن ميل ابن هند كان مع طرفة، وأن طرفة قال أبياتا يفخر فيها بأيام بكر على تغلب، فانصرف عمرو بن كلثوم مغضبا لفخر طرفة عليه وميل ابن هند مع طرفة(١٢٩٠) .

وسواء أكان هذا الخبر صحيحا أم لا، فإنه يؤكد حقيقة اتصال طرفة بعمرو بن هند،وأن علاقته معه كانت ودية في بادئ الأمر، بحيث أنه كان نديما له(١٢٩١). على أن شاعرنا،وبسن مبكرة،كان معتزا بنفسه، أبيا، لايستكين لظلم ولا يرضى بهوان، جريئا في القول. وقد أشار ابن قتيبة إلى ذلك فقال إن طرفة "كان في حسب من قومه، جريئا على هجائهم وهجاء غيرهم"(١٢٩٢). ولانغالي حين نذهب إلى أن اعتزازه بنفسه واعتداده بحسبه وجرأته على تحدي المصير، كلها تجلت لدى رفضه الأخذ بنصيحة المتلمس حين أشار

(١٢٨٨) قيس بن خالد بن عبدالله ذي الجدين. وذو الجدين لقب لجماعة من العرب. وعمرو بن مرثد: ابن عم طرفة.

انظر شرح القصائد السبع: ص ٢١٠. وجمهرة أنساب العرب: ص ٣٢٠. وقيس وعمرو سيدان مشهوران بشرف النسب ووفرة المال والولد. انظر شرح المعلقات السبع: ص ٨٩.

(١٢٨٩) المصادر السابقة. وانظر الجمهرة . ص ٣٣١. وشعراء النصرانية: ص ٢٠٤.

(١٢٩٠) الموشح: ص ١١٠/١١١. وفي الموضع نفسه قصة أخرى عن "استنوق الجمل".

(١٢٩١) الجمهرة: ص ٩٦.

(١٢٩٢) الشعر والشعراء: ص ١١٧. وشرح المعلقات السبع: ص ٥٧. والخزانة ٢: ٤١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليه أن يفتح الصحيفة التي فيها أمر الملك عمرو بن هند بقتله. لقد رفض قائلا بعنجهية: "إن كان اجتراً عليك فلم يكن ليجترئ علي.... ولاليقدم علي"(١٢٩٣) .

ولقد اجمعت المصادر على أن أمر الملك هذا جاء إثر هجو طرفة له بعدة قصائد وعلى فترات زمنية متباينة، على الرغم من أنه كان لايزال غلاما حديث السن كما وصفه المتلمس(١٢٩٤) .

ولكن المظان تختلف في رواية الطريقة التي نفذ فيها إعدام طرفة. ففي رواية أن عامل البحرين ضرب عنقه(١٢٩٥) . وفي رواية أخرى أن قاتله سقاه الخمر حتى أثمله ثم فصد أكحليه فمات(١٢٩٦) . ورواية ثالثة تقول إن عامل البحرين قطع يديه ورجليه ودفنه حيا كما نصت عليه تعليمات عمرو بن هند(١٢٩٧) .

ومن مظاهر التحدي عند الشاعر:

أ. هجاء الأقارب:

كما رأينا، يذهب بعض الرواة إلى أن طرفة كان حديد اللسان جريء الهجاء. وقد تبدت حدة لسانه في وقت مبكر من عمره، حين تصدى لأعمامه يطالبهم بإرث أبيه وإعطاء أمه حقها من التركة. ودعم الهجاء بالتهديد والوعيد المبطنين من خلال ضرب المثل بعداوة أبناء الأخوين بكر وتغلب وائل، فقال(١٢٩٨) :

ما تنظُرونَ بمالِ وردَةَ فيكـم ... صَغُرَ البنونَ ورهطُ وردةَ غُيَّبُ

قد يَبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ ... حتى تظلَّ له الدمـــاءُ تَصَبَّبُ

(١٢٩٣) الأغاني ٢١: ١٢٧ (دار الفكر). و٢٣: ٥٤٤ (الثقافة). وانظر الجمهرة: ص ٩٢. وسمط اللآلي ص: ٣٠٢. والخزانة ٢: ٤٢٢.

(١٢٩٤) الجمهرة: ص ٩٠. والأغاني ٢٣: ٥٤٠ (الثقافة). وسمط اللآلي: ص ٣٠٢. والخزانة ٢: ٤١٩-٤٢١.

(١٢٩٥) الجمهرة: ص ٩٣.

(١٢٩٦) انظر الجمهرة: ص ٩٧. الشعراء الستة ٢: ٨٩. وشرح المعلقات السبع ص ٦٠. وشعراء النصرانية: ص ٣٠٨.

(١٢٩٧) انظر الأغاني ٢٣: ٥٤٤ (الثقافة). وشعراء النصرانية : ص ٣٠٧.

(١٢٩٨) الشعر والشعراء: ص ١١٩. وانظر ديوانه: ص ١٠٧. وشرح ديوانه: ص ٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والظُلمُ فرَّقَ بَينَ حَيّ وائـلٍ بكـــرٌ تَساقيهـا المنايا تَغلِبُ

ولأنه كان يأبى الظلم ولايرضى بالهوان لنفسه أو لأي من أسرته، فقد مارت نفسه بالغضب حين شكت إليه أخته زوجها عبد عمرو بن بشر بن مَرْثد، فما كان منه إلا أن أفرغ غضبه في هجاء لاذع وجهه إليه غير آبه لعلو مكانة المهجو وشرفه في قومه، بل ولدى الملك عمرو بن هند. قال(١٢٩٩) :

أيا عجباً من عَبدِ عمروٍ وبَغيِهِ لقَدْ رامَ ظُلمي عبدُ عمروٍ فانْعَمـــا

ولاخيرَ فيهِ، غيرَ أنّ له غِنـــىً وأنّ لـــه كَشحـــاً إذا قامَ اهْضَما

له شَرْبتانِ بالنّهـــارِ وأربَـــعٌ مِنَ اللّيلِ حتّى آضَ سَخداً مُوَرَّما(١٣٠٠)

ويشرَبُ حتّى يَغْمرَ المحضُ قَلْبَهُ وإنْ أُعْطَهُ اتْرُكْ لِقَلـــبي مَجْثَما(١٣٠١)

لقد اشتط عبد عمرو في بغيه وبالغ في ظلمه، مع أنه خال من الخير، اللهم إذا دخل الغنى والكشح الهضيم كما النساء في باب الخير!! فهو أناني وذو أثرة وجشع ونهم، وهو ايضا قمة في البخل والشره لأنه يفضل أن يشرب اللبن بكثرة وإلى درجة التورم وتغير اللون على أن يقدم شيئا منه لمن هو في حاجة إليه.

وبلغ طرفة أن عبد عمرو هذا وشى به لابن هند، وذاك حين أنشده ما قاله الشاعر في هجاء الملك، فثارت ثائرة شاعرنا وعمد إلى هجائه بقول يراوح بين الغضب والسخرية والاستهزاء(١٣٠٢) :

ألا أبلغا عـــبدَ الضَلالِ رسالةً وقد يُبْلِغُ الأنباءَ عَـــنكَ رَســـولُ

(١٢٩٩) انظر البيتين الأوليين في الجمهرة: ص ٨٩و ٩٠.

وفي أشعار الستة ٢: ٨٦. وديوانه ص ٩٩/١٠٠. وشرح ديوانه: ص ٢٢٢/٢٢٣. وانظر شرح المعلقات السبع: ص ٥٧.

(١٣٠٠) سخد: ماء أصفر ثخين يخرج مع الولد لحظة الولادة. والمقصود هنا: الرجل المصفر. شرح الديوان.

(١٣٠١) مجثم: المكان الذي يجثم فيه، أي يستراح. والمقصود فسحة يرتاح فيها. شرح الديوان.

(١٣٠٢) انظر شرح ديوان الحماسة: ص ١٤٤١. والشعراء الستة ٢: ٧٨/٧٩. وديوانه : ص ٨٢-٨٤. وشرح ديوانه: ص ٢٠٣/٢٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دَبَبْتَ بِسِرّي بَعْدَ مـــا قَدْ عَلِمْتَهُ ... وأنتَ بأسرارِ الكـــرامِ نَسـولُ[١٣٠٣]

وكيف تَضِلُّ القَصْدَ والحقُّ واضِحٌ ... وَللحـــقِّ بيـــن الصالحينَ سبيلُ

وَفَرَّقَ عن بَيْتَيْكَ، سَعْـدَ بنَ مالكٍ ... وَعَوْفاً وَعَمراً ما تشي وما تقولُ[١٣٠٤]

فأنتَ على الأدنى شَمـــالٌ عَرِيَّةٌ ... شآمِيَّةٌ تَـــزوي الوجـــوهَ بَليلُ[١٣٠٥]

وأنتَ على الأقصى صَباغيرُ قَرَّةٍ ... تَذاءَبُ منها مُرْزِعٌ ومُسَـــيلُ[١٣٠٦]

فأَصْبَحْتَ فِقعاً نابِتـــاً بِقَـــرارَةٍ ... تصَـــوّحُ عـــنه والذليلُ ذليلُ[١٣٠٧]

وأعلـــمَ عِلماً ليسَ بالظَّنِّ إنَّهُ ... إذا ذَلَّ مَـــوْلى المـــرءِ فَهُوَ ذَليلُ

في هذه الابيات يورد الشاعر كما من الذم والقدح بعبد عمرو. فهو ضال نمام قد جانب الصواب اذ فشى بسر الشاعر. وبوشيه وسعيه بالنميمة عمل على الفرقة بين الأهل. وبذلك، وبسوء معاملته للأقارب وبشدته عليهم، قطعهم، في حين أنه وصل الأغراب بتملقه لهم وتودده إليهم، ملمحا بهذا إلى صلة عبد عمرو بابن هند.

وكما يرى الشاعر، فإن هذه الصلة، وذاك السلوك، قد جعلا من عبد عمرو تابعا ذليلا، ولكن المؤلم أن ذل إبن العم له انعكاساته الخطيرة على أبناء عمومته، إذ ان المرء يقوى بعصبه ويعز، كما يذل به ويضعف، وفقا لما تكون عليه حال هذا العصب.

(١٣٠٣) النسول: من النسل وهو خروج الشيء تلقائيا. وبأسرار الكرام نسول: اي لاتحفظ سرا. شرح الديوان.

(١٣٠٤) بيتاه: أهله وزوجته. وسعد هو سعد بن مالك بن ضبيعة بن ثعلبة وهو الجد الذي ينتمي إليه عبد عمرو كما تنتمي إليه زوجته أخت طرفة، وطرفة بالطبع. وعوف: هو عوف بن سعد بن مالك بن ضبيعة. شرح الديوان.

(١٣٠٥) شمال عرية: ريح باردة شمالية. تزوي الوجوه: تقبضها . البليل: الريح الباردة يصحبها ندى. نفسه.

(١٣٠٦) تذاءب: تأتي من كل جانب شأن الذئاب. المرزع: المطر القليل تنجم عنه الرزعة أي الوحل. المسيل : المطر الغزير . شرح الديوان.

(١٣٠٧) الفقع: الأبيض الرخو من الكمأة، وهو أردأ أنواعها، القرارة: الأرض المطمئنة بصورة عامة وهي منبت سيء للكمأة. تصوح عنه: تنشق. ووجه الشبه هنا بين المهجو والكمأة هو الذل، لأن الكمأة تلصق بالأرض ولا يرتفع لها غصن ولا تظهر ورقة، إنما تنشق الأرض وتلفظها. شرح الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تأذى طرفة أيضا من ابن عم آخر له يدعى مالك، وذاك حين لم يكتف ابن العم هذا بالتخاذل في نصرة شاعرنا ومساعدته لاسترداد ما فقد من الإبل، بل عمد إلى تجنبه وصد محاولاته الرامية إلى الابقاء على صلة القرابة. الأمر الذي آلم طرفة وأثاره في آن واحد. فلم يتمالك وهو الشاب الثائر الحاد الطبع الذكي خشاش"كرأس الحية المتوقد"(١٣٠٨) إلا إرسال قول ظاهره التعبير عن اليأس من تلقي أي خير في هذه الدنيا، وفي تضاعيفه هجاء لماح لمالك، العامل المؤثر -فيما يرى الشاعر- في القضاء على الخير ومحوه من الوجود(١٣٠٩) :

فمالي أراني وابنَ عمّي مالِكاً ... متى أَدْنُ منه يناعني وَيَبْعُدِ

وأيأسني مِن كُلّ خَيرٍ طلبتُهُ ... كانا وضعناهُ إلى رَمَسِ مُلحَدِ

وقرّبتُ بالقُربى وَجَدّكَ إنه ... متى يَكُ عهدٌ للنكيثةِ أَشْهَدِ(١٣١٠)

ولايلبث أن يطرح التلميح إلى التصريح، فيعرض بابن عمه، ويتهمه باتخاذ موقف عدائي مسبق من جميع مبادراته، إيجابية كانت أم سلبية، فهو ظالم متعسف(١٣١١) :

فلو كان مولايَ امرأً هو غيرُهُ ... لَفرّجَ كربي، أو لأنظرَني غَدي

ولكنّ مولايَ امرؤٌ هو خانقي ... على الشكرِ والتسآل، أو أنا مُفتَدِ(١٣١٢)

هو ظالم في لومه طرفة، وفي تخليه عنه، وفي ضغطه عليه لشكر الناس والتعرض لمعروفهم، وهو أمر لايتفق وطبع الشاعر الأنف الأبي.

(١٣٠٨) انظر معلقته في مصادرها القديمة المختلفة. وانظر ديوانه: ص ٤٢. وشرح ديوانه: ص ١١٤.

(١٣٠٩) المعلقة في مصادرها القديمة. وديوانه: ص ٣٨/٣٧. وشرح ديوانه: ص ١١٢/١١١.

(١٣١٠) النكيثة: الخطة الصعبة ينكث عنها القوم ويتراجعون. شرح الديوان.

(١٣١١) المعلقة في مصادرها القديمة. وديوانه: ص ٤٠/٣٩. وشرح ديوانه: ص ١١٣.

(١٣١٢) خانقي، مضيق علي. التسآل: الطلب. أو أنا مفتد: أي مفتديه. شرح الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب. هجاء الخصوم:

في هجو طرفة للأهل والعشيرة يتجلى الصوت الذاتي الذي يتوجه بمجمله إلى القدح بالمهجو وذمه. وسوف نرى ذلك أيضا في هجوه للملوك.

ولكنه في هجاء الخصم، يصدر عن صوت قبلي، تتشابك في نسيجه خيوط المباهاة والذم والتهديد والوعيد. ولعل في قوله الآتي خير مثال على ذلك(١٣١٣) :

تَـــذْكُرونَ إذْ نُقاتِلُكُـــمْ ... لايضَـــــــرُّ مُعدِمًا عَدَمُهْ

أَنتـــــمْ نَخلٌ نُطيفُ به ... فـــإذا مـــا جُزَّ نَصْطَرِمُهْ

وعذاريكُـــم مُقَلَّصَـــةٌ ... في دِعاعِ النَخـلِ تَجْتَرِمُهْ(١٣١٤)

وعجانِـــزٌ معـــًا لكُمُ ... تَصطلي نيرانَهُ خَـــدَمُهْ(١٣١٥)

خيرُ ما تَرْعَـونَ مِنْ شَجَرٍ ... يابسِ الطَحماءِ أو سَحَمُهْ(١٣١٦)

إنْ تُعيـــدُوهـا نُعِدْ لكُمْ ... مـــن هجـــــاءٍ سائرٍ كَلِمُهْ

وقِتالٍ لايُغِبُّكُمُ ... في جَميعِ جَحْفلٍ لَهِمُهْ

فقومه أقوياء بواسل، والخصم ضعيف سيء الحال، وعلى قدر من الهوان، والذل، الذي الحقه به قوم الشاعر في انتصارهم عليه، لذا يجدر بهذا الخصم عدم التعرض بالهجاء او بالقتال للمنتصر، وإلا قوبل بهجاء أقسى، وبجيش جرار يبتلعه.

(١٣١٣) الشعراء الستة: ص ٧٥/٧٦. وشعراء النصرانية: ص ٣١٦. وديوانه: ص ٧٦-٧٩.

(١٣١٤) مقلصة: مشمرة. الدعاع: نبت سوء يأكلونه، وأراد به هنا: رديء التمر. تجترمه: تقطعه. الديوان.

(١٣١٥) لكم تصطلي نيرانه: يجمعن لكم حطبه للاصطلاء بناره. وحطب النخيل رديء للنار والاصطلاء. شرح ديوانه: ص ٢٢٨.

(١٣١٦) الطحماء: من الحمض، واليابس منها تافه لايفيد. السحم: جمع السحمة، نوع من الكلأ. نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مما ترويه الأخبار، يتبين لنا أن طرفة اتصل بملك الحيرة عمرو بن هند ونادمه وشاركه مجلس الشراب. ويذكر ابن قتيبة ان الشاعر كان ينادم ابن هند، فأشرفت ذات يوم أخته، فرأى ظلها في كأس الشراب الذي في يديه فقال(١٣١٧) :

ألا يا بأبي الظبيُ — الذي يبرُق شَنفاهُ(١٣١٨)

ولولا الملكُ القاعِدُ — قد ألثَمني فاهُ

فغضب الملك وحقد عليه(١٣١٩) .

غير أن ما يلفت النظر في هذا الخبر هو شعر طرفة. فهذا الغزل الجريء بأخت الملك وعلى مسمع من أخيها،وفي مجلسه يستبعد -في ظني- أن يصدر إلا عن شارب ثمل لايعي ما ينطق به لسانه، وبالتالي يكون قوله لغوا لايؤاخذ به، او عن طائش جريء متهور لايبالي بعواقب أفعاله وأقواله، أو عن امرئ جاحد لحق الضيافة عليه، مستهين بشخصية مضيفه، مستخف بمكانته. وعلى كل، فإن هذه القصة تشير إلى أن الشاعر – وحتى هذه المناسبة– لم يلق من الملك ما يستفزه ويدعوه إلى هجائه.

ثم، وفي خبر آخر، نجد أن طرفة هجا ابن هند بعدة قصائد(١٣٢٠) ، ومنها قصيدة يذكر الرواة منها ثمانية أبيات وعلى هذا النحو(١٣٢١) :

فَلَيْتَ لنا، مكانَ المَلكِ عمرٍو — رَغوثا، حولَ قُبّتنا تَخورُ(١٣٢٢)

مِنَ الزُمراتِ، أَسْبلَ قادِماها — وضَرّتُها مُرَكّنَةٌ دَرورُ(١٣٢٣)

(١٣١٧) الشعر والشعراء: ص ١٢٠. وشرح المعلقات السبع: ص ٦٠/٥٩. وشرح الديوان: ص ٢٤١.

(١٣١٨) الشنفان: مثنى الشنف، وهو مثل القرط إنما يعلق في أعلى الأذن. شرح الديوان.

(١٣١٩) الشعر والشعراء: ص ١٢٠. وشرح المعلقات السبع: ص ٦٠/٥٩. وشرح الديوان: ص ٢٤١.

(١٣٢٠) الأغاني ٢٣: ٥٤٠ (الثقافة). و ٢١ : ١٢٥ (دار الفكر).

(١٣٢١) جمهرة أشعار العرب: ص ٨٩. والشعراء الستة٢: ٨٨/٨٧. وشرح المعلقات السبع: ص ٥٨. والخزانة ٢: ٤١٥. وديوانه: ص ١٠١. وشرح ديوانه: ص ١٣٤.

(١٣٢٢) الرغوث: النعجة المرضع. قبتنا: خيمتنا. تخور: تصوت، وأصل الخوار للبقر فجعله هنا للنعجة. الديوان.

(١٣٢٣) الزمرات: القليلات الصوف، وخصها لأنها أغزر ألبانا. أسبل قادماها: تدلي ضرعها لامتلائه. والضرة. أصل الضرع شرط ألا يخلو من اللبن. والمركنة: العظيمة. ودرور : كثيرة الدر. شرح الديوان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُشارِكُنا لنا رَخِـــلانِ فيها ... وتعلوها الكِبـاشُ، فما تَنورُ[١٣٢٤]

لعمرُكَ، إنَّ قابـــوسَ بنَ هندٍ ... لَيُخلِطُ مُلكَـــــهُ نُوكٌ كَثيرُ[١٣٢٥]

قَسَمْتَ الدهرَ، في زَمنٍ رَخِيٍّ ... كذاكَ الحُكمُ يَقصِـــــدُ أو يَجورُ

لـــنا يـــومٌ، ولِلْكِروان يومٌ ... تَطـيـــرُ البانساتِ ولا نَطيـــرُ

فأمَّـــا يَـــوْمُهنَّ فيومُ نحسٍ ... تـــــطارِدُهنَّ بالحَدَبِ، الصُقورُ

وأما يَومُـــــنا، فَنَظَلُّ رَكباً ... وُقـــوفـــاً، ما نَحُلُّ وما نَسيرُ

في الأبيات الثلاثة الأولى من القصيدة، يضفي الشاعر على البديل المتمني لابن هند، صفات الأنوثة في أشد حالاتها ضعفا ورقة، فيختار لذلك نعجة لما تتصف به من مسالمة ومطاوعة وضعف. مع أنه لم يقصد التحقير باختيار هذا البديل، وإنما الفائدة، إذ أن الناس ينتفعون بالنعجة ولبنها، بينما ابن هند لانفع يرجى منه.

وأما قابوس، أخو عمرو بن هند وولي عهده، ففي حكمه حمق كثير. فمع ان الزمن، زمن خير ونعم كثيرة، إلا أن سياسة قابوس قسمت أيامه، بين القنص وندامـاه، على مافي ذلك من ظلم وإجحاف، وهو أمر ليس بالمستغرب من حاكم هو بطبيعته -كما يذهب إليه الشاعر- متقلب بين الظلم والعدل.

وقد أورد البغدادي الباعث لطرفة على نظم هذه القصيدة، فذكر أن عمرو بن هند كان يرشح أخاه قابوس ليملك بعده، وحين قدم عليه المتلمس وطرفة، جعلهما في صحابة قابوس وأمرهما بلزومه. وكان قابوس شابا لاهيا يحب الصيد كثيرا. فكان يخرج للصيد ويقضي كل اليوم يركض يتصيد، والمتلمس وطرفه معه، يركضان أيضا، ولايرجعان إلا وقد نال منهما التعب والإعياء، لينهضا في الغد ويقفا بباب سرادق قابوس إلى المساء، وقابوس عاكف على الشراب[١٣٢٦] . ولربما كان أحيانا يبقيهما خارج السرادق ولايسمح لهما بالدخول عليه.

(١٣٢٤) الرخلان: مثنى الرخل، الأنثى من أولاد الضأن. تنور: تنفر. نفسه.

(١٣٢٥) ملكه: سلطانه.

(١٣٢٦) الخزانة ٢: ٤١٥-٤١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن ابن السكيت والأعلم الشنتمري –وفي شرحهما لديوان طرفة– يذكران ان المقصود بالهجاء هو عمرو بن هند نفسه، وسببه وقوف طرفة وخاله ببابه لا بباب أخيه، واضطرارهما إلى الانتظار حتى يسمح لهما الملك بالدخول عليه(١٣٢٧) .

ولاريب في أن هذا التعنت سواء أكان من عمرو بن هند أم أخيه قابوس لينطوي على الكثير من التحقير والإذلال، الأمر الذي لم يطق طرفة –بدمائه الثائره– وتحمله أو تقبله، فجاء رفضه له وتمرده عليه بهذا القول اللاذع المشبع بالقدح والذم.

وفي هجاء آخر يستغل الشاعر الاسم الذي اشتهر به الملك(ابن هند)، فيتساءل عن سبب هذه التسمية، قاصدا التشكيك في نسبة عمرو إلى أبيه، على ما ينطوي عليه هذا التشكيك من غمز في كرم الأرومة وفي الحسب. ثم يتحول إلى ذم الملك فينعته باللؤم وبالخسة الشديدة، وبالضعة، وبرسوخ القدم في حمأة الخزي والعار. يقول(١٣٢٨) :

أنت ابنُ هِندٍ! قُلْ لي: مَنْ أبوكَ إذَنْ ... لايُصلِحُ المُلكَ إلا كُلُّ بُذّاخِ(١٣٢٩)

أما الملوكُ، فأنتَ اليومَ، ألأمُهُمْ ... لُؤمًا وأبيضُهم سِربالَ طَبّاخِ(١٣٣٠)

ما في المَعالي لكمْ ظِلٌّ ولاوَرَقٌ ... وفي المَخازي لكمْ أَسناخُ أسناخِ(١٣٣١)

ويتمادى طرفة في هجاء ابن هند ويقذع كثيرا(١٣٣٢) ، غير مبال بما يجره عليه ذلك من ويلات ووخيم عواقب، وكأنه كان مسوقا –وعلى الرغم منه– إلى إدراك مصيره المحتوم الذي تنبأ له به خاله –ذات يوم– إذ قال له: "ويل لهذا من هذا"(١٣٣٣) قاصدا رأسه ولسانه.

(١٣٢٧) انظر ديوان طرفة: ص ١٠١. والخزانة ٢: ٤١٦.

(١٣٢٨) ديوانه: ص ١٤٧. وشرح ديوانه: ص ٨٦/٨٧.

(١٣٢٩) بذاخ: الكثير البذخ: أي الشديد او الشامخ ، الرفيع النسب. ديوانه.

(١٣٣٠) السربال: القميص. ونقاء سربال الطباخ كناية عن البخل. شرح الديوان.

(١٣٣١) اسناخ: أصول. وأسناخ أسناخ: أصول متأصلة. نفسه.

(١٣٣٢) انظر الشعراء الستة ٢: ٩٥/٩٦.

(١٣٣٣) انظر الموشح: ص ١١٠. وشعراء النصرانية: ص ٣٠٤. وأدباء العرب ١: ١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د. الإغراق في الملذات ومتع العيش:

ولعل طرفة كان يحس إحساسا خفيا غامضا بأن حبل حياته قصير، وأن الموت يتربص به ليخطفه وهو لايزال على عتبة الحياة. لذا نراه يجعل همه اقتناص المتع واللذات والإقبال عليها بنهم، متحديا الحياة إذ يري أنه قادر على اختصار المساحة الزمنية وتكثيف استغلالها في أوقات وأن كانت قصيرة، إلا أنها تستوعب أكبر قدر ممكن مما ينشده في الحياة أو يسعى إلى تحقيقه. فهذه الأوقات المتخمة بالمتعة والملذات هي كل ما يعنيه من حياته، وإن لم تتوفر له فهو لايكترث متى يأتيه الموت، أو أين، أو كيف(١٣٣٤) :

فلولا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَـــةِ الفتى ... وَجَدّكَ لم أَحْفِلْ مـــتى قامَ عُوّدي

فمِنْهُنّ سَبقي العـــــاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ ... كُمَيتٍ متى ما تُعَـــلّ بالمَاءِ تَزْبِدِ

وكرّي إذا نادى المُضافُ مُحنّـــبًا ... كَسيدِ الغَضا نَبّهتْهُ المُتَوَرِّدِ(١٣٣٥)

وتقصيرُ يومَ الدّجنِ والدجنِ مُعجِبٌ ... بِبهنكَةٍ تحتَ الطـــرافِ المُمَّدَدِ

غير أن هذه المتع والملذات لاتتاح دون أن يبذل لها الكثير والكثير من المال. ولم يكن ذلك -من وجهة نظر شاعرنا- بالأمر ذي البال، لأن المال بالنسبة له وسيلة للحصول على ما يريد من الحياة. من هنا جاء عدم اكتراثه بموقف عشيرته المنكر له والمدين لتصرفه أو سلوكه المباين لقيمها والمتحدي لمثلها وأعرافها . وقد أفرغ عدم مبالاته في قول يجمع بين التصريح والتلميح: التصريح بالسبب الذي جلب عليه مقاطعة العشيرة له، والتلميح بإحساسه بالزهو لصموده أمام تحديات هذه المقاطعة(١٣٣٦) :

وما زالَ تَشرابي الخُمورَ ولذتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلَدي

إلى أن تحامَتني العشيرةُ كلُّهـــا ... وأُفرِدتُ إفرادَ البعيرِ المُعَـــبَّدِ

(١٣٣٤) انظر شرح المعلقة في المصادر القديمة.والشعر والشعراء: ص ١٢٣. وديوانه: ص ٣٣/٣٢. وشرح الديوان: ص ١٠٧/١٠٦.

(١٣٣٥) الحنب: الفرس. والمضاف (في الحرب) الذي أحيط به فلم يعد بإمكانه الإفلات إلا بمساعدة من الخارج نبهته أثرته من مكمنه. المتورد: المتقدم على أقرانه لايرده شيء. شرح الديوان: ص ١٠٧/١٠٦.

(١٣٣٦) مصادر المعلقة وديوانه: ص ٣١ وشرح ديوانه: ص ١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالرغم من هذا الموقف العدائي المنكر فقد(١٣٣٧) :

رَأيتُ بني غبراءَ لايُنكرونَني ولا أهلُ هذاكَ الطِّرافِ المُمَدَّدِ(١٣٣٨)

إنه غير مكترث لإنكار عشيرته له، فهناك آخرون يعترفون به، وهم الفقراء وعابروا السبيل والغرباء الذين ينالهم من عطائه وكرمه ما ينالهم، وكذلك الخاصة من أسياد قبيلته الذين يعرفون شرف نسبه وشجاعته، ومزاياه في الحرب والسلم. أو ليس هو كما يقول(١٣٣٩) :

أذا القومُ قالوا مَنْ فتى خِلْتُ انني عُنيتُ فلَمْ أَكْسَلْ ولَمْ أَتَبَلَّدِ

ولَستُ بِحلّالِ التِّلاعِ مَخافَةً ولكن متى يَسْتَرْفِدِ القَومُ أَرفدِ(١٣٤٠)

وإنْ تَبغِني في حَلْقَةَ القومِ تلقَني وإن تَلتَمِسْني في الحوانيتِ تَصْطَدِ

إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتَني مَنيعاً إذا بُلّتْ بقائِمِهِ يدي(١٣٤١)

ويخيل إليه أنه وهو على هذا القدر من الشجاعة والمنعة، لقادر على تحدي أي شيء والصمود أمام التحديات ومغالبتها. لقد تحدته عشيرته اذ قاطعته بسبب انغماسه في الملذات، وأنه ليتحداها بما هو أبلغ. فيعمد إلى الوقوف "موقف التحدي من الشعور الديني السائد بين الناس"(١٣٤٢) وذاك حين يقدم، وهو ثمل، على ذبح ناقة ضخمة يحرص عليها صاحبها (الشيخ) أشد الحرص وأبلغه.

ولنتابعه وهو يروى كيف استرعت انتباهه هذه الناقة المميزة، فأسرع إليها وذبحها على مرأى ومسمع من صاحبها، هادرا بذلك قيمة دينية ممنوع المساس بها (Taboo) في

(١٣٣٧) المصادر نفسها. وشرح ديوانه: ص ١١٠.

(١٣٣٨) الطراف الممدد: قبة من أدم ولا تكون إلا للمياسير الأغنياء، قد مدت بالأطناب. ديوانه: ص ٣٢.

(١٣٣٩) المصادر نفسها.

(١٣٤٠) التلاع: مجاري المياه التي تصب في الوادي وهي تستر من ينزل فيها. ديوانه: ص ٢٨.

(١٣٤١) مصادر المعلقة. وديوانه: ص ٤٣. وشرح الديوان: ص ١١٥.

(١٣٤٢) قراءة ثانية لشعرنا القديم: ص ١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولنتابعه وهو يروى كيف استرعت انتباهه هذه الناقة المميزة، فأسرع إليها وذبحها على مرآى ومسمع من صاحبها، هادرا بذلك قيمة دينية ممنوع المساس بها (Taboo) في مجتمعه(١٣٤٣) . ولم يكتف بالذبح وإنما استمر في وصف التمتع بمنظرها وهي تشوى وبمذاقها وهي تؤكل(١٣٤٤) :

وَبَرْكٍ هَجودٍ قد أثارَتْ مَخافَتي ... بَواديها أمشي بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ(١٣٤٥)

فَمَرَّتْ كَهاةٌ ذاتُ خِيفٍ جُلالَةٌ ... عَقِيلَةُ شيخٍ كالوَبيلِ يَلَنْدَدِ(١٣٤٦)

يقولُ وقد تَرّ الوَظيفُ وَساقُها ... ألستَ تَرى أن قد أتَيْتَ بِمُؤْيِدِ(١٣٤٧)

وقالَ: ألا ماذا تَرونَ بشاربٍ ... شَديدٍ عَلينا بَغْيُهُ مُتَعَمِّدِ

وقال: ذَروهُ إنما نَفْعُها له ... وإلّا تَكُفُّوا قاصِيَ البُرْكِ يَزْدَدِ(١٣٤٨)

فظَلّ الإماءُ يُمْتَلِلْنَ حُوارَها ... ويُسعَى عليها بالسَّديفِ المسرهد(١٣٤٩)

هذا ويذهب البعض إلى أن هذه الأبيات "كلها صراع بين رغبة المجتمع في الإبقاء على الناقة، ورغبة طرفة في عقرها"(١٣٥٠) . فالمجتمع -ممثلا في الشيخ- كان يخشى

(١٣٤٣) سبق لنا الحديث عن ربط بعض الدارسين بين الناقة والعقيدة الدينية، استنادا إلى قصة ناقة صالح عليه السلام كما وردت في القرآن الكريم، هذه الناقة التي كان لها مقام رفيع كونها معجزة صالح. انظر القرآن الكريم: الأعراف: ٩٥و ٧٣،٧٩. وهود: ٦٠-٦٨. والحجر: ٨٠-٨٤. والاسراء: ٥٩. والشعراء: ١٤١-١٥٩. وغيرها. وانظر الاسطورة في الشعر العربي: ص ١٨٢/١٨٣.

(١٣٤٤) انظرها في مصادر المعلقة. وفي ديوانه: ص ٤٤. وفي شرح ديوانه: ص ١١٥.

(١٣٤٥) البرك: ما برك من الجمال والنوق. هجود: نائمة. بواديها: أوائلها. الغضب: السيف القاطع.

(١٣٤٦) كهاة: الضخمة من النوق. خيف: ضرع. وعقيلة: كريمة مفضلة. شيخ: ربما بعض بني عم طرفة. الوبيل: العصا. وشيخ كالوبيل: رجل كبير في السن ناحل، يابس الجلد كعود الحطب. يلندد : سيء الخلق قوي الخصومة. شرح الديوان ص ١١٥/١١٦.

(١٣٤٧) تر: بان وانقطع بضربة واحدة. وظيف البعير: خفه. المؤيد : الداهية العظيمة.

(١٣٤٨) تكفوا: من كف فلانا عن السوء، إذا رده عنه ومنعه منه. والقاصي من الإبل: المنفردة منها، المتنحية البعيدة.

(١٣٤٩) يمتللن: في الملة، وهي الرمل الحار أو الجمر. والحوار: وليد الناقة، وهذه إشارة إلى حمل الناقة مما يزيد في قيمتها ويكبر جراءة طرفة على نحرها. السديف: قطع السنام. والمرهد: الرسم. شرح الديوان.

(١٣٥٠) قراءة ثانية لشعرنا القديم: ص ١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفسه التعبير الرمزي "عن قتل القيم التي تمثلها"(١٣٥١) .الناقة، أو على الأقل التحرر من هذه القيم.

هـ. الجرأة على الموت:

كنا قد أشرنا إلى احتمال إحساس طرفة بأنه والموت على موعد في وقت مبكر من شبابه. ولعل هذا الإحساس هو وراء كثرة ذكر الموت في شعره. ففي موضع من معلقته نلتقي بقوله(١٣٥٢) :

لَعمرُكَ إنّ الموتَ ما أخطأ الفتى ... لَكَا لطَولِ المُرخَى وثِنياهُ باليَدِ(١٣٥٣)

وفي موضع آخر يقول(١٣٥٤) :

أرى العيشَ كَنزًا ناقِصًا كُلَّ ليلةٍ ... ما تَنقُصُ الأيامُ والدَهرُ يُنفَدُ

وللموت طريقته في اقتناص الناس، من كرم منهم ومن بخل(١٣٥٥) :

أرى الموتَ يَعتامُ الكِرامَ ويَصطَفي ... عقيلةَ مالِ الفاحشِ المُتشددِ(١٣٥٦)

ويتساوى البخيل المقتر في القبر بالغوي المفسد لماله(١٣٥٧) :

أرى قبرَ نَحّامٍ بَخيلٍ بِمالِهِ ... كَقبرِ غَويٍّ في البِطالَةِ مُفْسِدِ(١٣٥٨)

ترى جُثوَتَينِ من تُرابٍ عَليهِما ... صفائحُ صُمٌّ من صَفيحٍ مُنَضَّدِ(١٣٥٩)

(١٣٥١) مظاهر من الحضارة والمعتقد: ص ٣٧.

(١٣٥٢) مصادر المعلقة. والشعر والشعراء: ص ١١٩ وديوانه: ص ٣٧. وشرح ديوانه: ص ١٠٩.

(١٣٥٣) الطول: الحبل. ثنياه: طرفاه. وثنياه باليد: ما انثنى منه على يديه. الديوان.

(١٣٥٤) مصادر المعلقة. والشعر والشعراء: ص ١١٩. وديوانه: ص ٣٦. وشرح ديوانه: ص ١٠٦.

(١٣٥٥) مصادر المعلقة. والشعر والشعراء: ص ١١٨. وديوانه: ص ٣٦. وشرح ديوانه: ص ١٠٨.

(١٣٥٦) يعتام الكرام: يختارهم ويخصهم. وعقيلة كل شيء: خياره وأنفسه. الفاحش: البخيل. ديوانه.

(١٣٥٧) المصادر المذكورة اعلاه.

(١٣٥٨) النحام: البخيل الذي يزجر إذا سئل ويتنحنح لبخله. والغوي: المنذر لماله. ديوانه.

(١٣٥٩) الجثوتين: الجثوة: التراب المجموع، وهنا بمعنى ماعلى القبر من التراب. والصفائح: الحجارة العراض. ديوانه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا كان الموت حتميا، ولا يفلت من قبضته أحد، فلم يلام طرفة إذا تحداه بالإغراق في المتع او بإلقاء نفسه في مخاطر الحرب(١٣٦٠) ؟:

ألا أيُهذا اللائمي أحْضُرَ الوَغى وأن أشهدَ اللذاتِ هل أنتَ مُخلدي؟

إن الموت لايخيفه، ولايرهبه، وبدلا من أن يظل مكبلا بقيود خشية الموت وانتظاره بهلع أو حزن، يحرر نفسه منه بمبادرته إياه بما يقدر عليه وبما يملكه(١٣٦١) :

فإن كنتَ لاتستطيع دفعَ مَنيتي فدعني أُبادِرُها بما مَلكتْ يـــدي

ولقد بادر الموت، واجترأ عليه، وواجهه حين عرض له في أسفاره ورحلاته الشاقة الرهيبة في درب "تعزف الجن به"(١٣٦٢) وفي(١٣٦٣) :

وبـــــلادٍ زَعْلٍ ظِلمانُها كالمَخاض الجُرْبِ في اليَوم الخَدِرْ(١٣٦٤)

قد تبطنتُ وتحتي جَسرةٌ تتقـــــي الأرضِ بِمُثلومٍ مَعِرْ(١٣٦٥)

فترى المَرو إذا ما هَجَّرتْ عن يديـــــها كالفِراشِ المُشْفَتِرْ(١٣٦٦)

وتصدى له في المعارك وثبت في وجهه في مواطن القتال المميتة(١٣٦٧) :

(١٣٦٠) مصادر المعلقة. وشرح ديوانه: ص ١٠٥.

(١٣٦١) مصادر المعلقة. وديوانه: ص ٣٢. وشرح ديوانه: ص ١٠٦.

(١٣٦٢) انظر ديوانه: ص ١٣٤. وشرح ديوانه: ص ١٢٢.

(١٣٦٣) أشعار الستة ٢: ٦٧. وديوانه: ص ٦٠. وشرح ديوانه: ص ١٥٣.

(١٣٦٤) الزعل : النشيط. ظلمانها: جمع ظليم وهو ذكر النعام. والمخاض: الحوامل من الإبل. والجرب: السود من القطران. اليوم الخدر: الذي يخدر فيه لشدة برده أو المطر، وريح تكون فيه. ديوانه.

(١٣٦٥) مثلوم: خف لثمته الحجارة فأدمته لكثرة مباشرتها لوعورة الأرض. والمعر: الذي ذهب ما حوله من شعر.

(١٣٦٦) المرو: الحجارة البيض. المشفتر: المفترق. أي الناقة في الهاجرة تتطير الحصى من شدة سيرها. الديوان.

(١٣٦٧) مصادر المعلقة. وديوانه: ص ٤٨. وشرح ديوانه ص ١١٧، وانظر ١١٢ و ١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويومَ حَبَسْتُ النفسَ عندَ عِراكِها ... حِفاظًا على عَوراتِهِ والتَّهَدُّدِ[١٣٦٨]

على مَوْطنٍ يخشى الفتى عندَه الردَى ... متى تَعْتَرِكْ فيه الفرائِصُ تُرعِدِ

إن الموت بحد ذاته ليس مما يكترث له أو يعبأ به أو يخشاه، ولكن المهم عنده أن يكون نعيه حين يموت،كما يليق بالرجل الكريم الجريء،الذي همه طلب المعالي أو شهود الوقائع والمعارك[١٣٦٩] .

وقد لازمه ثباته،وتحديه،وجرأته على الموت ،حتى وهو في السجن ينتظر تنفيذ الحكم بإعدامه. فعمد إلى تحريض البكريين على الوقوف في وجه عمرو بن هند والتمرد عليه، وكذلك إلى التنديد بالملك،وهجائه،وتهديده بحرب تشنها تغلب عليه، فقال في قصيدة طويلة[١٣٧٠] :

ألا أبْلِغا بكرَ العراقِ بنَ وائـــلٍ ... بكأسٍ سقى النصري شاربَها رَمْـــضِ[١٣٧١]

فإن يَقتُلِ النعمانُ قومي فإنمـــا ... هـــي المِيتَـــةُ الأولى، وتَقدِمَةُ القَبْضِ

أبا مُنذرٍ، كانت غرورا صَحيفتي ... ولم أُعطِكُمْ في الطَوعِ مالي ولاعِرْضي[١٣٧٢]

أبا مُنذرٍ، إنّ الأمورَ التي تُـرى ... على مِرّةٍ، تحدو الشرائعَ بالنَقْـــضِ[١٣٧٣]

يقالُ، أبيتَ اللعن، واللعنُ حَظُّهُ ... وسوف، أَبيتَ الخيرِ، تُعرَفُ بالخَفْضِ[١٣٧٤]

فأقسمتُ عندَ النُصبِ إني لَمَيِّتٌ ... بِمَتلَفـــةٍ ليستْ بِطَلـــحٍ ولا حَمْضِ[١٣٧٥]

(١٣٦٨) الحفاظ : المحافظة والأنفة من الدناءة. والعورات: جمع عورة وهي موضع المخافة. وهي النساء ايضا.

(١٣٦٩) انظر ديوانه: ص ٤٨. وشرح ديوانه: ص ١١٨ .

(١٣٧٠) شرح ديوانه: ص ١٧٨. وما بعدها.

(١٣٧١) النصري: ملك الحيرة. كأس رمض: كأس محرقة، وكنى بها عن القتل.

(١٣٧٢) الغرور: ماعزّ من إنسان أو شيطان. في الطوع: أي بملء الإرادة.

(١٣٧٣) مرة: القوة. وترى هنا: يحمل الناس على رؤيتها أي على تقبلها. وعلى مرة: بالقوة والإجبار. تحدو: تتحدى. بالنقض: بالمخالفة.

(١٣٧٤) واللعن حظه: أي اللعن نصيب الملك فهو لايحظى من الناس إلا باللعن والذم. الخفض: الإذلال.

(١٣٧٥) المتلفة: القفر يهلك سالكه. ليست بطلح ولا حمض: لاظل فيها ولا شجر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَتصَبُّحَكَ، الغلباءُ، تغلِبُ غارَةً هنالك، لايُنجيكَ عَرْضٌ مِـنَ العُرْضِ[١٣٧٦]

أرأيت إلى هذا الموقف الشامخ؟ شاب يقبع في غيابة السجن ينتظر تنفيذ حكم الموت المتعسف فيه، فتأبى عليه كرامته أن يخنع ويستعطف، ويمنعه إباؤه أن يستكين ويتوسل، وينكر عليه دم الشباب الثائر أن يستسلم للحزن والأسى. فيستمد من جرأته ومن ثبات جنانه، بل من عزة نفسه ومن اعتداده بقوة العشيرة، والأهل وأبناء العم، القدرة على أن يوجه إلى قاتله الجبار هذه القصيدة النابضة بالتحدي وبالتهديد والوعيد.

وقد كان هذا شأن طرفة وديدنه، وهو يتصدى للعشيرة، في ظلمها، وفي أعرافها وتقاليدها. وكان ذلك حاله في التعامل مع حياته القصيرة، على ما تخللها من مداخلات أو مواقف عاصفة، وما تلونت به من علاقات اجتماعية متقلبة.

فلا غرو أن كان صوته في معظم ما قاله، وفي غالب ما عبر عنه، صوتا ذاتيا يتمحور حول أحاسيسه ومشاعره، ويتغنى بأسلوبه المعيشي والاجتماعي، ويترنم بمواقفه المتحدية من الحياة ومن الموت أيضا.

(١٣٧٦) الغلباء: العزيزة الممنعة، وكانت تغلب تسمى الغلباء. عرض الأولى: الجيش الضخم. وعرض الثانية. عرض السيف

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-٣-

عروة بن الورد

هو عروة بن الورد بن زيد، وقيل ابن عمرو بن زيد، بن عبدالله بن ناشب بن هريم بن لديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزال(١٣٧٧) .

وكانت كنيته في الحرب أبا عبلة، وفي السلم أبا هراسة(١٣٧٨) .

وأبوه الورد ذو حسب وشرف في عبس، إلا أنه كان يتشاءم به، لأنه تسبب في وقوع حرب داحس والغبراء بين عبس وفزارة بمراهنته حذيفة بن بدر(١٣٧٩) .

ولانعرف عن أمه شيئا سوى أنها من نهد من قضاعة، وهي قبيلة أقل مكانة وشرفا من قبيلة عبس. فكانت في عبس نزيعة(١٣٨٠) ولاندري هل كانت سبية وتزوجها الورد ام لا، فالمصادر لاتفيدنا بشيء عن ذلك.

وثمة خبر واحد ترويه المظان، له علاقة بينة الاثر في تكوين شخصية عروة وفي نمط الحياة الذي اختطه لنفسه. فقد روي أن أباه كان يؤثر عليه أخا له أكبر منه سنا، كما كان يقرب هذا الاخ ويدعمه ماديا ومعنويا. وحين قيل للوالد: أتؤثر الأكبر مع غناه عنك على الأصغر مع ضعفه؟" قال: "أترون هذا الأصغر لنن بقى مع ما أرى من شدة نفسه ليصيرن الأكبر عيالا عليه"(١٣٨١) .

ونخرج من هذا الخبر بجملة من الأمور: أحدها أن عروة ولد في بيت كان ربه على شيء من السعة في المال والبحبوحة في العيش، بحيث أنه كان قادرا على تقديم المساعدة المادية فضلا عن المعنوية لأولاده.

(١٣٧٧) ديوانه: ص ١. والأغاني ٣: ٩١٩. وفي الجمهرة (هدم) بدلا من (هريم): ص ٤٥٠. وفي تاريخ اليعقوبي نسبه بعد ناشب: (بن سفيان بن هرم بن عوف بن قطيعة بن عبس) ١: ٣٠٩.

(١٣٧٨) سمط اللآلي: ص ٨٢٤. وهراسة: واحدة الهراس من أحرار البقول وبه سمي الرجل. لسان العرب، مادة هرس.

(١٣٧٩) ديوانه: ص ١٩. والأغاني ٣: ٩٣٤.

(١٣٨٠) ديوانه: ص ٢٩ (دار الجيل).وانظر الروائع من الأدب العربي ١: ٤٨٣.

(١٣٨١) ديوانه: ص ١٩/٢٠. والأغاني ٣: ٨٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثاني هذه الأمور أن الوالد كان متحيزا وغير عادل في معاملة أولاده، وإن حاول تبرير ذلك بالتلميح إلى أن عروة مع ضعفه صغيرا، فإنه يتوسم فيه أن يكون الأقوى والأفضل حالا وكيانا في كبره.

وهذا يقودنا إلى الأمر الثالث، وهو على جانب كبير من الأهمية، فيما أرى. إنه تعبير الوالد عن "شدة نفس" عروة، فهل كانت قوة النفس هذه ظاهرة للعيان منذ أن كان عروة صبيا؟ بحيث أنها استرعت انتباه الأب اللاهي عنه، فيتنبأ بأن الأكبر سيصبح في المستقبل ممن يعولهم عروة أو على الأقل يمدهم بالمساعدة؟

الواقع أن ما تناقله الرواة من أخبار عروة حين شب عن الطوق واكتمل نضجه الزمني والفكري ليؤكد صدق ما ذهب إليه والده.

على أن بوادر توجهه فكريا إلى التمرد والثورة بدت في الظهور، منذ أن وعى معنى أن تكون أمه من قبيلة تقل شرفا وحسبا عن قبيلة أبيه -وربما- أخيه الأكبر. وعندما أدرك معنى تحيز الوالد لهذا الأخ، أحس بظلم هو صورة من الظلم الذي تعاني منه الفئة المستضعفة الفقيرة في قبيلته وعشيرته. فما موقف أبيه منه سوى نموذج لما كان عليه مجتمعه إذ يقف بازاء الأغنياء الأقوياء، ويضطهد الفقراء الضعفاء. ولقد كان الإحساس بالظلم: ظلم العشيرة والمجتمع، وظلم الحياة التي حرمت الفقراء من خيراتها ونعمها، هذا الإحساس كان أقوى باعث لشاعرنا للتمرد على الأوضاع الإجتماعية والاقتصادية المختلفة في مجتمعه، ثم محاولة تصويبها بالثورة العاملة والتحدي المثمر. ومن مظاهر التحدي لدى الشاعر:

أ. التصعلك:

لقب عدد من الرواة شاعرنا بـ "عروة الصعاليك"(١٣٨٢) . ولم يأت هذا اللقب من فراغ. فقد عمد عروة إلى جمع عدد من الصعاليك حوله، وقادهم في انطلاقه وراء الأغنياء، ولاسيما البخلاء منهم، رافعا شعار الغزو للنهب والسلب في محاولة ثورية لتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية، إلى جانب إحداث لون من التوازن الاقتصادي. وطبق مفهومه للعدالة على نفسه، فكان لايؤثر نفسه بشيء على جماعته. وعلى الرغم من أنه

(١٣٨٢) ديوانه: ص ١. وانظر الشعر والشعراء: ص ٥٦٦. والأغاني: ٣: ٩١٩. وسمط اللآلي: ص ٨٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان في بعض الأحيان يمتلك شيئا من الخيل والإبل[١٣٨٣] ، إلا أنه كان في أغلب الأوقات يعيش كما تعيش "رعيته" من الصعاليك.

ولعل في خبر كنيف (ماوان) خير مثال على توجهه في تطبيق العدالة: فقد روي أنّ حاله وحال قومه من عشيرته ضاقت في سنة شديدة، وبطريقة ما حصل على ناقتين فنحر إحداهما، وحمل متاع القوم وضعفاءهم على الأخرى، وصار يتنقل بهم من مكان إلى مكان حتى نزل في موضع يدعى (ماوان). وهناك كنف عليهم كنيفا. وأخذ يتحين الفرص لتوفير أسباب الحياة لجماعته. وحدث أن لقي رجلا قد هرب من قومه، بمائة من الإبل، فقتله وأخذ إبله وسبى امرأته، ورجع بها وبالغنيمة إلى أصحابه، فحملهم على الإبل باتجاه ديارهم. فلما دنوا من عشيرتهم قسم الإبل بينهم، وأخذ مثل نصيب الواحد منهم، وأراد الاحتفاظ بالمرأة لنفسه. فرفضوا إلا جعلها نصيبا يقترع عليه، مما أثار استياء عروة وغضبه إلى حد أن هم بالفتك بهم وانتزاع الإبل منهم. ثم تذكر أنهم صنيعته، وأنه إن فعل ذلك قضى على ما صنعه، فتراجع عما عزم عليه وعرض عليهم أن يعطيهم نصيبه من الإبل إلا راحلة يحمل عليها المرأة. فأبوا إلا النصيب كاملا وهكذا كان. غير أن احدهم رضي –وبعد لأي– أن يعطيه راحلة من نصيبه[١٣٨٤] .

وقد ذكر عروة هذه الحادثة في قصيدة ضمنها خيبة أمله في جماعته، لاستيلاء الجشع والطمع عليهم، بحيث تساووا مع الناس حين يمرعون ويجري المال في أيديهم. ولم يتمالك نفسه من التعريض بهم إذ تنكروا له ولتضحياته من أجل رفدهم بأسباب الرزق والعيش. ومما جاء في القصيدة قوله[١٣٨٥] :

ألا إن أصحابَ الكنيفِ وجَدتُهُم ... كما الناسُ لما أخْصَبُوا وتَمَوَّلُوا

وإني لمدفوعٌ إليّ وَلاؤُهُمْ ... بماوانَ إنّ نمشي، وإن نَتَمَلَّلُ[١٣٨٦]

فإني وإياكُم كذي الأُم أَرْهَنَتْ ... له ماءَ عينيها، تَفدي وتَحمِلُ

(١٣٨٣) انظر ديوانه: ص ٢٠.

(١٣٨٤) نفسه: ص ١٠. وانظر الأغاني ٣: ٩٢٦.

(١٣٨٥) ديوانه : ص ١١٩–١٢٣. والأغاني ٣: ٩٢٦. باستثناء البيت الرابع.

(١٣٨٦) نتملل: تأخذنا الملة والملل من شدة الضعف. ديوانه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلمّا تَرَجَّتْ نَفْعَهُ وشبابُهُ أَتَتْ دُونَها، أخرى جَديدٌ تَكَحَّلُ

فباتَتْ، لِحَدِّ المِرْفَقَيْنِ كِلَيْهِما تُوَحْوِحُ مِمّا نابَها وَتُولْـــوِلُ(١٣٨٧)

تَخَيَّرُ مِنْ أمرَيْنِ ليسا بِغِبْطَةٍ هُو الثُكلُ، إلا أنَها قد تَجَمَّـلُ(١٣٨٨)

هذا، وتعبر القصيدة عن صراع داخلي يدور بين عاطفتين، عاطفة القائد الحاني الذي يعتني بصعاليك برعيته ويدأب على رعايتها ، وعاطفة الإنسان العادي الذي يريد أن يقدر له ما يقدم من معروف أو صنيع. من هنا جاء تشبيه الشاعر نفسه بالأم التي تبذل التضحية تلو التضحية كي يصبح وليدها شابا قادرا على تحمل مسؤولية أمه ورد بعض الجميل لها فتستأثر به الزوجة، وتبعده عن أمه. واذ تجد الأم نفسها في حيرة من الاختيار: الرغبة في موت الإبن لتشتفي بإمرأته، أم الصبر وتحمل نكران الإبن وجحوده مع بغي الزوجة. ولقد اختارت الأم (اي عروة) الأمر الثاني.

وإذا كان عروة في هذه القصيدة يتمثل نفسه أما، فإن الصعاليك –وكما يذكر الرواة– كانوا يعدونه أبا لهم، ولاسيما في السنين الشديدة. ففي خبر أن ناسا من بني عبس أجدبوا في سنة أصابتهم وأهلكت أموالهم فأصبحوا في جوع شديد وبؤس. فما كان منهم إلا أن ذهبوا وجلسوا أمام بيت عروة. ولما رأوه صرخوا قائلين :"يا أبا الصعاليك أغثنا" فلبى نداءهم وخرج بهم للغزو وللفوز بغنيمة تكون لهم معاشا"(١٣٨٩) .

وهذا الخبر يشير إلى أن شاعرنا –لم يفارق قبيلته وقومه، إلا حين خروجه في طلب الرزق والمال، أي أنه لم ينسلخ عن قبيلته ومجتمعه كما الصعاليك الآخرين وذؤبان العرب. ولعل هذا الأمر هو وراء ما وصف به من أنه "شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانها، وصعلوك من صعاليكها، من الرجال المعدودين الأجواد"(١٣٩٠) . ولعله أيضا الدافع له على التباهي بأحد سادات قومه وهو الربيع بن زياد العبسي، وذاك في قوله(١٣٩١) :

(١٣٨٧) توحوح: تخرج صوتا قويا فيه بحة. ديوانه: ص ٢١٢ (دار الجيل).

(١٣٨٨) تجمل: تصبر وتكتم ما بها فلا يظهر عليها الذل. نفسه.

(١٣٨٩) ديوانه: ص ١٢. والأغاني ٣: ٩٢٧/٩٢٨. وانظر الشعراء الصعاليك: ص ٣١٨.

(١٣٩٠) ديوانه: ص ١.

(١٣٩١) ديوانه: ص ١٩٠ (دار الجيل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لِكُلّ أُناسٍ سَيّدٌ يعرفونهُ وسيدُنا، حتى المَماتِ رَبيعُ

ب. الغارة والغزو:

يرد في بطون الكتب طرفا من أخبار غزوات عروة وغاراته(١٣٩٢) . وقد كان بعضها سطوا يقوم به وحده، والبعض الآخر كان في جماعة قليلة. على أن هم شاعرنا في كلتا الحالتين كان العثور على الضحية التي يسلبها، ثم توزيع الغنائم على مستحقيها.

وكما أشرنا سابقا، كان عروة يتعمد السطو على الأغنياء البخلاء الذين بلدت المادة عواطفهم وأحاسيسهم فطغت عليهم الأثرة والأنانية بحيث أنهم لم يعودوا قادرين على العطاء، أو حتى التعاطف مع الفقراء.

هذا النموذج من الأغنياء كان يشكل تحديا كبيرا لعروة. فكانت تستولي عليه رغبة عارمة في مصادفة احدهم في أثناءتطوافه في أرض الله الواسعة –كي ينتزع منه وبالقوة حقا من حقوق الفقراء، هذا الحق الذي ينكره عليهم الأغنياء ويعقونهم به(١٣٩٣) :

لَعلَّ انطلاقي في البلادِ ورِحلتي وَشَدّي حيازيمَ المَطيّةِ بالرَّحْلِ

سَيدفعُني يومًا إلى ربِّ هَجْمَةٍ يُدافِعُ عنها بالعُقوقِ وبِالبُخلِ(١٣٩٤)

ويذكر الرواة أن قول عروة هذا، جاء إثر غارة له في جمع من الصعاليك على بني القين(١٣٩٥) .

وكان عروة يدرك أن وراء الغزو أو الغارة إحدى نتائج ثلاث: نجاح الغزوة، أو فشلها، او الموت في سبيلها، وفي الأولى تحقيق الهدف واستجلاب الغنى، وإذا كانت

(١٣٩٢) انظر مثلا: ديوان عروة ٤-٢١، والأغاني ٣: ٩٢١و ٩٢٢و ٩٢٥و ٩٢٦و ٩٢٧و ٩٢٨.

(١٣٩٣) ديوانه: ص ١١٥. وشرح ديوان الحماسة: ص ١٧٢٣. والأغاني ٣: ٩٢٩. والروائع من الأدب العربي ١: ٤٩٥.

(١٣٩٤) الهجمة: هي ما بين الخمسين إلى الستين من الإبل.

(١٣٩٥) ديوانه: ص ١٢. وشرح ديوان الحماسة : ص ١٧٢٣. والأغاني ٣: ٩٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثانية، فقد أبلغ نفسه عذرها "ومبلغ نفس عذرها مثل منجح"(١٣٩٦) . وأما إذا كانت الثالثة، فإن الموت خير من حياة الفقر والجوع والذل والهوان. ومع هذا الإدراك فإن شاعرنا كان لايتردد في الإغارة حين تستدعي الحاجة ذلك، ويحث الآخرين على الاقتداء به في السعي وراء الرزق والمال تحديا للفقر وذيوله(١٣٩٧) :

ذريني أُطَوِّفُ في البلاد لَعَلّني ... أُخَلّيكِ أو أُغْنيكِ عن سُوءِ مَحْضَرِ(١٣٩٨)

فإن فازَ سَهمٌ للمُنِيّةِ لم أَكنْ ... جَزوعا وهل عن ذاك من مُتأخَّـــرِ

وإن فاز سهمي كَفَّكُم عن مقاعدَ ... لكُمْ خلفَ أدبارِ البيُوتِ ومَنظرِ(١٣٩٩)

أقيموا بني لبنى صُدورَ رِكابِكُمْ ... فإنّ مَنايا القومِ خَيرٌ مِنَ الهَزْلِ(١٤٠٠)

ولكن –وعلى قلة– كان عروة حين يغير وحده، ولا يستطيع سوق غنيمة، لايرضى بالإياب، خالي الوفاض، فكان يتعمد السبي(١٤٠١) . ومن ذلك أنه أغار على مزينة، ولم يفز بغنيمة فسبى منهم امرأة متزوجة، وتوجه بها قاصدا دياره. فقال في ذلك ويكثير من المباهاة والفخر المشفوع بالتحدي(١٤٠٢) :

تَبَغَّ عِداءً حيث حَلّتْ دِيارُها ... وأبناءَ عوفٍ في القُرونِ الأوائلِ

فإلا أَنَلْ أوْسًا فإني حَسْبُها ... بِمُنْبَطِحِ الأوعالِ من ذي الشلائلِ(١٤٠٣)

(١٣٩٦) ديوانه: ص ٤٠. وانظر والأغاني ٣: ٩٣٢.

(١٣٩٧) نفسه: ص ٦٨/٦٧. والجمهرة: ص ٤٥١/٤٥٠.

(١٣٩٨) أخليك: اي أموت.

(١٣٩٩) سهمي: خطي. كفكم. أغناكم عن. ومقاعد أدبار البيوت: الأماكن الخلفية لبيوت الموسرين حيث يكون الخدم وأصحاب الحاجات والسائلون.

(١٤٠٠) ديوانه: ص ١١٤. والهزل: الجوع.

(١٤٠١) انظر ديوانه: ص ١١/١٠. الأغاني ٣: ٩٢٦.

(١٤٠٢) ديوانه: ص ١٣٣. وهي (عدي) بدلا من (عداء) و(الأوغال) بدلا من (الأوعال) في الأغاني ٣: ٩٢١.

(١٤٠٣) ذو الشلائل: واد. ومنبطح الأوعال: المكان الذي تنبطح فيه الأوعال. ديوانه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتباهى كذلك بما كانت عبس تقوم به من سبي. ففي غزوة لعبس على طي، رأى العبسيون نساء خارجات من الجبل فسبوهن، ولما تبعتهم طيء، قاتلوها حتى جعلوها ترتد إلى جبلها، ورجعوا بالسبايا إلى ديارهم. فقال عروة متباهيا بقومه ومعرضا بطيء(١٤٠٤):

رَحَلْنَا من الأَجبالِ، أجبالِ طيءٍ ... نَسوقُ النساءَ عُوذَها وعِشارَها(١٤٠٥)

ترى كُلَّ بيضاءِ العوارضِ طَفلَةٍ ... تُفَرِّي إذا شالَ السِّماكُ صِدارَها(١٤٠٦)

وقد عَلِمَتْ أن لانقلابَ لِرَحْلِها ... إذا تَـــــرَكَتْ من آخرِ الليلِ دارَها

على أنه -وكما أسلفنا- كان الهدف الرئيسي لعروة من الغارة، تحدي النظام الاجتماعي الاقتصادي، ومغالبة الفقر الذي أرثه هذا النظام. وكان يعمل جاهدا لتحقيق هذا الهدف وبكل الوسائل. ومن ذلك أنه إذا أصابت الناس السنة، واضطروا إلى ترك المريض والكبير والضعيف وراءهم في المحلة. كان عروة يجمع المخلفين، ثم يحفر لهم الأسراب، ويكنف عليهم الكنف، ويتولى رعايتهم، ثم يخرج فيغير بمن يسترد قوته من المرضى والضعفاء، ويجعل لأصحابه الباقين نصيبا مما يغنمه. وحين ينتهي الجدب، ويعود الخصب والنماء، كان يلحق كل إنسان بأهله، ويقسم له نصيبه من الغنائم التي غنموها. "وربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى"(١٤٠٧) .

جـ. الترحل:

والترحل عند شاعرنا وسيلة لغاية. فقد كان يؤمن أنه ومن خلال الترحل والطواف في الأرض. يستطيع تحدي الفقر والفاقة والتغلب عليها، وذاك حين يظفر ببغيته من أسباب الرزق ومن كسب المال.

(١٤٠٤) ديوانه: ص ٨٥. وانظر في السبي: ص ٢٨. والأغاني: ٣: ٩٢٧. وانظر في تعريضه ببني عامر . ديوانه: ص ٨٠/٨١.

(١٤٠٥) عوذها وعشارها: هذان مثلان وهما من الإبل. والواحد عائذ وهي الحديثة النتاج. والعشار: التي قربت أن تضع. أراد أن من النساء حوامل ومنهن مراضع. ديوانه.

(١٤٠٦) الطفلة: الناعمة. وتفزى: تشق صدارها إذ ارتفع نجم السماك. نفسه.

(١٤٠٧) ديوانه: ص ٩. والأغاني ٣: ٩٢٤/٩٢٥. وانظر الشعراء الصعاليك: ص ٣١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مذهبه، الأرض فسيحة عريضة الفجاج، وما على الصعلوك سوى الضرب في أرجائها، متحديا استبداد الأقارب وضنهم بالمعاملة الكريمة(١٤٠٨) :

وسائلَةٍ: أينَ الرحيلُ وسائلٍ ... وَمَنْ يِسَألِ الصُعلوكَ أينَ مَذاهِبُهْ

مذاهِبُهُ أنَّ الفِجاجَ عَريضَةٌ ... إذا ضَنّ عنُه، بالفعالِ أقارِبُـــهْ

لذا فقد كان دائم الحث والتحريض على التنقل والترحل، وكأنه كان يعي أن في الحركة حياة، وأن السكون كما الموت الحقيقي أو موت النفس(١٤٠٩) :

إذا المرءُ لم يَطْلُبْ معاشاً لِنَفْسِهِ ... شكا الفَقرَ أو لامَ الصَديقَ فأكثرا

وصارَ على الأدْنَينِ كَلاًّ وأوْشَكَتْ ... صِلاتُ ذوي القُربى أنْ تَتَكَّـرا

فَسِرْ في بِلادِ اللهِ، والتمسِ الغِنى ... تَعِشْ ذا يسارٍ أو تموتَ فتُعذَرا

فهو يرى أن من واجب الإنسان ان يسعى، وأن يغامر ويخاطر، وبذلك فهو "إن يلق المنية يلقها حميدا"(١٤١٠) .

ومن ألوان حث الشاعر وتحريضه على الترحل سعيا وراء المال، ما يورده على لسان امرأة تدعى تماضر(١٤١١) :

قالت تُماضِرُ اذ رأتْ مالي خَوَى ... وجفا الأقارِبُ فالفؤادُ قَرِيـــحُ

خاطِرْ بنفسِكَ كي تُصيبَ غنيمـةً ... إنَّ القُعـــودَ مع العِيالِ قَبيحُ

ولماذا هذا الإلحاح على الترحل والإغتراب مع ما في ذلك من التعرض للأخطار والمهالك؟ لقد كانت لعروة نظرة صائبة في موقف الناس من الفقير، وفي معاملتهم له.

(١٤٠٨) ديوانه: ص ٢٩.

(١٤٠٩) ديوانه: ص ٨٩. وانظر فيه ايضا: ص ١٠٧.

(١٤١٠) ديوانه: ص ٧٣.

(١٤١١) ديوانه: ص ٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أودع نظرته هذه في قصيدة قيل إن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب نهى معلم أولاده عن أنْ يرويهم إياها وقال له: "هذا يدعوهم إلى الإغتراب عن أوطانهم"(١٤١٢) .

ومما جاء في هذه القصيدة(١٤١٣) :

دعيني للغِنى أسعى فإني ... رَأيتُ الناسَ شَرُّهُمُ الفقيرُ

وأبعدُهُمُ وأهونُهم عليهِمِ ... وإن أمسى له حَسَبٌ وخِيرُ

ويُقصيهِ النَدَى وتزدريهِ ... حليلَتُهُ وينهَرُهُ الصغيرُ

فهو يرفض هذا الوضع ويتمرد على ذاك الموقف، فيسعى للغنى من خلال الترحل، وإن لم يكن الغنى، فعلى الأقل، ما يجلب له الإحترام والهيبة في أهله وقومه.

د. الإباء والرفض:

اختط عروة لنفسه ولجماعته طريقا في الحياة، سداه الثورة على الأوضاع الإجتماعية والاقتصادية السائدة في مجتمعه، ولحمته –استرداد وبالقوة –ما آمن به أنه حق له ولأصحابه من أصحاب رؤوس الأموال "حتى يتساوى الجميع في ميزان العدالة الإجتماعية والتوازن الاقتصادي"(١٤١٤) .

من هناجاء ذمه لمن يرضى بالذل والهوان من الصعاليك، وتحريضه لهم على رفض هذا الذل والتمرد على ذاك الهوان، وانتهاج طريق العمل الجاد، وإن انطوى على تجشم الصعاب والتعرض للمخاطر والأهوال.

وقد وقف كم من الرواة والإخباريين عند قصيدته التي يقارن فيها بين الموقف السلبي المنخذل للإنسان الخامل ضعيف الهمة، وبين الموقف الإيجابي المتصدي والمتحدي للإنسان القوي ذي الهمة العالية والتوجه الفاعل، وأوردها بعضهم كاملة، بينما أورد البعض الآخر ابياتا منتقاة منها.

(١٤١٢) ديوانه: ص ٣. والأغاني ٣: ٩٢١.

(١٤١٣) نفسه. وانظر عيون الأخبار ١: ٣٤٨.

(١٤١٤) انظر الروائع من الأدب الجاهلي: ١: ٤٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمما جاء فيها[١٤١٥] :

لحا الله صُعلوكا إذا جَنَّ ليلُـهُ ... مُصافي المُشاشِ آلفا كلَّ مَجْزَرِ[١٤١٦]

يَعُدّ الغِنى في نفسهِ قوتَ ليلةٍ ... أَصابَ قِراهـــــا مِنْ خليلٍ مُيَسّرِ

ينامُ عشاءً، ثم يُصبحُ ناعسًـا ... يَحُتُّ الحَصى عن جَنبهِ المُتَعفِّرِ[١٤١٧]

قليلُ التماسِ الزادِ إلا لنفسـهِ ... إذا هو أَمسى كالعريشِ المُجَوَّرِ[١٤١٨]

يعينُ نساءَ الحي ما يَسْتعِـنَّهُ ... ويُمسي طليقا كالبعيرِ المُحَسَّـرِ[١٤١٩]

ولكنّ صُعلوكا صفيحةُ وجهـهِ ... كضوءِ شِهابِ القابـــسِ المُتَنَوِّرِ

مُطِلاًّ على أعدائهِ يزجُرونَـــهُ ... بِساحَتِهِمْ، زجرَ المَنيحِ المُشَهَّرِ[١٤٢٠]

إذا بُعِّدوا لايأمنون اقترابَـــهُ ... تَشَوُّفَ أهلِ الغائبِ المُتَنَظِّـــــرِ

فذلك، إنْ يَلْقَ المَنِيّةَ يَلْقَـــها ... حميدًا، وإنْ يَستغنِ يوما فأجْـــدَرِ

في هذه اللوحة الموحية، يبدو وجهان متناقضان للإنسان، وجه باهت بائس ذليل يوحي بالضعف والاستكانة والاستخذاء، ووجه مضيء يشع إباء وكرامة، مفعم بالحيوية ناطق بالتحفز والتحدي. ونلمح ما بين هذين الوجه ما يهدف إليه الشاعر من تحريض على رفض الذل، وحث على إباء الهوان والاستكانة، وحفز لركوب المشاق والمخاطر

(١٤١٥) ديوانه: ص ٧٠-٧٣. وانظر الشعر والشعراء: ص ٥٦٦. وعيون الأخبار ١: ٣٣٨. والجمهرة: ص٤٥٣-٤٥٥ وشرح ديوان الحماسة: ص ٤٢١. والأغاني ٣: ٩١٩. وسمط اللآلي: ص ٨٢٣. والخزانة ١: ١٠. والشعراء الصعاليك: ص ٣٢٣. والروائع من الأدب العربي ١: ٤٨٨/ ٤٨٩. وانظر في رفض الذل ديوانه: ص ٤٢.

(١٤١٦) مصافي : مستخلص. والمشاش: كل عظم لامخ فيه يمكنك تتبعه. لسان العرب، مادة مشش.

(١٤١٧) حت: فرك الشيء اليابس عن الثوب وغيره.

(١٤١٨) المجور: المتهدم. والعريش المجور: البيت المتهدم. ديوانه: ص ١٥١ (دار الجيل).

(١٤١٩) المحسر: الجمل الذي تعب وكل، أو الناقة التي اتعبت حتى لايبقى عليها شحم. نفسه.

(١٤٢٠) زجر القداح: ان يحيط الياسرون بضارب القداح، يصرخ كل على قدحه، مشجعا ظهور القدح الجيد وطاردا القدح الخاسر (المنيح). ديوانه : ص ١٥٢ (دار الجيل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دون خوف أو وجل. فطالما أن الموت لايعتق كائنا، فلم لايموت الإنسان ميتة كريمة في سبيل الحفاظ على كرامته وعزة نفسه(١٤٢١):

فإن نَحنُ لم نَمْلِكْ دفاعًا بحادثٍ ... تُلِمُّ به الأيامُ فالموتُ أَجْمَلُ

هـ. الهجاء والتهديد والوعيد:

درج العرب على أن يبخسوا الصريح قدره وقيمته الشخصية، وأن يضعوا من مكانته الإجتماعية في القبيلة، إذا كانت أمه نزيعة، وتقل شرفا من حيث الحسب والنسب عن قبيلة أبيه. ويبدو أن عروة أصابه الكثير من سهام الغمز في نسبه من جهة أمه. وأقسى ما يكون وخز هذه السهام، إذا كان مطلقها شخص له مكانته وقدره وهيبته في عبس، كما قيس بن زهير الذي عرض بعروة –فيما يروى– فقال(١٤٢٢) :

أذنبٌ علينا شتمُ عُروةَ خالهِ ... بِغَزّةِ أَحساءٍ يومًا ويومَا بِبَدْبَدِ(١٤٢٣)

رأيتُك ألافًا بيوتَ معاشرٍ ... تَزالُ يَدٌ في فَضْلِ قَعْبٍ ومِرْفَدِ(١٤٢٤)

فجاء رد عروة ردا موجزا بليغا يهجو فيه قيسا بالبخل والأثرة والبطنة النهمة، وعدم الإحساس بحاجة الفقراء والمعوزين، وفي الوقت نفسه، يفخر الشاعر بعطائه المتفاني وبتعاطفه مع الأقل حظا في هذه الحياة، وبمشاركته المعنوية والمادية لهم(١٤٢٥) :

إني امرؤٌ عافي إنائي شِرْكَةٌ ... وأنت امرؤٌ عافي إنائك واحِدُ

اتهزأُ مني أن سَمِنْتَ وأن تَرَى ... بوجهي شُحوبَ الحقِّ، والحقُّ جاهِدُ(١٤٢٦)

(١٤٢١) ديوانه: ص ١٣١. وانظر ايضا في نظرته للموت ديوانه: ص ٧٧و ٩٥و ١٠٧.

(١٤٢٢) ديوانه: ص ٥١.

(١٤٢٣) غرة احساء وبدبد: مكانان . ديوانه.

(١٤٢٤) قعب: قدح من خشب. وقيل قدح صغير يشبه الحافر يروى الرجل، لسان العرب، مادة قعب.
والمرفد: القدح العظيم. والمعنى : يدك أبدا تأكل ما عندهم. ديوانه.

(١٤٢٥) ديوانه: ص ٥١/٥٢. والشعر والشعراء: ص ٥٦٦. والأغاني ٣: ٩٢٠.

(١٤٢٦) جاهد: مضن. اي أن القيام بأداء الحق يضني صاحبه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أُقَسِّمُ جسمي في جُسومٍ كثيرةٍ وأحسو قِراح الماءِ، والمـــاءُ باردُ(١٤٢٧)

ولا ندري إن كان هذا الهجاء أم غيره من أقوال وأحداث لم يصلنا خبرها، هو الباعث على فتور العلاقة بين قيس وعروة، ثم تحولها إلى نفور وخصومة، بحيث أن يجعل قيسا يرغب في، بل يتمنى، أن يرحل عروة عن ديار عبس. ويبلغ ذلك شاعرنا فيندد بأمنية قيس ويسخر منه، ويتوعده متنبئا له بالخذلان والهزيمة، إذا رحل (أي عروة) بجماعته. فهو بهم –فيما يذهب إليه– سيد عبس الحقيقي، وهو وإياهم صانعو قوة قيس، وبدونهم يفقد سيادته، ويغدو تابعا لكل حقير ذليل(١٤٢٨) :

تَمنّى غُرْبَتي قَـــيسٌ وإني لأخشى إنْ طَحابكَ ما تقولُ(١٤٢٩)

وصارَتْ دِيارُنا شَحْطاً عَلَيْكُمْ وَجُفُّ السَّيْفِ كنت بهِ تَصولُ(١٤٣٠)

بأن يعيا القليلُ عليـــك حتى تصيرَ له، ويأكلُكَ الذلـــــــيلُ

فإن الحربَ لو دارت رَحاها وفاضَ العِز، واتَّبع القلـــيلُ(١٤٣١)

أَخَذْتَ، وراءَنا، بذنابِ عَيشٍ إذا ما الشمس قامت لاتزول(١٤٣٢)

ويهجو شاعرنا بني ناشب من عبس، فيتهمهم بالتخاذل عن نصرة قومهم، والتهرب من حمل المسؤولية الجماعية. إذ أخذوا ينسلخون عن القبيلة واحدا بعد الآخر، ليستقروا في منازل أخرى لهم بعيدة، تاركين الشيوخ والأطفال وراءهم، يواجهون بالذنوب، ولعدم وجود من يدافع عنهم، يهدر دمهم(١٤٣٣) :

(١٤٢٧) قراح الماء: أول الماء، والصافي منه. وحسو الماء الصافي رمز للشرف والإباء لأن الشريف يشرب قبل غيره. والماء بارد. الزمن شتاء. ديوانه : ص ١٢٤(دار الجيل).

(١٤٢٨) ديوانه: ص ١٢٧/١٢٨.

(١٤٢٩) طحابه ما يقول: اشتط في القول. ديوانه: ص ٢١٦ (دار الجيل).

(١٤٣٠) الشحط: البعد. والجف والجفة: جماعة الناس. لسان العرب، مادة جفف. وهنا المعنى: الجماعة المحاربون بالسيف.

(١٤٣١) فاض العز: زال وذهب. واتبع القليل: صرت تابعا للضعفاء الأذلال. ديوانه: ص ٢١٨ (دار الجيل).

(١٤٣٢) بذناب عيش: بطرف من العيش. لاتزول: ثبتت في مكانها : أي طال عليك اليوم. ديوانه.

(١٤٣٣) ديوانه: ص ٢٥. وبنو ناشب: قبيلة من عبس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَيا راكبًا إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... بـــــني ناشبٍ عني وَمَنْ يَتَنَشَّبُ

أَكُلُّـــكُمُ مُختارُ دارٍ يَحُلُّها ... وتارِكُ هُدْمٍ ليسَ عنها مُذَنَّبُ(١٤٣٤)

ويهدد ويتوعد بطنا آخر من عبس، يبدو أن سفهاءهم كانوا يسيئونه قولا أو فعلا، فيخيرهم بين أن يعالج ذوو الحلم والرأي منهم هذا الأمر، أو ان تقع الحرب بينه وبينهم، وهي -كما يقول- حرب طويلة المدى، يعاني فيها خصومه من الضيق والشدة والمشقة أكثر مما يستطيعون تحمله، وينتهي إلى الفخر والمباهاة بالشرف الذي سيحوزه بشجاعته وبالذكر الحسن الذي سيعرف به(١٤٣٥) :

وأَبْلِغْ بني عَوْذِ بن زيدٍ رِسالة ... بآيةِ ما إنْ يَقْصِبوني يكذِبوا(١٤٣٦)

فإن شِئْتُمَ عني نَهَيْتُم سَفيهكَمُ ... وقال لـــه ذو حِلمِكُمْ: أين تَذهبُ

وإن شِئْتُمُ حاربتموني إلى مَدًى ... فيجهَدكُم شأوُ الكِظاظ المُغرِّبُ(١٤٣٧)

فيلحقَ بالخيراتِ من كان أهلَها ... وَتَعْلَمُ عبسٌ رأسَ مـــن يَتَصوّبُ

ويطال هجاء عروة أخواله، فيقول أن العار الوحيد الذي لحق به هو مافيه من جذور نهدية، فبنو نهد جبناء مراوغون يحسنون التهرب من المواجهة في ساحة الحرب، ويتظاهرون بالقوة والجرأة والثبات حين لاتكون هناك أزمات أو شدائد(١٤٣٨) :

ما بي من عارٍ إخـــالُ عَلِمْـــتَهُ ... سِوى أن أخوالي إذا نسبوا نَهدُ

ثعالبُ في الحَرب العوانِ فإن تَبُخْ ... وَتَنفَـــــرِجُ الجُلّى، فَهُمُ الأُسْدُ

(١٤٣٤) هدم: جمع هدم: الدم المهدور. او الشيخ الذي انحطم. لسان العرب، مادة هدم.
المذنب: من يحمل الذنب. ديوانه: ص ٨٢ (دار الجيل).

(١٤٣٥) ديوانه: ص ٢٥/٢٦.

(١٤٣٦) يقصبوني: يشتموني. وقصبه: شتمه وعابه ووقع فيه. لسان العرب، مادة قصب. وبنو عوذ بن زيد: بطن من بطون عبس.

(١٤٣٧) الشأو: الشوط. المدى. الغاية. والمغرب: البعيد. اي الغاية البعيدة المنال. والكظاظ: الشدة والتعب. والكظاظ في الحرب: الضيق عند المعركة. لسان العرب. مادة كظظ.

(١٤٣٨) ديوانه: ص ٤٧. وانظر في هجاء نهد ايضا: ص ٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعله كان يلمح إلى أخواله هؤلاء وإلى قبيلتهم نهد، في مقارنة يعقدها بين شجاعته وإقدامه، وبين جبن غيره وإحجامهم، وكذلك بين ثباته وصموده حين تحتدم الحرب ويشتد القتال، وبين فرار الغير وإدبارهم آنذاك(١٤٣٩) :

أتَجعَلُ إقدامي إذا الخيلُ أحجمت وكرّي ... إذا لـــم يَمْنَـــعِ الدَّبْـــرَ مانِعُ

سواءٌ ومن لايُقَدِّمُ المَهْرَ في الوغـــى ... ومن دَبْرُهُ عند الهزاهرِ ضائِعُ(١٤٤٠)

ثم يتحول إلى الفخر والمباهاة. فيتحدث عن شجاعته، وعن جرأته وإقدامه في الحرب، وعن سرعة استجابته لنداء قومه واستنجادهم به حين تشتد المعركة. ويورد صورة لمبارزة بينه وبين فارس مقاتل مدجج بالسلاح، تسفر عن صرع المقاتل وتركه غنيمة سهلة للضباع:

إذا قيل: يا ابنَ الوردِ أقدِم إلى الوغى ... أجبتُ فلاقاني كَمِيٌّ مُقـــارِعُ

فاتـــرُكُهُ بـــــالقاعِ، رَهْنَاً بِبَلْدَةٍ ... تعاوِرُه فيها الضباعُ الخوامعُ

وينتهي إلى تأكيد بسالته وتمرسه بفنون القتال إذ يفخر إنه غدا لايعبأ بما تجره الحروب من ويلات. وكذلك تأكيد ما يتمتع به من ثبات وصمود أمام تحديات الدهر، وقدرته على مواجهة مصائب الحياة وشدائدها:

فلا أنا مما جَرّتِ الحَرْب مَشْتَكٍ ... ولا أنا مما أحدث الدهر جازِعُ

ولئن تعمد عروة الأغنياء البخلاء بالغارة والسطو، فقد استهدفهم أيضا بالهجاء. ومما وصل إلينا مما قاله فيهم المقطوعة التالية، وفيها يهجو أحد بني أكثم من أنمار، ويصمه –على ماله وغناه– بالبخل، الذي هو صفة ملازمة له في جميع أحواله، وفي كل وقت، يقول(١٤٤١) :

أخَـذَتْ معاقِلَها اللِقاحُ لِمجلسٍ ... حَولَ ابنِ اكثمَ، من بني أنمارِ(١٤٤٢)

(١٤٣٩) ديوانه: ص ٩٧. وفي دار الجيل: ص ١٨١.

(١٤٤٠) الهزاهز: الفتن تهتز فيها الناس.

(١٤٤١) ديوانه: ص ٨٣/٨٤.

(١٤٤٢) اللقاح: ذوات الألبان من الإبل، واحدتها لقوح ولقحة. لسان العرب، مادة لقح.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد أتيتكم بليل دامس ... ولقد أتيت سراتكم بنهار

فوجدتكم لقحا حبسن بخلة ... وحبسن إذ صرين، غير غزار(١٤٤٣)

منعوا البكارة والإفال كليهما ... ولهم أضن بأم كل حوار(١٤٤٤)

فبخل ابن أكثم وقومه، يشمل جميع أنواع العطاء، وقد كان ينتظر منهم، وهم أصحاب ثروة كبيرة ومال كثير، ان يفيدوا بشيء منها من هم في حاجة وعوز. ولكنهم ضنوا وحبسوا الفائدة عن الناس؛ كما النوق اذ تحبس حتى يكثف لبنها، ثم تترك اياما بلا حلب، وحين تحلب يتضح ان لبنها لايفيد منه أصحابها أو أولادها، لقلة دره.

ومنه، لعله قد تبين لنا أن الشاعر –وفي مختلف أغراضه الشعرية– كان يصدر عن صوت ذاتي، وأنه وظف هذا الصوت في رسم منهج حياتي متحد لنفسه ولأصحابه من الصعاليك، وأن تطبيقه الفعلي لهذا المنهج جعل منه أبا روحيا لجماعته، وزعيما يأتمون به في تحديهم للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المختلة في مجتمعهم.

(١٤٤٣) لقح: جمع لقحة. والخلة. الأرض ليس بها حمض. والعرب تضرب الخلة مثلا للدعة والسعة، وتضرب الحمض للشر والحرب. انظر لسان العرب، مادة خلل.

(١٤٤٤) البكارة: جمع بكر من الإبل. والإفال: صغار الإبل، بنات المخاض ونحوها، مفردها الأفيل لسان العرب، مادة أفل. والحوار: ولد الناقة من حين يرضع إلى أن يفطم ويفصل. لسان العرب، مادة حور.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

عرضت في تمهيد هذه الدراسة لطائفة من المعاجم اللغوية، بدءا بالعربية القديمة منها، مرورا بالحديثة، وانتهاء بالمعاجم الأجنبية، وبوجه مخصوص تلك التي باللغة الإنجليزية، وذلك في محاولة لاستخلاص مفهوم التحدي في اللغة.

وكانت أطول وقفة تلك التي مع المعاجم العربية القديمة، إذ أوردت ما ذكر فيها، سواء أكان يمت إلى المفهوم أم إلى الاشتقاق اللغوي. واكتفيت بالإشارة إلى أسماء المعاجم الحديثة كونها لم تخرج عما أوردته المعاجم القديمة حول مادة "حدا".

وتريثت قليلا مع المعاجم الأجنبية لاتساع دائرة المفهوم اللغوي فيها، وتطوره، بحيث جاء بعض منه أقرب إلى المفهوم المعاصر للتحدي.

ثم تناولت "ظاهرة التحدي في الشعر الجاهلي" في سبعة فصول، تمحورت ثلاثة منها حول البواعث المختلفة للتحدي، وعني سائرها بالشاعر وتحدي الطبيعة، والمجتمع، والوضع الاقتصادي، والسلطة الداخلية والخارجية والأجنبية. وانتهت الدراسة بفصل عقدته للحديث عن ثلاثة من الشعراء المتحدين.

وقد تطرقت في الفصل الأول إلى التحديات المتبادلة بين الإنسان والطبيعة الصامتة، وبينه وبين الطبيعة الحية المتحركة. فأتيت على ذكر ما تتكون منه توبغرافيا شبه الجزيرة العربية مثل الحرات والدارات والأودية والجبال، والصحراء برمالها وكثبانها وقفرها، وما يغلف ذلك من عناصر جوية وعوامل مناخية.

وبينت أن مبعث التحديات هو الجدب الذي يتسم به معظم الحرات والدارات والأودية، وكذلك وعورة الجبال المشمخرة وشدة انحدار سفوحها، وصعوبة اجتيازها لعدم توفر الممرات المعينة على العبور. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تلك الصحراء التي تكون القسم الأكبر من توبوغرافيا الجزيرة ، مع التباين في المعالم والأجواء. فهذه الصحراء كانت صقعا مجدبا تشح فيه موارد الحياة، إلى جانب تقلب الجو وتطرف المناخ في الحر وفي البرد، زمنا ومكانا ورياحا، ثم شيوع الرهبة وخاصة في الليل بما يشتمل عليه من خطر الزواحف والحيوانات الضارية والكائنات الأسطورية. وكان على الإنسان -كما الحيوان- مواجهة هذه التحديات ومحاولة التغلب عليها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعنيت بالفصل الثاني بتوضيح صلة التحدي بالنظام الاجتماعي، فتناولت المعمار الاجتماعي للقبيلة بشرائحه الثلاث، الصرحاء والموالي والرقيق، وقد كانوا ينضوون جميعا، تحت مظلة العصبية القبلية، ويخضعون لدستور القبيلة العرفي، ولقوتها التنفيذية والتشريعية المتمثلة في سيد القبيلة ومجلسها المختار من الصرحاء .

وأوضحت أن هذا النظام لم يكن عادلا في جميع الأحوال، وأنه كان يفتقر – أحيانا– إلى المساواة في التطبيق، وإلى التفهم للعوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحفز بعض أفراد القبيلة للخروج على أعرافها وتقاليدها، بحيث يخلعون أو ينبذون، وإذا لم يجاروا، يتشردون، وفي ذلك من الظلم والغبن ما فيه.

وتطرقت إلى العلاقات القبلية، فأوضحت أنها كانت قائمة في أحيان كثيرة على الحروب، وأن بعض هذه الحروب كانت تنجم عن علاقات شخصية لسادات القبائل والمتنفذين فيها، أو عن تصرفات وسولكيات لهم تؤدي إلى أحداث ووقائع تحمل طابع التحدي للعرف أو للشرف أو للرئاسة، أو عن تلاسن مستفز،وملاحاة،وتعريض قولي، كما الحال في حرب البسوس، وحرب داحس والغبراء.

وبينت في الفصل الثالث أن اختلال التوازن الاقتصادي في المجتمع الجاهلي، وسوء التوزيع في كل من الثروة الحيوانية، والزراعية، والتجارية، والحربية، عملا على تكوين طبقتين متباينتين من حيث الغنى والفقر. فالثروة الحيوانية التي كان قوامها الإبل، كانت بأيدي قلة من أصحاب المخاض في البادية، وكانت الأكثرية من البدو الفقراء المدقعين الذين لايملكون من السوام أو المال ما يقيتهم. والأمر كذلك بالنسبة للثروة الزراعية. فقد كانت لقلة من أصحاب المزارع والبساتين والآطام والأملاك والإبل. وبالمقابل كان الفقراء هم الغالبية وكانوا على تفاوت في درجات الفقر. والثروة التجارية، سواء في اليمن أو في مكة، كانت تحتكرها أيضا فئة من أصحاب رؤوس الأموال والثراء، الذين كانوا ينفقون المبالغ الضخمة في تجهيز قوافلهم الكبيرة، وفي دفع أجور الأدلاء والخفراء،بهدف إبلاغ القوافل غايتها بأمن وسلام،دون التعرض لسطو أو غارة. أما سائر الأفراد فقد كان جلهم من الفقراء الذين لايملكون من المال مايمكنهم من المشاركة في النشاط التجاري والتكسب منه، مما حدا من كان منهم على قدر من الشجاعة والجرأة أن يتحدى وضعه وأن يتصدى لأصحاب الثروة، وذلك بالإغارة على القوافل التجارية وسلبها ونهبها. وقد كان قوام الثروة الحربية الغزو الذي عده البعض أهم مورد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للرزق عند العرب. ففي السنوات العجاف كان المتضررون من الجدب والقحط يتسابقون إلى مواطن الخصب والنماء، في محاولة للاستيلاء على ما يستطيعون منها، إما بالمواجهة الحربية الصريحة أو بالإغارة التي يكون مردودها الغنائم والاسلاب. كما كانت القبائل الغنية والقوية تشن غارات وتغزو رغبة في زيادة ثروتها المادية والبشرية عن طريق الغنائم من إبل وأسرى وسبي، ومن ثم كانت الثروة الحربية من التحديات التي تغري بالاستجابة والتفاعل. وفي كل ذلك كان التباين بين الأغنياء والفقراء في الوضع الاقتصادي هو المثير الأجلى للتحدي والأبرز

وأما في الفصل الرابع فقد تناولت التحدي المتبادل بين الشاعر والطبيعة، في بعدين رئيسيين: أ. جدب الديار. ب. ورحلة الشاعر. فبينت ان تحدي الجدب اتخذ مظاهر ثلاثة: ١. الثواء. ٢. والظعن. ٣. والبذل والعطاء.

ففي الثواء جليت موقف الشاعر ورهطه إذ يتحدون الجدب، فيقيمون في دار الحفاظ ويشدون على أنفسهم وعلى إبلهم ولا ينتقلون إلى مواطن الكلأ، والفخر والمباهاة يعززان موقفهم المتحدي المنتصر للارادة وللثبات في الأوقات العصيبة.

والظعن -كما أوضحت- هو ضرب من الحركة الدائبة لهدف ، والهدف هنا هو ارتحال القبيلة سعيا وراء اسباب الحياة من كلأ وماء في تحد عنيد للموت الذي قد ينجم عن الجدب الشديد. وانطلاقا من هذا المفهوم أضفى الشاعر الجاهلي على الظعن الكثير من صفات الحسن والبهاء، واصفا ثراءهن البادي في وجوههن النضرة وفي زينتهن وحليهن، وهوادجهن العظيمة المزخرفة، وقصده من ذلك كله الإيحاء بتحدي المتجعين والظاعنين لجبروت الطبيعة الماثل في جدبها وقحطها.

وفي البذل والعطاء يتجلى الكرم والقرى والميسر، وكلها تهدف إلى استنفاذ الجياة وقهر الفقر والجوع الناجمين عن الجدب. ومن هنا جاء فخر الشاعر بما يستطيع وقومه ان يقدموه من ملاذ وطعام وشراب للساري وللعاني والمعدم، ولمن ضل طريقه في الديجور. فكان التغني بالنار التي توقد لهداية التائهين، والقدور السوداء التي يطهى فيها القرى، والميسر الذي يهدف إلى إغاثة الفقراء وأرباب الحاجة.

ورحلة الشاعر -كما الظعن- هي حركة دائبة تتوخى ايضا اسباب الحياة. وفي تناولي للأراء المختلفة حول حقيقة هذه الرحلة، أبديت رأيي في انها مظهر جلي للتحدي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتبادل بين الإنسان والطبيعة، والاستجابة الفاعلة لهذا التحدي. وحين تحدثت عنها أشرت إلى وجود عناصر رئيسية ثلاثة فيها: الشاعر المرتحل، وناقته، وثور الوحش. فالشاعر في رحلته يتحدى الاجواء الطبيعية الصعبة التي ربما تفوق في شدتها وعنفها قدرة البشر على التحمل، ورفيقه الوحيد هي الناقة التي تبدو اسطورية بما وصفها به من قوة تحمل، وشدة مثابرة، ومغالبة للكلال. وفوق ذلك، ربما تراءت له ثورا وحشيا يقف متحديا بأنفة عناصر الطبيعة من إنسان وحيوان يستهدفانه بالصيد، ويظل صامدا أمام العوامل الجوية والمناخية العاتية، حتى يخرج منتصرا منها جميعا، كما الشاعر والناقة في انتصارهما على مشاق الترحل.

ووقفت في الفصل الخامس عند جملة من مظاهر التحدي الإجتماعي لدى الشاعر الجاهلي وهي: ١. طلب المتعة. ٢. والرفض والتمرد. ٣. والهجاء وما يدور في فلكه من تهديد ووعيد ومنافرة. ٤. وطلب الثأر وإدراكه. وأشرت إلى أنها جاءت استجابة فاعلة ومؤثرة لتحديات ظلم القبيلة ومحاولاتها الهادفة إلى تكبيل الحرية الشخصية، وإلى إهدار الكرامة الإنسانية، في حالات بعينها وهي ايضا تحد للظلم الذي يوقعه الاعتداء والعدوان.

وفي الحديث عن المتع وملذات العيش ذكرت ان الشعراء الجاهليين اجملوها في شرب الخمرة، ومعاشرة النساء، وركوب الخيل للحرب أو للصيد والطرد، ثم اللهو في مجالس القيان. وفي الرفض والتمرد بينت ان هؤلاء الشعراء سلكوا في التعبير عن رفضهم وتمردهم طريقين: احدهما ينحو منحى الاستعلاء المستند إلى التميز في القوة الخلقية والمعنوية، وفي الشجاعة والجرأة والإقدام، ومثلت له بعنترة بن شداد. وأما الآخر فيجنح إلى العنف والفتك والتنكيل والسلب والنهب، وقد سلكه بعض الفتاك مثل الحارث بن ظالم والبراض بن قيس. وتعمد الهجاء -في معظمه- المثالب والعيوب الخلقية، فنشرها وفضح السلوك المجافي للقيم والتقاليد التي تعارف عليها المجتمع الجاهلي. ومن ثم انصب هجاء الشاعر الجاهلي في تعرضه لمهجوه -أيا كان- على هذه الأمور متحديا إياه في الرجولة والشجاعة والقيم الاجتماعية الرفيعة. وجاء الحديث عن التهديد والوعيد في مجال الرد على استفزاز قولي أو فعلي، وكذلك في مجال توعد الأعداء او الخصوم بالقتل أو المواجهة الحربية، والتهديد بالثأر لذوي القربى وأبناء القبيلة من الذين سقطوا صرعى بأيديهم والمجال هذا أوسع من سابقه نظرا لارتباطه بأيام العرب والغزو. وأما المنافرة فقد عرضت لما تعنيه، فذكرت أنها تعني المحاكاة في النفر وذاك ان الرجلين إذا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اشتد بينهما الخصام وادعى كل منهما أنه أشرف من صاحبه، وأرفع منه مكانة وحسبا ومنعة، تحدى أحدهما الآخر للمنافرة كما كان الناس يفعلون في العصور الوسطى،حين يتحدى الرجل خصمه للمبارزة بالسلاح، مع وجود حكم بينهما. وأوردت بعضا من المنافرات،وما قيل من الشعر فيها،انتصاراً لهذا الفريق أو ذاك. وفي تناولي للأخذ بالثأر، أوردت ما ذهب إليه بعض الدارسين من أن الأخذ بالثأر شريعة العرب المقدسة التي لاتقبل غير المعاملة بالمثل، وأن لها شعائرها التي كان الموتورون يلتزمون بها إلى أن يدركوا ثأرهم. وأومأت إلى أن التهديد والوعيد كانا يحتلان حيزا هاما من مساحة طلب الثأر. وأنه كان يتطلب التحريض أحيانا،والحث على إدراكه، سيما وأنه كان لدى بعض الشعراء شبيها بالداء الذي يتفشى في الجسم،ويسقم الروح. لذا فقد ذهبوا إلى أنه بتحقيق الانتقام، وإدراك الوتر يبرأ الداء فتصح النفوس والأبدان.

وتناولت في الفصل السادس الشاعر والتحدي الاقتصادي في الشعر الجاهلي، في بعدين هما: ١. الصعلكة. ٢. والحروب والغزوات والغارات. ففي الصعلكة، أوضحت المفهوم لغويا واجتماعيا،وصلة المفهوم الاجتماعي بالتحدي الاقتصادي، وأشرت إلى أن من الصعاليك من كان خاملا خائر الهمة، وأن منهم من كان على شيء كثير من الشجاعة والجرأة،والقدرة على التصدي لتحديات الحياة المختلفة ومواجهتها. وهؤلاء اتخذوا شعارا لهم الغزو للسلب والنهب،متحدين بذلك عوامل الفقر والجوع والحاجة. وغدا الغزو عندهم أسلوب حياة يستدعي الطواف في الأرض،والتنقل بين الأحياء،ومباغتتها بالغارات، والانفلات منها بالغنائم من إبل وخيل وسبي، توفر لهم المعاش وأسباب الحياة. وبسبب من شجاعتهم وبأسهم،وتمرسهم باستخدام السلاح جيدا،كانوا لايهابون شيئا ويتحدون كل شيء حتى الموت. وقد مثلت لهم بتأبط شرا الذي كان شجاعا فاتكا جريئا لايهاب شيئا حتى غير المألوف أو المعتاد،ويتحدى ما وراء الطبيعة. وأتبعته بالشنفرى الشجاع الأبي ذي البأس والبطش، الذي لازمه التحدي طوال حياته إلى أن انتهى به إلى القتل. وفي كل ذلك،كان الشاعر الصعلوك يسجل مواقفه المتحدية،ومجريات غاراته،وأحداث غزواته ويتباهى بتلك المواقف وبما يسفر عنها.

وأما الحروب والغزوات، فقد اعتمدها المجتمع الجاهلي مصدرا هاما من مصادر الرزق وتنمية الثروة، واتخذوها وسيلة فاعلة في مواجهة التحديات الاقتصادية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هنا جاء عدهم للغارة عملا بطوليا يستحق التمجيد والفخر، لاستهدافه سد الحاجة،وقهر الفقر،والفوز بثروة مما يغنم المنتصر من إبل وسوام وأسرى وسبايا؛ من شأنها جميعا أن تنمي الثروة المادية والبشرية، ولا يستثنى من ذلك الإغارة على القوافل التجارية المحملة بالبضائع الثمينة. وقد تباهى الشاعر الجاهلي بانتصاره في الحروب والغزوات، وتغنى بموقفه المتحدي المتصدي لمن يغير عليه، وبخاصة إذا حال بينه وبين تحقيق هدفه، كما فعل ربيعة بن مكدم حين حال بين قاصديه بالسطو وبين تحقيق ما كانوا يهدفون إليه من هذا السطو،وهو سبي ظعينته.

وتحدثت في الفصل السابع عن تحدي الشاعر للسلطة القبلية،ممثلة بسيد القبيلة او من يتولى أمور السيادة عليها، وللسلطة الخارجية أو سلطة ملوك إمارات التخوم، وكذلك للسلطة الأجنبية وأصحابها الروم وفارس والحبشة؛ مبينة دور هذه السلطات في استفزاز الشاعر واستثارة مشاعره، وأثرها في حفزه للتصدي والمواجهة قولا أو فعلا، وأحيانا الاثنين معا. وقد نحا الجاهلي في تحديه للسلطة القبلية منحيين، أحدهما قاصر على خلع السيادة عن رئيس القوم،وتجريده من حقوقه السياسية وإخراجه من المحلة. ويأخذ الآخر مظهرا عنيفا يتسم بطابع التمرد الفاتك،أو الثورة الدموية والقتل. وتجلى تحدي السلطة الخارجية في التحريض على عصيانها، وعدم الاستجابة لرغباتها وإظهار القوة أو التهديد باللجوء إلى القوة. وكذلك في الرد على تهديد الملوك وتوعدهم. ثم في هجائهم ، وأخيرا، العمد إلى قتلهم أو قتل أبنائهم أو أفراد عائلاتهم. وقد بينت أنه كان لهذا التحدي مظهر فردي، وآخر جماعي تجلى في تصدي بعض القبائل العربية لكتائب المناذرة والغساسنة واشتباكهم معهم في المعارك.

وفيما يتعلق بالسلطة الأجنبية أوضحت أن العرب كانوا يلجأون إلى الثورة وإلى الصدام المسلح إذا تطلب الأمر ذلك، بغض النظر عما كانت تسفر عليه هذه الثورات أو الصدامات من نصر أو هزيمة. وقد أكثر الشاعر الجاهلي من الحديث عن ذلك، وبوجه مخصوص عن معركة ذي قار التي وقعت بين بعض القبائل العربية والفرس، وجاءت نتيجتها نصرا حاسما للعرب. الأمر الذي حدا الشعراء إلى التباهي بهذا النصر والتغني بشجاعة المقاتلين من أهلهم وأقوامهم.

وعنيت في الفصل الثامن بثلاثة من الشعراء المتحدين،وعلى اختلاف في المكانة الاجتماعية وفي الحالة الاقتصادية. فتحدثت عن عمرو بن كلثوم ممثلا للتحدي السياسي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من حيث نسبه وحياته ثم من حيث قيادة قومه،أو المساهمة مع قبيلته في شن الحروب والغارات على الأعداء، ثم التصدي للملوك إما بالمواجهة الحربية، أو بالهجاء والتهديد والوعيد،المترافقين بالفخر والتباهي بمآثر قومه ومفاخرهم وشجاعتهم. واتكأت في ذلك على شعره وقصائده الناطقة بالصوت القبلي الجماعي.

وتناولت أخبار طرفة بن العبد وأبرزت تحديه الاجتماعي من خلال إيراد مظاهر هذا التحدي، مثل هجاء الأقارب، وهجاء الخصوم سواء أكانوا سوقة أم ملوكا، والإغراق في طلب المتعة وملذات العيش، والتمادي في السلوك المناهض لأعراف القبيلة ومفاهيمها الاجتماعية والدينية، وعدم الاكتراث بموقف الأهل والعشيرة منه،بسب تطرفه في أفعاله وتبديده المال في غير الوجه المقبول أو المستحسن، ثم جرأته البالغة على الحياة وعلى الموت، كما عبرت قصائده التي تمحورت في معظمها حول الذات.

ومن خلال إيراد أخبار عروة بن الورد،تطرقت إلى تحديه المنبثق عن رؤية اجتماعية واقتصادية. وبينت أن هذه الرؤية دفعته للتصعلك،وتزعم جماعة من الفقراء والصعاليك، ورسم نمط حياة لهم يعتمد الغارة للسلب والنهب. ويحث على الترحل والطواف في الأرض قهرا للفقر واستجلابا للمال والغنى. وواكب ذلك، التحريض على الإباء ورفض الذل والظلم، والسعي للحياة الكريمة، وإن أدى المسعى إلى الموت. وكانت ثمة وقفة مع مظهر لتحدي الشاعر وهو الهجاء الموجه للقريب، أو لابن العشيرة، أو للخصم. وكان صوت الشاعر في ذلك كله صوتا ذاتيا،وظف للتعبير عن هموم الجماعة أحيانا.

ومن هذا كله، تتضح جملة من الأمور منها:

١ – قلة دوران لفظة التحدي على الألسن في العصر الجاهلي، وآية ذلك عدم ورودها في الشعر، عدا كلمة (حديا) التي فسرت بمعنى التحدي، وهي ترد مرة واحدة وفي قصيدة عمرو بن كلثوم فقط، الأمر الذي جعل المعاجم القديمة تقصر الشواهد عليها، وإيراد –وعلى قلة– بيت الشعر المذكور فيه.

٢ – وأن التحدي سمة الإنسان الجاهلي في الغالب، وأن الاستفزاز والاستثارة يجلياتها ويوسعان من دائرتها، نظرا لما كان يتحلى به هذا الإنسان من شجاعة ومن معطيات خلقية كريمة مثل الإباء والأنفة والحمية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣ – وأن محيط هذا الإنسان وبيئته وحياته بمختلف أبعادها وشتى جوانبها تحفل بالتحديات التي كثيرا ما كانت تلقى استجابة مؤثرة، وفي حالات معينة كانت الاستجابة سريعة ومباشرة، سواء منه أو من الحيوان.

٤ – وأن الشعر الجاهلي قد رصد ابعاد هذا التحدي ووجوهه ومواقف الإنسان والحيوان منه، وقدمه على أنه ظاهرة شائعة وهامة، وبين أن هذه الظاهرة فطرية تنبع من الذات الإنسانية، وأنها قد تكون فردية في توجهها، وقد تكون جماعية، ولكنها غير محددة بزمان أو مقيدة بمكان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دواوين الشعر :

- أُحيحة بن الجُلاح الأوسي الجاهلي ، ديوانه دراسة وجمع وتحقيق حسن محمد باجودة ، ١٩٧٩م ، نادي الطائف الأدبي .
- الأسود بن يعفر، ديوانه ، صنعة نوري حمودي القيسي ، ١٩٧٠م ، وزارة الثقافة والاعلام مديرية الثقافة العامة .
- الأعشى ، ميمون بن قيس ، ديوانه ، ط١.شرح يوسف شكري فرحات ، ١٩٩٢م ، دار الجيل ، بيروت
- ديوان الأعشى الكبير ، ط ٧ . حققّه وعلّق عليه : محمد محمد حسين ، ١٩٨٣م مؤسسة الرسالة ، بيروت . (وهو المعتمد عند الإطلاق) .
- الأفوه الأودي ، ديوانه ، ضمن (الطرائف الأدبيّة) . تحقيق عبد العزيز الميمني ١٩٣٧م ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .
- امرؤ القيس ، ديوانه ، ط٤ . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١٩٦٩م ، دار المعارف بمصر .
- امرؤ القيس ، شرح ديوانه ، السندوبي ، حسن ، ١٩٥٩م ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- أميّة بن أبي الصلت ، ديوانه ، ط٢ . جمع وتحقيق ودراسة عبد الحفيظ السطلي ، ١٩٧٧م ، المطبعة التعاونية بدمشق .
- أوس بن حَجر ، ديوانه ، ط٣ . تحقيق وشرح محمد يوسف نجم ، ١٩٧٩م ، دار صادر ، بيروت .
- الأيادي ، أبو دؤاد الإيادي ، شعره ، ضمن كتاب دراسات في الأدب العربي ، غوستاف فون غرينباوم ، ترجمة إحسان عباس وآخرون ، ١٩٥٩م ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- بشر بن أبي خازم الأسدي ، ديوانه ، ط٢ ، عني بتحقيقه عزة حسن ، ١٩٧٢م منشورات وزارة الثقافة ، دمشق .
- تأبّط شراً ، ديوانه وأخباره ، ، ط١ . جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر ١٩٨٤م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .
- حاتم بن عبد الله الطائي ، ديوان شعره وأخباره ، صنعة يحيى بن مُدرك الطائي ، رواية هشام بن محمّد الكلبي .دراسة وتحقيق عادل سليمان جمال (لا . ت) ، مطبعة المدني القاهرة .
- الحادرة ، ديوان شعره .حققه وعلّق عليه ناصر الدين الأسد ،١٩٧٣م ، ط٢ دار صادر ، بيروت .
- الحارث بن حلّزة ، ديوانه ، ط١ . جمعه وحققه وشرحه أميل بديع يعقوب ، ١٩٩١م ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- حسّان بن ثابت الأنصاري ، ديوانه ، دارصادر، دار بيروت ، ١٩٦٦م ، بيروت .
- الخِرنِق بنت بدر بنت هفّان ، ديوانها ، رواية عمرو بن العلاء وغيره.تحقيق واضح الصمد ، ١٩٩٥م ، دار الصمد ، بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

المعاجم :

- ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت٣٢١هـ) ، جمهرة اللغة ، ٤ م ، مكتبة الثقافة الدينية ، (لا . ت) ، بورسعيد ، مصر ، مجلد ٣ .
- ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥ هـ) ، مجمل اللغة ٣ م ، ط١، تحقيق الشيخ هادي حسن حمودي ، ١٩٨٥م ، معهد المخطوطات العربية ، الكويت ، معجم مقاييس اللغة ، ٦ م ، ط ١، ١٩٩١م ، دار الجيل ، بيروت .
- ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرّم الأنصاري (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، ٢٠م ، طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق ، (لا . ت) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة .
- الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد (ت . ٣٧ هـ) ، تهذيب اللغة ، ١٥م تحقيق عبد الله درويش ، (لا . ت) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة .
- البستاني ، بطرس ، ١٩٨٧م ، محيط المحيط ، ٢ م ، مكتبة لبنان ، بيروت .
- الجوهري ، إسماعيل بن حماد (٣٩٨ هـ) ، الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ٦ م ، ط٣ ، دار العلم للملايين ١٩٨٤م ، بيروت .
- الزبيدي ، السيد محمد مرتضى الحسيني ، (١١٦٠ هـ) تاج العروس ، ١٠ م ، دار صادر بيروت ، ودار ليبيا ، بنغازي ، ١٩٦٦م .
- الزمخشري ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ) ، أساس البلاغة ، ١٩٧٩ ، دار صادر ، بيروت .
- الزواوي ، الطاهر أحمد ، ١٩٧٠م ، ترتيب القاموس المحيط ، ط٢، ٤م ، عيسى البابي الحلبي وشركاه . القاهرة .
- عبد المسيح ، جورج متري ، ١٩٩٣م ، لغة العرب ، مكتبة لبنان ، بيروت .
- الفيروز أبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧ هـ) ، القاموس المحيط ، ٤ م ، ١٩٨٣م ، دار الفكر ، بيروت .
- الفيّومي ، أحمد بن محمد بن علي المقري ، (ت ٧٧٠ هـ) ، المصباح المنير ، تحقيق عبد العظيم الشناوي (لا . ت) ، دار المعارف ، القاهرة .
- مرعشلي ، نديم وأسامة ، ١٩٧٤م ، الصحاح في اللغة والعلوم ، دار الحضارة العربيّة . بيروت .
- المركز الثقافي والعلوم ، المعجم الوجيز . (لا . ت) ، بيروت .
- مصطفى إبراهيم وآخرون ، ١٩٦٠م ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، المعجم الوسيط ، ط ٢ مجلّدان . دار المعارف . القاهرة .

16-The New Oxford Illustrated Dictionary 1978 , Systems Publications Limited , Oxford University Press.

17- The Oxford English Dictionary, 1961, University Press, Oxford, 3 Vols.

18- Webster, Merriam, 1986. Webster's Third New International Dictionary (3rd. Edition) , Merriam Webster. U.S.A. , 3 Vols.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- دريد بن الصِّمّه الجُشَمي ، ديوانه ، جمع وتحقيق وشرح : محمد خير البقاعي ، ١٩٨١م ، دار صعب ، دار قتيبة ، دمشق .
- ذوالإصبع العدواني ، حُرْثانَ بن مُحَرّث ، ديوانه ، حققّه عبد الوهاب محمد علي العدواني ، ومحمد نائف الدُلَيْمي ، ١٩٧٣م ، مطبعة الجمهور ، الموصل
- زهير بن أبي سُلمى ، ديوانه ، تحقيق وشرح كرم البستاني .١٩٦٠م ، دار صادر – دار بيروت ، بيروت .١٩٦٠م .
- زهير بن أبي سُلمى ، ديوانه ، شرح ثعلب أبو العباس أحمد بن يحيى . دار الكتب المصريّة ١٩٤٤م (وهو المعتمد عند الإطلاق) .
- زيد الخيل الطائي ، ديوانه ، صنعة نوري حمودي القيسي ، (د . ت) ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف .
- سلامة بن جَندل ، ديوانه ، ط١، قدّم له ووضع هوامشه راجي الأسمر، ١٩٩٤م ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- السُلَيك بن السَلكة ، ديوانه ، ط١ ، قدّم له وشرحه سعدي الضنّاوي ، ١٩٩٤م ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- السموأل بن عادياء، ديوانه ، تحقيق وشرح عيسى سابا ، ١٩٥١ ، مكتبة صادر ، بيروت .
- الشنفرى ، عمرو بن مالك ، ديوانه ، ط١ . جمعه وحققه وشرحه أميل بديع يعقوب ، ١٩٩١م ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- طرفة بن العبد ، ديوانه ، شرح الأعلم الشَنْتَمري ، تحقيق دريّة الخطيب ، لطفي الصقال ، ١٩٧٥م ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، دمشق .
- طرفة بن العبد ، شرح ديوانه ، ط١ ، قدّم له وشرحه سعدي الضنّاوي ، ١٩٩٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- الطفيل الغنوي ، ديوانه ، ط١، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، ١٩٦٨م ، دار الكتاب الجديد ، بيروت .
- عامر بن الطُفَيْل ، ديوانه ، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت٣٢٨هـ) ، عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت ٢٩١هـ) ، دار صادر ١٩٧٩م ، بيروت .
- عَبيد بن الأبرص ، ديوانه ، ط١ . شـ ح أشرف أحمد عَدرة ، ١٩٩٤ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- عديّ بن زيد العِبادي ، ديوانه ، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد ، ١٩٦٥م ، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع ، بغداد .
- عروة بن الورد ، ديوانه ، ط١ . شرحه وقدّم له سعدي ضناوي ، ١٩٩٦م ، دار الجيل ، بيروت .
- عروة بن الورد ، ديوانه ، شرح ابن السكّيت ، يعقوب بن اسحاق،(ت ٢٤٤هـ) ، حققه وأشرف على طبعه ووضع فهارسه عبد المعين الملوحي (لا . ت) ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق .(وهو المعتمد عند الإطلاق) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- علقمة الفحل ، ديوانه ، ط ١ ، بشرح : الأعلم الشنتمري ، حققّه لطفي الصقّال ، ودريّة الخطيب . راجعه الدكتور فخر الدين قباوة ، ١٩٦٩م ، دار الكتاب العربي ، بحلب .
- علقمة بن عبدة الفحل ، شرح ديوانه ، ط١ . قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه حنّا نصر الحتّي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٩٣م .
- عمرو بن قميئة ، ديوانه ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي ، ١٩٦٥م ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة .
- عمرو بن كلثوم ، ديوانه ، ط١ . جمعه وحققه وشرحه أميل بديع يعقوب ، ١٩٩١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- عمرو بن معد يكرب الزُبيدي ، ديوانه ، صنعه هاشم الطعان ، (لا . ت) ، وزارة الثقافة والاعلام ، مديرية الثقافة العامّة ، بغداد .
- عنترة بن شداد ، ديوانه ، ط١ . تحقيق بدر الدين حاضري ، محمد حمّامي ، ١٩٩٢م ، دار الشرق العربي ، بيروت ، لبنان .
- قيس بن الخطيم ، ديوانه ، ط٢.تحقيق ناصر الدين الأسد ، ١٩٦٧م ، دار صادر ، بيروت .
- قيس بن زهير ، شعره ، جمع وتحقيق عادل جاسم البياتي ، ١٩٧٢م ، مطبعة الآداب ، النجف .
- لبيد بن ربيعة العامري ، شرح ديوانه ، حققه وقدم له احسان عباس ، ١٩٦٢م وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .
- لقيط بن يعمر ، ديوانه ، حققه وقدّم له عبد المعيد خان ، ١٩٧١م ، دار الأمانة مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- المتلمّس الضُبَيعي ، ديوان شعره ، رواية الأثرم ، وأبي عبيدة عن الأصمعي ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي ١٩٧٠م ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة .
- المثقّب العبدي ، ديوان شعره ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي ١٩٧١م ، معهد المخطوطات العربيّة ، القاهرة .
- المهلهل ، عديّ بن ربيعة التغلبي ، ديوانه ، شرح وتحقيق أنطوان محسن القوّال ، ١٩٩٥م ، بيروت ، دار الجيل .
- النابغة الذبياني زياد بن معاوية ، ديوانه ، جمعه وشرحه وكمّله وعلّق عليه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية للتوزيع ، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٧٦م .
- الهُذليّين ، الديوان ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، الدار القوميّة للطباعة والنشر ، ١٩٦٥م ، القاهرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المجموعات الشعرية :

- ابن الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم ، (ت ٣٢٨ هـ) ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ط٤ ، تحقيق وتعليق عبد السلام محمّد هارون ، ١٩٨٠م ، دار المعارف ، القاهرة .
- ابن الشجري ، هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسيني (ت ٥٤٢ هـ) ، الحماسة الشجرية . تحقيق عبد المعين الملوحي ، أسماء الحمصي ١٩٧٠ ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق .
- أبو تمّام حبيب بن أوس ، (ت ٢٣١ هـ) ، كتاب الوحشيات ، ط ٢ ، علق عليه وحققه عبد العزيز الميمني الراجكوتي ، ١٩٧٠م ، دار المعارف بمصر .
- الأخفش الأصغر، علي بن سليمان ، (ت ٣١٥ هـ) ، كتاب الاختيارين ، ط٢ . تحقيق فخر الدين قباوة ، ١٩٨٤م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- الأصمعي ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك ، (٢١٦ هـ) ، الأصمعيات ، ط٢ ، تحقيق وشرح أحمد محمّد شاكر ، وعبد السلام هارون ، ١٩٦٤م ، دار المعارف بمصر .
- الأعلم الشنتمري ، يوسف بن سليمان بن عيسى (ت ٤٧٦ هـ) ، أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، ط٣ . تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، ١٩٨٣م ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت (ج١) .
- الأنباري ، أبو محمد القاسم بن محمد بن بشّار (ت ٣٠٤هـ) ، شرح ديوان المفضليات ، بعناية كارلوس يعقوب لاَيَل ١٩٢٠م ، مطبعة الآباءاليسوعيين ، بيروت .
- البحتري ، أبو عبادة الوليد بن عُبيد ، (ت ٢٨٤ هـ) الحماسة ، ط٢ ، بعناية لويس شيخو ، ١٩٦٧م ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- البصري ، صدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن (ت ٦٥٦ هـ) ، الحماسة البصرية ، جزءان ، تحقيق عادل جمال سليمان ، (لا . ت) ، لجنة إحياء التراث الاسلامي .
- التبريزي ، أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب (ت ٥٠٢ هـ) ، شروح حماسة أبي تمام ، ٤ م ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، (لا . ت) ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- التبريزي ، أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب ، (ت٥٠٢ هـ) ، شرح القصائد العشر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،١٩٦٢م ، مكتبة محمد.علي صبيح بمصر .
- الزوزني ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت ٤٨٦ هـ) ، شرح المعلقات السبع دار الجيل ، (لا . ت) ، بيروت ، لبنان .
- الشنقيطي،أحمد بن الأمين،شرح المعلقات العشر،دار الأندلس ،(لا.ت) بيروت .
- الضبي ، المفضل بن محمد بن يعلي ، (ت ١٧٨ هـ) ، المفضليات ، ط ٤ ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، ١٩٦٤م . دار المعارف بمصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- القرشي ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ، (ت ، أوائل القرن الرابع هـ) جمهرة أشعار العرب حققه وضبطه وزاد في شرحه على محمد البجاوى (لا . ت) ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة .
- القرشي ، أبو زيد محمد بن الخطاب ، جمهرة أشعار العرب ، ط١ . تحقيق محمد علي الهاشمي ، ١٩٨٦ ، دار القلم ، دمشق .
- المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ، (٤٢١ هـ) ، شرح ديوان الحماسة ، ط٣ ، ٤ م ، أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ١٩٦٧م ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . (وهو المعتمد عند الإطلاق)

المراجع

- ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني ، (ت ٦٣٠ هـ) ، الكامل في التاريخ ، ١٢ م ، دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٦٥ ، بيروت .
- ابن حبيب ، محمد بن حبيب بن أمية البغدادي ، (ت ٢٤٥ هـ) ، المحبّر ، اعتنت بتصحيحه إيلزا ليختن ، ١٩٤٢م ، مطبعة جمعيّة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد .
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي ، (ت ٤٥٦) ، جمهرة أنساب العرب ، ط ٣ ، تحقيق وتعليق عبد السّلام محمد هارون ،١٩٧١م ، دار المعارف بمصر .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ) المقدّمة ، ط١ ، دار القلم . ١٩٧٨م ، بيروت .
- ابن سعيد الأندلسي ، أبو الحسن ، علي بن موسى بن محمد (ت ٦٩٥ هـ) ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، مجلدان ، ط١، تحقيق نصرت عبد الرحمن ، ١٩٨٢م ، مكتبة الأقصى ، عمان ، الأردن .
- ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٧ هـ) ،كتاب العقد الفريد ،٧ م شرحه وضبطه أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الأبياري ، ١٩٨٢م ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) ،
  - الشعر والشعراء ، دار الثقافة (لا . ت) ، بيروت .
  - عيون الأخبار ، ط١ ، صنعة يوسف علي طويل ، ١٩٨٦م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
  - كتاب الأنواء (في مواسم العرب) ، ط١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٥٦م ، حيدر آباد ، الدكن ، الهند .
  - الميسر والقداح ، تصحيح وتعليق محب الدين الخطيب ، ١٣٤٢هـ مطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة .
- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك المعافري ، (ت٢١٣هـ) ، السيرة النبوية ، ٢ م تحقيق أحمد حجازي السقا ، ١٩٧٩م ، دار التراث العربي للطباعة والنشر، القاهرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أبو سويلم ، أنور عليان ، ١٩٨٣م ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ط١، دار العلوم الرياض
- أبو سويلم ، أنور ، ١٩٩١م ، مظاهر من الحضارة والمعتقد ، في الشعر الجاهلي ، دار عمّار عمان .
- أبو عبيدة ، مُعَمَّر بن المثنى التَيْمي ، (ت ٢٠٩ هـ) ،
  - كتاب أيام العرب قبل الإسلام ، ط١ ، جمع وتحقيق ودراسة عادل جاسم البياتي ، ١٩٨٧م ، مكتبة النهضة العربية ، بيروت .
  - كتاب النقائض ، ٢ مجلدات ، ليدن ، بريل ، ١٩٠٥م ، مكتبة المثنى ، بغداد .
  - كتاب النقائض ، ٢ م ، تحقيق علي محمد عبد اللطيف ، ١٩٣٥م ، المكتبة الحسينية المصرية ، (وهو المعتمد عند الإطلاق) .
- أبو الفرج ، قدامة بن جعفر ، (ت ٣٣٧ هـ) ، نقد الشعر . تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي (لا . ت) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- الأزرقي ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ، (ت ٢٥٠ هـ) ، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، صححها وعلّق عليها رشدي الصالح ملحس ، ١٣٥٢هـ ، المكتبة الماجديّة ، مكة المكرمّة .
- اسحاق ، علي شواح ، ١٩٨١م ، الإيجابية والسلبية في الشعر العربي ،رسالة دكتوراه ، جامعة القديس يوحنا ، بيروت ، لبنان .
- الأسد ، ناصر الدين ، ١٩٦٩م ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخيّة ، ط ٤ ، دار المعارف بمصر .
- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي ، (ت ٣٥٦ هـ) ،
  - كتاب الأغاني ، ٢٨ م ، إشراف وتحقيق إبراهيم الأبياري ، ١٩٦٩م دار الشعب ، القاهرة ، (وهو المعتمد عند الإطلاق) .
  - كتاب الأغاني ٢٤ م ، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج ،١٩٦١م ، دار الثقافة ، بيروت .
  - كتاب الأغاني ٢٢ م ، دار الفكر ، القاهرة . (لا . ت) .
- الألوسي ، محمود شكري بن عبد الله بن محمود ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ط١،عني بنشره محمد جمال،١٣١٤هـ ، المكتبة الأهلية، مصر.
- الآمدي ، الإمام أبو القاسم الحسن بن بشر، (ت ٣٧٠ هـ) ، المؤتلف والمختلف ، ط١ ، صححه وعلّق عليه الأستاذ ف . كرنكو ، ١٩٩١م ، دار الجيل ، بيروت .
- أمين ، أحمد ، ١٩٦٩م ، فجر الإسلام ، ط ١٠ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- باقر ، طه ، ١٩٧٥م ، ملحمة جلجامش ، ط٣ ، منشورات وزارة الإعلام ، الجمهورية العراقية .
- البستاني ، بطرس ، (لا.ت) ، أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام ، ٤ م دار الجيل ، بيروت .
- البطل ، علي ، (لا . ت) ، الصورة في الشعر العربي ، حتى أخر القرن الثاني الهجري ، دار الأندلس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- البغدادي ، عبد القادر بن عمر،(ت ١٠٩٣م)،خزانة الأدب،ولبّ لباب لسان العرب،تحقيق وشرح عبد السلام هارون ،(لا .ت) ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- البكري ، أبو عبيد البكري الأوْنَبيّ (ت ٤٨٧ هـ) ، سَمط اللآلي ، تحقيق عبد العزيز الميْمَني ، ١٩٣٦م ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الهند .
- البكري ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، (ت ٤٨٧ هـ) ، معجم ما استعجم ، ٢ م ، تحقيق وضبط مصطفى السقا، (لا . ت) ، عالم الكتب بيروت .
- البلاذري ، أبو الحسن ، أحمد بن يحيى ، (ت ٢٧٩ هـ) ، فتوح البلدان ، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان ، ١٩٨٣م ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .
- بلاشير ، ريجيس ، تاريخ الأدب العربي ، ط٢ ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، ١٩٨٤م ، دار الفكر ، دمشق .
- البياتي ، عادل جاسم ، (لا . ت) ، الشعر في حرب داحس والغبراء ، مطبعة الآداب في النجف الأشرف .
- التوحيدي ، أبو حيّان علي بن محمد ، (ت بعد ١٠١٠ م) ، كتاب الإمتاع والمؤانسة ، ضبطه وشرح غريبه أحمد أمين ، وأحمد الزين ، (لا . ت) دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- ثعلب ، أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ، (ت ٢٩١ هـ) ، مجالس ثعلب ، ط٢ ، ٢ م ، شرح وتحقيق عبد السلام هارون ، ١٩٤٩م ، دار المعارف ، القاهرة .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥ هـ) ، البرصان والعرجان والعميان والحولان ، ط ٥ ، تحقيق محمد مرسي الخولي ١٩٩٢م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب ، (ت ٢٥٥ هـ) الحيوان ، ٧ م . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، ١٩٤٥م ، القاهرة ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .
- الجبوري ، منذر، ١٩٧١م ، أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي ، جامعة بغداد .
- الجبوري ، يحيى ، ١٩٨٦م ، الشعر الجاهلي ، خصائصه وفنونه ، ط ٥ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- الجبوري ، يحيى ، ١٩٨٢م، قصائد جاهلية نادرة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة .
- الجمحي ، محمد بن سلام ، (ت ٢٣١ هـ) ، طبقات الشعراء ، دار النهضة العربية ، (لا . ت) ، بيروت ، لبنان .
- حتي ، فيليب وآخرون ، ١٩٦١م ، تاريخ العرب مطوّل ، ط٣ ، دار الكشاف ، بيروت .
- حسن ، حسن ابراهيم ، ١٩٦٤م ، تاريخ الإسلام السياسي ، ٤ أجزاء ، ط٧ ، مكتبة النهضة المصريّة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- حسن ، جمال علي محمود ، ١٩٩٣م ، الفقر في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمان ، الأردن .
- حسين ، محمد محمد ، ١٩٤٧م ، الهجاءوالهجاءون في الجاهلية ، مكتبة الآداب ، الإسكندرية .
- الحفني ، محمود (لا . ت) ، مذاهب وشخصيات ، سيرة عنترة ، القاهرة ، الدار القومية .
- الحوت ، محمود سليم ، ١٩٤٠ ، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، ط١ ، رسالة ماجستير مقدمّة إلى دائرة الدروس العربية في جامعة بيروت الأمريكية ، ١٩٤٠م ، لا ناشر ، لا اسم البلد أو المدينة .
- الحوفي ، أحمد محمد ، ١٩٥٦م ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ط٣ ، مطبعة نهضة مصر بالفجّالة ، القاهرة .
- خليف ، يوسف ، ١٩٨٣م ، الروائع من الأدب العربي ح ١ ، العصر الجاهلي ، المجلس الأعلى للثقافة ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب .
- خليف ، يوسف (لا . ت) ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلى ، مكتبة غريب ، القاهرة
- الدميري ، أبو البقاء كمال الدين محمد بن موسى ، (ت ٨٠٨) ، حياة الحيوان الكبرى ، دار الفكر ، (لا.ت) ، بيروت .
- ديورانت ، ول دايريل ١٩٨٨م ، قصة الحضارة ، ١٢ مجلداً ، ٣٢ جزءاً ، ترجمة زكي نجيب محمود ، دار الجيل . بيروت .
- رومية ، وهب ، ١٩٧٥م ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ط١ ، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين .
- زيتوني ، عبد الغني ، ١٩٨٦م ، الإنسان في الشعر الجاهلي ، رسالة دكتوراة ، جامعة دمشق ، سوريا .
- سالم ، عبد العزيز، ١٩٨٨م ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية .
- الشبلي ، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله، (ت ٧٦٩ هـ) ، أكام المرجان في أحكام الجان ، ط١ ، ضبط وتصحيح : أحمد عبد السلام ، ١٩٨٨م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الشريف ، أحمد ابراهيم ، (لا . ت) ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، ط٢ ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
- شريف ، محمد بديع ، ١٩٦٤م ، الشنفري الأزدي ، لاميّة العرب ، (نشيد الصحراء) ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- الشمشاطي ، أبو الحسن علي بن محمد بن المطهّر العدويّ ، (القرن الرابع الهجري) ، كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار، تحقيق السيّد محمد يوسف ، راجع وزاد في حواشيه عبد الستّار أحمد فرّاج ، ١٩٧٧م ، وزارة الإعلام في الكويت .
- شيخو ، لويس ، ١٩٦٧م ، شعراء النصرانية قبل الإسلام،دار المشرق ،بيروت

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الضناوي ، سعدي ، ١٩٩٣م ، أثر الصحراء في الشعر الجاهلي ، دار الفكر اللبناني ، بيروت .
- ضيف ، شوقي ، ١٩٦٠م ، العصر الجاهلي ، ط١١ ، دار المعارف بمصر .
- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، (ت ٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ م ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ،١٩٦١م ، دار المعارف بمصر .
- عبد الرحمن ، عفيف ، ١٩٨٤ ، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ط١ دار الأندلس ، بيروت .
- عبد الرحمن ، نصرت ١٩٨٢م ، الصورة الفنيّة في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ، ط٢ ، مكتبة الأقصى ، عمان .
- عبد الرحمن ، نصرت ، ١٩٦٦م ، في أيام غسّان مع الأحاليف في الشعر الجاهلي ، مستلّة من مجلّة اللغة العربيّة الأردني ، ع ٣٠ ، السنة العاشرة .
- عبد الرحمن ، نصرت ، ١٩٨٥م ، الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي ، الجامعة الأردنية ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن .
- عبد الله ، صلاح مصيلحي ، ١٩٩٣م ، شعر الكرم الجاهلي ، رؤية جديدة ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية .
- عبد المقصود ، زين الدين ، ١٩٨١م ، البيئة والإنسان ، (علاقات ومشكلات) ، دار عطوة للطباعة ، القاهرة .
- العسكري ، أبو هلال ، الحسن بن عبد الله ، (ت ٣٩٥ هـ) ، ديوان المعاني ، جزءان في مجلد ، بيروت ، دار الجيل .
- العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ، (ت ٣٩٥ هـ) ، كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة .
- عشا ، علي مصطفى محمد ، ١٩٩٣م ، أرباب المهن في الشعر الجاهلي ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنيّة ، عمّان .
- عطوان ، حسين ، (لا. ت) ، مقدمةالقصيدة العربيّة في الشعرالجاهلي ، دار المعارف بمصر .
- علي ، جواد ، ١٩٧٨م ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢ ، ٩ م ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ومكتبة النهضة ، بغداد .
- عمارة ، محمد ، ١٩٨٠م ، العرب والتحدّي ، عالم المعرفة ، رقم ٢٩ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .
- عوض ، عباس محمود ، ١٩٨٦م ، مدخل الى الأسس النفسيّة والفسيولوجيّة للسلوك ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية .
- عيد ، يوسف ، ١٩٩٣م ، ديوان الفروسيّة ، ط١ ، دار الجيل ، بيروت .
- القالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي، (ت ٣٥٦ هـ) ، كتاب الأمالي ، ط٣ ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة السعادة بمصر ، جـ ١ ، ١٩٥٣م ، جـ ٢ ، ١٩٥٤م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- القالي ، أبو علي اسماعيل بن القاسم ، (ت ٣٥٦ هـ) ، النوادر ، (لا . ت) ، المكتبة التجارية الكبرى . مطبعة السعادة بمصر .
- القلقشندي ، أبو العبّاس أحمد بن علي ، (ت ١٤١٨ م) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤م ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، (لا . ت) .
- القيرواني ، أبو علي الحسن بن رشيق ، (ت ٤٥٦ هـ) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ط ٤ ، حققّه وعلّق حواشيه ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، ١٩٧٢م ، دار الجيل ، بيروت .
- القيسي ، نوري حمودي ، ١٩٧٢م ، دراسات في الشعر الجاهلي ، جامعة بغداد.
- القيسي ، نوري حمودي ، ١٩٧٠م ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد بيروت .
- القيسي ، نوري حمودي ، ١٩٨٤م ، الفروسية في الشعر الجاهلي ، عالم الكتب ، ومكتبة النهضة العربيّة ، بيروت .
- كستر م . ج ، الحيرة ومكّة ، وصلتهما بالقبائل العربيّة ، ترجمة يحيى الجبوري ، ١٩٧٦م ، جامعة بغداد .
- لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ، ط٣ ، نقله الى العربية عادل زعيتر ، ١٩٥٦م ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة .
- المبرّد ، أبو العباس محمد بن يزيد ، (ت ٢٨٦ هـ) ، الكامل في اللغة والأدب مكتبة المعارف ، (لا. ت) ، بيروت .
- المرزباني ، أبو عبيد الله محمد بن عمران ، (ت ٣٨٤ هـ) ، معجم الشعراء ، صححه وعلّق عليه ف . كرنكو ، (١٩٩١م) ، دار الجيل ، بيروت .
- المرزباني ، أبو عبيد الله ، محمد بن عمران بن موسى ، (ت ٣٨٤ هـ) ، كتاب الموشح ، تحقيق علي محمد البجاوي ١٩٦٥م ، القاهرة ، دار نهضة مصر .
- المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ، (ت ٣٤٦ هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ط١ ، صنعة يوسف أسعد داغر ، ١٩٦٥م ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت .
- المطلبي ، عبد الجبار ، ١٩٨٠م ، مواقف في الأدب والنقد ، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية .
- موسى ، فاروق عبد الفتاح علي ، ١٩٨٥م ، أسس السلوك الإنساني ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع ، الرياض .
- الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) ، مجمع الأمثال ، مجلدان ، حققه وعلق عليه محمد محيي الدين عبد الحميد ، (لا . ت) ، دار القلم ، بيروت .
- اليمني ، عبد العزيز ، ١٩٣٧م ، الطرائف الأدبية ، لجنة التأليف والنشر، القاهرة .
- ناصف ، مصطفى ، (لا.ت) ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ، منشورات الجامعة الليبيّة ، كلية الآداب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- النعيمي ، أحمد إسماعيل ، ١٩٩٥م ، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام ط١ ، سينا للنشر ، القاهرة .
- النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، (ت ٧٣٣ هـ) ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ١٨ م ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، المؤسسة المصرية العامّة ، للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . (لا . ت) .
- الهمداني ، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٩٤٥م) ، صفة جزيرة العرب . تحقيق محمد بن علي الأكوع ، ١٩٨٩م ، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد .
- الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧ هـ) ، المغازي . تحقيق بارسدن جونس ، ١٩٦٦م ، مطبعة جامعة أكسفورد .
- وهبه ، حافظ ، ١٩٣٥م ، جزيرة العرب في القرن العشرين ، ط١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي ،(ت ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥م .
- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، (ت ٢٩٢ هـ) ، تاريخ اليعقوبي ، المكتبة الحيدريّة ومطبعتها في النجف ، ١٩٦٤م .
- يموت ، بشير ، ١٩٣٤م ، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ط١ ، المكتبة الأهلية ، بيروت .

المراجع الأجنبية :

- Brockelmann, Carl, 1959. History of the Islamic People, Routledge and Regan Paul,LTD.London .
- Doughty, C.M., 1964. Travels in Arabia Deserta, London, Jonathan Cape, 30
- Muir, Sir William, 1923, The Life of Mohammad, Edinburgh.
-The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, 1985, 15 th. Edition Encyclopaedia Britannica Inc., U.S.A., 29 Vols.
- O'Leary, De Lacy, 1927, Arabia before Muhammed, Kegan Paul, Trench, Trubne and CO, London.
-Toynbee, Arnold J, 1962, A. study of History, London - Oxford . U.P. 1962, NewYork, Oxford,U.P. 1962 . 12 vols.
- Watt, W. Montegomery, 1960, Muhammad at Mecca, Oxford University Press, Oxford .

٤٧٩٢٧٧

الدوريات :

- البياتي ، عادل جاسم ، ١٩٧٢م ، الحارث بن ظالم المُرّي ، مجلة كلية الآداب ، عدد ١٥ ، مطبعة المعارف ، بغداد ، (ص ٣٤٣ – ٣٨٦) .
- الجبوري ، يحيى ،١٩٨٠م ، قصائد جاهلية نادرة ، شعر زهير بن مسعود الضبّي ، مجلة المورد ، مجلد ٩، عدد ١ ، (ص ١٥٣–١٥٥) .
- الجبوري ، يحيى ،١٩٨٠م ، قصائد جاهلية نادرة ، مجلة المورد ، مجلد ٩ ، عدد١ دار الجاحظ ، بغداد ، (ص ١٣٩ – ١٨٦) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبد الجليل عبد القادر ، ١٩٧٧م ، شعر بشامة بن الغدير ، مجلة المورد ، مجلد ٦ ، عدد ١ ، بغداد ، (ص ٢١٩ – ٢٢٥) .
- القيسي ، نوري حمودي ، ١٩٧٠م ،المرقش الأصغر، مجلة كلية الآداب ، عدد ١٣ مطبعة المعارف ، بغداد ، (ص ٥٣٠ – ٥٤٣) .
- كرنكو ، فريتس ، ١٩٢٢ م ، شعر عمرو بن كلثوم ، مجلة المشرق ، عدد ٧ ، تموز ، (ص ٥٩٢ – ٦٠٣) .
- المطّلبي ، عبد الجبار ، ١٩٦٩م ، محاولة في تفسير مظهرمن مظاهر القصيدة الجاهلية ، مجلة كلية الآداب ، عدد ١٢ ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، العراق (ص ٢١٠ – ٢٤٢) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

The Phenomenon Of Challenge in (Jahili) Pre-Islamic Poetry

By

Fadwa Ezzat Al- Hanbali
Supervised by
Professor Nasrat Abdul Rahman

This is an explanatory, descriptive, and analytical study which deals with the phenomenon of (Tahaddi) challenge in the (Jahili) pre-Islamic poetry; and it aims at adding a new contribution to, and enriching, the image of man in (Jahiliyya) pre-Islamic period. It consists of a preface which examines the concept of (Tahaddi) challenge - from a linguistic point of view; an investigation of the causes of challenge as provided by nature, society, and the economic situation; and an overview of the pre-Islamic man's challenging attitudes as expressed in poetry.

The first three chapters deal respectively with the natural, social, and economic causes which gave birth to challenge. The natural causes emanated from the severity of the topography of the Arabian Peninsala, the intricacy of its features and unexplored regions, the extremity of its climate and vicissitudes of weather, and the scarcity of its living resources as well as the risk of confronting wild animals. The social causes emanated from the disintegration of the tribal social structure, the adversity of its norms, concepts and traditions. The economic causes emanated from bad distribution of livestock, and of agricultural, commercial, and military resources. These three factors resulted in the formation of two sectors completely different in terms of richness and poverty. In the overview of the attitudes of challenge (Chapters 4,5,6 and 7), the study examines the poet vis-a-vis the challenge of nature. This was evident in settling and leaving, in giving and generousity, and in the travel of the poet on his travel-experienced she camel. The study also looks into the relationship between the poet and social challenge as explicit in the poet's indulgence in the pleasures of life, his rejection and rebellion, satire, threateming, or taking revenge. It also unravels two attitudes which were in challange to the economic situation; these were embodied in (Sa'laka) loafing, and in wars, raids and invasions - Finally, the present study puts into relief the poet's challenging attitudes to the enternal (tribal) authority; the external (border countries,) authority, and the foreign (Roman and persian) authority. These attitudes were represented in revolt, slaughtering, deportation, armed revolution or military confrontation. The study concludes with a discussion of three challenging poets.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The findings deduced from this study can be summed up as follows: 1- With the exception of the term "hudayya" i.e. challenge, which occured only once in Amr Bin Kulthum's mu'allaqa (i.e. ancient poem), the word tahaddi, i.e. challenge, could not be traced in the (Jahili) pre-Islamic poetry. 2- The man of pre-Islamic period was not used mostly to surrendering, nor did he admit defeat no matter how difficult or dangerous the situation he faced was. 3- The man of pre-Islamic period used, in general, to confront and challenge any provocation or any attempt of demeaning. 4- The man of pre-Islamic period mostly refused injustice and challenged it with all means possible. 5- Finally, this man was extremely proud of his challenge ability , he also looked with admiration on any one who was daring and capable of showing challenge.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit